النظرات

بقلم

مصطفى لطفي المنفلوطي

وهي مختار ما كتبه الكاتب من الرسائل في جريدة المؤيد أو غيرها
من الجرائد تحت عنوان النظرات أو غيره من العناوين
وما كتبه من الرسائل ولم ينشره

الجزء الاول

« الطبعة الثانية »

١٥ ذي القعدة سنة ١٣٣١ هـ — ١٥ اكتوبر سنة ١٩١٣م

ثمن النسخة عشرون قرشا أو خمسة فرنكات وأجرة البريد قرشان

عنوان المؤلف : بنظارة الحقانية بمصر

المطبعة الجمالية بحارة الروم بمصر

اهداء الكتاب

إن كان فى هذا السفر فضيلة يعجب بها الفاضل . أو رأى يرضى عنه العاقل . أو ديباجة يثنى عليها الاديب . فلايد فيها لاحد من الناس غير يد هؤلاء الرجال الثلاثة .

ولى نفسى والدى السيد محمد لطفى . وولى عقلى أستاذى الشيخ محمد عبده . وولى أمرى سيدى سعد باشا زغلول

أولئك الذين أهدى اليهم كتابى لانه حسنة من حسناتهم . وصنيعة من صنائعهم . وأثر من آثار عنايتهم ورعايتهم . وأولئك الذين أحسنوا إلى فى هذه الحياة إحسانا لا أزال أذكر أياديهم البيضاء فيه حتى يعتاق نفس حمامها . وعظامى رجامها . وحتى يتولى الله عنى من بعد ذلك ما قصرت فى أدائه . وعجزت عن وفائه . فهو يتولى الصالحين . ويجزى العاملين

مصطفى لطفى
المنفلوطى

الخطبة

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وصحبه وآله . فقد كنت طبعت هذا الجزء من النظرات منذ ثلاث سنين فكان والحمد لله موضع نظر قراء العربية جميعاً ما بين قارئ محتفل . ومقرظ معجب . وناقد مجدّ . ومناضل مجتهد . فشكرت للقارئ عنايته . وللمقرظ رعايته . وللناقد همته . وللمناضل مروءته . ثم لم ألق على الكتاب بعد ذلك نظرة واحدة حتى علمت أني سأعيد طبعه . فنظرت فيه كما ينظر اليه الغريب عنه . فاستطعت أن أرى حسناته وسيئاته . فحذفت من رسائله ما لا فائدة فيه . وزدت عليها ما علمت أن اثباته خير من اهماله . وهذبت كثيراً من عباراته . وأصلحت ما وقفت الى اصلاحه من هفواته . فجاءت الطبعة الثانية خيراً من الاولى وأكثر ضبطاً وأعم فائدة والله المستعان

مصطفى لطفي
المنفلوطي

كلمات الكتاب

عن النظرات

كلمة الكاتب عن الكاتب أو الشاعر أو المؤلف خيراً كانت أو شراً لا يعتد بها ولا تعتبر رأياً من آرائه الذاتية ولا فائدة من نشرها واذاعتها الا اذا كتبها عفواً من عند نفسه للتعبير عن شعوره الخاص بحقيقة ما يعتقد . ولا تكون كذلك الا اذا صدرت عنه وهو فى حالة بعيدة عن احدى الحالتين . نشوة الرضا وسورة الغضب . أى انه لا يكتبها مجاملة فى ود . ولا تلبية لاقتراح . ولا تخلصاً من الحاح . ولا خضوعاً لعاطفة انتقام . لذلك رأيت أن أنشر هنا من كلمات الكتاب ما كان على هذه الشريطة مما اتفق لاصحابه أن كتبوه فى الصحف أو كاتبونى به ليدخل القارئ على الكتاب من بابه . ويتصوره قبل النظر فيه

كلمة الدكتور يعقوب صروف

صاحب مجلة المقتطف

الكتاب مواضيعه شتى أكثرها أدبى وقد خاض الكاتب عبابها خوض غائص على اللآلى . وجال فى رياضها جانياً أثمارها . منظماً أزهارها . يرشده خيال قوى وتمده لغة انقادت اليه مفرداتها وتراكيبها . وقد أعجبنا بكل ما تصفحناه منه لفظاً ومعنى

كلمة الشيخ محمد المهدى

أستاذ تاريخ الأدب العربى بالجامعة المصرية

قد كنت أشوق ما أكون الى نظراتك لانى أراها كفيلة باعادة اللسان العربى الى جدته بعد أن أخلقه الزمان . فلما تفضلت بها على الناطقين بالضاد شكرت لك شكر المعترف بفضلك

كلمة عبد الرحمن افندى زغلول

أستاذ الادب العربى بمدرسة دار العلوم

كتابك كما جرى به المثل نسيج وحده يمر القارئ بما شاء من أقلام المتأخرين حتى ينتهى الى كتابك فاذا هو كالمسافر فى الصحراء ينتهى بعد جوبها الى واحة أو موضع خصيب فيه ما تطيب به النفس من خضرة وظل وماء . نعم وان فى كتابك لآية على ان سلامة الفطرة وطول أمد الممارسة يبلغان بالمرء حيث شاء . وان فيه لآية على ان القلم الخالف كالسالف أهل لان تهبط عليه الحكمة يجليها فى اللباس العربى الصميم . وان فيه لآية على ان القول المستقيم الذى لا يعلق به تكلف يستولى على النفس و يأخذ بمجامع القلب . ولهذا جرى قولك منى فى الوجدان شوطاً بعيداً

كلمة احمد حافظ بك عوض

المترجم بالمعية السنية

ان قلماً مثل قلمك السيال . ومخيلة كمخيلتك . و بلاغة كبلاغتك الآخذة بمجامع القلوب . و روحاً مثل روحك المتشعع كالنور لا يقف دونه ستر ولا حجاب . لجدير بأن يضعك فى أعلى صفوف الكتاب المفكرين الذين يخلد تاريخ الادب اسمهم أبد الآبدين

كلمة صلاح الدين أفندى القاسمى

أحد كتاب سوريا

وهب السيد المنفلوطى ملكة خارقة فى الوصف تكاد تكون طبعاً وسليقة . وانى لاقرأ له القطعة الادبية فيخيل الى من سحرها أن نفحة من قلم « هيكو » تهب على فلا أكاد أتم قراءتها حتى أهم باعادتها المرة بعد الاخرى وأحمد الله على ان وجد فى هذا العصر من ينفخ فى هذا الهيكل البالى من الادب روحاً جديدة ليحيا حياة رغد وهناء

كلمة الشيخ طه حسين

أحد كتاب مصر

لقد كنت أمقت المؤيد كل المقت إلا يوم تشرفيه نظرة أو أسبوعية . فقد علم الله أنى كنت أشغف به كل الشغف وأقبل عليه كل الاقبال . فان الذى يكلفنى عرف القربة الى مغنى البوسفور والبيلهدير ومهرجان النيل هو بعينه الذى يكلفنى قراءة المؤيد يوم تشرفيه مقالات هذا الكاتب الكبير

كلمة الشيخ محمد شلبي

المفتش بنظارة المعارف

إنى أهنئ العالم العربى بذلك القلم السيال الذى يهديه الى منهج السداد هداية القائد الباسل المجرب من يقود من الجنود الى الفوز والانتصار

كلمة لطفى بك السيد

مدير الجريدة

من أشياخ البيان عندنا السيد مصطفى لطفى المنفلوطى . أ كاد لا أجد له فى طريقته مثيلا بين كتابنا . فانه يمتاز بالمساواة وقل من يعرف المساواة . يمتاز باستعمال ألفاظ الخصوص فلا يلبس معنى الالفظه الذى يكاد لا يشاركه فيه معنى آخر . و يطرق الموضوعات الصعبة البعيدة فيقربها من القارئ و يجعله يظن أنها من مألوفاته ولم تكن كذلك من قبل . وأقول من غير محاباة و فى يدى نظرات المنفلوطى ان السيد مصطفى هو الثمرة الناضجة للعصر الكتابى الحاضر . جمع بين أفكار التمدن وأسلوب العرب الاصيل . فكان كتابه النظرات بذلك احدى المعجزات عند من يظنون ان الغرب غرب والشرق شرق . وأنهما لا يزالان كذلك ما بقى البعد بين مطلع الشمس و بين مغربها

كلمة ولى الدين بك يكن

صاحب كتاب المعلوم والمجهول

السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رجل من كبار كتاب القلم فى زماننا . فهو من كتاب الطبقة الاولى وشعراء الطبقة الثانية . له نثر يستميل القلوب و يوافق الطباع سهل فصيح ألفاظه أرفع من معانيه

كلمة جرجى بك زيدان

صاحب مجلة الهلال

ان ظهور كاتب بليغ مثلك ينشر الآراء الحرة الناضجة فى جريدة كبيرة مثل جريدة المؤيد يبعث على الامل بدخول هذا القطر فى طور جديد . فاقبل أيها الصديق شكرى لك بالنيابة عن قراء العربية جميعا لانك نشطت حرية القول وطرقت باب الانتقاد الصحيح وأحييت آداب هذا اللسان بما أدخلته فى الانشاء العربى من الاسلوب العصرى الجميل فاجدت وابدعت الى الغاية التى لا غاية وراءها . وانى أترجم لك فى قولى هذا عن شعور جميع الذين يقرءون رسائلك بلذة واعجاب واعتراف بانها الرسائل الفريدة التى جمعت بين بلاغة صدر الاسلام . وأدب هذه الايام

كلمة المرحوم محمد افندى راضى

أحد أدباء مصر

إنى قرأت الشئ الكثير من كتاب النظرات مرتين فى ليلتين متواليتين ولا أزال أرى نفسى تشتاق الى الاستزادة من تلاوته والاكثار من ترديد عباراته . وانى أعتقد ان هذا التناهى فى الشوق هو أجل أثر يمكن أن يغادره كتاب جليل فى نفس قارئه . وهو وحده كفيل بان يكون ميزانا للحكم عليه

كلمة أنطون افندى الجميل

صاحب مجلة الزهور

المنفلوطى صاحب النظرات الصائبة عرفته مصر وتناقلت نفثاته صحف القطار فعرفته البلاد العربية . والريحانى صاحب الريحانيات عرفته سوريا وأمريكا ومصر كاتباً عربياً كما عرفه الانكلوساكسون كاتباً انجليزيا . ولكلا الكاتبين مقام رفيع فى قومه . ومنزلة سامية عند قرائه . وهما يتشابهان فى أشياء ويختلفان فى أشياء . عرفتُ الاثنين فعرفت فيهما نفسين منزهتين وان اختلفا فى المبدأ والنظر الى الأمور . يدافع كل منهما عن رأيه وفكره دون ان يغضبك فى رأيك وفكرك . رائدهما الوئام . وغايتهما السلام

نظر المنفلوطى والريحانى الى المجتمع الانسانى فحكم عليه كل منهما حسب المكان الذى وقف فيه لينظر . لم يعرف الاول من بلاد الله الا مصر . ولكن مصر مجتمع قارات ثلاث فكأنه عرف بلاداً كثيرة اذ عرفها . وزار الثانى آسيا وأفريقيا وأوربا وأمريكا فعلا . وبعد هذه السياحة عاد الاثنان الى عيشة الانفراد والخلاء وأخذا ينظران الى الانسان ومدنيته من خلال نظارات الطبيعة الصافية . فهزأ الريحانى من سخافات الانسان وضحك . وأن المنفلوطى وشكا . فكان قلمه ما وصفه به فى قوله :

فتراه ورقاء تندب شجواً وتراه رقطاء تنفث ناراً

ولكن الاثنين هذا فى تألمه وذاك فى تهكمه قد أحبا الانسانية حباً جماً . ولعل هذا معنى الابتسامة التى لا تفارق ثغر الاثنين

كلمة حافظ بك ابراهيم

مترجم البؤساء

قدم أحد أقيال اليمن إلى دار الندوة للمنافرة فبصر فيها بصاحب الشريعة الاسلامية

وهو إذذاك غلام مراهق فقال لمن حضر من القوم إن هذا الغلام ينظر اليكم بعيني لبؤة . ونارة بعيني عذراء خفرة . فلو أن نظرته الاولى كانت سهماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً . ولو أن الثانية كانت نبالاً نشرت أمواتكم . وكذلك أراك في نظراتك إلى قومك أيها الكاتب الكبير . فلولا أنك غير معصوم . وأن الله قد أجل مقام النبوة عن الاشباه والنظائر لقلت ما أشبه هذه بتلك

كلمة سليم أفندي سركيس

صاحب مجلة سركيس

السيد مصطفى المنفلوطي هو الكاتب البليغ الذي ينشر المؤيد منذ سنة رسائله فيتهافت الادباء على قراءتها والاعجاب بأدب كاتبها وسعة مداركه وغزارة مادته ويدهشهم أنه لا يعرف لغة أجنبية ومع ذلك ففي أكثر رسائله يتصور القارئ أنه يطالع هوجو

كلمة الشيخ محمد سليمان

صاحب كتاب الادب العصري

السيد المنفلوطي أقدر الكتاب على ادخال المعاني في أدمغة القارئين وصب الافكار الحديثة في الالفاظ القديمة وسبكها في قوالب عربية محكمة

كلمة جريدة الاتحاد المصري

لو كان الكاتب من أفراد تلك الامم التي تقدر الكتاب قدرهم وتعرف حسناتهم الكبرى لسارت به شهرته الادبية الى المجد والثروة من أقرب سبيل ولكن حسبه هنا رضى فئة قليلة عن فضله الكثير وان الكرام قليل

كلمة أحمد افندي فؤاد

صاحب جريدة الصاعقة

كاتب اذا كتب نفث السحر . ونثر الدر . وتصرف بين جد امضى من القضاء .

وهزل أعذب من الماء . فان شاء جرد عضبا . وأثار حربا . وأجرى الدماء أنهاراً . وأطلع الكواكب نهاراً . ووقف فى ملتقى الاجفان . وتغلغل فى مجامع الاضغان . وان شاء صور لك فوق صفحة القرطاس روضة أريضة يتدفق ماؤها . ويترقرق هواؤها . وأراكها تزخر بالولدان والحور . كأنهن اللؤلؤ المنثور . وأسمعك سرار الحب . وخفقان القلب . وخواطر النفس . وهواجس الحس . واذا نظم أراك قبة السماء تزهر بالنجوم . وأرشفك كؤوس الصهباء تذهب بالهموم . أبيات معتنقات . وقواف متسقات . ومعان تدب فى الاعضاء دبيب الغناء . وتمشى فى الاحشاء . تمشى البرء فى الداء

كلمة جريدة مصر الفتاة

صاحب النظرات علم انه يكتب للامة التى تتألف من الخاصة والعامة على قلة الاولى الى جانب الثانية . وعلم أيضاً أن الواجب يطالبه بافادة تينك الطائفتين فانظر كيف تكون مقدرة الكاتب اذا انطلق قلمه فى هذه السبيل فاستحوذ على القلوب وأرضى الامة فى صنفيها

كلمة مجلة الملاجئ العباسية

امتاز حضرة الكاتب المجيد السيد مصطفى لطفى المنفلوطى فى كل ما يكتبه بالانسجام ومتانة الاسلوب وفصيح الالفاظ وحسن التركيب وسهولة التعبير وتقريب المعنى البعيد . وحسب الكاتب فخراً ان تجتمع لقلمه هذه الصفات . لذلك لم يجمع قراء العربية خاصتهم وعامتهم على استحسان نفثات كاتب عربى اجماعهم على استحسان ما يسطره قلم ذلك الكاتب المجيد

كلمة مجلة رعمسيس

نشا للعربية فى أوائل هذا القرن كاتب بليغ يصح أن يدعى واضع أساس الانشاء العربى فى مصر ونعنى به السيد مصطفى لطفى المنفلوطى أعظم أدباء البعثة الفكرية الاخيرة

وأبلغ من كتب فى العصر من حيث رشاقة العبارة ورقة التعبير وتصوير الحوادث تصويراً حقيقياً يضرب به المثل فى متانة التركيب وحسن اختيار الالفاظ . ولقد امتاز على الخصوص بان يصوغ المعنى الدقيق فى القالب الرقيق فيظهر أبدع صحيفة من صحف الاحساس وأجل أثر من آثار الشعور الطيب . ومما زاد فى نبوغه ودل على مقدرته العجيبة انه عمد الى الافكار فحللها وشرحها واستجلى أدق خفاياها فعبر عنها بتعابير لم تتفق لواحد غيره من كتبة هذا العصر . فكل ما تتأثر به النفس وكل ما يخفق له القلب وتهتز له الجوارح وجد له صوراً تمثله بأجلى بيان للتصور . وبعبارة أصرح انه أخضع أعنة الالفاظ لعواطفه وتصوراته وأبرز بها مخدرات معان لم يوح بها الا اليه

كلمة جريدة المؤيد

ان هذا الاسلوب البدوى فى منزعه . الحضرى فى معانيه . القريب الى أذواق الخاصة . غير البعيد عن أذهان العامة . هو الحلقة المفقودة فى سلسلة الكتابات العربية . وهو الذى يجب أن يكون أسلوب اللغة العربية السائد فى أقلام الناشئة الحديثة فى هذا العصر حتى تأمن اللغة من السقوط والضياع بين كاتب متعمق لا يكتب الا لعدد قليل من القادرين على فهم ما يكتب والمستعدين للتأثر باسلوبه الغريب عن عامة الاذهان والاسماع . وبين ضعيف المادة اللغوية متبذل يهدم من بناء اللغة فى كل يوم حجراً هدماً لو استمر طويلا لا يبقى فيها حجراً على حجر

كلمة ميخائيل بك شاروبيم
صاحب تاريخ الكافى

نوابغ الكتاب فى مصر ثلاثة . محمد أفندى مسعود . محمد بك المويلحى . مصطفى لطفى المنفلوطى

كلمة صلاح الدين أفندى القاسمى أيضا

أحد كتاب سوريا

لا بدع اذا بودىء الاستاذ المنفلوطى صاحب هذا الكتاب لاول وهلة بما ناله من معارضيه من بذاءة اللسان والتسفيه فى القول مما نجله عنه لانه سنة فى المجددين منذ القديم . فهذا اغستاف فلوبر الكاتب الفرنسوى الذى كان فى عصره بهذه المثابة ولم يكتب لآثاره ان يرتاح لها الرأى العام أصبح القوم اليوم يعبدونها و يمجدونها و يسبحون بحمدها

كلمة وهبى بك

مدير المدارس القبطية

نوابغ الكتاب فى مصر اثنان . محمد بك المويلحى والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى

كلمة المرحوم محمد افندى امام العبد

أحد أدباء مصر

كان مصباح الشرق آية محمد وابراهيم وكان الكتاب فى ذلك العهد يرصدون اليوم الذى يشرق فيه ذلك المصباح من بين أنامل القطبين . وتتفجر فيها أنهار البلاغة من كرم هذين القلمين . حتى تنكر الزمن لامر فى نفسه فبان القلم أضعف ما يكون ضعيفا فى يد أقوام قيدوه طليقاً . وأذلوه عزيزاً . وباتت الالفاظ تتململ على الطروس تململ السقيم وقد أخذه الداء . واصطلحت عليه مختلفات الامراض حتى كدنا نصلى على أم اللغات صلاة الجنازة فرأى أستاذنا العالم بأسرارها الواقف على دقائقها السيد مصطفى لطفى المنفلوطى أن يعيد اليها جدتها بذلك القلم الناطق الذى نبت فى رياض الجنة فاهى حتى بصرنا بنور يتلألأ على صفحات المؤيد بعثه المنفلوطى على الكون من سماء أدبه تحت جمال النظرات التى جعل لها الادب فى كل أسبوع عيداً تلبس فيه اللغة أحسن حلة

ضرب السيد الكبير الاستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي بنظراته في ذلك المجتمع الانساني فصوره للناظرين بتلك الريشة التي لو اهتدى اليها رفائيل لوصلت اليه الدنيا في فجر يوم سعيد . ومازال يتنقل فيه بدافع النفس الطاهرة حتى هدى نفوساً أخذها السأم . واستولى عليها اليأس . وغم عليها الامر فكادت تذهب بدافع اليأس الى حيث لا يتسرب اليها الارشاد ولا يصل اليها بصيص من نور الهداية . وهناك الشقاء الدائم والعذاب المقيم

في تلك النظرات كاتب وضع الوجود في كفة ونظر نظرة الحكيم فمرت كل المرئيات أمام فكره فأتى على كل ما يضمه المجتمع الانساني وعرضه علينا صورة صورة في ألفاظ كأنه أصابها من بحر عمان . ومعان عصر نفسه عليها بديع الزمان

جال المنفلوطي جولة في كل شيء فتراه إذا كتب في الشقاء صغرت الدنيا عن التصغير . وإذا كتب في معنى الانسان عرف القلم مقر الضمير . فهو يبكي اذا شاء ويضحك إذا شاء . ويصل بعقل القارئ في لمحة الى مدى لا يصل إليه الانسان ولو بات الدهر طوع عمره

ترجمة الكاتب

﴿ بقلم حضرة الكاتب المشهور أحمد بك حافظ عوض ﴾

نسبه

وُلد السيد مصطفى بن محمد بن محمد بن حسن بن محمد بن لطفى فى مدينة منفلوط من مدن الوجه القبلى فى جنوب مصر سنة ١٨٧٦ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٩٣ هجرية من أبوين كريمين ينتهى نسب أولهما الى الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وثانيهما الى أسرة چوربجى التركية المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤثل . وأسرته لأبيه فى مدينة منفلوط أسرة مشهورة بالشرف والتقوى والعلم والفضل . وأكثر أفرادها من نحو مائتى سنة قضاة شرعيون ونقباء أشراف . و والده السيد محمد لطفى قاضى منفلوط الشرعى اليوم وعين أعيانها

دراسته

خرج من المكتب حافظاً للكتاب الكريم فى سنة ١٨٨٨ ميلادية فأدخله والده مدرسة الازهر الشريف كجميع أفراد أسرته فمارست به سنوات قلائل حتى عرف بين أقرانه بالذكاء والفطنة وسلامة الذوق فى الفهم . ثم نزعت به نفسه الى مذهب فى التعليم غير المذهب الذى يذهب اليه الازهريون فى دراستهم . فكان لا يطالع دروسه فى الكتب الازهرية إلا على صورة تكفل له فهم جواهر المواضيع والتثبت من حقائقها . غير حافل بما تشتمل عليه عادةً من المناقشات اللفظية والمنازعات القشرية . فكان لهذه الخطة فى التعليم أعظم تأثير فى سلامة ذوقه وصفاء ذهنه . وأصبح له متسع من الوقت ينفقه فى دراسة

مايتيسر لديه دراسته فى كتب الطبيعة والاخلاق والادب والحكمة حتى غلبت عليه تلك العلوم خصوصاً الادب منها وشغف بها عما سواها شغفاملك هواه واستأثر بلبه . فعلت مداركه وصقلت مرآة ذهنه وهتف بنظم القطع الشعرية والجمل النثرية وضمنها ماشاء الله أن يضمنها اياه من فنون الشعر وأفانين القول فى الاخلاق والآداب والانتقاد والوصف . ولكن كان ذلك فى بادىء الامر كما يمكن أن يكون . لا كما يجب أن يكون . ثم لحق بعد ذلك بالمرحوم الشيخ محمد عبده ولصق به لصوق الولد بأبيه وأكثر من مصاحبته فى درسه ومنزله ومقدمه ومنصرفه عشر سنين كاملة فكمل من علمه ما كان ناقصاً ونضج من أدبه ما كان غير ناضج . وكان الاستاذ رحمة الله عليه يعجب به كل الاعجاب ويثنى على ذكائه وفطنته الثناء الجميل . ويعلل نفسه بأنه سيكون من أفضل المنتفعين بعلمه والناشرين لمبادئه وتعاليمه . ومازال هذا شأنه معه حتى لحق الشيخ رحمة الله عليه بربه فحزن عليه المترجم حزناً شديداً حمله على هجر الازهر وسفره من القاهرة وانزوائه فى بلده منفلوط برهة من الزمان كاد ينساه الناس فيها حتى طلعت طلائع رسائله المشهورة فى جريدة المؤيد سنة ١٩٠٨ فالتفت القارئون لها ثم زحفوا اليها ثم تزاحموا عليها تزاحم الابل الهيم على وردها فكانوا يعدون لها أيام الاسبوع يوما بعد يوم ويترقبون رؤيتها ما يترقب الضال فى ظلمة الليل البهيم من الفجر الطالع . والظامىء فى المهمه القفر من الغيث الهامع . فكانت ترد عليه الرسائل العديدة عشرات ومئات من أدنى مصر الى أقصاها ومن كافة الاقطار العربية متضمنة الاسئلة المختلفة فى الحوادث والوقائع والمسائل الاجتماعية والاخلاقية . فأصبحت الامة تعده منارها الذى تهتدى به فى ظلمات الشبهات . وموئلها الذى تعتمد عليه فى حل المشكلات . ولا أظن أن الامة العربية لهجت ببيان كاتب وجمال أسلوبه ودقة مسلكه فى هذا العصر الأخير شغفها برسائل المترجم . ولا أظن أن السبب

فى ذلك إلا أنه قد فاجأهم من ذلك الاسلوب العربى الفصيح بما لا عهد لهم بمثله إلا فى رسائل بلغاء الكتاب الادبية . ومراسلاتهم الخصوصية . بعدما تلوثت أقلام أكثر الكاتبين فى الصحف باللهجة الافرنجية تارة والصحافية تارةً أخرى

أخلاقه

أما أخلاقه فانقباضٌ عن الناس ووحشة يحسبها الرائى صلفا وكبراً وما هى بالصلف ولا الكبر ولكنها الرزانة والوقار والانفة والعزة والبعد عن سفاسف الامور وصغائرها والترفع عن مخالطة كل من لا تعجبه أخلاقه . ولا تجمل فى نظره أطواره . وعفةٌ حتى عن مدّ يده الى أبويه لانه قد قنع بما فى يده من المال القليل فزهد فيما سواه . وأحسن ما يعرفه له الناس فى باب العفة والشهامة أنه ما أخذ فى حياته أجراً على أدبه ولا انتفع من وراء قصائده أو رسائله بدانق أو سحتوت . وكرمٌ فى الخلق طالما كان سبباً فى وصول الأذى اليه وكان آخر عهده بذلك الاذى تلك القضية التى رفعتها عليه النيابة العمومية من نحو خمسة عشر عاماً من أجل قصيدة رأت أنه مس فيها كرامة الجناب الخديوى ثم دارت الايام فأظهر مولانا الكريم تعطفه بالرضى عنه عندما تبين له حسن قصده وسلامة ضميره . وسخاءٌ وجود بكل ما تملك يمينه . وأدبٌ وحياء وحلم يظنه الظان عجزاً وضعفا فاذا غضب وقليلا ما يفعل فهو الليث قوة وشجاعة . وصمتٌ طويل يحسبه الناظر عيا فاذا تكلم بذ القائلين . وإيمان قوى كالطود الراسخ لا تذهب به العواصف ولا تلوى به حوادث الدهر وفواجعه . فما رئى فى يوم من أيامه ملما بما يفسد عليه دينه أو مروءته . ولا ضعيف الثقة بالله فى حالى عسره ويسره . وشدته ورخائه . وصبرٌ جميل على ما يذهب بلب الحكيم ويطير برشد الحليم من حوادث الايام ورزاياها . فقد مات له طفلان فى أسبوع واحد فسكن لهذا الحادث الملم سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة على شدة

شغفه بهما . ثم ماتت زوجته بعد ذلك وكانت أحب الناس اليه فجلس الى أصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها كأنما المرزوء بذلك الحادث سواه . ولقد لقي في حياته كثيراً من غدر أصدقائه وعشرائه الذين أوقعه في شرك صداقتهم طهارة قلبه وبياض سريرته والذين طالما أحسن اليهم وكانت له اليد الطولى في تعليمهم أو تقويمهم أو دعيشهم فما حفل بذلك ولا بالى به بل كانت كلمته الوحيدة التي كان يقولها حينما تدب اليه تلك العقارب « إن الله وحده هو الذي يستطيع أن يغير طبيعة الانسان » وأجمل ما يعرف له أحصاؤه من الاخلاق النادرة أنه يحيا حياة ذاتية غير حافل بتلك الحياة الاضافية التي يحياها كثير من الناس الذين لا يعرفون لهم حياة إلا في أفواه الناطقين . وآذان السامعين . فليس أحقر في نظره من مدح المادحين له ولا أصغر في نفسه من انتقاد المنتقدين عليه . فلو أن الناس جميعاً أجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنها ولو أنهم اتفقوا على رأي مناقض لرأيه لما نال ذلك من عقيدته . وكثيراً ما كان يقول له العالم الفاضل سعد زغلول باشا « انى لأرى لك في كتابتك شخصية أتمنى أن أجدها كثيراً في أقلام الكاتبين » وكثيراً ما كنت أسمعه يقول « لا طلعت عليّ شمس ذلك اليوم الذي يرضى فيه عني الجاهل أو يعجب برأيي فيه البليد » وليس أبغض اليه من الكذب ولا أحب اليه من الصدق فيبغض حتى المبالغة في البشاشة والاغراق في الحفاوة . ويحب حتى العتاب المرّ والتقريع المؤلم مادام المتكلم صادقاً في قوله مخلصاً في مذهبه . ولقد كان هذا سبباً في حبه للعزلة وميله الى اجتناب المعاشرة والمخالطة كأنه يطلب من الناس غير ما يطلب الناس بعضهم من بعض . وبالجملة فان كان في أخلاق المترجم مأخذ ففي هذا الخلق خلق النفرة من الناس والعجز عن احتمالهم على علاتهم . ولبسهم على سوآتهم

سياسته

سياسته سياسة كل وطني يتهالك وجداً على حب وطنه و يذرى الدمع حزناً عليه وعلى ما حلّ به من ضعة الحال . وفقدان الاستقلال . ومن كلماته المأثورة عنه في هذا الموضوع قوله « لو علمت أن حياة مصر لا تتم لها إلا بفقدان حياتي لكان سبيل الموت أشهى اليّ من سبيل الحياة » وليس له حزب خاص ينتمي اليه ولا جريدة خاصة يتعصب لها . أما الاحزاب فرأيه فيها أن تعددها مضرّ بمصلحة الوطن وأنه يجب أن تكون الامة كلها حزباً واحداً لان أقل ضغينة سياسية تقع بين أفراد الامة تنقص من استقلالها بمقدارها . وأما الجرائد فرأيه فيها أنها بين جريدتين احداهما تبالغ في ارضاء الامة وممالأتها على كل نافع وضار من شؤونها وهذه تشبه أن تكون متاجرة بالعقول . والاخرى تقسو في إرشادها وهذه لا تستفيد منها الامة كما يجب أن يكون . فهو يرى أن الامة لا تزال حتى اليوم في أشدّ الحاجة الى قائد شديد الاخلاص في عمله . جم الحكمة في قوله . وليس بينه و بين جريدة من الجرائد علاقة خاصة حتى الجرائد التي كان يكتب فيها رسائله . فلم يكن بينه و بينها أكثر مما يكون بين أي كاتب يكتب رسائله مطلق الحرية في أية صحيفة يتوسل بانتشارها الى نشر آرائه وأفكاره . فان لاقاها في شيء من مبادئها ومذاهبها لاقاها مصادفة واتفاقا . وان فارقها في ذلك فارقها طوعا واختيارا

أدبه

قلّ أن يوجد بين الكتاب الذين يذهبون مذهب كتاب العربية الاولى في علو تراكيبهم و بلاغة أساليبهم من يستطيع أن يخوض بقلمه غمار هذه المدينة الحديثة وأن يتناول به هذه المعاني العصرية والآراء الجديدة التي حدثت بعد وقوف اللغة العربية عند الموقف الذي وقفت عنده محتفظاً بخطته في الكتابة ودرجته في الاسلوب . وقلّ أن تجد بينهم من يستطيع

أن يرضي الخاصة بقلمه ويحسن الى العامة ببيانه وافصاحه . فهو أن علا غم على العامة أمره . وأن نزل أغضب الخاصة قلمه . أما المترجم فهو على ما أرى الكاتب الفريد الذي يحافظ على أسلوبه البليغ في جميع حالاته وشؤونه سواء في ذلك المعاني المطروقة لكتاب العربية الأولى أو التي لم يكتبوا عنها شيئاً ولم يرسموا لها أسلوبا . مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملكاته . لاعارية من عواريه . كما أنه الكاتب الوحيد الذي يستوي في فهم معانيه وأغراضه وفي الاعجاب بفصاحته وبيانه فطاحل الادباء . وأصاغر البسطاء . مما يدل على أنه يكتب بقلبه لا بقلمه . وأنه يحادث الافئدة والصدور . لا الصحائف والسطور

فان كان صحيحاً ما يقولون من أن الكتاب المجيدين في هذا العصر انما يستمدون روح كتاباتهم من اللغات الاجنبية . ويستنزلون من سماء قرائح شعراء الافرنج وحي خيالاتهم الشعرية . فالسيد المنفلوطي الذي لا يعرف لغة غير اللغة العربية . ولا يلجأ إلى وحي غير وحي الخواطر النفسية . نادرة كتاب العربية في هذا العصر

أما نثره فقد عرفه الناس في نظراته . وأما نظمه فسأورد منه ما عثرت عليه وان كان قليلا من كثير . وقطرة واحدة من بحر غزير

قال في وصف القلم

يا يراعي لولا يدٌ لك عندي عِفتُ نظمي في وصفك الاشعارا
يا يراعَ الاديب لولاك ما أصـ ـبح حظ الاديب يشكو العِثارا
غير أني أحنُو عليك وإن لم تك عوناً في النائبات وجارا
أنت نِعم المعينُ في الدهر لولا أن للدهر همةً لاتجارى

***

يتجلى فى النِقس شمس نهار ... فى دجى الليل تبعث الانوار
جمع الله فيه بين نقيضيـ ... ـن فكان الظلامُ منه نهارا
فهو حينا نارٌ تلظّى وحينا ... جنة الخلد تنثر الازهارا
وتراه ورقاء (١) تندب شجوا ... وتراه رقطاء (٢) تنفث نارا
وتراه مغنّيا إن شدا حـ ... ـرك بين الجوانح الاوتارا
وتراه مصوّرا يرسم الحسـ ... ـن و يُغرى برسمه الابصارا
فتخالُ القرطاس صفحة خد ... وتخال المداد فيه عِذارا
هو جسر تمشى القلوب عليه ... لتُلاقى بين القلوب قرارا
صامت تسمع العوالم منه ... أىَّ صوت يناهض الاقدارا
فهو كالكهرباء غامضة الكنـ ... ـه وتبدو بين الورى آثارا
كم أثار اليراع خطبا كمينا ... وأمات اليراع خطبا مُثارا
قطراتٌ من بين شقيه سالت ... فأسالت من الدما أنهارا
كان غصنا فصار عوداً ولكن ... لم يزل بعدُ يحمل الأثمارا
كان يستمطر السماء لخال الـ ... أمرُ فاستمطر العقولَ الغزارا

***

يَسعد الناس باليراع و يلقى ... رَبُّه ذلة به وصغارا
واشقاء الأديب هل وتر (٣) الدهـ ... ـر فلا زال طالباً منه ثارا
أرفيق المحراث يحيا سعيداً ... ورفيقُ اليراع يقضى افتقارا

(١) الورقاء الحمامة (٢) الرقطاء حية خبيثة (٣) وتره أصابه بثأر يقول كأن الدهر موتور لذلك الأديب فهو يطالبه بالثأر

ماجنى ذلك الشقاء ولكن قد أراد القضاء أمرا فصارا
ليس للنسر من جناح إذا لم يجد النسرُ فى الفضاء مطارا
حاسبوه على الذكاء وقالوا حسبهُ صيتهُ البعيد فخارا
أوهموه أن الذكاء ثراء فمضى يسحب الذيول اغترارا
يحسب النقد للقصيدة نقدا ويرى البيت فى القصيدة دارا
ليس بدعا من هائم فى خيال أن يرى كل أصفرٍ دينارا
إن بين المداد والحظ عهداً وذماماً لا يلتوى وجوارا
فاللبيب اللبيب من ودع الطر س وولى من اليراع فرارا

وقال على لسان عامل فقير

زاحفتْ أيامى وزاحفتنى دهراً فلم تنكُل ولم أنكل(١)
لا عزمُها واهٍ ولا عزمتى تصادُمَ الجندل بالجندل
رمتْ فلم تُبق على مفصل لكنها طاشت عن المقتل
وليتها أصمتْ (٢) فما أبتغى من عيشها إن أنا لم أُقتل
لا خير فى الصبر على غمرة لا يأمُل الصابرُ أن تنجلى
صبرتُ فى البأساء صبرَ الذى قيدَ الى القتل فلم يحفِل
لا فضل فى الصبر لمستسلم عَىَّ عن الفعل فلم يفعل

***

عشرون عاماً لم تحُلْ حالتى ما أشبه الآخِرَ بالاوّل
أغدو الى المعمل فى شملة (٣) خرقاء لم تكسُ ولم تشمل

(١) نكل نكص وجبن (٢) اصمى الصيد رماه فقتله (٣) الشملة نوع من الاكسية

كأنها برقع مصرية لا تحجب الوجهَ عن المجتلى
تنمُّ عن جسمى كما نمَّ عن نفسى غزيرُ المدمع المرسَل
يميل بى الهم تمييلَ النقا بين جنوب الريح والشمأل
فمن رآنى ظن بى نشوة أجل بكأس الحزن لا السلسل
أقضى نهارى مقبلاً مدبرا كأننى الآلة فى المعمل
وصاحبُ المعمل لا يرتضى منى بغير الفادح المثقل
فإن شكوتُ النزر(١) من أجره برّح بى شتماً ولم يُجمِل
حتى إذا عدتُ إلى منزلى وجدتُ سوء العيش فى المنزل
أرى أيامى يشتكين الطَّوى الى يتامى جُوَّع نُحَّل
أبيتُ والأجفان فى سهدها كأنما شُدَّتْ الى يَذْبُل(٢)
بين صغار سهَّد فى الدجا يُذرون دمعَ الثاكل المرمل
بين ضعيف الخطو لم يعتمد وشاخص فى المهد لم يُحوِل(٣)
يدعون أمّا تتلظى أسى حِذارَ يوم الحادث المشكل
ووالداً عىَّ باسعافهم فى العيش عىَّ الفارس الأعزل

* * *

ما زال ريبُ الدهر ينتابنى بالمعضِل الفادح فالمعضل
حتى رمانى بالتى لم تدع الا بقايا الروح فى هيكل(٤)
فها أنا اليوم طريح الضنى وليس غيرُ الصبر من معقِل

(١) النزر القليل (٢) جبل معروف (٣) لم يعتمد أى لم يتكل فى مشيه على نفسه والمحول الذى بلغ حولا (٤) يريد بها الحمى

في لفحة الرمضاء لا أتقي ... وهبّة النكباء لا أصطلي (١)
هـذا هو البؤس فهل من فتى ... تمّ له في البؤس ما تم لي

وقال ينعي على جماعة الفوضو يين مذهبهم في قتل الملوك و يشير الى حادثة الفوضوى الذى وضع منذ سنوات قنبلة فى طريق الفونس الثالث عشر ملك أسبانيا وهو عائد من الكنيسة مع عروسه فى يوم حفلة قرانه فأصابت القنبلة خيل المركبة وقتلت بعض الحاشية ونجا الملك وعرسه وقبض على الفوضوى فقتل

أيها القاتل الاثيم رويداً ... كل يوم تكيد للتاج كيدا
لا أرى التاج فى البرية إلا ... فلكاً دائرا وأخذاً وردّا
يتخطى الرءوس راساً فراسا ... ماشياً فى العصور عهداً فعهدا
فحال أن يهدمَ المرءُ صرحا ... أعجزَ الدهرَ بأسُهُ ان يُهدّا
عبثاً تقتلُ الملوك وعذراً ... لك فيهم لو كنتَ تحمل حقدا
آفة العقل أن يرى الحمد ذمّا ... ويرى الخُطة الدنيئة حمدا
لا يبالى بالموت من عرَفَ المو ... ت ومن لا يرى من الموت بدا
غير أن الآجال فينا حدودٌ ... كلُّ حي تراه يطلبُ حدا
أيُّ جفن أجريتَ منه دموعا ... كان لولاك فى السماكين بعدا
أى روع أسكنته فى فؤاد ... كان فى فادح الحوادث جلدا
ما بكى الفونس خشية بل غراما ... ودموع الغرام أشرفُ قصدا
ان قلب الجبان يخفق رعبا ... غيرُ قلب المحب يخفق وجدا
كان بين الحياة والموت شبرٌ ... بُدل النحس فى مجاريه سعدا

(١) الرمضاء شدة الحر والنكباء الريح الباردة

فرأينا القتيل يعمر قصرا وغريم القتيل يعمر لحدا
أنت تقضي والله يقضي بعدل في البرايا والله أكبر أيدا (١)
جمرة أطفأ القضاء لظاها فغدا جمرها سلاماً وبردا
إن للمالك الكريم قلوباً وقفت بينه وبينك سدا
فافتدته فكن خير فداء لمليك وكان نعم المفدى

وقال في الوجديات

سقاها وحيا تربها وابل القطر وان أصبحت قفراء في مهمه قفر
طواها البلى طي الشحيح رداءه وليس لما يطوي الجديدان (٢) من نشر
مرابض آساد ومأوى أراقم تجاور في قيعانها الغيل بالجحر (٣)
يكاد يضل النجم في عرصاتها (٤) ويزور عن ظلمائها البدر من ذعر
لقد فعلت أيدي السوافي بنؤيها (٥) وأحجارها ما يفعل الدهر بالحر
وقفت بها في وحشة الليل وقفة أثار شجاها كامن الوجد في صدري
ذكرت بها العهد القديم الذي مضى ولم يبق منه غير بال من الذكر
وعيشاً حسبناه من الحسن روضة كساها الحيا منه أفانين من زهر
فانشأت أبكي والاسى يتبع الاسى الى أن رأيت الصخر يبكي الى الصخر
وما حيلة المحزون إلا لواعج تفيض بها الاحشاء أو عبرة تجري

***

(١) الايد القوة (٢) الجديدان الليل والنهار (٣) الاراقم الحيات والغيل موضع الاسد (٤) العرصات جمع عرصة وهي ساحة الدار (٥) السوافي الرياح والنؤي الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل

وما أنس م الاشياء لا أنس ليلة   جلاها الدجى قمراءَ فى ساحة القصر
كأن النجومَ فى أديم سمائها   سفائنُ فوضى سابحاتٌ على نهرِ
كأن الثريا فى الدجنة طرة (١)   مرصعة الاطراف باللؤلؤ النثرِ
كأن سهيلاً حاسدٌ كلما رأى   أخا نعمة يرميه بالنظر الشزْر (٢)
كأن السهى (٣) حق تعرض باطل   اليه فألقى دونه مُسبَل الستر
كأن الدجى فحم سرى فى سواده   من الفجر نارٌ فاستحال الى جمر
كأن نسيم الفجر فى الجو خاطرٌ   من الشعر يجرى فى فضاء من الفكر
وفى القصر بين الظل والماء غادة   تميس بلا سكر وتنأى بلا كِبر
تريك عيوناً ناطقاتٍ صوامتا   فما شئتَ من خمر وما شئتَ من سحر
لهوتُ بها حتى قضى الليل نحبه   وأدرجه المقدار فى كفن الفجر

***

لعمرك ما راحتْ بلى صبابة   ولا نازعتنى مهجتى سَوْرةُ (٤) الخمر
ولا هاجنى وجد ولا رسم منزل   عفاء ولكن هكذا سُنةُ الشعر
ومن كان ذا نفس كنفسى قريحة   من الهم لا يُعنَى بوصل ولا هجر
كأنى ولم أسلخْ (٥) ثلاثين حجة   ولم يجر يوماً خاطرُ الشيب فى شعرى
أخو مائة يمشى الهوينا كأنه   إذا ما مشى فى السهل فى جبل وعر
اذا شاب قلب المرء شاب رجاؤه   وشاب هواه وهو فى ضحوة العمر
حييت بآمالى فلما كذبننى   قنعت فلم أحفل بقُل ولا كُثر

(١) الطرة الشعر المقدم فى الجبهة (٢) سهيل نجم معروف بشدة الاحمرار والخفقان
(٣) السهى نجم ضعيف (٤) سورة الخمر حدتها (٥) سلخ عامه امضاه

وأصبحتُ لا أرجو سوى الجرعة التي أذوق اذا ما ذقتها راحة القبر
وليستْ حياة المرء الا أمانيا إذا هى ضاعت فالحياة على الأثر
جزى الله عنى اليأس خيرا فأنه كفانى ما ألقى من الأمل المرّ
وراض جماحى للزمان وحكمه بما شاء من عدل وماشاء من جور
فما أنا ان ساء الزمان بساخط ولا أنا إن سرّ الزمان بمغتر

وقال فى شأن غنى من الأغنياء غلبته المدنية الحديثة على بساطته الطبيعية فابتنى قصرا فخما كان سببا فى فساد حاله وسوء مصيره

يا صاحب القصر الذى شاده فاستنفد المذخورَ من وُجده(١)
أقمته كالطود فى هضبة تَرد عادى الدهر عن قصده
أزرْتَه الأبراج فى جوها فانتظمَ الانجمَ فى عِقده
أطلعتَ فيه كوكباً دانياً أغنى عن الشاسع فى بعده
قلّصتَ ظِلَّ الليل عنه وما رَعيت حق الله فى مده
أنشأتَ روضاً زاهراً حوله يُعطر الكونَ شذا نده
ورُحتَ بالرتبة فى صدره تَدل دلّ المَلك فى جنده
كأنما الرتبة كلُّ الذى يُنيله الكوكب من سعده
هب أنه اللوفر(٢) فى حسنه أو قصر بوكنهام (٣) فى مجده
وهبك روكفيلرَ(٤) تحوى الذى يضلّل الحاسب فى عده
فالمالُ ان أجهده ربُّه فالفقرُ والعُدم مدى جهده

(١) الوجد الغنى والسعة (٢) اللوفر قصر بباريس (٣) قصر فى لندن
(٤) أحد الاغنياء فى أمريكا

والمال كالطائر إن هوّمت حرّاسهُ طار إلى فِنده[١]

والمجد للمال وكلٌّ الذى تَراه من مجد فمن مجده

هذا شهاب ساطع مشرق والليلة الليلاء من بَعده

بنيتَ للبنك فأغنيتَه بجِدك المبذول عن جِده

بنيت ما لو قدّروا قدرَه لقيل هذا الميتُ فى لحده

وأدتَ فيه الأملَ المرتجى حياً ولم تأسَ على وأده

أغمدتَ فيه صارماً طالما تثلّم الدهر على حده

واريتَ فيه ولداً ليته قضى قريرَ العين فى مهده

وليتَه ماشب فى زُخرفٍ يَبكى يدَ الدهر على رغده

فليس من يأسى على مَطلب ناء كمن يأسى على فقده

غدرتَ بالبيت الذى بثك الـ ود فلم تبقَ على وده

هدمتَه والمجد ظلٌّ له فما بقاء الظل من بعده

لكُنتَ من كوخك فى نعمة تذيبَ قلبَ الدهر من حقده

وكان بناك مسترفداً من بتّ محتاجاً الى رفده

فاليوم لاالقصر كما ترتجى منه ولا الكوخ على عهده

واليوم رب القصر يُذرى دماً من جفنه آنا ومن كبده

يدعو اليه الموتَ من بعد ما نالت يدُ الأيام من أيده

وأسوّد ذاك الجوْن من جلده وابيضّ ذاك الجون من فوده[٢]

(١) هوم هز رأسه من النعاس والفند الجبل (٢) الجون وصف للابيض والاسود والفود ناحية الرأس

هل يعلم الشرق ان الردى سر بصدر الدهر لم يُبده
وانـــه يفجؤنا بالاسى يوما خروجَ السيف من غمده
وان هذا الدهر فى هزله يغر بالكاذب من وعده
فهزله أنفـذ من جـده ورهوهُ أسرع من وخده(١)
ويح لمصر ولأبنائها مما يريغ(٢) الدهر من كيده
نعيش بالهم ونرضى به عيشاً ونقضى العمر فى نقده
كشارب الكأس يُرى عابساً منه ولا يقوى على رده
فان لحنا بارقاً خاطفاً لانسمع القاصف من رعده
نُسرع خوض البحر فى جزره وجزره ينبئ عن مـده
والكل ظمآن يُرى صادراً وما قضى الإربة من ورده

وقال فى الحكم

إذا ما سفيه نالنى منه نائلُ من الذم لم تحرج بموقعه صدرى
أعود الى نفسى فان كان صادقاً عتبت على نفسى وأصلحت من أمرى
والا فما ذنبي الى الناس ان طغى هواها فما ترضى بخير ولا شرِّ

وقال يهنئ الشيخ محمد عبده بعودته من احدى رحلاته فى أوربا

راح يبارى النجم فى جده وعاد كالسيف الى غمده
رأى السرى والسهد مهر العلا فجد وارتاح الى سهده
لايبصر الخطبَ جليلا ولا تلوى به الاهوال عن قصده
مسدد العزم إذا ما مضى يحار صرف الدهر فى رده

(١) الزهو السير السهل والوخد السير السريع (٢) يريغ يريد

كالسيف يجلوه القراع (١) ولا يأخذُ ضربُ الهام من حده
كان لمصر بعد توديعه صبابةُ الصادى الى وِرده
واليوم قد عاد لها كلُّ ما ترجو من النعمة فى عوده
وافترّ عنه ثغرُها مثلما يفترُّ ثغرُ الروض عن وَرده
بدا وقد حفت به هيبة كأنما عثمانُ فى بُرده
ما فيه من عيب سوى انه تحسده الناس على مجده
ما حيلة الحساد فى نعمة أسبغها الله على عبده

وقال فى قصة عربية وقعت بين أسماء بنت أبى بكر الصديق و ولدها أمير المؤمنين عبد الله ابن الزبير حينما حاصره الحجاج فى مكة حتى أحرجه ثم عرض عليه التسليم فاستشار أمه فأشارت عليه بالاستقتال فقاتل حتى قتل

ان أسماء فى الورى خير أنثى صنعتْ فى الوداع خير صنيع
جاءها ابن الزبير يسحب درعاً تحت درع منسوجة من نجيع (٢)
قال يا أمُّ قد عييتُ بأمرى بين أسر مُرّ وقتل فظيع
خاننى الصحب والزمان فمالى صاحبٌ غيرُ سيفى المطبوع
وأرى نجمى الذى لاح قبلا غاب عنى ولم يعد لطلوع
بذل القوم لى الامان فمالى غيره ان قبلتُه من شفيع
فأجابت والجفن قفرٌ كان لم يكُ من قبلُ مَوطناً للدموع
واستحالت تلك الدموعُ بخاراً صاعداً من فؤادها المصدوع
لا تسلّم إلا الحياةَ وإلا هيكلا شأنهُ وشأن الجذوع
إن موتاً فى ساحة الحرب خيرٌ لك من عيش ذلة وخضوع

(١) القراع الضراب (٢) النجيع الدم

إن يكن قد أضاعك الناس فاصبر وتثبت فالله غير مضيع
متْ هماماً كما حييتَ هماماً واحيَ فى ذكرك المجيد الرفيع
ليس بين الحياة والموت إلا كرَّة فى سواد تلك الجموع
ثم قامت تضمه لوداع هائل ليس بعده من رجوع
لمستْ درعه فقالت لعهدى بك يا ابن الزبير غير جزوع
إن بأسَ القضاء فى الناس بأس لا يبالى ببأس تلك الدروع
فنضاها عنه وفرَّ إلى المو ت بدرع من الفخار منيع
وأتى أمَّه النعيُّ فجادت بعد لأْيٍ بدمعها الممنوع

وقال فى الشيب

ضحِكاتُ الشيب فى الشعر لم تدع فى العيش من وطر
هُنَّ رسل الموت سانحة قبلَه والموت فى الأثر
يابياضَ الشيب ما صنعت يدك العسراء بالطرر
أنت ليلُ الحادثات وان كنتَ نورَ الصبح فى النظر
ليت سوداء الشباب مضت بسواد القلب والبصر
فالصبى كل الحياة فان مرَّ مرتْ غِبطةُ العمُر

وقال على سبيل الفكاهة فى شأن كلب اسمه « بيل » وفى لسيده فطوقه طوقا من الذهب وأوصى له بخمسة آلاف دينار

لِيهنك يا « بيلُ » الجلالُ وعزة يكاد لها القلب الكسير يطير
ملكتَ على الزهد الالوف وكلنا الى قطرة مما ملكتَ فقير
اذا كان هذا الطوق كالتاج قيمة فأنت بألقاب الملوك جدير

وما المال إلا آية الجاه فى الورى فحيث تراه فالمقام خطير
ولو كان بين الفضل والجاه نسبة لزالت عروشٌ جمة وقصور
فيابيلُ لا تجزع فرب متوّج شبيهك الا منبرٌ وسرير
وما أنت فى جهل المقادير آية فمثلك بين الناطقين كثير
لئن فاتك النطقُ الفصيح كما ترى فسهمُك من نطق الفواد وفير
وفيتَ بعهد للصديق وما وفى بعهد صديق جرولٌ وجرير(١)
فعش صامتاً واقنع بحظك واغتبط فما النطقُ إلا آفة وشرور
ضلال يرى الانسان فضلا لنفسه وساعده فى المكرمات قصير
وما المرء إلا صدقه ووفاؤه وكل كبير بعد ذاك صغير
وماذا يفيد المرء حسنُ بيانه إذا عىّ بالنطق الفصيح ضمير
مدحتك يابيلٌ لانىَ شاعر وأنت على حسن الجزاء قدير
ولو كنت تدرى ما أقول لقمتَ لى بما لم يقم للمادحين أمير

***

هذه ترجمة ذلك الكاتب الكبير . والشاعر الجليل . من قرأها ورأى أنها ترجمة غير حافلة بالالقاب العلمية . والشهادات المدرسية . التى تمتلىء بها عادة تراجم كبار الكتاب . وفطاحل الشعراء . علم أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ؟

أ . حافظ عوض

مصر فى أول ديسمبر سنة ١٩٠٩

(١) جرول لقب الحطيئة الشاعر وجرير شاعر معروف

مقدمة

يسألني كثير من الناس كيف أكتب رسائلي كأنما يريدون أن يعرفوا الطريق التي أسلكها إليها فيسلكوها معي . وخيرلهم أن لا يفعلوا . فاني لا أحب لهم ولا لأحد من الشادين في الادب أمثالهم أن يكونوا مقيدين في الكتابة بمذهبي أو مذهب أحد من الكتاب غيري . وليعلموا إن كانوا يعتقدون لي شيئاً من الفضل في هذا الامر أني ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل التي يعلمونها بهذا الاسلوب الذي يزعمون أنهم يعرفون لي الفضل فيه إلا لاني استطعت أن أنجو بنفسي من قيود التمثل والاحتذاء . وما نفعني في ذلك شيء ما نفعني ضعف ذاكرتي والتواؤها على أن تمسك إلا قليلا من المقروءات التي كانت تمر بي . فقد كنت أقرأ من منثور القول ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ ثم لا ألبث أن أنساه فلا يبقى منه في ذاكرتي إلا جمالُ آثاره وروعة حسنه ورنة الطرب به . وما أذكر أني نظرت في شيء من ذلك لأملأ به حافظتي . أو أستعين به على تهذيب بياني . أو تقويم لساني . أو تكثير مادة علمي باللغة والادب . بل كل ما كان من أمري أنني كنت امرأ أحب الجمال وأفتتن به افتتانا كلما رأيته في صورة الانسان . أو في مطلع البدر . أو في مغرب الشمس . أو في هجعة الليل . أو في يقظة الفجر . أو في قمم الجبال . أو في سفوح التلال . أو في شواطئ الانهار . أو في أمواج البحار . أو في نغمة الغناء . أو في رنة الحداء . أو في مجتمع الاطيار . أو في منتثر الازهار . أو في رقة الحس . أو في عذوبة النفس . أو في بيت الشعر . أو في قطعة النثر . فكنت أمر بروض البيان مراً فاذا لاحت لي زهرة جميلة بين أزهاره . تتألق في غصن زاهر بين

أغصانه . وقفت بين يديها وقفة المعجب بها الحانى عليها المستهتر بحسن تكوينها واشراق منظرها من حيث لا أريد اقتطافها أو إزعاجها من مكانها . ثم أتركها حيث هى وقد علقت بنفسى صورتها إلى أخرى غيرها . وهكذا حتى أخرج من ذلك الروض بنفس تطير سروراً به . وتسيل وجداً عليه . وما هو إلا أن درت ببعض تلك الرياض بعض دورات . ووقفت على أزهارها بعض وقفات . حتى شعرت أن قد بدلت بنفسى نفساً غيرها . وأن بين جنبي حالا غريبة لا عهد لى بمثلها من قبل . فأصبحت أرى الاشياء بعين غير التى كنت أراها بها وأرى فيها من المعانى الغريبة المؤثرة ما يملأ العين حسناً . والنفس بهجة . فقد كنت أرى الناس فرأيت نفوسهم . وأرى الجمال فرأيت لبه وجوهره . وأرى الخير فرأيت حسنه . وأرى الشر فرأيت قبحه . وأرى النعماء فرأيت ابتساماتها . وأرى البأساء فرأيت مدامعها . وأرى العيون فرأيت السحر الكامن فى محاجرها . وأرى الثغور فرأيت الخمر المترقرقة بين ثناياها . وكنت أرى الشمس فرأيت خيوطها الفضية الهفافة بين السماء والارض . وأرى القمر فرأيت شعاعه كأنما يهم أن ينبسط حتى يفيض من جوانبه فيضا . وأرى الفجر فرأيت بياضه وهو يدب فى تجاليد[1] الظلام دبيب المشيب فى تجاليد الشباب . وأرى النجوم فرأيت عيونها الذهبية تطل على الكون من فروج قميص الليل . وأرى الليل فرأيته وهو يهوى بأجنحته السوداء إلى الارض هوى الكرى إلى الاجفان . وكنت أسمع خرير المياه فسمعت مناجاتها . وحفيف الاوراق ففهمت نغماتها . وتغريد الاطيار فعرفت لغاتها . فأحببت الادب حباً جماً ملأ ما بين جانحتى فلم تكن ساعة من الساعات أحب إلىّ ولا آثر عندى من ساعة أخلو فيها بنفسى وأمسك علىّ بابى ثم أسلم نفسى الى كتابى فيخيل الىّ كأنى قد انتقلت من هذا

(١) التجاليد الجسم

العالم الذى أنا فيه إلى عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر فأشاهد بعينى تلك العصور الجميلة عصورَ العربيــة الاولى وأرى العرب فى جاهليتها بين خيامها وأخبيتها . وأطنابها وأعوادها . و إبلها وشائها . وشيحها وقيصومها . وأرى مساجلاتها ومنافراتها . وحبها وغرامها . وعفتها ووفاءها . وصبرها و بلاءها . وحداءها وغناءها . وأسواق شعرائها . ومواقف خطبائها . وفقرَها واقلالها . وشحوب وجوهها . وسمرة ألوانها . وضوى أجسامها . وترددَها فى بيـدائها بين حمارّة القيظ وصبارّة البرد . وتنقلها من صحراء إلى ريف . ومن مَشتى إلى مصيف . ومن نجـد إلى وهـد . ومن شرف إلى غور . وانتجاعَها مواقع الغيث . ومنابت العشب . وقناعتها من الطعام بأحفان التمر وقعاب اللبن وأصوُع الشعير . فاذا جد الجدُ أكلت القِد(١) واشتوت الجلد . وتبلغت بالضب واليربوع وعراقيب الآبال وأظلاف الابقار . واكتفاءَها من اللباس بأكسية الكرابيس وأردية الاشعار . وقُمُص الاوبار . فاذا أعوزَها ذلك لبست الظل . وافترشت الرمل . غير ناقمة ولا ساخطة ولا متبرمة بقضاء الله وقدره فى قسمة أرزاقه بين عباده ولا باكية حظها من رخاء العيش ولينه . ثم أراها بعد ذلك وقد أنعم الله عليها بنعمة الاسلام فارى رغد عيشها . ولين طعامها . واعشوشاب جانبها . وعذوبة مواردها ومصادرها . وسرورَها وغبطتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس وأعلاق الروم . وامتــلاءَ قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان . واللؤلؤ المنثور من الولدان . وأرى مجالس غنائها . ومجامع أنسها . ومسارح لهوها . ومجــالات سبقها . وملاعب جيادها . وطرائد صيدها . ومواقف حجها . وازدحام شعرائها على أبواب أمرائها . وجوائز أمرائها فى أيدى شعرائها . وانطــلاق ألسنتها بوصف ما تشاء من الأعواد والبرابط والمعازف والمزاهر والأقداح والدنان والموائد

(١) السير يقد من جلد

والصحف وألوان الطعام حلوه وحامضه . وأصناف الشراب حلاله وحرامه . والطيور المحلقة فى الأجواء . والسفن الذاهبة فى الدأماء (١) . والرياض الخضراء . والغابات الشجراء . والقصور وتماثيلها . والبحيرات وأسماكها . والأنهار وشواطئها . والأزهار ونفحاتها . والغيوث وقطراتها . ودبيب الحب فى القلب . والغناء فى السمع . والصهباء فى الاعضاء . وخلجة الشك . ولمحة الفكر . وبارقة المنى . ثم لا أشاء أن أرى بين هذا وذاك خلقا عذبا . أو أدبا غضا . أو حبا وفيا . أو مجونا مستظرفا . أو حوارا مستملحا . إلا وجدته . ولا أن أسمع ما تهتف به العاتق فى خدرها . وما يحدو به الحادى فى أعقاب إبله . وما يتغنى به العاشق . وما يهذى به الشارب . وما يترنم به الشادى . وما يساجل به المائح (٢) . إلا سمعته . ولا أن أعلم ما يهجس فى نفس المحب إذا اشتمل عليه ليله . والتائه إذا ضل به سبيله . والثاكل إذا فجعت بواحدها . والموتور إذا حيل بينه وبين واتره . والكريم إذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء . والغريب فى دار غربته . والسجين بين جدران سجنه . والخائف إذا وقف بين الرضا والغضب . والمقدم للقتل إذا وقف بين الرجاء واليأس . والبائس إذا أعوزه القوت . واليائس إذا أعوزه الموت . والعزيز إذا ذل . والمشرف إذا هوى . والشريف إذا عبث بشرفه عابث . والغيور إذا لمس عرضه لامس . الا علمته . ولا أن أعرف خلق الدهر فى تنقله بالناس ما بين رفع وخفض . وجدة وفقر . ونعيم وبؤس . وإقبال وإدبار . ولا أثر يده السوداء فى خراب القصور . وخلاء الدور . واقفار المغانى . وتصويح الرياض . إلا عرفته . فكنت أجد فى نفسى من اللذة والغبطة بذلك كله ما لا يقوم به عندى كل ما ينعم به الناعمون من رغد فى العيش ورخاء حتى ظننت أن الله سبحانه وتعالى قد صنع لى فى هذا الأمر وأنه لما علم أنه لم يكتب لى فى لوح

(١) الدأماء البحر (٢) المائح المستقى على البئر

مقاديرهما كُتب للسعداء والمجدودين من عباده من مال أو جاه أعيش فى ظله . وأنعم بثمرته . زخرف لى هذا الجمال الخيالى البرئ من الريبة والاثم وزوّره (١) لى تزويراً بديعاً ووضع لى فيه من الملاذ والمحاسن مالم يضع لغيرى رحمة بى وإرعاء على أن أهلك أو يهلك لبى بين اليأس القاتل . والرجاء الكاذب . وهكذا لا أزال محلقاً فى هذا الجو البديع من الخيال أضحك مرة وأكتئب أخرى . وأتغنى حيناً وأبكى أحياناً . حتى يرميني الباب ببعض الطارقين أو يستعيد الى نفسى مستعيد

ولم يكن حولى لذلك العهد ممن يستعين على الأدب بمثلهم مثلى أحد لانى كنت أعيش فى مفتتح عهدى به ولم أكن زاهيت إذ ذاك الثالثة عشرة من عمرى بين أشياخ أزهريين لا يرون رأيى فيه . ولا يتعلقون منه بما أتعلق . فكانوا يرون أن التوفر عليه أو الالمام به عمل من أعمال البطالة والعبث . وفتنة من فتن الشيطان . فكان الذين يتولون أمرى منهم لا يزالون يحولون بيني وبينه كما يحول الاب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوى ونزغات الصبوة . ضنًّا بى يزعمون أن أنفق ساعة من ساعات دراستى بين لهو الحياة ولعبها . فكنت لا أستطيع أن ألم بكتابى إلا فى الساعة التى آمن فيها على نفسى أن يُلموا بأمرى . وقليلا ما كنت أجدها . وكثيرا ما كانوا يهجمون منى على ما لا يحبون . فاذا عثروا فى محفظتى أو تحت وسادتى أو بين لفائف ثوبى على ديوان شعر أو كتاب أدب خيل اليهم أنه قد ظفروا بالدينار فى حقيبة السارق . أو الزجاجة فى يد الغلام . أو العشيق فى خدر الفتاة . فأجد من البلاء بهم . والغصص بمكانهم . ما لا يحتمل مثله مثلى . وهم لا يعلمون أحسن الله اليهم أنهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم هذا حسنة من حسنات الأدب الذى ينقمون منه ما ينقمون . ويدٌ من أياديه البيضاء على هذا المجتمع البشرى . فلولا الادب

(١) زوره حسنه وقومه

ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهم آيات الكتاب المنزل ولا استنباط تلك الاحكام التى دونوها لهم وتركوها بين أيديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته . ويعيشون فى ظلها عيش السعداء المترفين . ولولاه ما استطاع علماؤهم اللغويون أن يورثوهم هذه العلوم اللغوية التى يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها ومعانيها فى مجالس علمهم ويُدلون بمكانهم منها على الناس جميعاً . كأنهم لا يعلمون أن الادب هو خير ما يستعين به متعلمٌ على علم وأن الذوق الادبى الذى يستفيده المتأدب من دراسة الادب ومزاولته هو الميزان الذى يزن به ما يحاول فهمه من عبارات العلوم وأساليبها . والدليل الذى يتسمّته ويترسم مواقع أقدامه فى فهم أصول الدين ليكون مجتهداً ان استطاع أو واقفاً على منازع المجتهدين . واللسان الذى يستعين به على الافضاء بأدق أغراضه وأعمقها وأقصاها مكانا من قلبه ليكون إنسانا ناطقاً . ومعلماً نافعاً . ولو أن هؤلاء الزارين على الادب من علماء الدين وشيوخه قد تعلقوا منه بما كان يتعلق به أسلافهم وأئمتهم من قبل لنالوا به فى دينهم خيراً كثيراً . ولاستدفعوا به عن أنفسهم فى أمره شراً عظيما . فما زال الدين واضح المنهج قائم الحجة ومازالت آيات الكتاب ومتون الاحاديث سائغة هنيئة لا يلحقها الريب ولا يحيط بها الشك ولا تطير بجنباتها الاوهام والظنون حتى جهل علماء الدين الادب ففسدت أذواقهم . وضلت أفهامهم . فكثر بينهم التأويل والتخريج . ووهت تلك العقدة الوثيقة بين الالفاظ والمعانى . واسترخت عراها من أيديهم فأصبح كل لفظ فى نظرهم محتملا لكل معنى حتى ما يأبى أحدهما على الآخر شيئاً . وتهافت ذلك الحاجز الحصين الذى كان قائما بين الحقيقة والمجاز . والحقيقة والخيال . فبغى بعض الكلم على بعض وعاث كل منهما فى تربة صاحبه اقبالا وادبارا . وجيئة وذهوبا . وصعودا ونزولا . فاستطاع الواغلون فى الدين والناصبون له أن يدخلوا عليه من الاحاديث المنحولة الغريبة فى أساليبها

عن مناهج العرب ومناحيهم مالا يضبطه الحساب كثرة فهلكت الأمة بين هذا وذاك هلكا لا تزال تتجرع كاسه المريرة حتى اليوم

فالحمد لله أولا وللأدب ثانياً على نجاتى منهم فيما كانوا يرومون بى . ويحاولون منى . بل أحمد الله اليهم كذلك فقد كُفيت بهم وبسوء رأيهم فى الأدب وتهمتهم عليه شر من يدخل بينى وبين نفسى فى المفاضلة بين شاعر وشاعر . وكاتب وكاتب . أو الموازنة بين أسلوب وأسلوب . وديباجة وأخرى . فلم يكن لى عونٌ على ذلك كله غير شعور نفسى وخفوق قلبى خفقة السرور أو الألم إن مرّ بى ما أحب أو ما أكره من حسنات القول أو سيئاته من حيث لا أعرف سبيل ذلك ولا مأتاه . فكان شأنى فى ذلك شأن السامع الطروب الذى تطربه نغمة وتزعجه أخرى . فيطير بالأولى فرحا . وبالثانية جزعا . ولقد يكون وما على وجه الأرض أجهل منه بضروب الايقاع وقواعد النغم . فكنت لا أقرأ إلا ما أفهم ولا أفهم إلا ما أشعر أنه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس فاذا هو فى كبد الرمية ولبها . فان رأيتُ أن المعنى قد قام دونه ستار من التراكيب المتعاظلة . والأساليب الملتوية . علمت أن القائل إما ضعيف المادة اللغوية فهو يعجز عن الافضاء بما فى نفسه لأنه لا يعرف كيف يفضى به . وإما جاهل لم يستو له المعنى الذى يريده كل الاستواء . ولم يدُرْ فى جوانب نفسه حتى يستقر فى قرارة منها . فهو يتخيله تخيلا ويجمجمه ويهذى به هذيانا فلا سبيل له إلى الافصاح عنه . وإما محتال قد علم أن المعنى الذى يجول فى نفسه ويشتمل عليه خاطره نافه مرذول وكان لابد له أن ينفّقه [1] على الناس ويزخرفه لهم ويزوّره [2] فى أعينهم فهو يكسوه أسلوباً غامضاً ليُكدّهم ويجهدهم فى سبيله حتى إذا ظفروا به بعد ذلك خيل اليهم أنهم قد ظفروا بمعنى غريب . أو خاطر بديع . ووجدوا فيه عند الوصول اليه من اللذة

(١) ينفقه بالتشديد يجعله نافقاً أى رائجاً (٢) زور الشىء حسنه وزخرفه

والمتعة ما يجد الظامى فى ضحضاح(١) الماء الكدر إذا أبعد النجعة فى طلبه ووصل إليه بعد الجهد والإشفاء . وإما عاجز ضعيف القوة النفسية قد علم أن ضعفاء الأفهام من الناس وهم سواد الأمة ودهماؤها لا يرضون عن معنى من المعانى ولا يستسنون(٢) قيمته ولا يقيمون له وزناً إلا إذا جاءهم فى جلدة من الألفاظ المتكرسة المتقبضة وأنهم إذا ورد عليهم أغنى المعانى وأغلاها . وأكرمها جوهراً . وأطيبها عنصراً . فى ثوب من الأساليب الرقيقة الشفافة ذهب بهم الوهم إلى أنه ما جاءهم على هذه الصورة إلا لأنه ساقط مبتذل . أو سوقى مطروق . فاحتقروه وازدروه . وكان يرى لضعف حيلته وسقوط نفسه أن لا بد له من موافاة رغبتهم . وبلوغ رضاهم . والنزول على حكمهم . فتجمل لهم باللكنة والعى . وتملقهم بالغموض والابهام . وإما أعجمى يظن أن اللغة العربية حروف وكلمات وهو لا يعرف منها غيرهما فينطق بشئ هو أشبه الأشياء بما يترجمه ضعفاء المترجمين من اللغات الأعجمية ترجمة حرفية . فان نعيت عليه غرابة أسلوبه واستعجامه والتواءه على الفهم كان مبلغ ما ينضح به عن نفسه أن المعانى العصرية والخيالات الأفرنجية لا يستطاع إلباسها الأكسية البدوية . والاردية العربية . كأنما هو يظن أن المعانى والخواطر خطط وأقسام . وبقاع وضياع . هذا للشرق وهذا للغرب . وهذا للعرب وهذا للعجم . أما الحقيقة التى لاريب فيها فهى أن الرجل لا ينتزع تلك المعانى من قرارة نفسه ولا يصورها صورة عقله . وإنما هو مترجم قد عثر بتلك المعانى فى اللغة الاعجمية التى يعرفها لاصقة بأثوابها الاصلية فلما أراد أن يفضى بها إلى العرب وكان غير مضطلع بلغتهم . ولا متمكن من أساليبهم . عجز عن أن ينزع عنها أثوابها اللاصقة بها فنقلها إليهم كما هى الا ما كان من تبديل حرف بحرف أوكلمة بأخرى من حيث يظن أنه يهتف بشئ قام فى نفسه . أو يفضى

(١) الضحضاح الماء القليل فى قعر البئر (٢) استسنى قيمته رآها سنية رفيعة

بخاطر من خواطر قلبه . وإما شحيح يأبى له لؤم نفسه وخبث فطرته أن يمنح الناس منحته سائغة هنيئة دون أن يكدرها عليهم بالمطل والتسويف والممانعة والمحاولة . والشح خلق إذا نزل منزله من نفس صاحبه أقام من نفسه حارساً يقظاً على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة حتى لا يجد فيه واجدٌ مصطنعاً . ولا يظفر منه معتصر ببلة . فيضن بعلمه . كما يضن بماله . ويقبض لسانه عن النطق . كما يقبض يده عن الانفاق . ويصرّد(١) عطاءه تصريداً ليستديم به حاجة الناس إليه . كما يجيع كلبه ليتبعه . ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين . على العجزة والجاهلين . والمحتالين والكاذبين . والاشحاء والباخلين

وكان أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتاب سواء في ذلك المتقدم والمتأخر والنابه والخامل أوصفهم لحالات نفسه أو أثر مشاهد الكون فيها وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويراً صحيحاً كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضاً . أو يضعه في أيديهم وضعاً . فإن ظننتُ أن القائل كاذب فيما يقول . أو أنه يرسم صورة غير الصورة التي تتلجلج في نفسه . أو أنه لغوي يفر من ضعف أسلوبه وفساد نظمه إلى أكمة من الألفاظ الغريبة والتراكيب المستوعرة يكمن وراءها . أو ناقل يتخذ الكتابة حقيبة يحشوها بالمسائل العلمية أو الوقائع التاريخية حشوا . أو مترجم ينقل عن اللغة الأعجمية التي يعرفها آراء علمائها وخيالات شعرائها وكأنما هو صاحبها . أو شعرت أن قدمر بخاطره وهو ينطق بكلمته أن يكون بليغاً فيها أو مبدعاً ليعجبَ الناسَ منها . كان كلُّ حظه مني أن أعرف له قدره في العلم . ومنزلته من الذكاء والفهم . إن أحسن فيما يقول . ولكنني لا أعده في كلمته هذه كاتباً ولا شاعراً . لذلك كان أغزل الغزل عندي غزل العاشقين . وأفضل الرثاء رثاء الثاكلين . وأشرف المدح مدح الشاكرين . وخير الموعظة موعظة المخلصين . وأجمل البكاء بكاء

---

(١) صرّد العطاء أعطاه قليلا قليلا

المنكوبين . وأحسن الهجاء هجاء الصادقين . وأبرع الوصف وصف الرائين المشاهدين

ولا أدرى ما الذى كان يعجبنى فى مطالعتى من شعر الهموم والأحزان ومواقف البؤس والشقاء وقصص المحزونين والمنكوبين خاصة . فقد كان يعجبنى كل العجب ويبكينى أحر البكاء وأشجاه شقاء المهلهل فى الطلب بثأر أخيه . وشقاء امرئ القيس فى الطلب بثأر أبيه . وبكاء جليلة أخت جساس على زوجها وأخيها . وبكاء عدى بن زيد على نفسه فى سجن النعمان . وبكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك حتى تدمع عينه العوراء . وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد . وهيام أم حكيم زوج عبيد الله ابن العباس فى المواقف والمواسم تنشد طفليها الذبيحين . وبكاء الشريف على المناذرة فى خرائب الحيرة . وبكاء أبى عبادة على الأكاسرة فى خرائب المدائن . وبكاء الرضى على بنى هاشم . وبكاء العبلى على بنى أمية . وبكاء الرقاشى على بنى برمك . وذل أبى فراس فى أسره . والمعتمد بن عباد فى سجنه . وبكاء ابن زيدون فى نكبته على نفسه مرة وعلى ولادة أخرى . وبكاء ابن مناذر على عبد المجيد . والبحترى على المتوكل . وابن اللبانة على ابن عباد . والتيمى على يزيد بن مزيد . ومروان بن حفصة على معن بن زائدة . وجنونُ المجنون بليلاه وجلوسه فى جنبات الحى منفرداً عاريا مذهوب اللب مشترَك العقل يهذى ويخطط فى الأرض ويلعب بالتراب . ثم هيامُه بعد ذلك مع الوحش فى البرية لا يأكل إلا ما ينبت فيها من بقل . ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت مناهلها . وراحتُه إلى الطريق يصعد مع مُصعديه . وينحدر مع مُنحدريه . حتى هلك فى أرض مقشعرة مغبرة بين الصخور والأحجار . وشقاء قيس لُبنَى بلبناه بعد أن طلقها برا بوالده ونزولا على حكمه وذهابُ الحب به بعد ذلك كل مذهب حتى هلك بين الوفاء للفضيلة والوفاء للحب . وموقفُ جميل بن معمر بين يدى أبيه وهو يعتب عليه أشد العتب ويأمره فى استهتاره

بحب بثينة ومخاطرته بنفسه فى الالمام بحبها فيقول : يا أبت هل رأيت قبلى أحدا قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يسلى نفسه أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه . والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها من عينى لفعلت ولكن لا سبيل إلى ذلك وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لى وأنا أمتنع من طروق هذا الحى والالمام به ولو مت كمدا وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه . و بكاء النبى صلى الله عليه وسلم عند ما سمع قيس بن عاصم يحدث عن نفسه أنه كان يئد بناته فى الجاهلية وأن واحدة منهن ولدتها أمها وهو فى سفر فدفعتها إلى أخوالها ضناً بها على الموت واشفاقاً عليها . فلما عاد وسألها عن الحمل قالت له إنها ولدت مولوداً ميتاً ثم مضت على ذلك سنون عدة حتى كبرت البنت و يفعت فزارت أمها ذات يوم فرآها عندها فأعجب بجمالها وعقلها وذكائها وسألها عنها فحدثته حديثها على وجهه ولم تكتمه شيئا منه طمعاً فى أن يضمها اليه و يمنحها رحمته وعطفه . فأمسك عنها أياما ثم تغفل عنها أمها ذات يوم وخرج بها إلى الصحراء حتى أبعد فاحتفر لها حفرة وجعلها فيها فجعلت تقول : يا أبت ما تريد أن تصنع بى . وما هذا الذى تفعل . وهو يهيل عليها التراب ولا يلتفت اليها وهى تقول : أتاركى أنت يا أبت وحدى فى هذا المكان ومنصرف عنى حتى واراها وانقطع أنينها . و بكاء الأعرابية التى مات منها ولدها فى دار غربة فدفنته ثم وقفت على قبره تودعه وتقول : والله يا بنى لقد غذوتك رضيعاً . وفقدتك سريعاً . وكأن لم يكن بين الحالين مدة ألتذ بعيشك فيها فأصبحت بعد الغضارة والنضارة و رونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسداً هامداً و رفاتاً سحيقاً وصعيداً جرزاً . اللهم إنك قد وهبته لى قرة عين فلم تمتعنى به كثيراً . بل سلبتنيه وشيكا . ثم أمرتنى بالصبر . و وعدتنى عليه الأجر . فصدقت وعدك . ورضيت قضاءك . فارحم اللهم غربته . وآنس وحشته . واستر عورته . يوم تنكشف الهنات والسوآت . واثكل الوالدات ما أمض حرارة قلوبهن .

وأقلق مضاجعهن . وأطول ليلهن . وأقل أنسهن . وأشد وحشتهن . وأبعدهن من السرور وأقربهن من الاحزان . وشقاء ذينك البائسين المنكوبين عروة بن حزام وعفراء بنت عقال ومناصبة الدهر لهما وانقطاع سبيله بهما حتى أصبحت زوجاً لغيره وأصبح من بعدها هائماً مختبلاً يرمي بنفسه المرامي ويقذف بها في فجاج الارض ومخارمها حتى بلغ منزلها ذات يوم فتنكر حتى زارها وهو يظن أن زوجها لا يعلم من أمره إلا أنه أحد الاضياف الغرباء . فلما علم أنه يعلم حقيقة أمره وأنه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكر له عزم على الانصراف حياء منه . وقال لها يا عفراء أنت حظي من الدنيا وقد ذهبت فذهبت دنياي بذهابك فما قيمة العيش من بعدك . وقد أجمل هذا الرجل عشرتي واحتمل لي ما لا يحتمله أحد لأحد حتى استحييت منه . وإني راحل من هذا المكان وإني عالم أني أرحل إلى منيتي وما زال يبكي وتبكي حتى انصرف . فلما رحل نكس بعد صلاحه وتماسكه وأصابه غشي وخفقان فكان كلما أغمي عليه ألقي على وجهه خماراً لعفراء كانت زودته إياه فيفيق حتى بلغ حيه . وأمسك عاماً كاملاً لا يسمع منه سامع كلمة ولا أنة حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضاً . فمر به بعض الناس فرآه ملقى بجانب خبائه فسأله عما به فوضع يده على صدره وقال :

كأن قطاة علقت بجناحها   على كبدي من شدة الخفقان

ثم شهق شهقة كانت نفسه فيها . فلما بلغ عفراء خبره قامت الى زوجها وقالت له قد كان من خبر ابن عمي ما كان وقد مات فيّ وبسببي ولا بد أن أندبه وأقيم مأتماً عليه . فقال افعلي . فما زالت تندبه ثلاثاً حتى ماتت في اليوم الرابع . وشقاء سعد الوراق بحب عيسى النصراني حينما علم أن أهله قد بنوا له ديراً بنواحي الرقة ليترهب فيه ويحتجب عن الناس فضاقت عليه الدنيا بما رحبت وأحرق بيته وفارق أهله واخوانه ولزم صحراء الدير علّه يجد

السبيل الى الوصول اليه . فامتنع عليه ذلك بعد ماذلّ للرهبان وتخضّع لهم وتأتّى لهم بكل سبيل فلم يُجْدِه ذلك شيئاً . فصار الى الجنون وخرّق ثيابه وأصبح عُريان هائماً لا شأن له إلا أن يقف بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله أن يبلغ رسائله الى عيسى حتى رآه بعض الناس فى بعض الأيام ميتا إلى جانب الدير . وأمثالُ ذلك من مواقف البؤس ومصارع الشقاء . كأنما كنت أرى أن الدموع مظهر الرحمة فى نفوس الباكين . فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها . أو كأنما كنت أرى أن الحياة موطن البؤس والشقاء . ومستقر الآلام والاحزان . وأن الباكين هم أصدق الناس حديثاً عنها . وتصويرا لها . فلما أحببت الصدق أحببت البكاء لاجله . أوكأنما كنت أرى أن بين حياتى وحياة أولئك البائسين المنكوبين شبها قريباً وسببا متصلا . فأنست بهم وطربت بنواحهم طرب المحب بنوح الحمائم . و بكاء الغمائم . أوكأنما كنت فى حاجة إلى بعض قطرات من الدمع أتفرج بها مما أنا فيه . فلما بكى الباكون و بكيت لبكائهم وجدت فى مدامعهم شفاء نفسى . وسكون لوعتى . أوكأنما كنت أرى أن جمال العالم كله فى الشعر وأن الشعر هو ما تفجّر من صدوع الافئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع مدامعهم . وصعد من صدورهم مع زفراتهم

تلك أيامى التى سعدت بها برهة من الدهر ومرّ لى فيها أحسنُ ما مرّ لاحد والتى لا أزال أذكرها بعد مرور تلك الاعوام الطوال عليها فأكاد أشرق بدمعى لذكراها ثم انثنيت فوجدت يدى صفراً منها و إذا أنا بين يدى هذا العالَم المظلم المقشعر عالم الحقيقة والالم فنظرت اليه نظر الغريب الحائر إلى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه فرأيت مخازيه وشروره وظلمة أجوائه . واغبرار سمائه . وقتال الناس بعضهم بعضا على الذرة والحبة . والنسمة والهبوة . واتساعَ مسافة الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه . وسلطانَ القوة على

الحق . وغلبةَ الجهل على العلم . وإقفارَ القلوب من الرحمة . وجمودَ العيون عن البكاء . وعجزَ الفقراء عن فتات موائد الاغنياء . وتمضغ الاغنياء بلحوم الفقراء . ورأيت التراثيَ بالرذيلة حتى ادعاها لنفسه وأنحلها اياها من لا يتخلق بها طلبا لرضى الناس عنه برضاه عنها . ورأيت البراءةَ من الفضيلة حتى فرَّ بها صاحبها من وجوه الساخرين به والناقمين عليه فرار العارى بسوأته . والموسوم بخزيته . ورأيت الرجل والمرأة وقد سرا[1] كل منهما ثوبه عن جسمه وألقاه بين يديه . ثم تقايضا فلبست قباءه ولبس غلالتها فأصبح امرأة ليس لها من النساء الا التكسر والتبرد . وأصبحت رجلا ليس له من الرجال الا التوقح والتشطر[2] ورأيت الدين وهو دوحة السلام الخضراء التى يستظل بها الضاحون[3] من لفحات الحياة وزفراتها قد استحال فى أيدى الناس الى سهام مسمومة يحاول كل منهم أن يصيب بها كبد أخيه فلا يخطئها . ورأيت الوطنية وهى أشرف معنى حل فى أشرف قلب قد تجاذب جماعة العجزة والمقاليق رايتها البيضاء حتى تمزقت بينهم فاتخذ كل منهم من مِزَقها منديلا يمسح به عن وجهه غبار الفقر . ورأيت ضلال الانماء عن مسمياتها وحيرة مسمياتها بينها واضطراب الحدود والتعاريف عن أماكنها ومواقعها حتى دخل فيها ما لم يكن داخلا . وخرج منها ما لم يكن خارجا . فسمى الشح اقتصادا والكرم إسرافا والحلم جبنا والسماجة جرأة والسفاهة براعة والفجور فتوة والتبذل حرية واشتبهت طرق الفضيلة ومسالكها على من يريد ركوبها لانه يجد على رأس كل واحدة منها زعيما من زعماء الخديعة والكذب يصرفه عنها الى غيرها . وكنت أرى أن الادب حال قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر أو يحدث نفسه به أو يكون عونا لفاعليه عليه . فان ساقته اليه شهوة من شهوات النفس أو نزوة من

---

(١) سرا الثوب عن جسمه القاه عنه (٢) تشطر صار شاطرا والشاطر هو من أعيا أهله خبثا (٣) الضاحى المنكشف للشمس

نزواتها وجد في نفسه عند غشيانه ومخالطته من المضض والارتماض ما ينغص عليه عيشه . ويقلق مضجعه . ويطيل سهده وألمه . فاذا هو صورة من صور الجوارح وعرض من الاعراض المتعلقة بحركات الانسان وسكناته لا دخل لها في جوهر نفسه . ولا علاقة بينها وبين حسه ووجدانه . فأكثر الناس عند الناس أدباً . وأقومهم خلقاً . وأطهرهم نفساً . من لا يفي على شرط أن يعد . ومن يكذب على أن يكون كذبه سائغاً مهذباً . ومن يملأ صدره موجدة وحقداً على أن يكون بساماً ضحوك السن . ومن يسرق على أن يعبث بمواد القانون أو يخدع القضاة عنها . ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه . على أن يحبهم جميعاً بلسانه . ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجافة من الحركات الجسمية التي تواضع عليها الظرفاء في الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً إلى صغر النفس وإسفافها . أكثر مما يرجع إلى علوها وكمالها . فداخلني من ذلك هم عظيم لم أستطع أن أملك نفسي معه كأنما خيل إلى لقرب عهدي بما أرى أنني أرى شيئاً عجيباً . أو منظراً غريباً . أو كأنما كنت أحسب أن عالم الخيال الذي كنت فيه إنما هو صورة صحيحة لعالم الحقيقة الذي أنتقل اليه . فأزعجني ما رأيت من هذا الاختلاف العظيم بينهما فأرسلت الكلمة إثر الكلمة كما يتنفس المتنفس أو يئن الحزين . فرأى ذلك بعض الناس فسموا ما رأوه كلاماً . ثم ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغرونني بأمثاله وما زلت أطمع فيهم وأرجو أن أصيب ما في نفوسهم حتى رأيتني كاتباً

ولقد كان لهذا الأدب الذي توليت نفسي به أثر باق عندي إلى هذه الساعة التي أكتب فيها رسالتي هذه فاني لا أحسن حتى اليوم أن أكتب كلمة يفضي بها إلى غيري . أو أعبر عن معنى لا يقوم بنفسي . أو أبكي على من لا يحزنني فراقه . أو أندب من لا يفجعني موته . أو أستنكر ما أستحسن . أو أستحسن ما أستنكر . كلا لا أستطيع أن أمر بمشهد من تلك المشاهد

التى تهيج فى نفسى حزناً شديداً . أوطر باً كثيراً . فأملك نفسى عن محاولة الافضاء بما تركه عندى من خير أوشر . وما أعلم أنى كتبت كلمة من تلك الكلمات المعروفة إلا وكان بعض تلك المشاهد منشأها فى قلبى . فقد كنت رجلاً لا أحب الكذب ولا أحمل نفسى عليه ما وجدت منه بدا . فأبغضت الكاذبين بغض الأرض للدم . فكان من همى أن أقاتلهم على الصدق قتالاً مستحراً حتى أصل بهم إلى إحدى الحسنيين . إما أن يكونوا صادقين . و إما أن يعلم الناس أنهم كاذبون . وكنت إنساناً بائساً لم يترك الدهر سهماً من سهامه النافذة لم يرمنى به . ولا جرعة من كؤوس مصائبه و رزاياه لم يجرعنى إياها . فقد ذقت الذل أحياناً . والجوع أياماً . والفقر أعواماً . ولقيت من بأساء الحياة وضرائها مالم يلق بشر . فشعرت بمرارة الحياة فى أفواه المساكين . و رأيت مواقع سهام الدهر فى أكباد البائسين والمنكوبين . فكان من همى أن أبكى كل بائس . وأندب كل منكوب . وأطلب رحمة القوى للضعيف . والغنى للفقير . والعزيز للذليل . وقُدّر لى فيما مر بى من أيام حياتى أن رأيت بعينى من وقفت بين يديه امرأة ذليلة تبكى وتضرع اليه أن يرضخ لها بقليل من المال تستعين به على ستر ما كشف ابنه من سوأة ابنتها فأبى ذلك عليها وقال لها وهو يحسب أنه يعلم ما يقول: أيتها المرأة لا حق لابنتك عندى ولا عند ولدى فلم يكن حظه منها فيما كان من أمرهما بأكبر من حظها منه : و رأيت من تزوج فتاة كان يمسك فى نفسه لأهلها حقداً قديماً فما دنا منها ليلة البناء بها حتى صدف عنها صارخا: أيها الناس إن الفتاة مريبة: وكان كاذبا فيما يقول . ولكن صدقه الناس . فانتقم لنفسه بذلك شر انتقام وأقذعه . و رأيت من دخلت اليه امرأة من أولئك النساء المريبات تسأله بعض المعونة على أمرها فأمر بطردها ذاهبا بنفسه أن تسوء سمعته بمكانها وكان هو الذى أفسدها على نفسها فنزل بها فسادها الى هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر . فلما جد الجد حاسبها على لقمة تذوقها

فى بيته . ولم يحاسب نفسه على عرض كان يأكله فى بيتها أكلا . فكان بى منذ ذلك العهد أن أنظر الى المرأة بعين غير التى ينظر بها الناس اليها . وأن ألتمس لها من العذر وإن زلت بها قدم ما لا يلتمسه لها أحد . وأن أنتصف لها من الرجل كلما وجدت السبيل إلى ذلك حتى يديل لها الله منه . وكنت من شؤون عيشى فى حالة لا أستطيع معها أن أعتزل الناس الاعتزال كله . ولا أن أختار لعشرتى من أشاء من خيارهم وذوى المروءة فيهم . فلابستهم على علاتهم فما حفظ لى صديق عهداً . ولا صان لى صاحب سراً . ولا استدنت مرة فنفس عنى دائن . ولا دينت فوفى لى مدين . ولا ردلى مستعير عارية . ولا شكر لى شاكر صنيعة . ولا فرج لى كربتى مفرج إلا إذا استقطر ماء وجهى الى القطرة الاخيرة منه . ليأخذ أكثر مما أعطى . ويسلب فوق ما وهب . ووجدت فى طريق حياتى من خالطنى مخالطة الزائر للمزور حتى أمكنته الفرصة فسرق مالى بعد ما تحرم بطعامى وشرابى . ومن كان يتردد وجهه فى وجهى فأكره أن أرده بالأمل الخائب فلما عجزت عن ذلك مرة أضمر لى فى قلبه من الشر ما لا يضمر مثله الرجل الالمن يغلبه على تراث أبيه وأمه . أو يخضب لحيته من دم مفرقه . ومن نصب[1] لى وغرى بمحادتى ومماظتى[2] لانه كان يحمل فى رأسه فتكة لم يجد فى طريقه من يحملها عنه ويستخذى له فيها سواى . ومن أخذ نفسه بالنيل منى والغض من شأنى لانه كان يشكو الخمول والضعة وكان لابد له أن يكون نابها مذكوراً فاتفق له أن رأى عاتق بين يديه فظن أنه أعلى العواتق وأبعدها مذهباً فى جو السماء فعلاه ليشرف منه على الناس فيعرفوا مكانه . فوالله ما تحلحلت ولا نبوت به بقياً عليه وضنا به أن يسقط سقطة لا يشل منها . ومن كان لا يكبر شأنى إلا إذا اتقانى فاذا أضاء ما بينى وبينه كنت فى عينه أصغر منه فى عين نفسه . ومن كان يقبل ويدبر باقبال الدهر وإدباره عنى ثم لا يستحى أن يستكثر

(١) نصب فلان لفلان عاداه (٢) المماظة المخاصمة والمشارة

من ذلك حتى أستحيي له منه . فعركت بجنبي (١) جميع ما كرهت من ذلك ولكنني لم أرض لنفسي أن أنزل في الغرارة والغفلة دون المنزلة التي ينخدع فيها الغر الكريم فأصبح رأيي في الناس غير رأيهم في أنفسهم ورأى بعضهم في بعض وخفت أن يصيب كثيراً من الضعفاء والمحدودين (٢) أمثالي مثل ما أصابني فكان من همي أن أنبش دفائنهم خيراً كانت أو شراً . وأن أكشف أثوابهم عن أجسامهم . وأجسامهم عن نفوسهم . حتى يتراءوا ويتكاشفوا فيتوافقوا أو يتحاجزوا . فلا يهنأ خادع بخدعته . ولا يبكي مخدوع على نكبته . ولا يتخذ بعضهم بعضاً حمراً يركبونها إلى أغراضهم ومطامعهم . وكان منشئي في قوم بداة سذّج لا يبتغون بدينهم ديناً . ولا بوطنهم وطناً . ثم ترامى بي الأمر بعد ذلك وتصرفت بي في العيش شؤون جمة خضعت لكثير من أحكام الدهر وأقضيته إلا أن أكون ملحداً في ديني . أو زارياً على وطني . فاستطعت وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدنية الغربية أن أجلس ناحية منها وأن أنظر إليها من مرقب عال وكنت أعلم أن من أعجز العجز أن ينظر الرجل إلى الأمر نظرة طائرة حمقاء فإما أخذه كله وإما تركه كله . فرأيت حسناتها وسيئاتها . وفضائلها ورذائلها . وعرفت ما يجب أن يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك . فكان من همي أن أحمل الناس من أمرها على ما أحمل عليه نفسي وأن أنقم من هؤلاء العجزة الضعفاء تهالكهم لها . واستهتارهم بها . وسقوط نفوسهم أمام رذائلها ومخازيها . وإلحادها وزندقتها . وشحها وقسوتها . وشرهها وحرصها . وتبذلها وتهتكها . حتى أصبح الرجل الذي لا بأس بعلمه وفهمه إذا حزبه (٣) الأمر في مناظرة بينه وبين من يأخذه برذيلة من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضح به عن نفسه إلا أن يعتمد عليها في الاحتجاج على فعل ما فعل .

(١) عرك بجنبه ذنب صاحبه احتمله (٢) المحدود المحروم ويراد به سيء الحظ
(٣) حزبه الأمر اشتد عليه

أو ترك ما ترك . كأنما هي القانون الالهي الذي تثوب اليه العقول عند اختلاف الانظار . واضطراب الافهام . أو القانون المنطقي الذي توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحيحها وفاسدها . وحتى أصبح السيد في منزله يستحيي من خادمة مطبخه الأوروبية أن تطلع منه على جهل ببعض عاداتها وعادات قومها حتى في لبس الرداء . أو خلع الحذاء . أكثر مما يستحيي من الله ومن الناس أن يهجموا منه على أرذل الرذائل . وأكبر الكبائر . وحتى أصبح تاريخ المشرق وتاريخ علمائه وأدبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من أقبح الصور وأسمجها في نظر كثير من الشرقيين الذين أصبحوا يفخرون بجهل تاريخهم إن جهلوه . ويراؤون بجهله إن علموه . وحتى قدر ذلك الغلام الرومي خادم الحانة أو القهوة منفرداً على مالم تقدر عليه الأمة جميعها مجتمعة . فحملها على النزول اليه لتحدثه بلغته . قبل أن تحمله على الصعود اليها ليحدثها بلغتها . وهو إلى أن يترضاها ويستدنيها أحوج منها إلى أن تزدلف اليه وتنزل على حكمه

فذلك ما تراه في رسائل النظرات منتثراهنا وههنا قد شعر به قلبي ففاض به قلمي من حيث لا أكذب الناس عن نفسي ولا أكذب نفسي عنها . ولو كان بي أن أكذبهم لكذبتهم فيما يرضيهم وما أعلم أني أتخطاهم به وأنال به الأثرة الخالدة في نفوسهم . ولو أردت ذلك منهم لما كان بيني وبين خاصتهم إن أردت الخاصة إلا ثلاث كلمات . السخرية بالاديان . واحتقار تاريخ المشرق . والقول بتبرج المرأة وسفورها . ولا كان بيني وبين عامتهم إن أردت العامة إلا ثلاث أخرى . شتم الحكومة . وسب الكفار . وتأييد الخرافات الدينية

وعندي أن الكاتب المسخر الذي لا شأن له إلا أن يكتب ما يفضي به الناس اليه صانعٌ غير كاتب . ومترجم غير قائل . لا فرق بينه وبين صائغ الذهب أو ثاقب اللؤلؤ . كلاهما ينظم

مالا يملك . ويتصرف فيما لا شأن له فيه . على أن خير ما ينتفع به الأديب من أدبه أن يترك يوم وداعه لهذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون فى تاريخه من بعده من أبنائه وشيعته وذوى رحمه صورة نفسه . ومضطرب آماله . ومسرح أحلامه . فاذا كان شأنه فى حياته أن يكون مرآة تتقلب فيها مختلفات الصور أو وفيعة (١) تمسح بها أعواد الاقلام كان خسرانه عظيما لا يقوم به كل ما يربح الرابحون من مال أو يؤثلون من جاه . والتاريخ أضنّ من أن يحفظ بين دفتيه من مجد الادباء إلا مجد أولئك الذين يُودعون نفوسهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد تركوها نقية بيضاء من بعدهم . وحياة الكاتب بحياة كتابته فى نفوس قرائها ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل أنه يكذبهم عن نفسه وعن أنفسهم وأنه روّاغ متخلّج (٢) يأمرهم اليوم بما ينهاهم عنه غدا . ويرى فى ساعة ما لا يرى فى أخرى . وأنه يستبكى ولا يبكى . ويسترحم ولا يرحم . ويحرك النفوس وهو ساكن . ويثير الثائرة وهو سالم . فيستريبون به . ويحارون فى مصادره وموارده . ثم يحملون أمره على شر حاليه . ثم ينقطع ما بينهم وبينه . والبيان ليس سلعة من السلع التى ينتقل بها تجارها من سوق إلى سوق . ومن حانوت إلى آخر . ولكنه حركة من حركات النفس الطبيعية التى تصدر عنها عفواً بلا تكلف ولا تعمّل صدورَ النور عن الشمس . والصدى عن الصوت . والأريج عن الزهر . وشعاعٌ لامع يشرق فى نفس الأديب إشراق المصباح فى زجاجته . وينبوع ثرّار يتفجر فى صدره ثم يفيض على أسلات قلمه . وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود . ولو أن أمراً من ذلك كائن لكان أبرع الكتاب وأشعر الشعراء أغزرهم مادة فى العلم أو أعلمهم بقواعد اللغة أو أجمعهم لمتونها أو أحفظهم لفصيح القول ورائعه . أما العلم فأكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الاسفار

(١) الوفيعة خرقة يمسح بها القلم (٢) المتخلج المضطرب فى مشيته

التى نقرأها فى الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا علماء ما يتدافع فى ذلك اثنان . وها قد مرت علينا وعلى ما تركوه بين أيدينا القرون والحقب وأكثرنا عاجز عن فهم أكثر ما كانوا يكتبون . وأما المحفوظات فما نعلم أحداً أحفظ لكتاب الله من جماعة القراء ولا أحفظ للحديث من شيوخ الازهر ولا أجهل منهم جميعاً بالادب ولا أبعد منهم عنه مكاناً . وأما اللغة فما عرفنا بين المتقدمين والمتاخرين من رواتها وحفاظها والمتوفرين على تدوينها وتحقيقها والمنقطعين لدرس قواعدها وفنونها من عرفت له البراعة والتفوق فى تحبير الرسائل أو قرض الشعر أو القوة القلمية فى التصنيف فى غير ما أخذوا أنفسهم به . وكان الخليل بن أحمد اذا سئل عن نظم الشعر قال يأباني جيده وآبى رديئه . وكان الاصمعى يحفظ ثلث اللغة وأبو زيد الانصارى يحفظ نصفها وأبو مالك الاعرابى يحفظها كلها . وكذلك كان شأن النضر بن شميل وأبى عبيدة وابن دريد والازهرى والصاغانى وابن فارس وابن الاثير صاحب النهاية والجوهرى والفيروزبادى وأمثالهم من علماء اللغة والنحو . وما سمعنا لواحد منهم فى إحدى الصناعتين شيئاً مذكوراً . وقال أبو العباس المبرد فى بعض أحاديثه : لا أحتاج الى وصف نفسى لعلم الناس بى أنه ليس أحد من الخافقين تختلج فى نفسه مشكلة إلا لقينى بها وأعدنى لها فانا عالم ومتعلم وحافظ ودارس لا يخفى على مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل وربما احتجت الى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة فاجعل المعنى الذى أقصده نُصب عينى ثم لا أجد سبيلاً الى التعبير عنه بيد ولا لسان . ولقد بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بجميل فحاولت أن أكتب اليه رقعة أشكره فيها وأعرض بعض أمورى فاتعبت نفسى يوماً فى ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها وكنت أحاول الافصاح عما فى نفسى فينصرف لسانى إلى غيره : اه بل لو شئت لقلت إنه ما أفسد على المتنبى وأبى تمام كثيراً من شعرهما ولا على المعرى كثيراً من منظومه ومنثوره ولا على الحريرى

مقاماته ولا على ابن دريد مقصورته الا غلبة اللغة عليهم واستهتارهم بها وشغفهم بتدوينها في كل ما يكتبون . فقد كانوا هم وأمثالهم من حبائس اللغة وأنضائها في كثير من مواقفهم يؤلفون ويدونون . من حيث يظنون أنهم ينظمون أو يكتبون . ولا تزال نفسي تشتمل على لوعة من الحزن لا تفارقها حتى الموت كلما ذكرت أنا معشر العرب كنا نستطيع أن نكون خيراً مما كنا لو أن الله كتب للزوميات المعري النجاة من قبضة اللغة وأسر الالتزام . وإنك لا تكاد ترى اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه الذين يأخذون بزمام هذا المجتمع العربي ويقيمون عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية في شؤونه السياسية والاجتماعية والادبية كافة من يعد من حفاظ اللغة العربية وثقاتها أو من يسلم له مقال من مأخذ لنحوي أو مغمز للغوي . وهم على ذلك عندي أدخل في باب البيان وألصق به وأمس به رحماً من أولئك الذين يستظهرون متون اللغـة ويحفظون دقائقها ويحيطون بمترادفها ومتواردها ويتباصرون بشاذها وغريبها ويحملون في صدورهم ما دق وما جل من مسائل نحوها وتصريفها . فاذا عرض لهم غرض من الاغراض في أي شأن من شؤون حياتهم وأرادوا أنفسهم على الافضاء به أرتج عليهـم فأغلقوا . أو تقعروا وتشدقوا . فكأنهـم لم ينطقوا . والفرق بين الادباء واللغويين أن الاولين كاتبون . والآخرين مصححون . فمثلها كمثل النساج وعامله . هذا ينسج الثوب وهذا يلتقط زوائده ويمسح عنه زئبره (١) أو كمثل الشاعر والعروضي . هذا ينظم الشعر وهـذا يعرضه على تفاعيله وموازينه . وليس البيان ذهاب كلمة أو مجيء أخرى . ولا دخول حرف أو خروج آخر . وانما هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والماء والرونق واستقامة الغرض وتطبيق المفصل والاخذ بالنفوس وامتلاك أزمة الهواء . فان صح ذلك لامرىء فهو الكاتب القدير . أو الشاعر الجليل . فان زات

(١) الزئبر ما يظهر من درز الثوب

به قدم فى وضع حرف مكان حرف . أو غلبه على لسانه دخيل . أو خرج من يده أصيل ، أو كان ممن يفوته العلم ببعض قواعد اللغة أو بعض وجوه الاستعمال فيها . كان ذلك عيباً لاحقاً بعلمه أو بحافظته . لا ببيانه وفصاحته . ومتى صدر القائل فى قوله عن سجية وطبع أصبح شأنه شبيها بشأن العرب الأولين . وكان من شأنهم أن يسبقهم الى كلامهم الخطأ اللفظى فى بعض الاحيان . وكان السبب فى ذلك كما يقول أبو على الفارسى أنهم كانت تهجُم بهم طباعهم على ماينطقون به فربما استهواهم الشئ فزاغوا به عن القصد من حيث لا يشعرون . وكما أن الجسم لا يغير صورته ولا يقلب سحنته أن تطير منه ذرة وتحل أخرى محلها تمثلها كذلك لا يغير صورة الكلام ولا يذهب به خروج أصيل . أو دخول دخيل . ولقد قيل لأحد الكتاب الانكليز نراك كثير الاعجاب بالكاتب «كبلنغ» وهو رجل لحانة لا يحفل بقواعد اللغة . فأجاب ان سطراً واحداً مما يكتبه «كبلنغ» أثمن عندى من قوانين اللغة جميعها . وليس من الرأى أن أحرم نفسى من التمتع بأدبه كراماً لسواد عيون الغراماطيق (١) الانكليزى . وفضل الادباء على اللغة فى سيرورتها وذيوعها وتداولها وخلودها أكبر من فضل اللغويين عليها فى ذلك . لأنهم هم الذين يمهدون سبلها . ويعبّدون (٢) طرقها . ويستدنون نافرها . ويجمعون شاردها . وينظمون لآلئها . نظم الثاقب لآلئه فى السلك . فيأخذها الناس عنهم من أخصر الطرق وأقربها . وأشهاها الى النفس . وأعلقها بالقلب . وقليل من الناس من يأخذ مادته اللغوية من معاجم اللغة أو يكتسب ملكة الاعراب من كتب النحو والتصريف . وما كانت اللغة عدوة للأدب . ولا كان الادب عدوّاً لها . بل هى أساسه وقوامه الذى يقوم به . ولكن المشتغلين بها . والمتوفرين على دراستها . والمنقطعين لاستظهارها . والنظر

(١) الغراماطيق النحو (٢) يعبّدون يذللون ويمهدون

فى دقائقها . والتعمق فى أطوائها . لا يزال يغلب عليهم الولع بها . والفناء فيها . حتى تصبح فى نظرهم مقصداً من المقاصد . لا وسيلة من الوسائل . وللبيان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة . فمن لا يأخذ نفسه بجميع وسائله لا يصل اليه . والتربية العلمية كالتربية الجسمية . فكما أن الطفل لا ينمو جسمه . ولا ينشط ولا تنبسط أعضاؤه . ولا تنتشر القوة فى أعصابه . إلا إذا نشأ فى لهوه ولعبه . وقفزه ووثبه . كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة فى لسانه . ولا تأخذ مكانها من نفسه . إلا إذا ملك الحرية فى التصرف والافتنان والذهاب فى مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيث شاء . دون أن يسيطر عليه فى ذلك مسيطر إلا طبعه وسجيته . واللغوى لا يزال يحوط نفسه بالحذر والخوف . والوساوس والبلابل . فان مشى خيل إليه أنه يمشى على رملة ميثاء . وإن تحرك خيل إليه أن تحت قدميه حفرة جوفاء . حتى تقعد به خوفه ووسواسه عن الغاية التى يريد الوصول إليها . على أن الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة إلا إذا نظر إلى الالفاظ بالعين التى يجب أن ينظر بها إليها فلم يتجاوز بها منزلتها الطبيعية التى تنزلها من المعانى . وهى أن تكون خدماً لها وخولا . وأثوابا وظروفا . فاذا كتب تركها وشأنها وأغفل أمرها حتى تأتى بها المعانى وتقتادها طائعة مرغمة . والمعانى هى جوهر الكلام ولبه . ومزاجه وقوامه . فما شغل الكاتب من همته بغيرها أزرى بها حتى تفلت من يده فيفلت من يده كل شىء

وبعد فالعلم والمحفوظات والمقروآت والمادة اللغوية . والقواعد النحوية . إنما هى أعوان الكاتب على الكتابة ووسائله اليها . فالجاهل لا يكتب شيئاً لانه لا يعرف شيئاً . ومن لا يضطلع باساليب العرب ومناحيها فى منظومها ومنثورها سرت العجمة إلى لسانه . أو غلبته العامية على أمره . ومن قل محفوظه من المادة اللغوية قصرت يده عن تناول جميع ما يريد تناوله من المعانى . ومن جهل قانون اللغة أغمض الاغراض وأبهمها . أوشوه

جمال الالفاظ وهجنتها . ولكنها ليست هى جوهر الفصاحة . ولا حقيقة البيان . فا كثر القائمين عليها . والمضطلعين بها . لا يكتبون ولا ينظمون . فان فعلوا كان غاية إحسان المحسن منهم أن يكون كصانع التماثيل الذى يصب فى قالبه تمثالا سويا متناسب الاعضاء . مستوى الخلق . الا انه لا روح فيه ولا جمال له . لانه ينقصهم بعد ذلك كله أمر هو سر البيان ولبه . وهو الذوق النفسى والفطرة السليمة . وأنى لهم ذلك وما دخلت الفلسفة أيا كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة إلا أفسدته . وما خالط التكلف عملا من أعمال الذوق إلا شوه وجهه . وذهب بحسنه ورونقه

ولقد قرأت ما شئت من منثور العرب ومنظومها . فى حاضرها وماضيها . قراءة المتثبت المستبصر . فرأيت أن الاحاديث ثلاثة . حديث اللسان . وحديث العقل . وحديث القلب

فاما حديث اللسان فهو تلك العبارات المنمقة . والجمل المزخرفة . أو الكلمات الجامدة الجافة التى لا يعنى صاحبها منها شىء سوى صورتها اللفظية . فان كان لغويا تقعر وتشدق . وتكلف وأغرب . حتى يأتيك بشىء خير ما يصفه به الواصف أنه متن مشوش من متون اللغة لا فصول له ولا أبواب . وإن كان بديعيا جنس ورصع وقابل ووشع وزاوج وافتن فى الاتيان بالكلمة مهملة كلها أو معجمة كلها أو راوح بين الاهمال والاعجام فيخيل إليك وأنت تراه ينطق بما ينطق به كانما هو يصنعه بيديه صنعا . أو يصففه تصفيفا . ثم لا يبالى بعد ذلك باستقامة المعنى فى ذاته ولا بمقدار ماله من الأثر فى نفس السامع . وهذا الحديث هو أسقط الاحاديث الثلاثة وأدناها وأجدرها أن ينظمه الناظم فى سلك الصناعات اليدوية التى لا دخل للعقل ولا للفهم فى شىء منها . وأن ينظم صاحبها فى سلك جماعة الصيادلة الذين لا شان لهم إلا تحليل المواد وتركيبها . وجمعها وتفريقها . والمزاوجة بين

مقاديرها . والموازنة بين أثقالها . من حيث لا يكون لقوة التصور . ولا لذكاء القلب . دخل في هذا أو ذاك

وأما حديث العقل فهو تلك المعاني التي يمتحها المائحون (١) من أذهانهم متحاً . ويقتطعونها منها اقتطاعا . ويذهبون فيها مذهب المغاياة والمغالبة والتعمق والاغراب . ويسمونها تارة تخييلا . وأخرى غلوا . وأخرى حسن تعليل . إلى كثير من أمثال هذه الاسماء والالقاب التي تتفرق ما تتفرق ثم يجمعها شيء واحد هو الكذب والاحالة . وآية ما بينك وبينها أنك إذا رأيتها شعرت بأنك ترى أمامك شيئاً غريباً عن نفسك وعن نفس صاحبه وعن نفوس الناس جميعاً . وأن صاحبه لا يريد منه إلا أن يطرفك أو يضحكك أو يدهشك أو يعجّبك من ذكائه وفطنته . واقتداره على تصور ما لا يتصور . وإيجاد ما لا يكون . وهو أمر لا علاقة له بجوهر الشعر . ولا حقيقة الكتابة . وربما انعكس عليه حتى غرضه هذا فنفّرك وأكدّك . وملأ قلبك غيظا وقيحاً كأن يقول :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فان الجوزاء لا تنتطق . ولو كان هذا الذي نراه يستدير بها نطاقا فهو شيء متصل بها قبل أن يخلق الممدوح ويخلق آباؤه الأولون والآخرون إلى آدم وحواء . والكواكب ليست أشخاصاً أحياء يتخذ منها الناس خدما وخولا لانفسهم . ولو كانت كذلك لاستحال عليها وهي من سكان السماء أن تهبط إلى الارض لتخدم سكانها . فقد كذب وأحال أربع مرات في بيت واحد . ثم عجز بعد هذا كله أن يترك في نفس السامع صورة تمثل جلال ممدوحه . وعظم شأنه . فهو في الحقيقة إنما يريد ببيته هذا أن يمتدح نفسه بالابداع وقوة التخيل . لا أن يمتدح ممدوحه برفعة الشأن وعلو المقام

(١) المائح المستقى على البئر

أو يقول — :

مابه قتل أعاديه ولكن يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب

فان الذي يحمل في صدره قلبا رحيما مشفقا على الذئاب من الجوع مستعظما أن يخلفها ما عودها إياه من طعام وشراب لا يمكن أن يكون هو نفسه ذئبا ضاريا يريق دماء الناس ويمزق أحشاءهم . ويقطع أوصالهم . ليملأ بها بطون الوحش . ولا يوجد بين الاسباب التي تحمل الناس على القتال سبب يشبه هذا السبب الذي ذكره . على أن المحسن لا يكون محسنا إلا إذا وهب مايهب من ماله . ومن خزائن بيته . فأما أن يقتل الناس تقتيلا ويمثل بهم ثم ينعم بجثثهم على الجائعين والظماء من وحوش الارض وذئابها فذلك شيء هو بالجنون أشبه منه بالاحسان

أو يقول — :

لا يذوق الاغفاء إلا رجاء أن يرى طيف مستميح رواحا

فان النوم قوام الانسان وعماد حياته . ولازم من لوازمه اللاصقة به . أراد ذلك أم لم يرد . فان كان لا بد من دخوله في باب الاختيار فان من أبعد الاشياء عن التصور والفهم أن يكون ما يحمل الانسان على طلب النوم رجاؤه أن يرى فيه الاحلام والرؤى . فان فعل فلا يدخل في باب أغراضه وأمانيه أن ينام ليرى خيال جماعة المتسولين والمتأكلين وهم ملء الارض وهباء الجو . وأرصاد الاعتاب . وأعقاب الابواب . لا تفتح الأعين إلا عليهم . ولا تملأ الانظار إلا بهم . فهم لم يبلغوا في الضن بأنفسهم والعزف بها مبلغ من لا يراه الرائي ولا يعثر به العاثر إلا إذا ألقى في طريقه حبائل الاحلام ليصطاده بها

أو يقول — :

لم يتخذ ولداً إلا مبالغة في صدق توحيد من لم يتخذ ولدا

فان الاود لايتخذون اتخاذاً وإنما ينعم الله بهم على من يشاء من خلقه إنعاما . وأ كثر ما تقذف به الارحام من النسمات إنما هو ثمرة من ثمرات الحب يأتى بها عفوا . لانبتة من نبات الارض يبذر الزارع بذورها ليستنبتها . والله تعالى غنى بربوبيته ووضوح آثارها عن الاستدلال عليها بنطفة يقذفها قاذفها فى بعض الارحام . فان كان لابد فى اثبات ربوبيته من دليل يدل على مخالفته للحوادث فى الصفات والافعال فالادلة على ذلك كثيرة لا يضبطها الحساب كثرة . وربما كان أهونها وأضعفها أنه لايتخذ ولداً وأنهم يتخذون . على أن المتخذين كثيرون قد ضاق بهم بطن الارض وظهرها . فالمسألة مفروغ منها قبل أن يخلق هذا الممدوح ويخلق ولده فلا فضل له فى الاتيان بشئ جديد

أو يقول — :

وما ريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم فى الترب طيبا

فان الازهار التى تستمد حياتها ونماءها من جثث الموتى ورممهم لا يمكن أن تكون طيبة الريح . على أن الازهار ربحة قبل أن يدفن هؤلاء الموتى فى قبورهم . فلم يزد فى كلمته هذه على أن أتى بخيال ضعيف مبتذل هو أشبه الاشياء بخيال العامة الذين يرون أن بعض الازهار ما خلق إلا إكراما لبعض النبيين

أو يقول — :

تتلف فى اليوم بالهبات وفى السا عة ما تجتنيه فى سنتك

فقد أراد أن يصف ممدوحه بالكرم وصفا فوق ما يصف الناس ويأتى فى ذلك بما لم يأت به غيره فانزله منزلة مجانين المسرفين الذين لا يحسنون الموازنة بين أرزاقهم ونفقاتهم . ولو تقدمت هذه التهمة بهذه الصورة الى قاض من قضاة المال لما كان له بد من الحجر عليه . والقضاة يرضون فى مثل هذه الاحكام بدون إنفاق دخل السنة جميعها فى ساعة واحدة

أو يوم واحد

أو يقول — :

ولما ضاق بطن الارض عن أن يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الاكفان ثوب السافيات

فان شيئاً من ذلك لم يكن . فالقبر لا يضيق بأحد . والجو لا يكون قبراً . والريح ليست كفنا . والرجل لا يزال مصلوباً غير مقبور . ولا يزال عارياً غير مدرج في كفن

وأما حديث القلب فهو ذلك المنثور أو المنظوم الذي تسمعه فتشعر أن صاحبه قد جلس بجانبك ليتحدث اليك كما يتحدث الجليس إلى جليسه . أو ليصور لك ما لا تعرف من مشاهد الكون . أو سرائر القلوب . أو ليفضي اليك بغرض من أغراض نفسه . أو لينفّس عنك كربة من كرب نفسك . أو ليوافق رغبتك في الافصاح عن معنى من المعاني الدقيقة التي تعتلج في صدرك ثم يتكاءدك الافصاحُ عنها . من حيث لا يكون للصناعة اللفظية . ولا الفلسفة الذهنية . دخل في هذا أو ذاك . حتى ترى حجاب اللفظ قد رق بين يديك دون المعنى حتى يفنى كما تفنى الكاس الصافية دون ما تشتمل عليه من الخمر . فاذا الخمر قائمة بغير اناء . أو كما تفنى صفحة المرآة الصقيلة بين يدي الناظر فيها . فلا يرى إلا صورته ماثلة بين يديه ولا لوح هناك ولا زجاج . وهو أرقى الاحاديث الثلاثة وأشرفها . وهو الذي يريده المريدون مهما اختلفت عباراتهم . وتنوعت أساليبهم . من تعريف كلمة البيان

ولقد كان من أكبر ما أعانني على أمري في كتابة رسائل النظرات أشياء خمسة أنا ذاكرها لعل المتأدب يجد في شيء منها ما ينتفع به في أدبه

« أولها » أني ما كنت أحتفل من بين تلك الاحاديث الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل . أي أنني ما كنت أتكلف لفظا غير اللفظ الذي يقتاده المعنى ويتطلبه . ولا أفتش عن معنى غير المعنى الطبيعي القائم في نفسي . بل كنت أحدث الناس بقلمي كما أحدثهم

بلسانى . فاذا جلست الى مكتبى خيل الى أن بين يدى رجلا من عامة الناس مقبلا علىّ بوجهه . وأن من أشهى الاشياء وآثرها فى نفسى أن لا أترك صغيراً ولا كبيراً مما يجول بخاطرى حتى أفضى به إليه . فلا أزال ألتمس الحيلة الى ذلك ولا أزال أتأتى اليه بجميع الوسائل وألح فى ذلك إلحاح المشفق الجد حتى أظن أنى قد بلغت من ذلك ما أريد . فلا أقيد نفسى بوضع مقدمة الموضوع فى أوله . ولا سرد البراهين على الصورة المنطقية المعروفة . ولا ألتزم استعمال الكلمات الفنية التزاما مطرداً إبقاء على نشاطه واجمامه . واشفاقا عليه أن يمل و يسأم فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به

« وثانيها » أنى ما كنت أحمل نفسى على الكتابة حملا . ولا أجلس الى مكتبى مطرقا مفكراً ماذا أكتب اليوم . وأى الموضوعات أعجب وأغرب . وألذ وأشوق . وأيها أعلق بالنفوس . وألصق بالقلوب . بل كنت أرى فافكر فاكتب فأنشر ما أكتب فأرضى الناس مرة وأسخطهم أخرى من حيث لا أتعمد سخطهم . ولا أتطلب رضاهم

« وثالثها » أنى ما كنت أكتب حقيقة غير مشوبة بخيال . ولا خيالا غير مرتكز على حقيقة . لانى كنت أعلم أن الحقيقة المجردة من الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذاً . ولا تترك فى قلبه أثراً . وأحسب أن السبب فى ذلك أن أكثر ما تشتمل عليه النفوس من العقائد والمذاهب . والآراء والاخلاق . والخواطر والتصورات . انما هو أثر من آثار الخيالات الذهنية التى تتراءى فى سماء الفكر . ثم لا تزال بها الايام تكسوها طبقة بعد طبقة من غُبار القِدم حتى تصبح حقيقة من الحقائق الثابتة فى الاذهان . وكما أن الحديد لا يفل الا الحديد . واللون لا يذهب به الالونُ غيره . كذلك الخيال لا يذهب به ولا يزعجه من مكانه الا الخيال . وللخيال الأثر الاعظم فى تكوين هذا المجتمع الانسانى وتكييفه بالصورة التى يريدها . فلولا خيال الشعر ماهاج الوجد فى قلب العاشق . ولولا خيال الشرف ماهلك

الجندى فى ساحة الحرب . ولولا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات . ولا ابتدعت المبتدعات . ولولا خيال الرحمة ما عطف غنى على فقير . ولا حنا كبير على صغير . كما كنت أعلم أن الخيال غير المرتكز على الحقيقة انما هو هبوة طائرة من هبوات الجو لا تهبط الى أرض . ولا تصعد الى سماء

«ورابعها» إنى كنت أكتب للناس لا لأعجبهم . بل لأنفعهم . ولا لأسمع منهم أنت حسنت . بل لأجد فى نفوسهم أثراً مما كتبت . والناس كما أقول فى بعض رسائلى خاصة وعامة : أما خاصتهم فلا شأن لى معهم . ولا علاقة لى بهم . ولا دخل لكلمة من كلماتى فى شأن من شؤونهم . فلا أفرح برضاهم . ولا أجزع لسخطهم . لانى لم أكتب لهم . ولم أتحدث معهم . ولم أُشهدهم أمرى . ولم أُحضرهم عملى . بل أنا أتجنب جهد المستطيع أن أستمع منهم شيئاً مما يتعلق بى من خير أو شر . لانى راض عن فطرتى وسجيتى فى اللغة التى أكتب بها فلا أحب أن يكدرها على مكدر . وعن آرائى ومذاهبى التى أودعها رسائلى فلا أحب أن يشككنى فيها مشكك . ولم يهبنى الله من قوة الفراسة ما أستطيع به أن أميز بين مخلصهم ومشوبهم . فأُصغى الى الاول لاستفيد علمه . وأُعرض عن الثانى لاتقى غشه . فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له أن يفرغ منها فى ساعة معينة . ثم علم أن على يمين الطريق التى يسلكها روضة تعتنق أغصانها . وتشتجر أفنانها . وأن على يساره غابا تزأر أسوده . وتعوى ذئابه . وتفح أفاعيه وصلاله . فمضى قدُماً لا يلتفت يَمنة مخافة أن يلهو عن غايته بشهوات سمعه و بصره . ولا يَسرة مخافة أن يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية . والصلال الناشرة . فتعترض دون طريقه : وأما عامتهم فهم بين ذكى قد وهبه الله من سلامة الفطرة . وصفاء القلب . ولين الوجدان . ما يعده لاستماع القول واتباع أحسنه . فأنا أحمد الله فى أمره . وضعيف قد حيل بينه و بين نفسه فهو

لا يرضى الا عما يعجبه . ولا يسمع إلا ما يطرب به . فأكل أمره الى الله . وأستلهمه صواب الرأى فيه . حتى يجعل الله له من بعد عسر يسراً

« وخامسها » أننى كنت أقدر عقول الناس وأفهامهم فوق قدرها . فكنت أرى أنه ليس بين الرجل و بين فهم الحقيقة و إدراكها إلا أن تتراءى له فى ثوبها الناصع الابيض فيبتسم لها ابتسامة الهانئ المغتبط ثم يضمها اليه . فكنت لا أزال أزخرفها له ما استطعت حتى يراها إن كان غافلا عنها . وأستثيرها له من مكمنها إن كنت أرى أنه يتطلبها . وأحوطها بالبرهان مرة والخيال أخرى ليكون على بينة من أمرها إن كان فى شك منها . وأعاتبه حينا ليخجله العتاب . وأقرعه أحيانا ليؤلمه التقريع . وأُطلع بين جوانحه شمساً مشرقة من الحكمة والموعظة الحسنة قد اجتمع لها ما اجتمع للشمس من ضوئها وحرارتها . لينير الضوء ظلمة نفسه . وتلتقط الحرارة أدرانها . حتى أظن أنى قد بلغت من نفسه ما أريد . وما هى إلا غمضة والتفاتة حتى أراه كما هو صخرة ملساء تنزلق عنها الحوادث انزلاقاً . فلا تثبت عليها يد . ولا تستقر فوقها قدم . فعلمت بعد أن عالجت نفسى على مدافعة ما أعلم حينا من الدهر أنه إنما كان يطرب عندما أحدثه لحلاوة النغمة فى أذنيه . لا لوجدان برد الحقيقة فى صدره . وأن بين يدىّ فى طريقى إليه تلك العقبة التى أعيا الكاتبين قبلى أمرها . وهى العادات والعقائد التى تشتمل عليها نفوس الامم وتحيط بها إحاطة الاسوار الصماء بالمدن والقلاع . حتى لا يطرقها طارق . ولا يزعجها مزعج . فذبل من أملى ما كان زاهراً . وضعف من عزمى ما كان قويا . ولا أحسب أن سيسمع السامع منى بعد اليوم تلك النغمة التى كان يسمعها من قبل . فالاقلام كالنفوس يحييها الامل . و يقتلها اليأس

مصطفى لطفى
المنفلوطى

الدفين الصغير

الآن نفضت يدي من تراب قبرك يا بُني وعدت الى منزلي كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب لا أملك الا دمعة لا أستطيع ارسالها . وزفرة لا أستطيع تصعيدها ذلك لأن الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرك فرزقني بك قبل أن أسأله اياك . ثم استلبك مني قبل أن أستعفيه منك . قد أراد أن يتمم قضاءه فيَّ وأن يجرعني الكأس حتى ثمالتها فأحرمني من دمعة أرسلها . أو زفرة أصعّدها . حتى لا أجد في هذه ولا تلك ما أتفرج به مما أنا فيه . فله الحمد راضياً وغاضباً . وله الثناء منعماً وسالباً . وله مني ما يشاء من الرضى بقضائه . والصبر على بلائه

رأيتك يا بُني في فراشك عليلاً فجزعت . ثم خفت عليك الموت ففزعت . وكأنما كان يخيل اليَّ أن الموت والحياة شأن من شؤون الناس وعمل من الاعمال التي تملكها أيديهم فاستشرت الطبيب في أمرك فكتب لي الدواء . ووعدني بالشفاء . فجلست بجانبك أصبّ في فمك ذلك السائل الاصفر قطرة قطرة . والقدر ينتزع من بين جنبيك الحياة قطعة قطعة . حتى نظرتُ فاذا أنت بين يديَّ جثة باردة لا حراك بها . واذا قارورة الدواء لا تزال في يدي فعلمت أني قد ثكلتك وأن الأمر أمر القضاء . لا أمر الدواء

سأنام يا بُني بعد قليل على فراش مثل فراشك . وسيعالج مني المقدار ما عالج منك . وأحسبُ أن آخر ما سيبقى في ذاكرتي في تلك الساعة من شؤون هذه الحياة وأطوارها . وخطوبها وأحداثها . هو الندم العظيم الذي أكابده اليوم على تلك الجُرَع المريرة التي كنت أجرّعك اياها بيدي وأنت تجود بنفسك فيربدّ وجهك . وتختلج أعضاؤك . وتدمع عيناك . ومالك يد فتستطيع أن تمدها اليَّ فتدفعني عنك . ولا لسان فتستطيع أن تشكوَ اليَّ مرارةَ ما تذوق

لقد كان خيراً لي ولك يا بني أن أكل الى الله أمرك في شفائك ومرضك . وحياتك

وموتك . وأن لا يكون آخر عهدك بى يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلام التى كنت أجشّمك اياها . فلقد أصبحتُ أعتقد أنى كنت عونا للقضاء عليك . وأن كأس المنية التى كان يحملها لك القـدر فى يده لم تكن أمرّ مذاقا فى فمك من قارورة الدواء التى كنت أحملها لك فى يدى

ما أسمج وجه الحياة من بعدك يا بُنى وما أقبح صورة هذه الكائنات فى نظرى . وما أشد ظلمة البيت الذى أنا ساكنه بعد فراقك اياه . فلقد كنت تطلع فى أرجائه شمساً مشرقة تضىء لى كل شىء فيه . أما اليوم فلا ترى عينى مما حولى أكثر مما ترى عينك الآن فى ظلمات قبرك

بكى الباكون والباكيات عليك ما شاءوا . وتفجعوا ما تفجّعوا . حتى اذا استنفدوا ماء شؤونهم . وضعفت قواهم عن احتمال أكثر مما احتملوا . لجأوا الى مضاجعهم فسكنوا اليها . ولم يبق ساهراً فى ظلمة هذا الليل وسكونه غير عينين قريحتين . عين أبيك الثاكل المسكين . وعين أخرى أنت تعلمها

لقد طال علىّ الليل حتى مللتـه . ولكننى لا أسأل الله أن ينفرج لى سوادُه عن بياض النهار . لان الفجيعة التى فُجعتها بك يا بُنى لم تُبق بين جنبى بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك . فليت الليـل باقٍ حتى لا أرى وجه النهار . وليت النهار يأتى فقد مللت هذا الظلام

دفنتك اليوم يا بُنى ودفنتُ أخاك من قبلك . ودفنتُ من قبلكما أخويكما . فانا فى كل يوم أستقبل زائرا جديدا . وأودع ضيفا راحلا . فيا لله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقى القلوب . واحتمل فوق ما تحتمل من فوادح الخطوب

لقد اقتلذ كل منكم يا بنىّ من كبدى فلذة فأصبحت هذه الكبد الخرقاء مِزَقا مبعثرة فى زوايا القبور . ولم يبق لى منها الا ذماء قليل لا أحسبه باقياً على الدهر . ولا أحسب الدهر تاركه حتى يذهب به كما ذهب باخوانه من قبل

لماذا ذهبتم يا بنىّ بعد ما جئتم . ولماذا تجيئون ان كنتم تعلمون أنكم لا تقيمون

لولا محبتكم ما أسفت على خلو يدى منكم . لانى ما عودت نفسى أن تمتد عينى الى ما ليس فى يدى . ولو أنكم بقيتم بعد ما جئتم ما تجرعتُ هذه الكاس المريرة فى سبيلكم

لقد كنت أرضى من الدهر فى أمركم أن ينفرج لى عن طريقى و يتركنى وشأنى . وأن يزوى وجهه عنى فلا أراه ولا يرانى . ولا يحسن الىّ ولا يسىء . ولا يتقدم الى بخير ولا شر . ولا يتراءى لى مبتسما ولا مقطبا . ولا ضاحكا ولا باكيا . لو أنه رضى منى بذلك . ولكنه كان أذكى قلبا . وأنفذ بصرا . من أن يفوته العلم بانى ما كنت أبكى على النعمة لو لم تكن فى يدى . وما كنت أجد مرارة فقدانها . لو لم أذق حلاوة وجدانها . وكان لا بد له أن يجرى فىّ سنة الشقاء الذى أخذ على نفسه أمام الله أن يجريها بين عباده . فلما عجز عن أن يدخل الى من باب الطمع . دخل الى من باب الامل . فهو يمنحنى المنحة فأغتبط بها برهة من الدهر حتى اذا علم أن بذرة الامل التى غرسها فى نفسى قد نمت وأزهرت وأنى قد استعذبت طعم النعمة التى آتانى كرّ علىّ فانتزعها من يدى أنعم ما أكون بها كما تنتزع الكأس الباردة من يد الظامىء الهيمان . ليعظم وقع السهم فى كبدى . ويفدح سلبُ النعمة من يدى . ولولا ذلك ما نال منى منالا . ولا وجد الى سبيلا

يا بنىّ إن قدر الله لكم أن تتلاقوا فى روضة من رياض الجنة . أو على شاطىء غدير من غدرانها . أو تحت ظلال قصر من قصورها . فاذكرونى مثل ما أذكركم . وقفوا بين يدى ربكم صفاً واحداً كما يقف بين يديه المصلون . ومدوا اليه أكفكم الصغيرة كما عدها السائلون . وقولوا له : اللهم انك تعلم أن هذا الرجل المسكين كان يحبنا وكنا نحبه وقد فرقت بيننا و بينه فهو لا يزال يلاقى من بعدنا من شقاء الحياة و بأسائها ما لا طاقة له باحتماله . ولا نزال نجد بين جوانحنا من الوجد به . والحنين اليه . ما ينغص علينا هناء هذه النعمة التى ننعم بها فى جنانك . بين سمعك و بصرك . وأنت أرحم بنا و به من أن تعذبنا عذابا كثيرا . فاما أن تأخذنا اليه و إما أن تأتى به الينا : لا بل لا تطلبوا منه الا أن يأتى بى اليكم . فان الحياة التى كرهتها لنفسى لا أرضاها لكم . فعسى أن يستجيب الله من دعائكم ما لم يستجب من دعائى . فيرفع هذا الستار المسبل بينى و بينكم . فنلتقى كما كنا

روح الاجتماع

إن لكتاب روح الاجتماع عندي يداً لا أنساها لمؤلفه الدكتور جوستاف لوبون ومترجمه العالم الفاضل سعادة «أحمد فتحي زغلول باشا» فقد وجدني ضالاً فهداني . وحائراً فرفع لي مناراً أحمر حتى عرفت السبيل

كنت أنقم من هذا المجتمع المصري شؤونا ما كنت أنقم مثلها من غيره من المجتمعات البشرية . وكنت أكاد أعتقد أنه مجتمع شاذ غريب في أطواره وصفاته . حتى قرأت ذلك الكتاب الذي شرح طبيعة المجتمعات عامةً شرقيها وغربيها وقرر لها حكماً واحداً لا يختلف ولا يتخلف . فعرفت أن لا فرق بين الشعب المصري وغيره من الشعوب الاخرى الا كما يكون بين الشيء والشبيه به من الاتفاق في الجوهر والكيفية . والاختلاف في العرض والكية

كنت أعجب للجماعة المؤلفة من اتباع الحزب الوطني أن أراها مائلة الى تصديق زعماء ذلك الحزب في دعواهم القدرة على ازعاج الاحتلال الانكليزي من مكانه ومقاومة قوته القاهرة بمقالات يسطرونها . أو خطب ينمقونها . وعلى انتزاع الدستور من يد صاحب الامر فيه بصراخ الشوارع . وهتاف الجامع . بل الى تصديق كل قائم بينها سواء أكان هنديا أو جركسيا أو بربريا أو نوريا أو فرنسيا أو انكليزيا زاعماً أنه يخدم الوطنية المصرية بصدق واخلاص كما صدّقت بالامس المستر بلانت الانكليزي في دعواه أنه قد نزل من حب الوطن المصري منزلة من يهدي النصائح والعظات الى الجناب العالي الخديوي أكبر أصحاب الشأن في القضية المصرية ويعلمه كيف يكون وطنياً . وكما صدّقت اليوم المسيو دبروجا الفرنسي والمسيو دراجيلا الاسباني في دعواهما الغيرة عليها . والاهتمام بشأنها . فالأنهما على أميرها أبي الوطنية . ومطلع كوكبها الساري . وظهرت في توديعهما الى منفاهما بمظهر تتصبب له الجباه عرقا . وتندى له الوجوه الكريمة حياء وخجلا . فلما قرأت في روح

الاجتماع وله « ولما كانت الجماعة على الدوام محلقة فى حدود اللاشعور تتأثر بالسهولة من جميع المؤثرات وذات احساس قوى كاحساس الاشخاص الذين لا يمكنهم الاستعانة بالعقل ومجردة من ملكة النقد والتمييز كان من شأنها أن تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد » عرفت أن تلك طبيعة الجماعات وأن ليس الذنب فيها على المجتمع المصرى خاصة بل على المجتمعات الانسانية عامة

وكنت أعجب للرجل الذى لا بأس بلبه . ولا ظنة فى فهمه وادراكه . من محام بارع . أو طبيب حاذق . أو عالم محقق . أو باحث مدقق . أن أراه على جلاله وعظمه منتصباً وسط أتباع الحزب الوطنى يضج ضجيجهم . ويصرخ صراخهم . ويقول بما يقولون . ويفهم كما يفهمون . ويتقلب فى أكفهم تقلب الكرة فى أكف اللاعبين . ويشاركهم فى تصور ما لا يتصور . وتصديق ما لا يكون . حتى قرأت فى روح الاجتماع قوله أثناء الكلام على قابلية الجماعة للتصديق بالخيالات الباطلة « ولا ينبغى فى ردما تقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل والذكاء الوافر لانه لا تأثير لتلك الصفة فى موضوعنا اذ العالم والجاهل سواء فى عدم القدرة على التمييز ما داموا فى الجماعة » وقوله فى موضع آخر « وأشد الناس افتراقا من حيث مداركهم يتشابهون فى الوجدانات والشهوات والمشاعر . وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة فى الامور التى مرجعها الشعور كالدين والآداب والميل والنفور وهكذا الا نادراً . فقد يكون بين الرياضى الكبير وبين صانع حذائه بعد ما بين السماء والارض من حيث العقل والذكاء . ولكن الفرق بينهما فى الطباع معدوم فى الغالب أو هو ضعيف للغاية » وقوله فى موضع آخر « يهبط المرء بمجرد انضمامه الى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية . ولعله فى نفسه كان رجلا مثقف العقل . مهذب الاخلاق . ولكنه فى الجماعة ساذج تابع للغريزة . ففيه اندفاع الرجل الفطرى وشدته . وفيه عنفه وفيه حماسته وشجاعته . وفيه من سهولة التأثر بالالفاظ والصور ربما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة . ثم فيه الانقياد بذلك الى فعل ما يخالف منافعه البديهية ويناقض طباعه التى اشتهرت عنه . وبالجملة فان الانسان فى الجماعة أشبه بحبة من رمال تثيرها الرياح ما هبت » هنالك هدأ خاطرى . وثلج

صدرى . وأمكننى أن أقول إن أذكياءنا ليسوا بأغبياء . وعلماءنا ليسوا بجهلاء . ولكنهم انضموا الى الجماعة فنزلوا منها منزلة أمثالهم من أمثالها فى كل زمان ومكان

وكنت أعجب لخضوع أتباع الحزب الوطنى لرؤسائهم الذين يؤذونهم ويمثلون بهم ويستلبون أموالهم ان كانوا أغنياء . وقواهم ان كانوا أقوياء . ومستقبلهم ان كانوا متعلمين . وحاضرهم إن كانوا موظفين . وعقولهم ان لم يكونوا شيئا من هذا ولا ذاك . كما كنت أعجب لانصرافهم عمن يأخذهم باللين . ويرفق بهم . ويحنو عليهم . ويضع يده فى أيديهم فى مزالق الحوادث مخافة أن تزل بهم أقدامهم . فما زال عجبى حتى قرأت فى روح الاجتماع قوله فى حديثه عن الجماعة « وهى تحترم القوة وتخنع لها . ولا تتأثر بالحسنى إلا قليلا . لانها فى نظرها صورة من صور الضعف ليس إلا . لذلك لم تمل الى رؤسائها الذين عرفوا باللين والرفق بل الى الطغاة المستبدين الذين سحقوها »

وكنت أعجب لاهتمامهم بمطالعة المقالات السياسية التى تنشرها جرائد حزبهم وتأثرهم بها على ما تشتمل عليه من الادلة الفاسدة . والمعانى السقيمة . والاساليب الباردة . والبراهين الملفقة . التى يأنف عقل العاقل أن يمنحها حتى النظرة الاولى . وكنت أظن أن ذلك راجع الى فساد ذاتى فى أذواقهم . أو ضعف غريزى فى مداركهم . حتى وقفت على الحقيقة عند الاطلاع على قول صاحب روح الاجتماع « ان رابطة الافكار التى تقرنها الجماعات بعضها من حيث المشابهة أو التلازم ظاهرية لا حقيقية . فهى تتسلسل عندها كما تتسلسل الادلة فى ذهن الرجل الاسكيماوى الذى عرف بالتجربة أن الثلج وهو جسم شفاف يذوب فى الفم . فاستنتج من ذلك أن الزجاج وهو شفاف أيضا يجب أن يذوب فى الفم . وكالمتوحش الذى يتصور أن أكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته الى الآكل . والحاصل أن تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين أشياء متخالفة لا رابطة بينها الا فى الظاهر والانتقال الفجائى من الجزئى الى الكلى ومن التخصيص الى التعميم بلا تروٍ . والادلة التى يقدمها اليها أولئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطرز . لانها هى الادلة التى تؤثر فيها . بخلاف سلسلة من الادلة المنطقية فانها لا تدركها بحال . فالخطيب الخبير باحوال

جماعتــه يعرف طريقة استحضار الصور التى تجذبها . فاذا نجح فذلك ما أراد . ولو ألقيت خطب فى عشرين مجلد بعــد ذلك ما كان لهــا من التأثير ما أحدثتــه تلك الــكلمات التى دخلت فى الرءوس المراد اقناعها »

وكنت أعجب لاعراض المتعلمين منهم عن الحقائق التاريخية والسياسـية والاجتماعية المتعلقة بالمسـئلة المصرية وعلاقة الدول الاجنبية بها عامة والدولة المحتلة خاصة . وتقدير الفرق بين قوة الدولة الغاصبة وقوة الامة المغصوبة . وتنظيم حلقات الوسائل الموصلة الى سعادة مصر واستقلالها . وطيرانهم وراء أوهام الذين يقولون لهم «الجلاء على الابواب» و «الدستور قاب قوسـين أو أدنى» و «قطعنا شوطاً بعيـداً» و «لم يبق الا القليـل» و «الدولة العثمانية بدأت تهتم بشأننا» و «الحكومة الالمانية تساعـدنا» و «الحكومة الانكليزية ترتعـد فرائصها منا» و «أوربا جميعها تحسب لنهضتنا ألف حساب» وأمثال ذلك مما هو أشـبه بخيالات الاطباء الذين يحاولون تعزية المرضى المشرفين . وخرافات المنجمين الذين يعبثون بعقول عجزة الشيوخ وجهلة النساء . حتى قرأت فى روح الاجتماع قوله «سارت الفلسفة الى الامام شوطاً بعيـداً ولـكنها مع تقدمها لم تهيء للجماعات خيالا يلذها . والجماعات لاغنى لهـا عن الاوهام . لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت الى تجار البلاغـة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة التى تدب حيث يكون الضياء . . . فما كانت الجماعات فى ظمأ الى الحقيقة طول حياتها . واذا تبدت أمامها وكانت تغضبها أعرضت ونأت وراحت تعبد الاوهام التى ترضى الامرة عليها لمن أضلها . والويل منها لمن هداها» فعلمت أن تلك الجماعة ليست جاهلة ولا قاصرة . ولـكنها جماعة . ومن الضرورى أن تكون كذلك

وكنت أعجب لتشيعهم للدستور واحتفالهم به . والحاحهم فى طلبه . الحاح الفاهم المدرك . وأنا أعلم أن أكثرهم لايفهمون منه الا أنه القوة التى يقتدر بها الشعب على أن يأكل بعضه بعضاً بلا رقبة ولا حـذر . فلو عرفوه حق معرفته لوجـدوا فى أنفسـهم أن عدمـه خير لهم من وجوده . لانه عدل ورحمة . ولانه يمنع ظلمة الآكلين أن يجدوا ما يأكلون . فلم أقف

على سر تشيعهم له وهو فى الحقيقة أبغض الاشياء اليهم . حتى قرأت فى ذلك الكتاب قوله « وكم من جماعة تقدمت الى الموت فى سبيل معتقدات وأفكار وكلمات كانت تكاد لا تفقه شيئاً من معانيها ... لان المصلحة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً للحركات الجموع »

وكنت أراهم غالين فى مشاعرهم . متطرفين فى ميولهم . وأرى أنهم إما أن يحبوا فيعبدوا . وإما أن يبغضوا فيقتلوا . وأن الرجل عندهم اما أن يكون الها أو شيطاناً ولا ثالث لهما . وان رضاهم عن رؤساء حزبهم لا يقل عن رضاهم عن رسلهم وأنبيائهم الذين هدوهم الصراط المستقيم . فما كاد أختصهم بصفات الغفلة والبله لولا أن كشف لى روح الاجتماع سر المسألة فى قوله « غلو مشاعر الجماعة و بساطتها يجعلانها لا تعرف الشك ولا التردد . فهى كالنساء تذهب فوراً الى الحد الاقصى . فالشبهة متى بدت تنقلب الى بديهى لا يقبل البحث . والرجل منفرداً قد لا يقر على أمر أو ينفر منه نفوراً لا يتعدى مجرد الرغبة عنه . وأما الرجل فى الجماعة فانه متى نفر انقلب نفوره حقداً شديداً » وقوله فى موضع آخر « كثيراً ما سمعنا عن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائماً بممثل الخائن الاثيم عند خروجه خوفاً عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لانه ارتكب تلك الجرائم الوهمية . وهذا فيما أرى من أكبر الادلة على حالة الجماعات العقلية و بالاخص على سهولة التأثير فيها . فللوهمى عليها من ذلك ما للحقيقى تقريباً . وهى ميالة ميلا ظاهراً الى عدم التمييز بينهما »

وكنت أعتقد أن لا شىء يؤثر فى نفوس الجماعات غير اخلاص الدعاة . ثم استحال على التوفيق بين ما أعتقد و بين ما أعلم من أطوار زعماء الحزب الوطنى ودخائل نفوسهم من انهم لا يطلبون مما يعملون فى هذه الحياة غير ما يطلب كل عامل فيها من لقمة سائغة . وجرعة صافية . ومركب فاره . ومتكأ وثير . حتى اهتديت الى حل هذه العقدة فى قول صاحب روح الاجتماع « وجد القواد فى الامم على الدوام . غير أنهم ليسوا جميعاً من أهل الاعتقاد الصادق الذى يصير به المرء رسولا فى قومه . بل هم فى الغالب سوفسطائيون لا يسعون الا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوى المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهم . وقد يكون النفوذ الذى ينالونه بهذه الوسائل كبيراً جداً الا أنه سريع الزوال »

وكنت أعتقد أن أقدر الناس على قيادة الجماعات أذ كاهم قلباً . وأوسعهم عقلا . وأفصحهم لسانا . وأجراهم قلماً . فلما رأيت أن قوادا لحزب الوطنى ليس فيهم من يمتاز عن أفراد الطبقة التى نشأ فيها بمزة خاصة من طلاقة لسان . أو بلاغة قلم . أو علم واسع . أو خلق مؤثر . وقفت أمام هذه العضلة المستعصية وقفة الحائر المضطرب حتى قرأت فى روح الاجتماع قوله « ليس القواد غالبا من أهل الرأى والحصافة . بل هم من أهل العمل والاقدام . وهم قليلو التبصر . على أنه ليس فى استطاعتهم أن يكونوا بصراء . لان التأمل يؤدى غالباً الى الشك ثم الى السكون . وهم يخرجون عادة من بين ذوى الاعصاب المريضة المتهوسين الذين اضطربت قواهم العقلية الى النصف وأمسوا على شفا جرف الجنون . لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلا . ولا تثنيهم حجة عن طلب ما قصدوا بالغاً منها الخطل ما بلغ . ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد . بل ذلك يزيدهم تهوساً وعناداً » وقوله فى موضع آخر « وكان أكبر القواد من الامم خصوصاً قواد الثورة الفرنساوية من قصار العقول جداً . وكان أكبرهم تأثيراً أشدهم قصراً فى العقل . فان الانسان ليدهش مما يراه من التخبط عند مطالعة رسائل أعظمهم قدراً وهو روسبيير . ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لا يجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار . . . صيغ كلية جارية على كل لسان . وشفشقة فى الفصاحة المحفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعتا فى نفس خلوها أكثر من انحطاطها . نفس تكاد لا تعرف من وسائل الهجوم أو الدفاع الا ما تعوده التلاميذ من قول الواحد منهم لزميله : هل من مبارز : وليس هناك رأى ولا تدبير ولا شاردة . عنف ممل وشدة مسئمة . فاذا فرغ القارئ من تلك المطالعة المملة شعر بالحاجة الى قول أف كما كان يفعل الرجل الظريف كاميل ديمولان

وكنت أعجب لبعض اتباع الحزب الوطنى و بعض كتاب جرائده كيف استحالوا الى جناة مجرمين . بعد أن كانوا أشرافا أتقياء . وكيف هان عليهم أن يجاملوا نفوسهم بالاغضاء عما تقترفه من سب الابرياء وهتك أعراض الاشراف والعبّ فى الدماء البشرية بصورة وحشية بعد أن كانوا يترفعون عن لمم الذنوب وصغائر الدنايا . كما كنت أعجب لهذا البائس

المسكين الذى كان أندى الناس وجهاً . وأ كثرهم حياء وأدبا . كيف حسن فى نظره منظر جريمة القتل التى ارتكبها ثم هلك فى سبيلها فضرب بجريمته الوطن الذى يحسب أنه يخدمه ضربة هيهات أن يئل من بعدها (١) . ثم عرفت ان ذلك لازم من لوازم الجماعات عند ماقرأت قول صاحب روح الاجتماع «ان الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال فى أميااله مما كان يحجم عنه مفرداً بالضرورة . ثم هو لا يكبح جماح نفسه لان الجماعة لا تُسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الافراد . فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة . وهذا الشعور هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغى » وقوله فى موضع آخر « تصدر الجرائم عن الجماعة غالباً بسبب تحريض قوى . و يعتقد الذين ارتكبوها من أفرادها أنهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم . وهذا ليس شأن الجناة فى الاحوال الاعتيادية

وهنا يكتنى أن أستخلص مما تقدم الحقائق الآتية

(١) ليس اجماع واحد أو عشرة آلاف أو مائة ألف متأثرين بشعور واحد مستمدين قوة واحدة على رأى من الآراء دليلا على صحة ذلك الرأى لانه رأى فرد واحد تاثر به الباقى تقليداً أو عدوى . و رأى الواحد مترجح بين الخطأ والصواب

(٢) ليس انضمام جماعة من أذكياء الناس وعقلائهم فى حزب من الاحزاب أو جمعية من الجمعيات دليلا على فضل ذلك الحزب أو شرف مقاصده أو صحة مبادئه لانهم لا يجتازون عتبته الا بعد أن يخلعوا عقولهم ومواهبهم مع أرديتهم وعصيهم خارج بابه

(٣) لا يشترط فى قيادة الجموع أن يكون القائد ذكيا أو عاقلا أو داهية أو مفكراً أو فصيحاً بل يكفيه من ذلك كله شىء من العلم بأذواق أتباعه وسبل الوصول إلى قلوبهم لا يزيد عن علم التاجر بأذواق زبائنه و رغباتهم

(٤) ليس حب الجماعة لبعض الناس و بغضهم لآخرين دليلا على رفعة من يحبون . وضعة من يبغضون . وليست جرائمهم التى يقترفونها باسم الشعور الذى يشتركون فيه دليلا

(١) المراد بهذه الجريمة جريمة الوردانى قاتل بطرس باشا

على أن من يقتلون يستحق القتل . أو يشتمون يستحق الشتم . أو يحتقرون يستحق الاحتقار . بل كثيراً ما تكون الحقيقة على العكس من ذلك عند ما يكون قائد تلك الجماعة من أشرار الناس وأدنيائهم

(٥) لا يكون مقتدراً تمام الاقتدار على قيادة الجماعات واستهوائها أو مقاومتها ومصارعتها من يذهب فى كتاباته أو خطاباته مذهب القياس الصحيح والبرهان العقلى . ومن يكون كثير الاحتراس من الكذب والتلفيق والسفسطة والتضليل أو طاهر اللسان والقلم من السفاهة والشتم

(٦) لا سبيل للانسان إلى الخلاص من خطل الجماعات وضلالها مهما كان ذكياً أو مفكراً إلا إذا حبس نفسه عن الانضمام اليها . أو كان له من عزيمة الرأى وصلابة النفس ما يمكنه من تربية نفسه على التجرد حتى يصير طبيعة له . فيحضرها شاهداً كغائب ومجتمعا كمنفرد

(٧) لا يجوز للتلميذ فى أثناء الدراسة أن ينضم إلى حزب من الاحزاب أو جمعية من الجمعيات بالفعل أو بالقوة الا بعد أن يستمد من العلم قوة تساعده على اكتساب ملكة التجرد التى لابد له من معالجة اكتسابها للخلاص من جنون الجماعات وتهوسها ان اضطر فى مستقبل أمره إلى الانضمام إليها

(٨) جميع القوى التى يتوسل بها قائد الحزب أو الجماعة إلى التأثير على أتباعه أو تكثير عددهم ضعيفة بجانب القوة التى يستمدها من مقاومة الحكومة التى يعيش فيها له بالتهديد أو السجن أو التعذيب . فانه يستفيد من ذلك عطف أتباعه عليه . وتشبثهم به . و يؤنس بأحاديث نكبته ونوادر رزيئته قلوبهم كلما ألم بها الملل منه ومن وعوده الكاذبة وأقواله المرددة . فان كان لتلك الحكومة أرب فى القضاء عليه وعلى أتباعه وكانت قادرة على قطع الصلة بينه و بينهم بقفل جريدته إن كان صحافياً أو قطع خطابته ان كان خطيباً فلتفعل . و إلا فلتتركه وشأنه حتى يعيى بأمرهم . وتنفد بقية القوى التى يتوسل بها اليهم

(٩) ليست تلك الطبيعة المقررة للجماعات المؤلفة من البساطة والبله وسرعة

التصديق والاندفاع والغلو شرا دائماً . بل قد تكون خيراً محضاً اذا رزق الله تلك الجماعات قواداً دهاة مقتدرين على الخداع الشريف يسوقونها الى سعادة أممهم وهنائها . وحريتها واستقلالها

(١٠) ليس وجود التهوس والتحمس والغضب والتهور فى حزب من الاحزاب المصرية دليلا على تأخر الامة وانحطاطها انحطاطاً كثيراً لانها صفات عامة فى كل الجموع الشرقية والغربية وان كان خطرها علينا أكثر من خطرها على غيرنا

مناجاة القمر

أيها الكوكب المطل من علياء سمائه . أأنت عروس من حسناء تطل من نافذة قصرها . وهذه النجوم المبعثرة حواليك قلائد من جمان . أم ملك عظيم جالس فوق عرشه . وهذه النيرات حور وولدان . أم فص من الماس يتلألأ . وهذا الفلك خاتم صيغ من الانوار . أم مرآة صافية . وهذه الهالة الدائرة بك إطار . أم عين ثرة من الماء . وهذه الاشعة جداول تتدفق . أو تنور مسجور . وهذه الكواكب شرر يتألق

أيها القمر المنير :

أنك أنرت الارض وهادها ونجادها . وسهلها ووعرها . وعامرها وغامرها . فهل لك أن تشرق فى نفسى فتنير ظلمتها . وتبدد ما أظلها من سحب الهموم والاحزان

أيها القمر المنير :

ان بينى و بينك شبهاً واتصالا . أنت وحيد فى سمائك . وأنا وحيد فى أرضى . كلانا يقطع شوطه صامتاً هادئاً منكسراً حزينا . لا يلوى على أحد . ولا يلوى عليه أحد . وكلانا يبرز لصاحبه فى ظلمة الليل فيسايره ويناجيه . يرانى الرائى فيحسبنى سعيداً لانه يغتر بابتسامة فى ثغرى . وطلاقة فى وجهى . ولو كشف له عن نفسى ورأى ما تنطوى عليه من الهموم والاحزان . لبكى لى بكاء الحزين اثر الحزين . ويراك الرائى فيحسبك مغتبطا مسروراً .

لانه يغتر بجمال وجهك . ولمعان جبينك . وصفاء أديمك . ولو كُشف له عن عالمك لرآه عالما خرابا . وكوناً يبابا . لا يهب فيك ريح . ولا يتحرك شجر . ولا ينطق انسان . ولا يبغم حيوان

أيها القمر المنير :

كان لى حبيب يملأ نفسى نورا . وقلبي لذة وسرورا . وطالما كنت أناجيه ويناجيني بين سمعك وبصرك . وقد فرق الدهر بيني وبينه . فهل لك أن تحدثني عنه وتكشف لى عن مكان وجوده . فربما كان ينظر اليك نظرى . ويناجيك مناجاتى . ويرجوك رجائى . وها أنا كأنى أرى صورته فى مرآتك . وكأنى أراه يبكى لى كما أبكى له . فأزداد وجداً اليه . وحزناً عليه

أيها القمر المنير :

مالى أراك تنحدر قليلا قليلا الى الغروب كأنك تريد أن تفارقنى . ومالى أرى نورك الساطع قد أخذ فى الانقباض شيئاً فشيئاً . وماهذا السيف المسلول الذى يلمع من جانب الافق على رأسك

قف قليلا لا تغب عنى . لا تفارقنى . لا تتركنى وحيداً . فانى لا أعرف غيرك . ولا آنس بمخلوق سواك

آه لقد طلع الفجر ففارقنى مؤنسى . وارتحل عنى صديقى . فتى تنقضى وحشة النهار . ويقبل الىّ أنس الظلام

الماس بيرا

ليس فى الناس من يجهل أن فى القاهرة شارعاً يسمى بشارع الموسكى . وليس فيهم من يجهل أن فى ذلك الشارع حانوتا كبيراً فتحه صاحبه ليبيع فيه الزجاج باسم الماس

عرف ذلك التاجر أن الناس لا يصدقونه بمجرد دعواه فأقام لهم على صدقه برهانا لا علاقة بينه وبين الموضوع . لانه يعلم أن البسطاء وإن كانوا يهتمون بطلب البراهين فانهم

لا يهتمون بالعلاقات بينها و بين الدعاوى

أما البرهان فهو أنه علق فى جدران حانوته و فى سقوفه ونوافذه مصابيح كهربائية تدور على نفسها تارة وعلى بعضها تارة أخرى . فاذا انعكست أشعتها على ما فى تلك الخواتيم والاقراط والاساور والدمالج من القطع الزجاجية كان لها بريق ولمعان كبريق الماس ولمعانه . فتنخدع بها المرأة البسيطة فتبتاعها بما قدّرها صاحبها من الأثمان . فاذا عادت إلى منزلها ولبستها رأت حجراً ما كنت تظنه جوهراً . و رأت ذلك النور الساطع سواداً قاتماً . وظلاماً فاحماً . وهيهات أن يعود لها سرورها بذلك المنظر المتلألئ إلا إذا سكنت الحانوت واتخذته بيتاً لها . أو علقت فى جيدها وشعرها وفى كل أصبع من أصابعها وساعد من سواعدها أرجوحة كهربائية

ما أشبه الحزب الوطنى بالتاجر الغاش . وما أشبه الوطنية الكاذبة بالماس بيرا . وما أشبه المظاهرات والاحتفالات بالمصابيح الدائرات . وما أشبه البسطاء بالنساء

لو عرف ذلك التاجر أن فى حانوته جوهراً صحيحاً لما احتاج أن ينفق تلك النفقات الكثيرة على تلك المصابيح اللامعة . ولو عرف الحزب الوطنى أن بين جوانحه وطنية صادقة لأعفى نفسه من تلك النفقات التى ينفقها على تلك المظاهرات . ولقام له صدقه واخلاصه مقام تلك الاحتفالات . ولكنه عرف سلعته وعرف أنه إن عرضها فى سوقها لا يجد من يساومه فيها بسحتوت واحد . فطلاها بذلك الطلاء الكاذب ليخدع الناس عنها و يفتنهم بها

ما مررت بحانوت الماس إلا نظرت إليه و إلى مبلغ اقبال الناس عليه . لانى أصبحت أعده الميزان الذى أزن به عقل الامة وفهمها صعوداً وهبوطاً . ولقد مررت به اليوم فلم أر أمامه ذلك الزحام الذى كنت أراه من قبل . فالمّ بنفسى من السرور والغبطة ما الله عالم به . وأيقنت أن ما ألمّ بحانوت الموسكى قد ألمّ مثله بحانوت الدواوين

الغـد

عرفتُ أني فكرت ليلة أمس فيما أكتب اليوم وعرفتُ أني آخذٌ الساعة قلمي بين أناملي وأن بين يديّ صحيفة بيضاء تسود قليلا قليلا كلما أجريت القلم فيها ولكني لا أعلم هل يبلغ القلم مداه أو يكبو (١) دون غايته وهل أستطيع أن أتمم رسالتي هذه أو يعترضُ عارض من عوارض الدهر في سبيلها لاني لا أعرف من شؤون الغـد شيأ ولأن المستقبل بيد الله

عرفتُ أني لبست أثوابي في الصباح وأنها لا تزال فوق جسمي حتى الآن ولكني لا أعلم هل أخلعها بيدي أو تخلعها يدُ الغاسل

الغـد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد فربما كان ملكا رحيما . وربما كان شيطانا رجيما . بل ربما كان سحابة سوداء اذا هبت عليها ريح باردة حللت أجزاءها وفرقت ذراتها فأصبحت كأنما هي عدم من الاعدام التي لم يسبقها وجود

الغـد بحر خضمّ زاخر يعبُ عبابه (٢) . وتصطخب أمواجه . فما يدريك إن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر . أو الموت الاحمر

لقد غمّض الغد عن العقول ودق شخصه عن الانظار حتى لو أن انسانا رفع قدمه ليضعها في مخرجه من باب قصره لا يدري أيضعها على عتبة القصر . أم على حافة القبر

الغد صدر مملوء بالاسرار الغزار تحوم حوله البصائر وتتسقطه (٣) العقول وتستدرجه الانظار فلا يبوح بسر من أسراره الا اذا جادت الصخرة بالماء الزلال

كأني بالغد وهو كامن في مكنه رابض في مجثمه (٤) متلفع بفضل إزاره ينظر الى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء . يقول في نفسه

(١) كبا سقط على وجهه (٢) يعب عبابه يرتفع موجه (٣) تسقط الخبرَ أخذه شيئا فشيئا (٤) مجثم الطائر موضع جثومه أي تلبده بالارض

لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث وهذا البانى أنه يبنى للخراب وهذا الوالد أنه يلد للموت ما جمع الجامع ولا بنى البانى ولا ولد الوالد

ذلل الانسان كل عقبة فى هذا العالم فاتخذ نفقاً فى الارض وصعد بسُلم الى السماء. وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب (١) من حديد وخيوط من نُحاس. وانتقل بعقله الى العالم العلوى فعاش فى كواكبه وعرف أغوارها وأنجادها. وسهولها وبطاحها. وعامرها وغامرها. ورطبها ويابسها. ووضع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم ومسافات الاشعة والموازين لوزن كرة الارض اجمالا وتفصيلا. وغاص فى البحار فعرف أعماقها وفحص تربتها وأزعج سكانها ونبش دفائنها وسلبها كنوزها وغلبها على لآلئها وجواهرها. ونفذ من بين الاحجار والآكام الى القرون الخالية فرأى أصحابها وعرف كيف يعيشون. وأين يسكنون. وماذا يأكلون ويشربون. وتسرب من منافذ الحواس الظاهرة الى الحواس الباطنة فعرف النفوس وطبائعها. والعقول ومذاهبها. والمدارك ومراكزها. حتى كاد يسمع حديث النفس ودبيب المنى. واخترق بذكائه كل حجاب. وفتح كل باب. ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهوراً لا يجرأ على فتحه. بل لا يجسر على قرعه. لانه باب الله والله لا يطلع على غيبه أحدا

أيها الشبح الملثم بلثام الغيب. هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلا لانرى صفحة (٢) واحدة من صفحات وجهك الجميل أولا فاقترب منا قليلا علنا نستطيع أن نستشف خيالك من وراء هذا اللثام المسبل دوننا فقد طارت قلوبنا شوقا اليك. وذابت أكبادنا وجداً عليك

أيها الغد. إن لنا آمالا كبارا وصغارا. وأمانى حسانا وغير حسان. فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك. وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها. أأذللتها واقتحمتها (٣). أم كنت لها من المكرمين

---

(١) الاسباب الحبال وكل مايوصل بين الشيئين (٢) صفحة الشيء جانبه
(٣) أذال الشيء أهانه واقتحمه احتقره

لالا . صن سرك فى صدرك وأبق لثامك على وجهك ولا نحدثنا حديثا واحدا عن آمالنا وأمانينا حتى لا تفجعنا فيها فتفجعنا فى أرواحنا ونفوسنا فانما نحن أحياء بالآمال وان كانت باطلة . وسعداء بالامانى وان كانت كاذبة :

وليست حياة المرء الا أمانيا * اذا هى ضاعت فالحياة على الأثر

الكاس الاولى

كان لى صديق أحبه وأحب منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه فى حالى بعده وقربه . وغضبه وحلمه . وسخطه ورضاه . ففرق الدهر بينى وبينه فراق حياة لا فراق ممات . فانا اليوم أبكيه حيا أكثر مما كنت أبكيه لو مات ميتاً . بل أنا لا أبكى الا حياته . ولا أعنى الا مماته . فهل سمعت بأعجب من هذه الحالة الغريبة فى طبائع النفوس

علقت حبالى بحباله برهة من الزمان عرفته فيها وعرفنى ثم سلك سبيلا غير سبيله فأنكرته وأنكرنى حتى ما أمر بباله لان الكاس التى علق بها لم تدع فى قلبه فراغا يسع غيرها وغير العالقين بها . وربما كان يدفعنى عن مخيلته دفعاً اذا حاولت المرور بها لانه اذا ذكرنى ذكر معى تلك الكلمات المرة التى كنت ألقاه بها فى فاتحة حياته الجديدة . وما كان له وهو يهيم فى فضاء سعادته التى تخيلها أن يكدر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال

ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيأ جديدا لان حياة المدمنين حياة متشابهة متماثلة لا فرق بين صبحها ومسائها . وأمسها وغدها . ذهاب الى الحانات فشراب . فخمار(١) فنوم فذهاب . كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن حتى أن بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها وكان أحرى أن يوقظه دورانها

لذلك لم يشغل هذا المسكين محلا من قلبى الا بعد أن سكنت دورته . وهدأت حركته

(١) الخمار صداع الشراب

فلم أعد أراه معربداً فى الحانات ولا مطرَّحاً فى مدارج الطرق ولا معتقلا فى أيدى الشُرَط [١] هنالك سألت عنه فقيل لى انه مريض فلم أعجب من شئ كنت أعُد له الايام والاعوام كما يعد الفلكى الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكوكب

دخلت عليه أعوده فلم أجد عنده طبيبا ولا عائدا لانه فقير والاطباء يظهرون الرحمة بالفقراء . و يبطنون حب الصفراء والبيضاء . والاصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر . فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير

دخلت منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبه . لانى لم أجد فيه ذلك الروح العالى الذى كان يرفرف بأجنحته فى غرفه وقاعاته . ولم أر دخان المطبخ ولم أسمع ضوضاء الخدم ولا بكاء الاطفال ولا رنين الاجراس . فكانى دخلت القبر أزور الميت لا المنزل أعود الحىّ

ثم تقدمت الى سرير المريض فكشفت أستاره البالية عن خيال لم يبق منه الا إهاب [٢] لاصق بعظم ناحل . فقلت أيها الخيال الشاخص ببصره الى السماء قد كان لى فى إهابك هذا صديق محبوب فهل لك أن تدلنى عليه . فبعد لأْىٍ مّا [٣] حرك شفتيه وقال . هل أسمع صوت فلان . قلت نعم مم تشكو . فزفر زفرة كادت تساقط لها أضلاعه وأجاب . أشكو الكاس الاولى . قلت أى كاس تريد . قال أريد الكاس التى أودعتها مالى وعقلى وصحتى وشرفى وها أنا ذا اليوم أُودعها حياتى . قلت قد كنت نصحتك و وعظتك وأنذرتك بهذا المصير الذى أنت فيه اليوم فما أجديت عليك شيأ . قال ما كنت تعلم حين نصحتنى من غوائل هذا العيش النكد أكثر مما كنت أعلم ولكننى كنت شربت الكأس الاولى فخرج الامر من يدى . كل كأس شربتها جنتها على الكأس الاولى . أما هى فلم يجنها علىّ غير ضعفى وقصور عقلى عن ادراك خداع الاصدقاء والخلطاء

لم تكن شهوة الشراب مركبة فى الانسان كبقية الشهوات فيعذر فى الانقياد اليها كما

---

(١) الشرط أعوان الامير ومفرده شرطى بضم الشين وسكون الراء (٢) الاهاب الجلد (٣) يقال فعله بعد لاى أى بعد أبطاء وما زائدة

يعذر فى الانقياد الى غيرها من الشهوات الغريزية فلا سلطان لها عليه الا بعد أن يتناول الكاس الاولى فلم يتناولها ؟ يتناولها لان الخونة الكاذبين من خلانه وعشرائه خدعوه عن نفسه فى أمرها ليستكملوا بانضمامه اليهم لذتهم التى لا تتم الا بقراع الكؤوس وضوضاء الاجتماع . ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه . واى ذريعة تذرّعوا بها الى ذلك لتحققت أنه أبله الى النهاية من البلاهة . وضعيف الى الغاية التى ليس وراءها غاية

أنا ذلك الابله وذلك الضعيف فاسمع كيف خدعنى الاصدقاء وزينوا لى ما يزينه الشيطان للانسان

قالوا إن حياتك حياة هموم وأكدار . ولا دواء لهذه الادواء الا الشراب . وقالوا إن الشراب يزيد رونق الجسم ويبعث نشاطه وأنه يفتق اللسان . ويعلم الانسان البيان . وانه يشجع الجبان ويبعث فى القلب الجرأة والاقدام . هذا ما سمعته فصدقته وخدعت به . صدقت أن فى الشراب أربع مزايا . السعادة والصحة والفصاحة والاقدام . فوجدت فيه أربع رزايا . الفقر والمرض والسقوط والجنون

غرّهم من الصحة ذلك اللون الاحمر الذى يتركه الشراب وراءه فى الاعضاء . وهو يتغلغل فى الاحشاء . ومن الفصاحة الهذر والهذيان . وهُجر (١) القول وبذاءة اللسان . ومن الاقدام العربدةُ التى لا تسكن الا فى غرفة السجن . ومن السعادة اللحظاتُ القليلة التى يغشىَ فيها على عقل الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الاشياء كما هى فتنعكس فى نظره الحقائق حتى يخيل الشتم طُرفة (٢) والصفع تحية فيضحكه من ذلك ما يضحك الاطفال والممرورين (٣)

أى سرور لمن يعيش فى منزل لا يزوره الابتسام تغرّ من ثغور ساكنيه . أى سرور لمن يودعه أهله كل يوم فى صباحه بالحسرات . ويستقبلونه فى مسائه بالزفرات . أى سعادة لمن

(١) الهجر الفحش (٢) الطرفة الملحة المستحسنة (٣) الممرور الذى هاجت مرته ويطلق على المجنون

يمشي دائماً في طريقه متلوياً متمعجاً يتسرب في المعاطف والازقة ويعوذ بألواذ(١) الجدر والاسوار فراراً من نظرات الجزار . وتهكمات العطار . وصرخات الخمار

ولقد كنت أرى هؤلاء الاشقياء في فاتحة حياتي التعسة فكان يمر بخاطري ما يمر بخاطر أمثالي أن هؤلاء قتلى الادمان لا قتلى الشراب . وكنت أقدّر لنفسي القصدَ فيه إن قدّر لي في أمر مشىءٌ حتى لا أبلغ مبلغهم ولا أنزل منزلتهم فلما شربت أخطأ العدّ وضاع الحساب . وفسد التدبير . واختلف التقدير . وغُلبت على أمري كما يُغلب على أمره كل مخدوع مثلي بمثل ما خدعت به . ولولا الكأس الاولى ما هلكت . ولا شكوت الذي شكوت . ولولاها ما عافني الاصدقاء . ولا زهد فيّ الاقرباء . فكن أنت وحدك صديق السراء والضراء

فعاهدته على ذلك ثم تركته في حالة

تُصمّ السميع وتعمي البصير ❊ و يُسأل من مثلها العافيه

اين الفضيلة

قرأت في بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعاً بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة في حياته وانما تخيل في ذهنه صورة ألّفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها في صور البشر . فلما استقرت في مخيلته تجسمت في عينيه فرآها فاحبها حباً ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب . فأنشأ يفتش عنها بين سمع الارض وبصرها اعواماً طوالا حتى وجدها

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لاني أنا ذلك الفتى لا فرق بيني وبينه الا أنه يسمي ضالته الفتاةَ وأسميها الفضيلة وأنه فتش عنها فوجدها وفتشتُ عنها حتى عييت بأمرها فما وجدت اليها سبيلا

(١) يقال اعتصم بلَوذ الجبل أي بجانبه والجمع ألواذ

فتشت عن الفضيلة فى حوانيت التجار فرأيت التاجر لصاً فى أثواب بائع . وجدته يبيعنى بدينارين ما ثمنه دينار واحد فعلمت أنه سارق للدينار الثانى . ولو وُكل الىَّ امر القضاء ماهان علىَّ أن أعاقب لصوص الدراهم وأُغفل لصوص الدنانير ما دام كل منهما يسلبنى مالى ويتغفلنى عنه

أنا لا أنكر على التاجر ربحه ولكن أنكر عليه أن يتناول منه فوق جزائه على جهد نفسه فى جلب السلعة وبذل راحته فى صونها وإحرازها . وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه أن الاول بدلُ الجد والعمل . والثانى بَدلُ الغش والكذب

فتشت عن الفضيلة فى مجالس القضاء فرأيت أن أعدل القضاة من يحرص الحرصَ كله على أن لا يهفوَ فى تطبيق القانون الذى بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسى الذى يجلس عليه مخافة أن يسلبه اياه . أما إنصاف المظلوم والضرب على يد الظالم وإراحة الحقوق على أهلها وإنزال العقوبات منازلها من الذنوب فهى عنده ذيول وأذناب لا يأبه(١) لها ولا يحتفل بشأنها الا اذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مع القانون فى طريق واحد مصادفة واتفاقا . فاذا اختلف طريقهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير ما يعلم وأدان البرىء وبرأ الجانى . فاذا عتب عليه فى ذلك عاتب كانت معذرته اليه حكمَ القانون عليه . كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون وما القانون الا حسنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه .

هذا شأن أعدل القضاة وأهداهم الى الحق وأقومهم سبيلا . اما الآخرون فيطبقون أحكامهم على قانون الربح وينزلون من الدينار منزلة اللازم من الملزوم فيدورون معه وجوداً وعدما

فتشت عن الفضيلة فى قصور الاغنياء فرأيت الغنى اما شحيحاً أو متلافا . أما الاول فلو كان جار البيت فاطمة رضى الله عنها وسمع فى جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع مادّ أصبعيه الى أذنيه ثقة منه أن قلبه المتحجر لا تنفُذه نسمات الرحمة ولا تمر بين أثنائه

---

(١) أبه للشىء تفطن له واحتفل به

نسمات الاحسان . وأما الثانى فماله بين ثغر الحسناء . وثغر الصهباء . فعلى يد أى رجل من هذين الرجلين تدخل الفضيلة قصور الاغنياء

فتشت عنها فى مجامع السياسة فرأيت أن المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط ألفاظ مترادفة معناها الكذب . ورأيت أن الملك فى كرسى مملكته . كالحوذى فى كرسى عربته . لافرق بينهما الا أن هذا ينقض « تعريفته » . وذاك ينقض معاهدته . ورأيت أن أعدى عدو للانسان الانسان . وأن كل أمة قد أعدت فى مخازنها ومستودعاتها وفى بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها ماشاء الله أن تعده لاختها من عدد الموت وأفانين العذاب . حتى اذا وقع بينهما الخلف على حد من الحدود أو لقب من الالقاب لبس الانسان فروة السبع واتخذ له من تلك العدد الوحشية أظفارا كأظفاره وأنيابا كأنيابه فشحذ الاولى وكشر عن الاخرى ثم هجم على ولد أبيه وابن أمه هجمة لايعود منها الا به أو بنفسه التى بين جنبيه . وإنك لو سألت الجندين المتقاتلين ما خطبكما وماشأنكما وعلام تقتتلان وما هذه الموجدة التى تحملانها بين جنبيكما ومتى ابتدأت الخصومة بينكما وعهدى بكما أنكما ما تعارفتما الا فى الساعة التى اقتتلتما فيها لعرفت أنهما مخدوعان عن نفسيهما وأنهما ماخرجا من ديارهما الا ليضعا درة فى تاج الملك أو « نيشانا » فى صدر القائد

فتشت عنها بين رجال الدين ورجال الصحف فرأيت أنهما يتجران بالعقول فى أسواق الجهل ورأيت كلا منهما قد تغرله فى كل رأس من رؤوس البشر ثغرة ينحدر منها الى العقول فيفسدها والقلوب فيقتلها ليتوسل بذلك الى الذخائر فيسرقها والخزائن فيسلبها . هذا باسم الوطنية وذاك باسم الدين

فتشت عنها فى كل مكان أعلم أنه تربتها وموطنها فلم أعثر بها فليت شعرى هل أجدها فى الحانات والمواخير أو فى مغارات اللصوص أو بين جدران السجون

سيقول كثير من الناس قد غلا الكاتب فى كلمه وجاوز الحد فى تقديره فالفضيلة لاتزال تجد فى صدور كثير من الناس صدرا رحبا . ومورداً عذبا . وإنى قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم إنى لا أنكر وجود الفضيلة ولكنى أجهل مكانها فقد تعقد رياء الناس

أمام عيني سحابة سوداء أظلم لها بصري حتى ما أجد فى صفحة السماء نجماً لامعا . ولا كوكباً طالعا

كل الناس يدعى الفضيلة و ينتحلها وكلهم يلبس لباسها و يرتدى رداءها و يعدلها عدتها من منظر يستهوى الاذكياء والاغبياء ومظهر يخدع أسوأ الناس بالناس ظنا . فمن لى بالوصول اليها فى هذا الظلام الحالك والليل الاليل

إن كان صحيحا ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها و نعيمها فسعادتى فيها أن أعثر فى طريقى فى يوم من أيام حياتى بصديق يصدقنى الود وأصدقه فيقنعه منى ودى و إخلاصى دون أن يتجاوز ذلك الى ما وراءه وأن يكون شريف النفس فلا يطمع فى غير مطمع شريف القلب فلا يحمل حقدا ولا يحفظ وترا ولا يحدث نفسه فى خلوته بغير ما يحدث به خلطاءه فى محضره شريف اللسان فلا يكذب ولا ينم ولا يلم بعرض ولا ينطق بهجر[1] شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة ولا يبغض غير الرذيلة

هذه هى السعادة التى أتمناها ولكنى لا أراها

إنى لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارها . وترن أطيارها . وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وأزهارها انسياب الافاعى الرقطاء . فى الرمال البيضاء . وأرى أنامل النسائم تعبث بمنثورات الاوراق . عبث الهوى بألباب العشاق . وأسمع ما بين صفير البلابل . وخرير الجداول . نغمات شجية تبلغ من نفس الانسان . ما لا تبلغ أوتار العيدان . فلا يسرنى منظر ولا يطربنى مسمع لانى لا أرى بين هذه المشاهد التى أراها ضالتى التى أنشدها

لقد سمج وجه الرذيلة فى عينى وثقل حديثها فى مسمعى حتى أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب فلا أشعر بخير الحياة وشرها . وسرورها وحزنها

ولولا بنيات صغار يفقدن بفقدى طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق الى ذلك العالم الصامت فأجد من الانس به والسكون اليه ما وجده الذى يقول :

(١) الهجر الفحش

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى ❁ وصوّت انسان فكدت أطير

الغنى والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس فرأيته واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً فرثيت لحاله وسألته ما باله فشكا اليّ الجوع ففثأته(١) عنه ثم تركته وذهبت الى زيارة صديق لي من أرباب الثراء والنعمة فأدهشني أني رأيته واضعاً يده على بطنه وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير فسألته عما به فشكا الى البطنة فقلت يا للعجب . لو أعطى الغنيّ الفقيرَ ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقما ولا ألما . لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته . ويطفئ غلته . ولكنه كان محباً لنفسه مغالياً بها فضم الى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبطنة حتى لا يهنئ للظالم ظلمه . ولا يطيب له عيشه . وهكذا يصدق المثل القائل : بطنة الغني انتقام لجوع الفقير :

ما ضنت السماء بمائها ولا شحّت الارض بنباتها ولكن حسد القويّ الضعيفَ عليهما فزواهما(٢) عنه واحتجنهما(٣) دونه فأصبح فقيراً معدماً . شاكياً متظلماً . غرماؤه المياسيرُ الاغنياء . لا الارض والسماء .

ليتني أملك ذلك العقل الذي يملكه هؤلاء الناس فأستطيع أن أتصوّر كما يتصوّرون حجةَ الاقوياء في أنهم أحق باحراز المال وأولى بامتلاكه من الضعفاء . ان كانت القوةُ حجتَهم عليهم فلمَ لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب أموالهم . وما الحياة في نظر الحيّ بأثمن قيمة من اللقمة في يد الجائع . وان كانت حجتُهم أنهم ورثوا ذلك المال من آبائهم قلنا لهم ان كانت الابوّة علة الميراث فلمَ ورثتم آباءكم في أموالهم ولم ترثوهم في هفواتهم فلقد كان آباؤكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء وكان حقاً عليهم أن يردوا اليهم

(١) يقال فثأت فلاناً عن فلان اذا سكنت غيظه عليه (٢) زوى عنه حقه منعه اياه (٣) احتجن الشيء اذا جذبه بالمحجن الى نفسه والمحجن الصولجان والمراد انه استأثر به

ما اغتصبوا منهم . فان كنتم لا بد ورثاءهم فاخلفوهم في رد المال الى أربابه . لا في الاستمرار على اغتصابه

ما أظلم الاقوياء من بني الانسان وما أقسى قلوبهم . ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره وهو يرتعد بردا . ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديده وشوائه حلوه ومرّه ولا ينغص عليه شهوته علمه أن بين أقربائه وذوي رحمه من تثب أحشاؤه شوقا الى فتات تلك المائدة ويسيل لعابه تلهفا على فضلاتها . بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء لسانه فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته ورفاهيته وربما استعان به على عد ما تشتمل عليه خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفه من الفراش والرياش ليكسر قلبه وينغص عيشه ويبغض اليه حياته . وكأنه في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته يقول له : أنا سعيد لأني غني وأنت شقي لأنك فقير :

أحسب لولا أن الاقوياء في حاجة الى الضعفاء يستخدمونهم في مرافقهم وحاجهم كما يستخدمون أدوات منازلهم ويسخرونهم في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم ولولا أنهم يؤثرون الابقاء عليهم ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين أيديهم لامتصوا دماءهم كما اختلسوا أرزاقهم ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها

لا أستطيع أن أتصور أن الانسان انسان حتى أراه محسنا لأني لا أعتمد فصلا صحيحا بين الانسان والحيوان الا الاحسان . وإني أرى الناس ثلاثة . رجل يحسن الى غيره ليتخذ إحسانه اليه سبيلا الى الاحسان الى نفسه وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الاحسان الا أنه يستعبد الانسان . ورجل يحسن الى نفسه ولا يحسن الى غيره وهو الشره المتكالب الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل الى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعا . ورجل لا يحسن الى نفسه ولا الى غيره وهو البخيل الاحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه . أما الرابع الذي يحسن الى غيره ويحسن الى نفسه فلا أعلم له مكانا ولا أجد اليه سبيلا . وأحسب أنه هو ذلك الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني ديوجنس حينما سئل ما يصنع بمصباحه

وكان يدور به فى بياض النهار فقال : أفتش عن انسان :

عبرة الدهر

بنى فلان فى روضة من رياض بساتينه الزاهرة قصرا فخما يتلألأ فى تلك البقعة الخضراء. تلؤلؤ الكوكب المنير فى القبة الزرقاء . ويطاول بشرفاته الشماء. أفلاك السماء. كأنه نسر محلق فى الفضاء . أوقرط معلق فى أذن الجوزاء . وكأن شرفاته آذان تفضى اليها النجوم بالاسرار . وطاقاته أبراج تتنقل فيها الشموس والأقمار

شاده مرمرا وجلله كلسا (١) ❊ فللطير فى ذراه وكور

ولم يدع ريشة لمصور ولا ليقة (٢) لرسام الا أجراها فى سقوفه وجدرانه . وطاقاته وأركانه . حتى ليخيل الى السالك بين أبهائه (٣) وحجراته . ومحاريبه وعرصاته (٤) . أنه يتنقل من روضة تزهر بالورود الحمراء . والأنوار البيضاء . الى بادية تسنح فيها الذئاب الغبراء . والنمور الرقطاء . ومن ملعب تصيد فيه الظباء الاسود الى غاب تصيد فيه الاسود الظباء . وأنشأ فى كبرى ساحاته . وأوسع باحاته . صهريجا من المرمر مستديرا يضم بين حاشيتيه فوارة ينفر منها الماء صعدا كأنه سيف مجرد . أوسهم مسدد . تخيل الى الرائى أن الارض تثأر لنفسها من السماء . وتتقاضاها ما أراقت منها من الدماء . تلك تقاتلها بالرجوم والشهب . وهذه تحاربها بالسهام والقضب . وغرس حول دائرة الصهريج دوائر من شجرات . مؤتلفات ومختلفات . وأغصان . صنوان وغير صنوان . اذا رنحتها نسائم الاسحار . رقصت فوق بساط الازهار . وتحت ظلال الأثمار . فغنت على رقصها الاطيار . غناء الاغاريد لاغناء الاوتار . وادخر فيه لنعيمه وبلهنيته (٥) ماشاء الله أن

---

(١) الكلس الصاروج يبنى به (٢) ليقة الدواة صوفها ويتخذها الرسام أيضا لجمع أخلاطه فيها (٣) الابهاء جمع بهو وهو البيت المقدم أمام البيوت (٤) المحراب هنا صدر البيت والعرصات جمع عرصة وهى ساحة الدار (٥) بلهنية العيش رخاؤه

يدخر من نضائد(١) ومقاعد. ووسائد ومساند. وفرش وعرش. وكلل(٢) وحجل(٣). وتماثيل وتهاويل(٤). وصحاف من ذهب. كاللهب. وأكواب من بلور. كالنور. وأقفاص للحمائم والنسور. ومقاصير للسباع والنمور. وعربات وسيارات. وجياد صافنات. ووصائف وولائد. تحيط بالمجالس والموائد. إحاطة القلائد. بأعناق الخرائد. وخدم حسان. تتنقل في الغرف والقيعان. تنقل الولدان. في غرف الجنان

في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب. غدافية(٥) الاهاب. أفاق صاحب القصر من غشيته فتحرك في سريره وفتح عينيه فلم ير أمامه غير خادمه «بلال» وهو خصي أسود من ذوي الاسنان رباه صغيرا وكفله كبيرا وكان يجمع بين فضيلتي الذكاء والوفاء فأشار اليه اشارة الواله الملتهف أن يأتيه بجرعة ماء فجاءه بها فتساند على نفسه حتى شرب وكأن الماء قد حل عقدة لسانه فسأله في أي ساعة من ساعات الليل نحن يا بلال. فأجابه نحن في الهزيع الاخير ياسيدي. فقال ألم تعد سيدتك الى الآن. قال لا. فامتعض امتعاضا شديدا وزفر زفرة كادت تخرق حجاب قلبه ثم أنشأ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول: إنها تعلم أني مريض وأني في حاجة الى من يسهر بجانبي ويتعهد أمري ويرفه(٦) عني بعض ما أعالجه وليس بين سكان هذا القصر من هو أولى بي وأقوم علي منها. أين وفاؤها الذي كانت تزعمه وتقسم بكل محرجة من الايمان عليه. أين حبها الذي كانت تهتف به في صباحها ومسائها وبكورها وأصائلها. أين النعيم الذي كنت أقلبها في أعطافه والعيش الرغد الذي كنت أرشفها كؤوسه. ألا علمت أني أصبحت بين حياة لا أرجوها وموت لا أجد السبيل اليه برمت(٧) بي واستثقلت ظلي واستبطأت أجلي واستطالت نجعتي

(١) النضائد جمع نضيدة وهي الوسادة (٢) جمع كلة بالكسر وهي الستر الرقيق (٣) جمع حجلة بفتحات وهي ستر العروس في جوف البيت (٤) التهاويل النقوش والصور لانها تهول من نظر اليها (٥) الغداف الغراب الاسود وليلة غدافية شبيهة به (٦) رفه عنه نفس عنه وخفف (٧) برم به سئمه وضجر منه

فهي تفر من وجهي كل ليلة الى حيث تجد لذات العيش ومواطن السرور . آه من العيش ما أطوله . وآه من الموت ما أثقله .

وما زال يحدث نفسه بمثل هذا الحديث حتى هاج ساكنه واضطربت أعصابه فعاودته الحمى وغلى رأسه بنارها غليان القدر بمائها فسقط على فراشه ساعة تجرع فيهما من كأس الموت جرعا مريرة بيد أنه لشقائه لم يأت على الجرعة الاخيرة منها

أفاق من غشيته مرة ثانية فلم ير بجانبه تلك التي تسيل نفسه حسرات عليها فسأل الخادم ألم تعلم أين ذهبت سيدتك يا بلال ؟ فقال : خير لك أن لا تنتظرها يا مولاى وأن لا تلومها في بعدها عنك فان لها عند بعض الناس دَيْناً فهي تخرج كل ليلة لتتقاضاه . قال ما عرفتُ قبل اليوم أن بينها و بين أحد من الناس شيأ من ذلك ومتى كان يتقاضى الدائنُ دينه في مثل هذه الساعة من الليل وهل أعياها أن تجد من يقوم لها بذلك فهي تتولاه بنفسها وهلا فرغتْ من أمر دَيْنها بعد اختلافها اليه سنة كاملة . قال إن بينها و بين غريمها صكا مكتوبا أن يؤدي ما عليه من الدين أقساطا في كل ليلة قسط على أن تتناوله بيدها وأن تكون مواعيدُ الوفاء أُخريات الليال . قال ما سمعت في حياتي بأغرب من هذا الدَّين ولا أعجب من هذا الصك ومن هو غريمها . قال أنت يا سيدي . فنظر اليه نظرة الحائر المشدوه (١) وقال إني أكاد أجن لغرابة ما أسمع وأحسب أنك هاذٍ فيما تقول أو هازئ . فدنا منه الخادم وقال والله يا سيدي ما هزأت في حياتي ولا هذيت ألا تذكر تلك الليالي الطوال التي كنت تقضيها خارج المنزل بين شهوة تطلبها . وكأس تشربها . وملاعب تجرر فيها أذيالك . ومراقص تهتك فيها أموالك . تاركا زوجتك في هذه الغرفة على هذا السرير تشكو الوحشة . وتبكي الوحدة . وتتقلب على أحر من الجمر شوقا اليك . وحزنا عليك . فلا تعود اليها الا اذا شاب غراب الليل . وطار نسر الصباح . إنك سلبتها تلك الليالي السالفة فأصبحت غريمها فهي تستردها منك اليوم ليلة ليلة حتى تأتي عليها . ذلك هو دَينها وهذا هو غريمها . ألا تذكر أنك كنت في لياليك تلك ربما تحبس الزوجة عن زوجها وتملكها عليه وهو واقف موقفك

(١) المشدوه المدهوش

هذا فى حسرتك هذه يبكى ما تبكى و يندب ما تندب . ذلك الزوج هو الذى يتقاضاك اليوم حقه و يأبى الا أن يأخذه عينا بعين ونقدا بنقد . فهو تفجعك فى زوجتك كما كنت تفجعه فى زوجته ويقض(١) مضجعك كما كنت تقض مضجعه . وأنا أعيذك بعدلك و إنصافك أن تكون من لُواة الدين أو تكون من القوم الظالمين

قال حسبك يا بلال فقد بلغت منى و إن لى من الحاضر ما يشغلنى عن الماضى فادع لى ولدى . قال لم يعد يا سيدى من الوجه التى بعثته فيه حتى الآن . قال لا أذكر أنى بعثته فى وجه ما وأين ذهب . قال ذهب الى الحانة التى يختلف اليها ولن يرجع منها حتى يرتوى من الشراب ولن يرتوى منه حتى يعجز عن الرجوع . إنى طالما وقفت بين يديك يا مولاى ضارعا اليك أن تحول بينه و بين خلطاء السوء وعشراء الشر حتى لا يفسدوه عليك فكنت تعرض عنى إعراض من يرى أن تدليل الولد وترفيهه(٢) و إرخاء العنان له عنوان من عناوين العظمة ومظهر من مظاهر الأبهة والجلال . كنت أسألك أن تعلمه العلم وأن تهديه الى طريق المدرسة ليتضل عن طريق الحانة فكنت ترى انه إنما يحتاج الى العلم من يرتزق به وأن ولدك عن ذلك من الاغنياء . فلا تشك من عمل يديك . ولا تبك من جناية نفسك عليك . فأنت الذى أرسلته الى الحانة وأنت الذى أبقيته فيها الى مثل هذه الساعة وأنت الذى أبعدته عن فراشك أحوج ما كنت اليه

وما وصل الخادم من حديثه الى هذا الحد حتى أصل الليل من خضابه واشتعل المبيض فى مسوده واذا صوت الناعورة يرن فى بستان القصر رنين الثكلى فقدت واحدها . فقال السيد هات يدك يا بلال وخذ بيدى الى النافذة لأروح عن نفسى بعض ما ألم بها وأودع الى جانبها نسمات الحياة . ثم اعتمد على يده حتى وصل الى النافذة فجلس على كرسى مستطيل وألقى على البستان نظرة فرأى البستانى والبستانية جالسين الى الناعورة وقد برقت بوارق السعادة من خلال أثوابهما البالية بريق الكواكب المنيرة من خلال السحب المتقطعة . رآهما متحابين متعاطفين لا يتعاتبان ولا يتشاحان ولا يشكوان هما ولا يندبان حظا .

(١) أقض مضجعه جعله خشنا (٢) رفهه جعله مترفها أى لين العيش

رآهما قويين نشيطين يجرى دمهما فى عروقهما صافيا رائقا وكأن كلا منهما يحاول أن يخرج من إهابه (١) مرحا ونشاطا. رآهما راضيين بما قسم الله لهما من خشونة الملبس وجشوبة المطعم فلا يتشهيان ولا يتمنيان ولا ينظران الى ذلك القصر الشامخ المطل عليهما نظرات الهم والحسرة. سمعهما يتحادثان فأصغى اليهما فاذا البستانى يقول لزوجه والله لو وُهب لى هذا القصر برياضه وبساتينه. وآنيته وخُرْثيّه (٢). على أن تكون لى تلك الزوجة الخائنة الغادرة لفضلت أن أعيش على صخرة فى منقطع العمران. على البقاء فى مثل هذا المكان. أقاسى تلك الهموم والاحزان. قالت البستانية لا أحسب أن سيدنا ينجو من خطر هذا المرض فقد مر به على حاله تلك عام كامل وهو يزداد كل يوم ضعفا ونحولا. قال قد علمتُ أن الطبيب قد نفض يده من الرجاء فيه وأضمر اليأس منه ولا عجب فى ذلك فانه ما زال يسرف على نفسه ويذهب بها المذاهب كلها حتى قتلها. قالت ما أشقاه أكانت نفسُه عدوة اليه تجنى عليها هذا الشقاء. وذلك البلاء. قال ما كان عدواً لنفسه ولا كانت نفسه عدوة اليه ولكنه كان جاهلا مغرورا غره شبابه وماله وعزه وجاهه فظن أنه قد أخذ على الدهر عهدا بالسلامة والبقاء فانطلق فى سبيله لا يلوى على شىء مما وراءه حتى سقط فى الحفرة التى احتفرها لنفسه. قالت أتعلم ماذا يكون حال هذا القصر بعد وفاته. قال لا أعلم الا أنه سيكون لولده من بعده. قالت ولكنى أعلم أنه سيكون لفلان. قال إن فلانا ليس وريث السيد بل صديقه. قالت إنه ليس صديق السيد بل صديق السيدة. فهو خاطبُ زوجته قبل وفاته. وزوجُها بعد مماته

فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطرابا شديدا وسقط عن كرسيه وهو يقول: أشهدنى من الاشقياء. وما زال فى غشيته تلك حتى صحا صحوة الموت وفتح عينيه فرأى هذا المنظر المحزن المؤلم

رأى ولده لاهيا يحادث فتاة من فتيات القصر. ورأى زوجه تضاحك تربا من أترابها وتغمزها بطرفها أن قد حان حينه ورأى صديقه أو ولى عهده يأمر فى القصر وينهى ويتصرف تصرف السيد المطاع ورأى نفسه يعالج سكرات الموت ويُعدّ عُدته للانتقال من

(١) الاهاب الجلد (٢) الخرثىّ أثاث البيت

القصر الى القبر . وهنا سمع كأن هاتفا يهتف به من السماء ويقول: أيها الرجل. لو وفيت لزوجك لوفت لك . ولو أدبت ولدك لعناه أمرك . ولو أحسنت اختيار صديقك ما خانك . ولو رحمت نفسك ماخسرت حياتك . فأغمض عينيه وهو يقول «فلتكن مشيئة الله»

وهكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعا بزوجه وولده . وصديقه ونفسه . وبستانه وقصره

رب ركب قد أناخوا حولنا * يشربون الخمر بالماء الزلال

عصف الدهر بهم فانقرضوا * وكذاك الدهر حالا بعد حال

مدينة السعادة

رأيت فيما يرى النائم أنى أمشى فى برية جرداء قفر قد انبسطت رمالها على سطحها متجعدة تجعد الامواج المتوثبة فى القاموس (١) المحيط . وكانت الشمس قد طفلت (٢) للاياب فلم أر فى بطحائها ظلا غير ظلى المستطيل الذى رسمته يد الشمس فأخطأت فى تصويره كأنما حسبتنى آدم أبا البشر فأوسعتنى طولا . ورسمتنى ميلا

أنشأت أمشى لا أعرف لى مذهبا ولا مضطربا وأنى يكون ذلك فى صحراء قد تشابهت مراميها وتشاكلت مذاهبها وانفرج ما بين قاصيها ودانيها حتى انحدرت الشمس الى مستقرها وطار طائر الليل من مكنه . وما نشر الظلام أجنحته السوداء فى الافق حتى وجدتنى أحير من دمعة وجدت فى مقلة عاشق يدفعها الحب ويمنعها الحياء. لا أعلم هل أنا سر كامن فى باطن الظلماء . أو حوت مضطرب فى أعماق الماء. وأحيانا كان يخيل الى أنى فى منجم من مناجم الفحم فأمد يدى أتلمس جدرانه مخافة أن أصطدم بواحد منها . ولم أزل كذلك حتى شعرت بأن الظلام بدأ ينفض صبغته وأن ذراته تتطاير ههنا وههنا فاذا أنا بين يدى جبل عال كأنما هو جدار قائم يمسك السماء أن تقع على الارض . أو ملك جبار قد

(١) القاموس وسط البحر ومعظمه (٢) طفلت الشمس احمرت للغروب

لبس من قرص الشمس التاج الاحمر . ومن شعاعها الرداء الاصفر

ولا تسل هنالك عما ألمّ بقلبي من الهم وعقلي من الخبال حينما رأيت أن صعود السماء أقرب الى الامل . من صعود هـذا الجبل . وحرت بين الاقدام والاحجام . فلم أر بداً من الاستسلام . لمقدور الحمام . ثم رميت بطرفي فرأيت بين الصخور المبعثرة في سفح الجبل صخرة بيضاء ناعمة الملمس فاضطجعت عليها وأنا أتمثل بقول أبي العلاء

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ * جسم فيها والعيش مثل السهاد

وما هي الا غمضة الطرف حتى شعرت بأنها تتحرك قليلا ثم نهضت ثم طارت فكدت أحسب أنه الموت قد نزل وأنها الروح تصعد الى الملأ الاعلى لولا أن فتحت عيني فرأيت ما كنت أحسبه صخرة طائرا أشبه شيء بالنسر في خلقه والقبة في ضخامتها واستدارتها . ومازال ذاهبا في أفق السماء حتى هبط الى قمة الجبل فاسرعت بالانحدار عنه وهنالك أحسست بسلسبيل بارد من الامل يتسرب الى قلبي فينقع غلته . و يطفىء لوعته . لانى رأيت السفح الثانى من الجانب الآخر ورأيت بهجة الحياة وزهرة العمران

رأيت على البعد خطوط الخضرة حول سطور الماء . ورأيت المنازل والقصور كأنها العصافير السوداء . أو الحمائم البيضاء . وكأنما ألم بنفسى من السرور رأنسانى ما ألم بجسمى من النصب فانحدرت اليها فما بلغتها حتى رأيتنى في مزرعة في وسطها بنية قد وقف على بابها شيخ هو أشبه الاشياء بما تخيله فريق الخياليين من علماء أوربا في صور سكان المريخ فذعر منى كما يذعر الانسان . لرؤية الجان . وما كان الذى قام في نفسه منى بأكثر مما قام في نفسى منه لولا أني ألفت الغرائب . وعجمت عود العجائب . فتقدمت اليه وكأنما ألهمت لغته الغريبة فحييته بها فحيانى وهو يقول : ما كنت أحسب أن الشمس تطلع على مدينة غير هذه المدينة . أو أن في العالم انسانا غير هذا الانسان . فمازلت أحدثه وأستدنيه حتى أنس بى ودعانى الى منزله وخلطنى بنفسه وأهله وقدم لى طعاما شهيا ومهد لى مرقدا وثيرا (١) وكان

---

(١) الوثير الوطىء

الليل قد أقبل للمرة الثانية من هجرتى هذه فنمت نوما هادئا مطمئنا لا تروعنى فيه خواطر الموت ولا وساوس الهلاك

استيقظت والشمس من مرقدينا على صوت تلك الاسرة الطاهرة الكريمة تصلى الى الله تعالى صلاة الخاشعين المتبتلين وتدعو وهى مصطفة صفا واحدا أن ييسر لها الله عسرها . ويسهل أمرها . ويصلح شأنها . ويمنحها معونته ونصره . فاخذ من نفسى منظرها هذا مأخذا غريبا فلم أر بدا من الانتظام فى صفها . والدعاء بدعائها . والبكاء لبكائها . وعجبت أن يكون مثل هذا الايمان الخالص راسخا فى نفوس أهل هذه المدينة ولم يرسل اليها رسول ولم ينزل عليها كتاب . فلما فرغنا من الصلاة التفت الى صاحب البيت فقلت له أراكم تتعبدون فمن تعبدون . وتصلون فمن الذى تدعون . قال نعبد الله خالق هذه الكائنات ومدبرها . قلت هل رأيتموه حتى عرفتموه . قال نعم رأيناه فى آثاره ومصنوعاته . ورأيناه فى السماء والماء . والفلك الدائر . والنجم السائر . وفى أجنة الحيوان . وبذور النبات . ورأيناه فى أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك . قلت ولم تعبدونه . قال شكرا له على نعمة الخلق والرزق . وإن أحدنا ليعنيه أن يشكر لصاحبه نعمته اذا أحسن اليه بجرعة أو أنعم عليه بمضغة فأخر به أن يشكر مانح المانحين . والمحسن الى المحسنين . فقلت لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين الذين يعبدون الله مخلصين له الدين لا يرجون ثوابا . ولا يخافون عقابا . ثم سألته أين تذهبون بعد الموت . قال الى النعيم المقيم . أو العذاب الاليم . قلت لعلك تريد الجنة والنار . قال لا أفهم ما تقول وإنما أعلم أن الاله الحكيم لا يترك المحسن دون أن يجازيه خيرا على إحسانه كما يأبى عدله أن يسوى بين المحسن والمسىء . قلت متى يكون المحسن محسنا والمسىء مسيئا . قال الاحسان إيصال الخير والاساءة إيصال الشر . لذلك لا ترى بيننا من يحدث نفسه بالاضرار بأخيه أو من يقصر فى دفع الأذى عنه . فقلت فى نفسى ليت الفقهاء الذين ينفقون أعمارهم فى الحيض والاستحاضة والمذى والودى (١) والحدث الاكبر والحدث الاصغر وليت الكلاميين الذين يسهرون الليالى ويقرحون

(١) المذى والودى نوعان من الماء الذى يخرج من القضيب

المآقي في عينية الصفات وغيريتها والجوهر والعرض والحدوث والقدم والدور والتسلسل وليت المتصوفة الذين يحاولون أن ينازعوا الله في مشيئته ويجاذبوه قدرته ويغالبوه على أمره ونهيه ويزاحموه في لوحه وقلمه يعرفون من سر الدين وحكمته والغرض الذي قام له ما يعرف هؤلاء البله الاغرار الذين لا يفهمون معنى الجنة والنار ولا يميزون بين الدين والتين

فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ أن يُزيرني المدينة فانحدر بي اليها فرأيت شوارعها وخططها فسيحة منتظمة ورأيت منازلها متفرقة غير متلاصقة وقد أحاط بكل منزل منها حديقة زهراء ورأيت سكانها مكبين على أعمالهم مجدين في شؤونهم صغاراً وكباراً . رجالا ونساء . مافيهم فقير يتسول . ولا متبطّل يتثاءب ويتململ . وأغرب ما استهوى نظرى أني لم أر في تلك المدينة ذلك التفاوت الذي أعرفه في مدائننا بين الناس في منازلهم ومراكبهم ومطاعمهم ومشاربهم وأزيائهم كأن جميع سكانها سواء في حالة المعيشة ودرجة الثروة فسألت الشيخ ألا يوجد فيكم غني وفقير وسيد ومسود . قال لا ياسيدى حسبُ الرجل منا بيت يأوي اليه ومزرعة يستغلها ودابة تحمل أثقاله ثم لا شأن له بعد هذا فيما سوى ذلك . لذلك لا يوجد فينا سيد ومسود لانه لا يوجد فينا غني وفقير . قلت لابد أن يوجد بينكم العاجز عن العمل والكسول المتبطل . قال أما الكسول فلا وجود له بيننا لانه يعلم أنا لا نرحمه ولا نغفر له زلته في احتقار نعمة العقل والقوة بتعطيلهما عن العمل . وأما العاجز فنحدب عليه ونحسن اليه ولا نرى لانفسنا في ذلك فضلا لاننا إنما نمنحه جزأ من القوة التي منحنا الله إياها لنعبده بها ولا نرى في وجوه العبادة أفضل من مواساة العاجزين . ورحمة البائسين

وانه ليحدثني بهذا الحديث إذ لاحت لنا بُنية فخمة ضخمة تمتاز عن غيرها من البنى بحسن نظامها . وجمال هندامها . فقلت للشيخ هل أرى قصر الملك ؟ قال لا ولكنه قصر رجل شرير طماع قد خالف ارادة الله وحكمته فاحتجن (١) دون عباده أرضهم ومالهم ليعلوَ عليهم ويستأثر بالنعمة من دونهم فغضب الله عليه . وقلب نعمته نقمة . ورخاءه شدة . فانه

(١) احتجن المال ضمه واحتواه

ما أراح (١) رائحة العيش الرغد حتى أسلم نفسه الى شهواتها وحملها فوق ما تحمل طبيعتها فها هو ذا اليوم يقاسي من آلام الامراض وأنواع الاسقام ما يغض اليه العيش . وحبب اليه الموت . لم يحمه قصره . ولم يغن عنه ماله . فهو عبرة المعتبرين . وموعظة السابلين (٢) فكبر الرجل فى ذرعى (٣) وعظم فى عينى وأكبرت فيه وفى أمته هذه الخلال الشريفة والاخلاق العالية وقلت فى نفسى إن مدارسنا على ما تشتمل عليه درو سها من قواعد الحكمة وأصول التربية وفنون الآداب تعجز عن أن تخرج للناس رجالا يستطيعون أن يساجلوا هؤلاء القوم فى أخلاقهم وفضائلهم . وأردت على ذكر المدارس أن أعرف طرائق التعليم عندهم فقلت للشيخ هل لك أن تزيرنى مدرسة من مدارسكم . فعجب لسؤالى وقال ما المدرسة . فكان عجبى لجوابه أكثر من عجبه لسؤالى وقلت المدرسة مكان محدود يجتمع فيه صغار يتعلمون . وكبار يعلمون . قال ما الذى يتعلمه الصغار من الكبار . قلت ما يصلح شأنهم وينفعهم فى معاشهم ومعادهم . قال وأى حاجة بنا الى مثل هذا الجمع الحاشد فى مثل هذا المكان المحدود . إننا ياسيدى أرحم بأبنائنا من أن نكل أمرهم الى غيرنا فنحن الذين نتولى هذا الشأن منهم فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع نعلمهم فيها كيف يرمون البذور وكيف يستنبتونها وكيف يصنعون آلات الزراعة وكيف يستعملونها . وفيها نعلمهم كيف يبنون منازلهم وينسجون ملابسهم ويعدّون عددهم . وإنا لا نعرف علما غير العمل ولا نعرف من العمل غير ما نحفظ به قوام حياتنا . ونستعين به على عبادة ربنا . قلت ألكم حاكم يتولى أموركم . قال لنا حكم لا حاكم . وهو رجل قد وثقنا به وبفهمه واستقامة شأنه فاخترناه لفصل الخصومات إن عرض من ذلك عارض . قلت أليس له جند وأعوان يؤيدونه وينفذون أحكامه . قال نعم كلنا جنده وكلنا أعوانه على كل من يختلف عليه أو يعترض دون سبيله فقد وثقنا به وكفى . قلت أليس له سجن يحبس فيه المجرمين . قال

(١) أراح فلان الشىء وجد ريحه (٢) السابلة المختلفون على الطرقات فى حوائجهم
(٣) كبر فى ذرعى عظم وقعه عندى

لا . حسبُ المجرم عندنا عقوبة أن يتفق أهل المدينة على احتقاره والزراية عليه وإن أحدنا ليؤثر أن يتخطفه الطير أو يسقط عليه كِسف(١) من السماء قبل أن يرى نفسه بغيضا الى قومه صغيراً في نفوسهم ذليلا في أعينهم لا يرفعون اليه طرفا . ولا يقيمون له وزنا

وما وصلنا من حديثنا الى هذا الحد حتى كنا قد فرغنا من الطواف بالمدينة ووصلنا الى المنزل الذى خرجنا منه فاستقبلنا أهلوه بالبشر والترحاب واستقبلوا شيخهم بالتقبيل والعناق . فلم أر فيما رأيت من البيوت فى مدن العالم وقراه بيتاً أسعد حظاً ولا أنعم عيشا ولا أروح بالاً من هذا البيت

تلك مدينة السعادة التى يعيش أهلها سعداء لا يشكون همّا لأنهم قانعون . ولا يمسكون فى أنفسهم حقدا لانهم متساوون . ولا يستشعرون خوفا لانهم آمنون

تلك مدينة السعادة التى رأيتها فأحببتها وأحببت العيش فيها لولا أن لله فى خلقه سنةً لا تتبدل . وشأنا لا يتحول . فقد جاء الليل وأخذت مكانى من مرقدى فى منزل الشيخ فلم أستيقظ حتى رأيتنى فى فراشى فى منزلى . فلا السهل ولا الجبل . ولا الشيخ ولا المزرعة . ولا المدينة ولا السعادة

ولما نزلنا منزلاً طلّه(٢) الندى ✻ أنيقاً وبستانا من النور حاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنه ✻ منًى فتمنينا فكنتِ الأمانيا

ايها المحزون

ان كنت تعلم أنك قد أخذت على الدهر عهداً أن يكون لك كما تريد فى جميع شؤونك وأطوارك وألا يعطيك ولا يمنعك الا كما تحب وتشتهى فجدير بك أن تطلق لنفسك فى سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأرب . أو تعذّر عليك مطلب . وإن كنت تعلم أخلاق الايام فى أخذها وردها . وعطائها ومنعها . وأنها لا تنام عن منحة تمنحها حتى تكرّ عليها

(١) الكِسف القطعة (٢) طلّه أمطره الطل وهو المطر القليل

راجعة فقد تردها وأن هذه سنتها وتلك خلتها فى جميع أبناء آدم سواء فى ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ ومن يطأ بنعله هام الجوزاء . ومن ينام على بساط الغبراء . نخفّض من حزنك . وكفكف من دمعك . فما أنت باول غرض أصابه سهم الزمان . وما مصابك بدعةً خارقة فى جريدة المصائب والاحزان

أنت حزين لأن نجماً زاهراً من الامل كان يتراءى لك فى سماء حياتك فيملأ عينيك نورا . وقلبك سرورا . وما هى إلا كرّة الطرف أن افتقدته . فما وجدته . ولو أنك أجملت فى أملك . لما غلوت فى حزنك . ولو أنعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقاً خاطفا . ما تظنه نجماً زاهرا . وهنالك لا يبهرك طلوعه . فلا يفجعك أفوله

أسعد الناس فى هذه الحياة من اذا وافته النعمة تنكّرلها ونظر اليها نظر المستريب بها وترقب فى كل ساعة زوالها وفناءها فان بقيت فى يده فذاك والا فقد أعد لفراقها عدته من قبل

لولا السرور فى ساعة الميلاد ما كان البكاء فى ساعة الموت . ولولا الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر . ولولا فرحة التلاق . ما كانت ترحة الفراق

الى الدير

مسكين ذلك الفتى الذى رأيته أمس فى إحدى زوايا الاندية العامة وقد ظللت جبينه الوضاح سحابة سوداء من الحزن وانحنى على نفسه كأنما شعر بأن قلبه يمشى فى صدره وأنه يحاول الفرار منه فهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه . ولو أنه أراد بنفسه خيرا لتركه يمضى فى سبيله حيث شاء . فبعداً لقلب لا يسكن عن الخفقان . ولا يفيق من الهموم والاحزان

سألته ما بالك أيها الصديق . قال لا شىء . قلت أنت تكتمنى ما فى نفسك ولو عرفتنى ما كتمتنى . قال ما جهلتك مذ عرفتك ولكننى أعطيت الله عهداً مذ خلقت ألا أشكو الا الى من أرجو عنده البرء . وما أنا براج عندك ولا عند أحد من الناس برأ من دائى . قلت

هبنى طبيباً والطبيب كما تعلم وان كان يشفى نادراً فانه يسكّن غالباً و يعزى دائما . فانا إن عجزت عن معالجتك . فلا أعجز عن تعزيتك . على أن الماء اذا اشتد غليانه احتاج الى التنفيس عنه والاطار بالقدر . طيران الهم بالصدر

فأنشأ يحدثني حديثاً تمازجه العبرات . وتقطعه الزفرات . ويقول : زوجني أبى منذ سنين من زوجة جاهلة غبية لا تفهم من معنى الزواج الا أن فيه قضاء لبانتها . وترفيه عيشها . وارضاء نفسها . وهو يحسب أنه قد أحسن الى بسليلة المجد وربيبة النعمة ومالكة الدور . وساكنة القصور . أجل إنها ذات مال وفير . وخير كثير . ولكن ذهب عليه غفر الله له أنى ما كنت أريد أن أكون تاجراً أكسب مالا بل زوجاً أجد بجانبى نفساً يؤنسنى محضرها ويوحشنى مغيبها ومرآة صافية نقية أتراءى فيها فتريني نفسى كما هى لا تكذبنى فى خير ولا شر . إنى أريد أن أجد فى الزوجة التى أتزوجها صديقاً فى المرتبة العليا من مراتب الصداقة ومن لى به فى امرأة تجهل حتى إرضاع طفلها ولبس ثوبها . على أن ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها فقد كانت لها خادم لملابسها وأخرى لشعرها وأخرى لسريرها وطابخة وغاسلة ومرضع وقهرمانة وخياطة خاصة بها وطبيب لا يُغِبُّ[1] زيارتها ومؤنسات لا يفارقن مجلسها . ولم تكن ممن أنعم الله عليهن بنعمة الجمال فكانت تنفق ما يزيد على نصف دخلها فى الحسن المجلوب . والجمال المكذوب . وليتها كانت تُغفل أمرى وتتركنى وشأنى فأستطيع أن أتناساها وأعد نفسى من العزاب تخيلا وتقديراً بل كانت تقيم من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب[2] المحيط بها حراساً كحراس الليل وجواسيس كجواسيس الأستانة يراقبن مواقع نظرى ومواطئ قدمى لتعلم أين مذهب قلبى و وجهة نفسى فتغار من الكوكب اذا رأتنى أنظر اليه وتكاد تمزق الثوب الذى أتعشق لبسه وتحسبها آهة الوجد أو دمعة الحب اذا رأتنى أتأوه من آلام عشرتها أو أبكى لعظم مصيبتى فيها . وماهى بغيرة الحب ولكنها

(١) أغب فلان القومَ اذا جاءهم حيناً بعد حين (٢) الجحفل الجيش واللجب ذو الجلبة والصياح

الأثرة (١) قبحها الله وقبح كل ما تأتي به . وأكثر ما كان يغيظني منها أنها ما كانت تفتح عليّ باب الحساب على اللفتات والخطوات الا في الساعة التي أريد أن أخلو فيها بنفسي أو بكتابي فما أكاد أنتفع بواحد منهما . فان سكت أغضبها سكوتي وان نطقت أغضبها حديثي . وان قرأت في كتابي ظنت أن المؤلفين ما ألفوا الكتب الا نكاية بالنساء لكي تتخذها الرجال ملجأ يعتصمون به من محادثتهن ومسامرتهن . فكان الكتاب أعدى أعدائها عندها وأبغض خصومها اليها . وجملة القول إنها ما كانت تستطيع أن تتصور الا أن الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة في جميع أطوار حياتها وأنه ما خلقني إلا لأكون زينة مجلسها . ودُمية (٢) قصرها . وأداة لهوها ولعبها . فلا أقرأ ولا أكتب ولا أعطي نفسي حقا من حقوقها ولا أبكر لمزاولة أعمالي ولا أسأم أحاديثها الطويلة المملة التي لا تشتمل الا على نقد الازياء . واغتياب النساء . فان وافيت رغبتها فذاك والا استحالت في لحظة واحدة من انسان ناطق الى وحش مفترس . فلا تعرف كلمة مؤلمة لا تُسمعنيها ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص لا تهجم بها عليّ . فكنت بين ألم رضاها وعذاب غضبها في شقاء حبب إلى الموت وبغض الى وجه الحياة . وبعد فقد رأيت أن العيش معها مستحيل فلم أر بدا من فراقها ففارقتها وما على وجه الارض أبغض الى من المجد ولا أسمج في نظري من المال

نفضت يدي من الزوجة الجاهلة ورحت أفتش عن الزوجة المتعلمة وقلت ليكون لي من الشأن في الزواج الثاني ما لم يكن لي في الزواج الاول بعد ما صار الى الخيار . وبعد تلك التجربة وذاك الاختبار . فهيأ لي الحظ جاراً ملاصقاً ما زلت أسمع مذ حل في جواري أن في بيته فتاة ما زال معنيا بأمرها حتى خرّجها (٣) وأدبها فأصبحت نابغة مدرستها وسيدة أترابها علما وفضلا وتهذيبا وأدبا فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباها ثم خالطتها فاذا المرأةُ الجديدة من جميع وجوهها فوقعت من نفسي أحسن موقع وحلت مكانا لم يكن حل من قبل خطبت الفتاة الى أبيها فما لبث أن أخطبني (٤) فامتلأ قلبي فرحا وسرورا وخيل الى

(١) الاثرة اختيار الشيء والاستئثار به (٢) الدمية الصورة المصورة (٣) خرّج الاستاذ تلميذه هذبه وعلمه (٤) يقال خطب فلان الى فلان فأخطبه أي أجابه

أنني أرى فى سماء الآمال نجماً لامعاً يدنو مني قليلا قليلا وسجلت ان الدهر أنشأ يكفر بحسناته . ما أسلف من سيئاته . فانى لكذلك وقد أعددت للبناء بها عدته ولم يبق بيني وبينه الا يوم واحد واذا بحامل البريد قد جاءنى بهذا الكتاب فها كه فاقرأه فان فيه بقية قصتي وسر نكبتي . ثم ألقى الى بغلاف معنون باسمه يشتمل بعد الكتاب على رسم فتى حسن الصورة والهندام بخاصر فتاة جميلة وقد ألقت برأسها على كتفه فقرأت فى الكتاب ما يأتى :

« علمت أنك خطبت فلانة الى أبيها وأنك عما قليل ستكون زوجها ولعمرى لقد كذبك نظرك وخدعك من قال لك إنك ستكون سعيداً بها فانها لن تكون لك بعد أن صارت لغيرك ولا يخلص حبك الى قلبها بعد أن امتلأ بحب عاشقها . فاعدل عن رأيك فيها . وانفض يدك منها . وان أردت أن تعرف من هو ذلك العاشق وتتحقق صدق خبرى وإخلاصى اليك فى نصيحتى فانظر الى الصورة المرسلة مع هذا الكتاب » : التوقيع :

فما نظرت الصورة وقرأت الكتاب حتى عرفت كل شيء فأحسست برعدة تمشى فى أعضائى وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظرى لهول ما سمعت . وسوء ما رأيت . الا أننى تماسكت قليلا فأعدت اليه كتابه وقلت له وهو كل ما استطعت أن أقول : ماذا يعنيك من أمر فتاة فاجرة عاهر بعد ما انكشف لك سرها . وظهرت لك حقيقتها . ولو كنت فى مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها الى الاستغفار من حبها وحمد الله على ما ألهم من صواب الرأى فيها . أما إذ سألتنى عن رأيى فى زواجك بعد ذلك فانى لا أرى لك بعد اليوم الا أن تترهب وتتعزب (١) وأن تقول ما قاله « هملت » وقد زهد فى الزواج بعد ما عرف حقيقة المرأة وأدرك خبيئة نفسها « الى الدير »

---

(١) تعزب أى عاش عزبا لا يتزوج

الرحمة

سأكون فى هذه المرة شاعرا بلا قافية ولا بحر لأنى أريد أن أخاطب القلب وجها لوجه ولا سبيل لى الى ذلك الا سبيل الشعر

إن البذور تُلقى فى الارض فلا تنبت الا اذا حرث الحرث تربتها وجعل عاليها سافلها . وكذلك القلب لا تبلغ منه العظة الا اذا داخلته وتخللت أجزاءه . وبلغت سويداءه . ولا محراث للقلب غير الشعر

أيها الرجل السعيد كن رحيما . أشعر قلبك الرحمة . ليكن قلبك الرحمةَ بعينها

ستقول إنى غير سعيد لأن بين جنبي قلبا يُلم به من الهم ما يلم بغيره من القلوب . أجل فليكن ذلك كذلك . ولكن أطعم الجائع واكس العاري وعز المحزون وفرج كربة المكروب يكن لك من هذا المجتمع البائس خير عزاء عن همومك وأحزانك . ولا تعجب أن يأتيك النور من سواد الحلك فالبدر لا يطلع إلا اذا شق رداء الليل . والفجر لا يدرُج الا من مهد الظلام .

لقد بَليت اللذات كلها ورثت حبالها وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد ولم يبق ما يعزي الانسان عنها الا لذة واحدة هى لذة الاحسان

إن منظر الشاكر منظر جميل جذاب ونغمة ثنائه وحمده أوقع فى السمع من رنات العود فى هزَجه ورَمَله(١) وأعذب من نغمات مَعبدَ فى الثقيل الاول (٢)

أحسن الى الفقراء والبائسين وأعدك وعدا صادقا أنك ستمر فى بعض لياليك على بعض الاحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره من حيث لا يعلم بمكانك أنك أكرم مخلوق وأشرف انسان ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك أن يجزيك الله خيرا بما فعلت فيدعو صاحبه بدعائه .

(١) الهزج والرمل نوعان من نغمات الموسيقى (٢) معبد أحد كبار المغنين فى العصر الاموي والثقيل الاول ضرب من ضروب الغناء

وهنالك تجد من سرور النفس وحبورها بهذا الذكر الجميل في هذا الحي الخامل ما يجده الصالحون اذا ذكروا في الملأ الأعلى .

ليتك تبكي كلما وقع نظرك على محزون أو مفؤود[1] حتى نبتسم جميعا سرورا ببكائك . لأن الدموع التي تحدر على خديك أيها الباكي الرحيم هي سطور من نور تسجل لك في تلك الصحيفة البيضاء أنك إنسان

إن السماء تبكي بدموع الغمام ويخفق قلبها بلمعان البرق وتصرخ بهدير الرعد . وإن الأرض تئن بحفيف الريح وتضج بأمواج البحر . وما بكاء السماء ولا أنين الارض الا رحمة بالانسان . ونحن أبناء الكون فلنجاره في بكائه وحنينه

إن اليد التي تصون الدموع أفضل من اليد التي تريق الدماء . والتي تشرح الصدور أشرف من التي تبقر البطون . فالمحسن أفضل من القائد . وأشرف من المجاهد . وكم بين من يحيي الميت ومن يميت الحي

إن الرحمة كلمة صغيرة ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها والشمس في حقيقتها

اذا وجد الحكيم بين جوانح الانسان ضالته من القلب الرحيم وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناء

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا عار ولا مغبون ولا مهضوم ولأقفرت الجفون من المدامع . واطمأنت الجنوب في المضاجع . ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام

لم يخلق الله الانسان ليقتّر عليه رزقه ولم يكن ليقذف به في كون لا يعيش فيه . بل أرادت حكمته أن يخلقه ويخلق له في مسارب الارض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤونته . ويسد حاجته . ولكن سلبه الرحمة فبغى بعضه على بعض وغدر القوي بالضعيف واحتجن دونه

(١) المفؤود المصاب في فؤاده بألم أو غيره

رزقه فتغير نظام القسمة العادلة وتشوه وجهها . ولو كان للرحمة سبيل الى القلوب لما كان للشقاء اليهاسبيل

الفرد هو المجتمع وانما يتعدد بتعدد الصور . أتدري متى يكون الانسان إنساناً ؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسه فخفق قلبه لخفقان القلوب وسكن لسكونها . فاذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها انفرد عنها واستوحش من نفسه . واذا كان الأنس مأخذ الانسان المجتمع . فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع

وجماع القول انه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء . وشقوة الاشقياء . في مكان واحد الا اذا اجتمع الملك الرحيم . والشيطان الرجيم

إن من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والاحسان فلا يفعل . فاذا مشى في طريقه مشى متدفعاً مندلثاً (١) لا يلوي على شيء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة . واذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه الا الاغراب في الضحك سخرية به وببذاذة ثوبه وتشوه خلقه . وإن من الناس من إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درّتهم (٢) ويمتص دماءهم . ولا يعاملهم الا كما يعامل شويهاته وبقراته . لا يقربها ولا يطعمها ولا يسقيها الا لما يترقب من الربح في الاتجار بألبانها وأصوافها . ولو استطاع أن يهدم بيتاً ليربح حجراً لفعل . وإن من الناس من لا حديث له إلا الدينار وأين مستقره وكيف الطريق اليه وما السبيل الى حبسه والوقوف في وجهه والحيطة لفراره . يبيت ليله حزيناً كئيباً لان خزانته ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته أو يرى في منامه أنه سيأتيه فلم يقيض له . وإن من الناس من يؤذي الناس لا يجلب بذلك لنفسه منفعة أو يدفع عنها مضرة بل لانه شرير يدفعه طبعه الى ما لا يعرف وجهه أو ليضرّي (٣) نفسه بالاذى مخافة أن ينساه عند الحاجة اليه . حتى لو لم يبق في العالم شخص غيره لكانت نفسه مدبّ عقاربه وغرض سهامه . وإن من الناس من اذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الاحمر يترقرق فيها أو عن أظافره رأيت

(١) اندلث في الأمر اندفع فيه (٢) الدرة اللبن اذا كثر وسال

(٣) يقال أضرى فلانٌ كلبه بالصيد وضرّاه اذا أغراه به وعوده متابعته

تحتها خالب حادة لا يسترها الا الصورة البشرية أوعن قلبه رأيت حجراً صلداً من أحجار الغرانيت لا تبضّ (١) بقطرة من الرحمة . ولا تخلص اليه نسمة من العظة

فيأيها الانسان احذر الحذر كله من أن تكون واحداً من هؤلاء فانهم سباع مفترسة وذئاب ضارية بل أعظك أن تدنو من أحدهم أو أن تقف فى طريقه فربما بدا له أن يأكلك فأكلك غير حافل بك ولا آسف عليك

أيها الانسان ارحم الارملة التى مات عنها زوجها ولم يترك لها غير صبية صغار . ودموع غزار . إرحمها قبل أن ينال اليأس منها فيعبث الهم بقلبها فتفضل الموت على الحياة

ارحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها ولا تشترمنها عرضها علها تعجز عن أن تجد مساوما يساومها فيه فتعود به الى كسر بيتها

ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك لانها ضعيفة ولأن الله قد وكل أمرها اليك وما كان لك أن تكذب ثقته بك واعتماده عليك

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فانك إن لا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين

ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم ولا تتخذ عقله متجراً تربح فيه ليكون من الخاسرين

ارحم الحيوان لانه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويبكى بغير دموع ويتوجع ولا يكاد يُبين . إرحمه وكذب من يقول إن الانسان طبع على ضرائب لؤم أقلها أنه يقبّل يد ضاربه ويضرب من لا يمد اليه يدا

ارحم الطيور لا تحبسها فى الاقفاص ودعها فى فضائها تهيم حيث تشاء وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير . إن الله وهبها فضاء لا نهاية له فلا تغتصبها حقها فتضعها فى محبس لا يسع مدّ جناحها . أطلق سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع تغريدها فوق الاشجار وفى الغابات وعلى شواطئ الانهار وترى منظرها وهى طائرة فى جو السماء

(١) بض الدم سال

فيخيل اليك أنها أجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيار

أيها السعداء . أحسنوا الى البائسين الفقراء . وامسحوا دموع الاشقياء . وارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء .

رسالة الغفران [1]

غفوت إغفاءة طويلة لا علم لي بمداها ولا بما وقع لي فيها ثم صحوت فرأيت نفسي في صحراء مدّ البصر مكتظة [2] بانواع من الخلق لا أحصيهم عدداً . فعلمت أني بعثت وأنه يوم القيامة فساورني [3] من الهم ما ساورني حين ذكرت أن مقداره ألف سنة من سني الدنيا وقلت من لي بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظمأً وجوعاً ويحترق تحت أشعة شمس ليس بينه وبينها الا قيد ظفر فتماسكت بضعة أشهر ثم لم أجد بعد ذلك الى الصبر سبيلاً فزينت لي نفسي الكاذبة أن أذهب الى رضوان خازن الجنة وكنت أحمل شهادة التوبة في يدي لاسترحمه وألتمس منه الاذن بالدخول قبل انفضاض المحشر فما زلت أرقيه بقصائد المدح الموسّمة [4] باسمه كما كنت أرقي بأمثالها أمثاله من عظماء العاجلة وساداتها فما أبه [5] لي ولا فهم كلمة مما أقول فانصرفت عنه الى خازن آخر اسمه زُفَر فكان شأني معه شأني مع صاحبه الا أنه كان أرق منه قلباً وألين جانباً فأشار علي بالذهاب الى النبي الذي أتبعه وأفهمني أن الامر موكول اليه فعدت وبين جنبيّ من الحسرة والوجد ما الله عالم به ، فبينا أنا أتخلل الصفوف ، وأزاحم الوقوف ، إذ وقع بصري على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم أنعمت النظر فيه فاذا هو الشيخ أبو علي الفارسي النحوي واذا بالمحتفلين به جماعة من شعراء العرب كلهم يخاصمه وكلهم ينقِمُ عليه ، هذا يقول له رويت بيتي على غير وجهه وذاك يقول أعربته على غير

---

(١) للمعري رسالة طويلة جداً بهذا العنوان وهذه الرسالة تشبه أن تكون مقتطعة منها (٢) مكتظة مملوءة (٣) ساورته الهموم واثبته وملكت ناصيته (٤) المسومة المعلّمة (٥) أبه احتفل

ما أردتُ وذهبت ، فدفعني الفضول كما دفعهم الى النزول في ميدانهم فافرغنا من الرفع والنصب والزيادة والحذف حتى أدركتُ شؤم ما فعلت وعلمت أن شهادة التوبة قد سقطت مني في ذلك المعترك ، فقلت قبح الله الشعر والاعراب ، واللغة والآداب ، إنهما شؤم الآخرة والاولى

وقفتُ أحيرَ من ضب في حمارّةِ (١) قيظ لا أدري ما آخذ وما أدع حتى رميت بطرفي فاذا بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب في لفيف من العترة الطاهرة النبوية فدلفتُ (٢) اليه وأبثثته (٣) أمري وأمرَ الشهادة المفقودة فقال : لا عليكَ ألك شاهدٌ بالتوبة . فقلتُ نعم . فنوديَ بشهودي فشهدوا بتوبتي . فقال تريَّثْ (٤) قليلا حتى تمرّ فاطمة بنت محمد فسألها في أمرك فهي تَمُتّ الى أبيها بما لا نَمُتّ به (٥) وكانت ممن قسم لهم دُخولُ الجنة قبل فصل القضاء الا أنها كانت تخرج كل حين للتسليم على أبيها ثم تعود الى مستقرها ، فانا لكذلك واذا بمنادٍ ينادي أن غضوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبرَ فاطمةُ بنت محمد صلى الله عليه وسلم فهرعتُ اليها فرأيتها راكبة مع إخوتها وأخواتها وجواريها على أفراس من نور وتقدمَ من وعدني بسؤالها في أمري فأنجز وعده . فقالت لاخيها إبرهيمَ دونك الرجل . فقال تعلقْ بركابي فتعلقتُ فطارت الافراس في الهواء تقطع الاجيال وتتخطى رءوس القرون حتى وافينا النبي صلى الله عليه وسلم واقفاً لشهادة القضاء فقصت عليه فاطمةُ ما علمتْ من أمري فراجع الديوانَ الاعظم فوجد اسمي في التائبين فشفع لي فعدتُ في ركب فاطمة فرحاً مستبشراً وما كنتُ أقدّر أن بين يديّ عقبة الصراط فلما وافيته وجدتني لا أستمسك عليه لرقته فأمرت فاطمة جارية من جواريها أن تعبُر مني فأمسكتْ بيدي فشيتُ أترنح ذات اليمين وذاتَ الشمال وخفت السقوط فقلت لها احمليني زقَفونه . فقالت وما زقفونة . فقلتُ أما سمعتِ قول الجحجلول من أهل كفرطاب

صلَحتْ حالتي الى الخلفِ حتى * صرتُ امشي الى الورى زقَفونه

(١) الحمارة بالتشديد شدة الحر (٢) دلف مشى مشيا متثاقلا (٣) أبثه السر كاشفه به (٤) تريث أبطأ (٥) متّ بالشيء توسل به

فقالت ماسمعتُ بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفرطاب . فقلت أُلقي بدىّ فوق كتفيك وأجعلُ بطني الى ظهرك فحملتني وجازت بى الصراطَ كالبرق الخاطف حتى صرتُ الى باب الجنة . فرمت الدخول فوقف رضوانُ فى وجهى وقال أين جوازكَ (١) فبَعلتُ (٢) بالأمر ثم رأيتُ فى دهليز الجنة شجرة صفصاف فعالجتُه على أن يعطيني منها ورقة أعود بها الى الموقف لاستكتب عليها الجواز فأبى . فقلت وقد ملك الهم علىّ رشدى وصوابى أما والله لو أنك حارس على أبواب الكرماء . أو خازن لخزائن الملوك والامراء . لما وصل شاعر الى درهم ولا سائل الى سُحتوت (٣) ولَهلك الفقراء هما وحزنا . فسمع ابرهيم عليه السلام حوارى (٤) فجذبنى جذبة حصّلنى بها فى الجنة وصاحبى ينظر الىّ شزْرا . فدخلتُ فرأيت مالا عين رأت . ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر

رأيت أنهارا من الماء العذب أصفى من أديم السماء . وأصقل من مرآة الحسناء . تنصبُّ فيها جداولُ من الكوثر اذا تجرع الشارب منها جرعة تجرع ماء الحياة وأمن أن يذوق كأس المنون مرة أخرى . ورأيت جداول تفيض بالراح فيضا قد زُينت حوافيها بأباريقَ من العسجد . وكؤوس من الزبرجد . فانهلتُ منها نهلة حتى قلت لو كُشفَ لاهل العاجلة عما فى هذه الخمرة من اللذة التى لا يشوبها كدر . والنشوة التى لا يعقبها خُمار (٥) ماباعوا قطرة منها بكل ما تشتمل عليه بابلُ وقُطرُبلُ (٦) من البواطى (٧) والدنان . ولو نظر الاقيشرُ الأسدى بعين الغيب الى عسجد هذه الاباريق وزبرجد تلك الكؤوس لخجل من نفسه أن يقول

أفنى تلادى وماجمّعتُ من نشب قرعُ القوازيز (٨) أفواهَ الاباريق

وفى تلك الانهار آنية ترفرف فوق سطحها على صور الطيور كالكراكى والطواويس

(١) الجواز صك المسافر (٢) بعل بأمره برم به فلم يدر ما يصنع فيه (٣) السحتوت فى الاصل السويق القليل الدسم ثم أطلق على كل شىء قليل (٤) الحوار مراجعة الكلام (٥) الخمار صداع الخمر (٦) بلدان معروفان بجودة خمرهما (٧) جمع باطية وهى اناء للشراب يوضع بين الشَّرب للاغتراف منه (٨) القوازيز

والبط والعندليب تحدر من مناقيرها شراب . أرق من السراب . وتسبح فيها أسماك من الذهب والياقوت

يعمن فيها بأوساط مجنحة (١) كالطير تنشر فى جو خوافيها

ورأيت أنهارا من لبن وأنهارا من عسل لا يدرك الوهم كنهه الا اذا أدرك ما يمتص نحل الجنة من زهورها وأنوارها

رأيت جميع تلك الانهار مكبرة ثم تمثلت فى نظرى مصغرة . فاذا هى سطور من النور . وأحرف بيضاء . فى صحيفة خضراء . قرأتها فرأيتها « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات »

ظللت أمشى فما أكاد أخطو خطوة حتى أرى منظرا عجيبا ينسى السابق . ويشوق الى اللاحق . فوددت لو طويت لى الارض طيا فأتعجل النظر الى ما غاب عنى من الجنة وبدائعها . فما أخذ هذا الخاطر مكانه من نفسى حتى رأيت بين يدى فرسا من الجوهر المتخير مسرجا ملجما فعلمت أنى قد سعدت وأنه الامنية التى كنت أتمناها فعلوت ظهره وغمزته غمزة خرج بها خروج الودق (٢) من السحاب . والسيف من القراب (٣) . وعلى ما جهدته لم يشك الى ما شكاه جواد عنترة اليه فى قوله

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا الى بعبرة وتحمحم

أو ما شكاه جواد عمر بن أبى ربيعة اليه فى قوله

تشكى الكميت الجرى لما جهدته وبين لو يسطيع أن يتكلما

ذكرت أنى وأنا فى الدار الفانية كنت أسمع بذكر الذاهبين الاولين من الادباء والشعراء والرواة فآسف على أن لم أكن فى زمنهم أراهم وأحضر مجالسهم فقلت ليت شعرى ما فعل الله بهم فى هذه الدار وهل سعدوا أو شقوا وهل يقيض لى من رؤيتهم فى دار

جمع قازوزة وهى قدح للشراب (١) مجنحة ذات أجنحة (٢) الودق المطر (٣) قراب السيف غمده

البقاء . مالم يقيض في دار الفناء

ثم رميت بطرفي فاذا فارس يحضر فرسه (١) في الهواء إحضارا حتى قارَبنا فقباسَّت الركبُ واختلفت الاعناق فقال انتسبْ فقلت فلانٌ ومن أنت يرحمك الله وقد فعل . فقال عدي بن زيد العبادي فدهشت وقلت عديّ بن زيد في الجنة بعد الزيغ والضلال . فقال أنا عيسوي وأنت محمدي وليس لصاحبك على أحد حجة الا بعد ظهوره وبلوغ دعوته . فقلت لا نكران ولكن كيف لم يقعدْ بك فسقك وشرابك وأين اسهتارك في قولك

بكرَ العاذلون في وضحَ الصبـ * ـح يقولون لي أما تستفيق

ودَعوا بالصبوح فجرا فجاءت * قَينة في يمينها إبريق

قال غفر الله لنا ما غفر لكم . قلت هل لك علم بجماعة الشعراء والرواة فقد عنيت على الله أن أراهم فكنتَ عنوان الكتاب وفاتحة الاجابة . فقال اصحبْني فطارت بنا الخيلُ فقلت له هل آمَنُ ألا يقذفَ بي هذا السابحُ على صخرة من الزمرد أو هضبة من الياقوت فيكسرَ لي عضداً أو ساقا أو جمجمة . فتبسم وقال أين يُذهَب بك نحن في دار الخلود والبقاء

مررنا بروضة من رياض الجنة يخترقها غدير خمري على شاطئه جمع كثير على سرر متقابلين . أو على الأرائك متكئين . فهوى صاحبي بفرسه فهويت هُويّه وقلنا سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدار . فرحبوا بنا وهشوا للقائنا وانتسبنا فتعارفنا ثم أخذوا فيما كانوا فيه فاذا الأصمعي ينشد مروياته وأبو عبيدة يسرد وقائع الحروب ومقاتلَ الفرسان واذا سيبويه والكسائي متصافيان بعد أن وقع بينهما في مجلس البرامكة ما وقع وأحمد ابن يحيي لا يضمر لمحمد بن زيد من الموجدة ما كان يضمر . وأخذت تهب من ناحية النهر نفحة عطرية ذكرتني قول الاعشى ميمون «مثل ريح المسك ذاكٍ ريحها» وعلى ذكر الاعشى ذكرت مصرعه وشقاءه . وقلت في نفسي لولا أن قريشا صدته عن الاسلام لكان اليوم بيننا في مجلسنا هذا . فسمعت هاتفا من ورائي يقول أنا بينكم وفي مجلسكم فالتفتُّ فاذا الأعشى ميمون فلم أدر من أي مَدخَليه (٢) أعجبُ . أمن مَدخله الى الجنة أم من مَدخله

---

(١) أحضر الفرسُ ارتفع في عدْوه (٢) المدخل مصدر دخل كالدخول

الى نفسى وعلمه بما هجس فى صدرى فعلمتُ أن أهل الجنة ملهمون . ثم سألته كيف غُفر لك فقال سحبتنى الزبانيةُ الى سقر فرأيت فى عرصات القيامة رجلاً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر والناس يهتفون به من كل جانب الشفاعة يا محمد فأخذت بإخذهم وهتفت هتافهم فأمر أن أدنو منه فدنوت فسألنى ما حرمتك فقلت أنا القائل

ألا أيهذا السائلى أين يممت ... فإن لها فى أهل يثرب موعدا

فآليتُ لا أرثى لها من كلالة ... ولا من وجىً حتى تلاقى محمدا

متى ما تُناخى عند باب ابن هاشم ... تُراحى وتلقى من فواضله ندا

نبى يرى مالا ترون وذكره ... أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

فقال ما سمعتها منك قبل اليوم . قلت خد عنى عنك الناس بعد ما شددتُ راحلتى اليك وكنتُ رجلاً أحب الشراب وخفتك عليه أن تفرق بينى و بينه . فشفع لى فدخلتُ الجنة على ألا أذوق فيها الخمر فقنعتُ بالرُّضاب . عن الشراب . و بماء الثغر المنضود . عن ماء العنقود . و رأيت بجانبه شابا بريق الشباب فسألتُ عنه فقيل لى زهير بن أبى سُلمى فما كدتُ أصدق أنه القائل

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولاً لا أبالك يسأم

فقلت له بم غفر الله لك فقال كنت فى جاهليتى أرقبُ مبعث محمد وأتمنى البقاء حتى أراه فحال بينى و بينه الموت فأوصيتُ به ابنىَّ كعبا و بُجيرا وكنت أومن بالحساب فما نفعنى شىء ما نفعنى قولى

فلا تكتمنَّ الله ما فى نفوسكم ... ليخفى ومهما يُكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع فى كتاب ويُدخر ... ليوم الحساب أو يقدم فينقم

والى جانب زهير عبيد الابرص فسألته عن مصير أمره فقال كتبت لى النار فما زال الناس يهتفون بقولى

من يسأل الناس يحرموهُ ... وسائلُ الله لا يخيب

والعذاب يخفف عنى شيئا فشيئا حتى خرجتُ ببركة هذا البيت من الجحيم . الى النعيم .

ذهبنا فى الحديث كلَّ مذهب وذهب بعضنا الى ارتشاف الخمر، من النهر، فى آنية الدر، فانتشينا جميعاً فما أفقنا الا على حفيف رَفٍّ (١) من إوَزِّ الجنة نزل بنا ثم انتفض عن كواعبَ أترابٍ يغنينَ بالمزاهر والآلات الثقيلَ والخفيفَ والهزجَ فما أتينَ على الالحان الثمانيةِ حتى دارت بنا الارضُ الفضاء وحتى مَلكنا من الطرب ما يَستخفُّ الحلوم، و يطير بالهموم . وقلنا لو علم جَبلةُ بنُ الأيهم بما نحن فيه لقَرعَ السنَّ على أن باع دينه بدبر و رمحدود . وأُنس معدود، ودُف وعود .

ذكرت جلة فذكرت لذكره النار وقوله تعالى « فاطَّلع فرآه فى سواء الجحيم » فتمنيت أن أطلع فأرى المعذَّبين كما رأيت المنعمين فأُلهمتُ الاذنَ فأشرت لصاحبي فقام وقمت و ركبنا فرسينا فطار تا بنا حتى انتهينا الى سور الجنة فرأينا عنده من الداخل كوخاً يسكنه شيخ زريُّ الهيئة فأشرفنا عليه فقال لا تعجبوا الشأنى أنا الحُطيئةُ و والله لولا أنى صدَقتُ مرة واحدة فى حياتى فى قولى

أرى لى وجها شوه الله خَلْقه   فقبّح من وجه وقبح حامله

لما دخلتُ الجنة ولمَا ادركتُ كوخا ولا جُحْرا . فتركناه واطّلعنا فرآنا أهل النار حتى ضجوا بصوت واحد أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله فرأينا ملوكاً وأكاسرة يتضاغون (٢) فى السلاسل والاغلال ويقولون « ربنا أرجعنا نعملْ صالحاً غيرَ الذى كنا نعمل » فيهتف بهم هاتف « أولم نعمرْكم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير »

و رأيت بجانبى امرأة تبينتها فاذا هى الخنساء تطّلع مثلنا فترى رجلاً كالجبل الاشم على رأسه شعلة من النار فتمتعضُ وتقول يا صخرُ هذا تأويل قولى فيك من قبل

وان صخراً لتأتمُّ الهداة به   كأنه علم فى رأسه نار

ورأيت هناك كثيراً من أمثال امرئ القيس وعنترة وعمرو بن كلثوم وطرَفة بن العبد و رأيت بشار ابن برد تُفتح عيناه بكلاليبَ من نار وكلما اشتد به الالم رفس إبليسَ برجله

(١) الرف القطيع من الطير (٢) يقال بات الصبيان يتضاغون من الجوع أى يتضورون منه

وقال لهما كنت لأدخل النار لولا قولى فيك

إبليس أفضل من ابيكم آدم فتبينوا يا معشر الاشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

وجزعنا من المنظر فهممنا بالرجوع واذا إبليس يهتف بنا يا أهل الجنة بلغوا عنى أبا كم آدم أنى لم أدخل النار بسببه حتى أخذت منى أكثر ولده وأفلاذ كبده . فلا يهنأ كثيرا بمصيري . فقلنا قبحه الله لا يزال ينفس على آدم نعمته حتى اليوم . فما كان لنا هم بعد رجوعنا الا لقاء أبينا عليه السلام فلقيناه فبلغناه الرسالة فقال وارحمتاه له . ما كان بينه و بين الايمان الا القليل فأرداه الحسد فكان من المهلكين . فقبلنا يده وانصرفنا الى ما أعد الله لنا من ملك كبير . وجنة وحرير . وحور و ولدان . كأنهن الياقوت والمرجان . فحمدنا الله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

افسدك قومك

أيها المجرم الفاتك الذى يسلب الخزائن نفائسها . والاجسام أرواحها . لست أحمل عليك من العتب فوق ما يحتمله ذنبك ولا أنظر اليك بالعين التى نظر اليك بها القاضى الذى قسا فى حكمه عليك لانى أعتقد أن لك شركاء فى جريمتك فلا بد لى من أن أنصفك وإن كنت لا أستطيع أن أنفعك

شريكك فى الجريمة أبوك لانه لم يتعهدك بالتربية فى صغرك ولم يحل بينك و بين مخالطة المجرمين بل كثيرا ما كان يبخبخ(١) لك اذا رآك هجمت على تربك وضربته و يصفق لك اذا راى أنك تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك او اختطاف لقمة من يده . فهو الذى غرس الجريمة فى نفسك وتعهدها بالسقيا حتى أينعت ونمت وأثمرت لك هذا الحبل الذى أنت معلق به اليوم وها هو ذا الآن يذرف عليك العبرات . و يصعد الزفرات . ولو

(١) بخبخ له قال له بخ بخ

عرف أنها جريمته وأنها غرس يمينه لضحك مسرورا بغفلة الشرائع عنه وسجد لله شكرا على أن لم يكن حبلك فى عنقه وجامعتك (١) فى يده

شريكك فى الجريمة هذا المجتمع الانسانى الفاسدُ الذى أغراك بها . ومهد لك السبيل اليها . فقد كان يُسميك شجاعا اذا قتلت . وذكيا فطنا اذا سرقت . وعالما اذا احتلت . وعاقلا اذا خدعت . وكان يهابك هيبته للفاتحين . ويُجلك إجلاله للفاضلين . وكثيرا ما كنتَ تحب أن ترى وجهك فى مرآة هذا المجتمع فتراه وجها أبيض ناصعا فتتمنى لو دام لك هذا الجمال . ولو أنه كان يؤثر نصحك ويَصدُقك الحديث عن نفسك لمثل لك جريمتك فى نظرك بصورتها الشوهاء . وهنالك ربما وددت بجدع الأنف لو طواك بطن الارض عنها . وحالت المنية بينك وبينها

شريكك فى الجريمة حكومتك لانها كانت تعلم أن الجريمة هى الحلقة الاخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات وكانت تراك تمسك بها حلقة حلقة وتعلم ماسينتهى اليه أمرك فلا تضربُ على يدك . ولا تعترض دون سبيلك . ولو أنها فعلت لما اجترمتَ . ولا وصلت الى ما اليه وصلت .

كانت حكومتك تستطيع أن تعلمك وتهذب نفسك وأن تقفل بين يديك أبواب الحانات وأن تحول بينك وبين مخالطة الاشرار بابعادهم عنك وتشريدهم فى مجاهل الارض ومخارمها وأن تُعديك (٢) على قتيلك قبل أن يبلغ حقدك عليه مبلغه من نفسك وأن تحسن تأديبك فى الصغيرة . قبل أن تصلَ الى الكبيرة . ولكنها أغفلت أمرك فنامت عنك نوما طويلا حتى اذا فعلتَ فعلتك استيقظتْ على صوت صراخ المقتول وشمّرت عن ساعدها لتمثلَ منظرا من مناظر الشجاعة الكاذبة فاستصرخت جندها واستنصرت أسلحتها وأعدت جذوعها وجلاّدها وكان كلُّ ما فعلتْ أنها أعدمتك حياتك

هؤلاء شركاؤك فى الجريمة وأقسم لو كنتُ قاضيا لاعطيتك من العقوبة على قدر سهمك فى الجريمة وجعلت تلك الجذوع قسمة بينك وبين شركائك ولكننى لا أستطيع

(١) الجامعة الغل (٢) أعدى الامير فلانا على فلان اذا نصره عليه وأعانه

أن أنفعك . فيأيها القتيل المظلوم رحمةُ الله عليك .

الصدق والكذب

جاءنى فى البريد هذا الكتاب من صاحب التوقيع

ياصاحب النظرات

سمعتُ بالصدق وما وعد الله به الصادقين من حسن المثُوبة وجزيل الاجر . وسمعت بالكذب وما أعد الله للكاذبين من سوء العذاب . وأليم العقاب . وقرأت ما كتبه حكماء الامم من عهد آدم الى اليوم وإجماعهم أن الصدق فضيلة الفضائل والاصل الذى تتفرع عنه جميع الاخلاق الشريفة والصفات الكريمة وأنه ما تمسك به متمسك إلا كان النجاح فى أعماله ألصق به من ظله . وأعلق به من نفسه . سمعتُ هذا وقرأت هذا فلم يبق فى نفسى ريب فى أن ما أنا مرزوءبه فى حظى من الشقاء وعيشى من الضنك وحياتى من الهموم والاكدار انما مرجعه الى شؤم الكذب وأن ما كنت أتخيله قبل اليوم من أن هناك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق وأسلم عاقبة انما هو ضربٌ من ضروب الوهم الباطل ونزغة من نزغات الشيطان . فعاهدت الله ونفسى الا أكذب ما حييت وأعددت لذلك القسم العظيم عُدته من شجاعة فى النفس وقوة فى العزيمة بعدما وجهت وجهى لله تعالى وسألته أن يُمدنى بمعونته ونصره

وها أنذا ذاكر لك مواقف الصدق التى وقفتها بعد ذلك العهد وما رأيته من آثارها ونتائجها

الموقف الاول : جلست فى حانوتى فما وقف بى مساوم الاصدقته القول فى الثمن الذى اشتريت به السلعة والربح الذى أريده لنفسى فيها والذى لا أستطيع أن أعد نفسى رابحا اذا تجاوزت عن بعضه فيأبى الا الحطيطة[1] فآباها عليه فينصرف عنى استقلالا للثمن

(١) الحطيطة ما يحط من الثمن

واستعظاما لمقداره وماهو الا الربح الذي اعتدت ان آخذه منه في مثل تلك الصفقة الا أنني كنت أكذب عليه في أصل الثمن فيصغر في نظره الربح الذي أربحه منه فلما صدقته عنه أعظمه وانصرف عني الى سواي . ولم أزل على هذه الحال حتى أظلني الليل ولم يفتح الله على بقوت يومي . وماهي الا أيام قلائل حتى عرفت في السوق بالطمع والمغالاة فأصبحت لا يطرق باب حانوتي طارق

الموقف الثاني : جلست في مجلس يتصدر فيه شيخ من تجار العقول الضعيفة المعروفين بمشايخ الطرق وقد حف به جماعة من عبدته وسدنة (١) هيكله فسمعته يشرح لهم معنى التوكل شرحا غريبا يذهب فيه الى أنه القعود عن العمل والقاء حبل هذا الوجود على غاربه والاعراض عن كل سعي يؤدي الى أي غاية . ويعتمد في هذيانه هذا على آيات يؤولها كما يشاء وأحاديث لا يستند في صحتها على مستند سوى أنه سمعها عن شيخه أوقرأها في كتابه . وأكثر ما كان يدور على لسانه حديث « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » (٢) فقلت له وقد أخذ الغيظ من نفسي مأخذه يا شيخ أردت أن تحتج لنفسك فاحتججت عليها . أتعمد الى حديث يستدل به رواته على وجوب السعي والعمل . فتستدل به على البطالة والكسل . ألم تر أن الله سبحانه وتعالى ماضمن للطير الرواح بطانا الا بعد أن أمرها بالغدو وهي التي تروبها القطرة . وتشبعها الحبة . فكيف لا يأمر الانسان بالسعي وهو من لا تفنى مطالبه . ولا تنتهي رغباته

أيها القوم . إنكم تقولون بألسنتكم ماليس في قلوبكم . إنكم عجزتم عن العمل . وأخلدتم الى الكسل . وأردتم أن تقيموا لانفسكم عذرا يدفع عنكم هاتين الوصمتين فسميتم ما أنتم فيه توكلا وماهو الا العجز الفاضح . والاسفاف السافل . وهنا زفر الشيخ زفرة الغيظ ونادى في قومه أن أخرجوا هذا الزنديق الملحد من مجلسي فتألبوا علي تألبهم على قصعة

---

(١) السادن خادم الهيكل أو خادم الكعبة والمراد به الحاجب والجمع سدنة

(٢) الخماص جمع خميص وهو ضامر البطن والبطان جمع بطين وهو ممتلىء البطن

الثريد وأوسعونى لطما وصفعا ثم رموا بى خارج الباب فما بلغت منزلى حتى هلكت أو كدت . فما مررت بعد ذلك بطائفة من العامة الا رمونى بالنظر الشزر وعاذوا بالله من رؤيتى كما يعوذون به من الشيطان الرجيم

الموقف الثالث : لا أكتمك ياسيدى أنى كنت أبغض زوجتى بغضاً ينصدع له القلب غير أنى كنت أصانعها وأتودد اليها وأمنحها من لسانى ما ليس له أثر فى قلبى خداعا لها وابقاء على ما تحتويه يدى من صبابة مال كانت لها . فرأيت أن ذلك أكذب الكذب وأقبحه فآليت على نفسى ألا أسدل بعد اليوم أمام عينها حجابا يحول بينها وبين سريرتى . فانقطع عن سمعها ذلك السلسبيل العذب من كلمات الحب . فاستوحشت منى وأظلم ما بينى وبينها فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى انحل ذلك الوثاق . وختمت سورة الفراق . بآية الطلاق

الموقف الرابع : حضرت مجتمعا يضم بين حاشيتيه جماعة من الفضوليين الذين تضيق بهم مذاهب القول فيلجأون الى الحديث عن الناس والمفاضلة بينهم ويحاولون أن ينبشوا دفائن صدورهم ويتغلغلوا بين أطواء[1] سرائرهم ويغالون فى ذلك مغالاة الكيماوى فى تحليله وتركيبه فرأيتهم يتناولون بألسنتهم رجلا عظيما من أصحاب الاراء السياسية لا أعتقد أن بين السالكين مسلكه والآخذين إخذه من أخلص لأمته إخلاصه أو وقف فى المواقف المشهودة موقفه أولاقى فى ذلك السبيل من صدمات الدهر وضربات الايام ما لاقاه . سمعتهم يسمونه خائنا فوالله لأن تقع السماء على الارض أحب الى من أن يتهم البرىء أو يجازى المحسن بالسوء على إحسانه . سمعت مالم أملك نفسى معه فقلت ياقوم أتطالعون من كتاب الحرية مائة صفحة ونيفا [2] ثم لا تزالون عبيد الاوهام أسرى الخيالات سراعا الى كل داع . سعاة مع كل ساع . تنظرون بغير روية وتحكمون بغير علم . إنكم بعملكم هذا تزهدون المحسن فى إحسانه وتلقون الرعب فى قلب كل عامل يعمل لاجلكم وتثبطون همة كل من حدثته نفسه بخدمتكم وخدمة بلادكم . أليس مما يلقى فى النفس اليأس من نجاحكم وصلاح حالكم أن نراكم طعمة كل آكل . ولعبة كل عابث . يستهويكم الكاذب بالكلمات التى

(١) أطواء الثوب طرائقه ومكاسر طيه (٢) يريد أن تاريخ الحرية فى مصر قرن ونيف

تستهوى بها المرضعات أطفالهن ثم يدعوكم إلى مناوأة الصادق فتمنحون الاول ودكم واخلاصكم . والثانى بغضكم وموجدتكم . خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيرا لهم فأرادوا شراً بى فما خاصت من بينهم الا وأنا ألمس رأسى بيدى لأعلم أين مكانها من عنقى

الموقف الخامس : قابلنى فى الطريق شاعر يحمل فى يده طومارا (١) كبيرا وكنت ذاهبا الى موعد لا بد لى من الوفاء به فعرض علىّ أن يسمعنى قصيدة من طريف شعره وأنا أعلم الناس بطريفه وتليده فاستعفيته بعد أن كاشفته أمرى فأبى فاتحيت به ناحية من الطريق فأنشأ يترنم بالقصيدة بيتا بيتا وأنا أشعر كأنما يجرعنى السم قطرة قطرة حتى تمنيت أن لو ضربنى بها ضربة واحدة يكون فيها القضاء أجلى ليريحنى من هذا العذاب المتقطع والتمثيل الفظيع . وكلما أتى على بيت منها أقبل على بوجهه وأطال النظر فى وجهى وحدق فى عينى ليعلم كيف كان وقع شعره من نفسى فاذا رأى تقطيب وجهى ظنه تقطيب الشارب لارتشاف الكأس فيستمر فى شأنه حتى أنشد نحو خمسين بيتا . ثم وقف وقال هذا هو الباب الاول من أبواب القصيدة . فقلت وكم عدد أبوابها رحمك الله . قال عشرة ليس فيها أصغر من أولها . قلت أتأذن لى أن أقول لك ياسيدى إن شعرك قبيح وأقبح منه طوله وأقبح من هذا وذاك صوتك الاجش الخشن وأقبح من الثلاثة اعتقادك أنى من سخافة الرأى وفساد الذوق بحيث يعجبنى مثل هذا الشعر البارد عجباً يسهل علىّ فوات الغرض الذى أريده والذى ما خرجت من منزلى الا من أجله . فتلقانى بضربة بجمع يده (٢) فى صدرى فتلقيته بمثلها وما زالت أكفنا تأخذ مأخذها من خدودنا وأقفائنا حتى كانت فجردت عصاى وضربته فى رأسه ضربة ما أردت بها يعلم الله الا أن أصيب بها مركز الشعر من مخه فأفسده عليه . فسقط مغشيا عليه وسقطت القصيدة من يده فأسرعت اليها ومزقتها وأرحت نفسى منها وأرحت الناس من مثل مصيبتى فيها . وكان الشرطى قد وصل الينا فاحتملنا جميعا الى القسم ثم الى السجن حيث أكتب اليك كتابى هذا

فياصاحب النظرات أفتنى فى أمرى وأرح ظلمة نفسى فقد أشكل على الأمر

(١) الطومار الصحيفة (٢) جمع اليد هيئتها حين تقبضها

وأصبحت أسوأ الناس بالصدق ظنا بعدما رأيت أنى ما وقفت موقفه فى حياتى الاخمس مرات فكانت نتيجة ذلك إفلاسى وخراب بيتى واتهامى بالخيانة مرة والزندقة أخرى . ذلك الى ما أقاسيه اليوم فى هذا السجن من أنواع الآلام . وصنوف الاسقام

سجين المحافظة نمرة ١١٨

أيها السجين

كتبت الى مسح الله ما بك وألهمك صواب الرأى فى حاليك تشكو من جناية الصدق عليك ما وقف بك موقف الشك فى أمره وكاد يزلق بك الى الاعتقاد بانه رذيلة الرذائل . لا فضيلة الفضائل . وما كان لك أن تجعل لليأس هذا السبيل الى نفسك وأن يبلغ بك الجزع من نكبات العيش وضربات الايام مبلغا يذهب برشدك . ويطير بلبك . فما أنت أول صادق فى الارض ولا أول من لقى فى سبيل الصدق شرا أو كابد ضرا

إنك لو فهمت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على مرارتها حق الصبر لذقت من حلاوتها ما تقطع دونه أعناق الرجال

ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال وانما هى حالة من حالات النفس تسمو بها الى أرقى درجات الانسانية وتبلغ بها غاية الكمال

إن الذى يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله أو يرفه بها عيشه يحتقرها ويزدريها لانه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع

ليس من صواب الرأى أن يجعل الانسان حالة عيشه ميزانا يزن به أخلاقه فان اتسع عيشه اطمأن اليها وان ضاق أساء الظن بها فكم رأينا بين الفاضلين أشقياء . وبين الارذلين كثيرا من ذوى النعمة والثراء

لا يستطيع الرجل الفاضل أن يبلغ غايته من عيشه الا اذا استطاع أن ينزل من نفوس الناس منازل الحب والاكرام . ولن يستطيع ذلك الا اذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شأنها . ولن يكونوا كذلك الا اذا كانوا فضلاء أو أشباه فضلاء . والسواد الاعظم الذى يمسك بيده أسباب العيش ويملك بنا بيعه سواد أبله ساذج يبغض الصادق لانه

يصادره في ميوله وأهوائه ويتقيم منه جهله وغباوته ويحب الكاذب لانه لا يزال يزين له أمره حتى يحبب اليه نفسه . فلابد للصادق من صدر يسع هموم العيش وقلب يحتمل بغض القلوب ليبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليبلغ غايته من الفوز والانتصار

الصدق جنة حفت بالمكاره فان كان للصادق في جنة الصدق أرب فليحمل في سبيلها ما حمله الانبياء والمرسلون والحكماء والقائمون باصلاح المجتمع الانساني ودعاة المطالب الدينية والسياسية

كما أن الجود يفقر والاقدام قتال وكما أن لكل فضيلة من الفضائل آفة من الآفات ترفع درجتها وتبعد منازلها الاعلى الصابرين المخلصين . كذلك للصدق آفة من مصادمة الكاذبين وهم الاكثرون . للصادقين وهم الاقلون

أتريد أيها الرجل أن تسمى صادقا وأن تنال أشرف لقب يستطيع أن يناله بشر وأن يوافيك المجد طائعا مذعنا دون أن تبذل في سبيله شيئا من مالك أو راحتك

إنك إن أردت ذلك أو قدرته في نفسك تظلم الفضيلة ظلما بينا وترخص قيمتها وتلق بها في مدارج الطرق وتحت مواطئ النعال

أيحزنك انصراف الاغبياء عن حانوتك أو اتهامهم بالزندقة والالحاد أو المروق والخيانة وترى أن ذلك كثير في سبيل بلوغك منزلة الصدق وإحرازك فضيلته . وأنت تعلم أن الفاضلين قد بذلوا من قبلك أكثر مما بذلت . في سبيل إحراز ما أحرزت . فما ندموا ولا حزنوا

أيها السجين الشريف

هنيئا لك السجن الذى تكابده . وهنيئا لك البغض الذى تحتمله . وهنيئا لك العيش الذى تعالج همومه . فوالله لأنت أرفع في نظرى من كثير من أولئك الذين يعدهم الناس سعداء . ويسمونهم عظماء

لا تظلم الصدق ولا تكن سيئ الظن به وكن أحرص الناس على ولائه ومودته . وإياك أن يخدعك عنه خادع واصبر قليلا يثمر لك غرسه . ويمتد عليك ظله . وهنالك تجد في نفسك

من الذة والغبطة مالو بذل فيه ذوو التيجان تجانهم . وأرباب الكنوز كنوزهم . لما استطاعوا اليه سبيلا

النظامون

ما لهؤلاء النظامين لا يهدءون ساعة واحدة عن صدع رءوسنا وجرح قلوبنا بهذه الصواعق التي يمطرونها علينا كل يوم من سماء الصحف حتى صرنا كلما افتحنا صحيفة ورأينا فيها جدولا أبيض مستطيلا تخيلناه حية رقطاء ففزعنا وألقينا الصحيفة كما ألقاها الشاعر المتلمس لينجو بنفسه ويسلم بحياته

من لى بالقلم العريض الذى يكتب به كتاب الصحف عناوين مقالاتهم فى معرض التهويل والتجسيم فأكتب به الى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية

أيها القوم . إن علماء الضاد الذين عرفوا الشعر بانه الكلام الموزون المقفى لم يكونوا شعراء ولا أدباء ولا يعرفون من الشعر أكثر من إعرابه وبنائه أو اشتقاقه وتصريفه وإنما جروا فى ذلك التعريف مجرى علماء العروض الذين لا مناص لهم من أن يقفوا فى تعريف الشعر عند هذا القدر ما دام لا يتعلق لهم غرض منه بغير أوزانه وقوافيه . وعلله وزحافاته

لا تظنوا أن الشعر كما تظنون وإلا لاستطاع كل قارئ وكل كاتب أن يكون شاعرا لانه لا يوجد فى الناس من يعجزه تصور النغمة العروضية والتوقيع عليها من أخصر طريق

أيها القوم . ما الشعر الا روح يودعها الله فطرة الانسان من مبدأ نشأته ولا تزال كامنة فيه كمون النار فى الزند حتى اذا شدا (١) فاضت على أسلات أقلامه (٢) كما تفيض الكهرباء على أسلاكها . فمن أحس منكم بهذه الروح فى نفسه فليعلم أنه شاعر أولا فليكف نفسه مؤونة التخطيط والتسطير وليصرفها الى معاناة ما يلائم طبعه ويناسب فطرته من أعمال الحياة . فوالله للمحراث فى يد الفلاح والقدوم فى يد النجار والمبرد فى يد الحداد أشرف وأنفع من القلم فى يد النظام

(١) شدا أخذ طرفا من الادب والعلم (٢) الاسلات جمع أسلة وهى نبات رقيق الغصن

فان غم عليكم الامر وأعجزكم أن تعلموا مكان الروح الشعري من نفوسكم فاعرضوا أنفسكم على من يرشدكم اليكم ويدلكم عليكم حتى تكونوا على بينة من أمركم

الحريه

استيقظت فى فجر هذا اليوم على صوت هرة تموء (١) بجانب الفراش وتمسح بى وتلح فى ذلك إلحاحا غريبا فرابنى أمرها وأهمنى همها وقلت لعلها جائعة فنهضت وأحضرت لها طعاما فعافته وانصرفت عنه فقلت لعلها عطشة فأرشدتها الى الماء فلم تحتفل به وأنشأت تنظر الى نظرات تنطق بما تشتمل عليه نفسها من الآلام والأحزان فأثر فى نفسى منظرها هذا تأثيرا شديدا حتى تمنيت أن لو كنت سليمان . أفهم لغة الحيوان . لأعرف حاجتها . وأفرج كربتها . وكان باب الغرفة مقفلا فرأيت أنها تطيل النظر اليه وتلصق بى اذا رأتنى أتجه اليه فأدركت غرضها وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب . فأسرعت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء . ورأت وجه السماء . حتى استحالت حالتها من حزن وهم الى غبطة وسرور وانطلقت تعدو فى سبيلها . فعدت الى فراشى وأسندت رأسى الى يدى وأنشأت أفكر فى أمر هذه الهرة وأعجب لشأنها وأقول . ليت شعرى هل تفهم الهرة معنى الحرية فهى تحزن لفقدانها وتفرح بلقياها . أجل إنها تفهم معنى الحرية وما كان حزنها وبكاؤها وإمساكها عن الطعام والشراب الا من أجلها وما كان تضرعها ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها الا سعيا وراء بلوغها

وهنا ذكرت أن كثيرا من أسرى الاستبداد من بنى الانسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة فى الغرفة والوحش المعتقل فى القفص والطير المقصص الجناح من ألم الأسر وشقائه . بل ربما كان بينهم من لا يفكر فى وجه الخلاص أو يلتمس السبيل الى النجاة مما هو فيه . بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء فى هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بآلامه وأسقامه

من أصعب المسائل التى يحار العقل البشرى فى حلها أن يكون الحيوان الاعجم أوسع فى

(١) المواء صوت الهر

الحرية مَيْدانا من الحيوان الناطق . فهل كان نطقه شؤما عليه وعلى سعادته . وهل يجمل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيدا بحريته كما كان قبل أن يصبح ذكيا ناطقا

يحلّق الطير فى الجو وتَسبح السمك فى البحر وتَهيم الوحش ماشاء فى الاودية والجبال ويعيش الانسان رهين المحبَسَيْن مَحبَس نفسه ومَحبَس حكومته من المهد الى اللحد

صنع الانسان القوى للانسان الضعيف سلاسل وأغلالا وسماها تارة ناموسا وأخرى قانونا ليظلمه باسم العدل ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام

صنع له هذه الآلات المخيفة وتركه قلقا حذرا مروع القلب مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراسا تراقب حركات يديه وخطوات رجليه وفلتات لسانه وخطرات وهمه وخياله لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه فويل له ما أكثر جهله . وويح له ما أشد حمقه . وهل يوجد فى الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذى يعالجه أو سجن أضيق من السجن الذى هو فيه

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ولا يَذرِف دمعة واحدة عليها

لو عرف الانسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من السلاسل والقيود لانتحر كما ينتحر البلبل اذا حبسه الصياد فى القفص وكان ذلك خيراً له من حياة لا يرى فيها شعاعا من أشعة الحرية ولا تخلُص اليه نسمة من نسماتها

كان فى مبدأ خلقه يمشى عُريانا أو يلبس لباسا واسعا يشبه أن يكون ظلة تقيه لفحة الرمضاء . أو هبة النكباء . فوضعوه فى القِماط كما يضعون الطفل وكفنوه كما يكفنون الموتى وقالوا له هكذا نظام الازياء

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته فحالوا بينه وبين ذلك وملأوا قلبه خوفا من المرض أو الموت وأبوا أن يأكل أو يشرب الا كما يريد الطبيب وأن يتكلم أو يكتب الا كما يريد الرئيس الدينى أو الحاكم السياسى وأن يقوم أو يقعد أو يمشى أو يقف أو يتحرك أو يسكن الا كما تقضى به قوانين العادات

لا سبيل الى السعادة فى هذه الحياة الا اذا عاش الانسان فيها حرا لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطرٌ الا أدبَ النفس

الحرية شمس يجب أن تشرق فى كل نفس . فمن عاش محروما منها عاش فى ظلمة حالكة يتصل أولها بظلمة الرحم . وآخرها بظلمة القبر

الحرية هى الحياة ولولاها لكانت حياة الانسان أشبه شيء بحياة التماثيل المتحركة فى أيدى الاطفال بحركة صناعية

ليست الحرية فى تاريخ الانسان حادثا جديدا . أو طارئا غريبا . وإنما هى فطرته التى فطر عليها مذ كان وحشا يتسلق الصخور . ويتعلق بأغصان الاشجار

إن الانسان الذى يمد يده لطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجدٍ وإنما هو يطلب حقا من حقوقه التى سلبته إياها المطامع البشرية . فان ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه ولا يدلأحد عنده

عبرة الهجرة

إن فى أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وسجاياه التى لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الارض أو السماء . أو الماء أو الهواء

إن ما كان يَبهر العرب من معجزات علمه وحلمه . وصبره واحتماله . وتواضعه وإيثاره . وصدقه وإخلاصه . أكثر مما كان يَبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر . ومشى الشجر . ولين الحجر . ذلك لأنهما كان يَريبهم فى الأولى ما كان يَريبهم فى الأخرى من الشبه بينها وبين عِرافة العرافين وكهانة الكهنة وسحر السحرة . فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريد . ولا تركت المعجزات فى نفوس العرب ذلك الأثر المعروف . ذلك هو معنى قوله تعالى « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك »

كان النبي صلى الله عليه وسلم شجاع القلب فلم يَهب أن يدعوَ الى التوحيد قوما مشركين

يعلم أنهم غلاظ جفاة شرسون متحمسون يغضبون لدينهم غضبتهم لأعراضهم ويحبون آلهتهم كما يحبون أبناءهم

كان على ثقة من نجاح دعوته فكان يقول لقريش أشد ما كانوا هزأ به وسخرية «يامعشر قريش والله لا يأتى عليكم غير قليل حتى تعرفوا ما تنكرون . وتحبوا ما أنتم له كارهون .»

كان حليما سمح الاخلاق فلم يزعجه أن كان قومه يؤذونه ويزدرونه ويشعّثون(١) منه ويضعون التراب على رأسه ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسَلى (٢) الجزور وهو فى صلاته بل كان يقول « اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون »

كان واسع الامل كبير الهمة صُلب النفس لبث فى قومه ثلاث عشرة سنة يدعو الى الله فلا يلبى دعوته الا الرجل بعد الرجل فلم يبلغ الملل من نفسه ولم يخلُص اليأس الى قلبه فكان يقول والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الامر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته

ومازال هذا شأنه حتى علم أن مكة لن تكون مبعث الدعوة ولا مطلع تلك الشمس المشرقة فهاجر الى المدينة فانتقل الاسلام بانتقاله من السكون الى الحركة ومن طور الخفاء الى طور الظهور

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الاسلام لانها أكبر مظهر من مظاهره وكانت عيداً يحتفل به المسلمون فى كل عام لانها أجمل ذكرى للثبات على الحق والجهاد فى سبيل الله

لقد لقى صلى الله عليه وسلم فى هجرته عناء كبيرا وشدة عظيمة فان قومه كانوا يكرهون مهاجرته لا ضنًّا به بل مخافة أن يجد فى دار هجرته من الاعوان والانصار ما لم يجد بينهم كانما كانوا يشعرون بانه طالب حق وأن طالب الحق لا بد أن يجد بين المحقين أعوانا وأنصارا .
فوضعوا عليه العيون والجواسيس فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكراً بعد ما ترك فى فراشه ابن عمه على بن أبى طالب رضى الله عنه عبثاً بهم وتضليلا لهم عن اللحاق به ومشى هو وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه يتسلقان الصخور ويتسربان فى الاغوار والكهوف ويلوذان

(١) يقال شعّث فلان من فلان تنقّصه (٢) السَلى للدواب بمنزلة المشيمة للانسان

بأكناف الشعاب والهضاب حتى انقطع عنهم الطلب وتم لهما ما أرادا بفضل الصبر والثبات على الحق

ان حياة النبي صلى الله عليه وسلم أعظم مثال يجب أن يحتذيه المسلمون للوصول الى التخلق بأشرف الاخلاق والتحلي بأكرم الخصال وأحسن مدرسة يجب ان يتعلموا فيها كيف يكون الصدق في القول والاخلاص في العمل والثبات على الرأي وسيلة الى النجاح وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سبباً في علوه على الباطل

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان . وحكماء الرومان . وعلماء الافرنج . فلدينا في تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجد والعمل والصبر والثبات والحب والرحمة والحكمة والسياسة والشرف الحقيقي والانسانية الكاملة وهي حياة نبينا صلى الله عليه وسلم وحسبُنا بها وكفى

الانصاف

اذا كان لك صديق تحبه وتواليه ثم هجمتَ من أخلاقه على ما لم يحلُ في نظرك ولم يتفق مع ما علمت من حاله . وما اطّرد عندك من أعماله . أو كان لك عدو تذم طباعه . وتنقم منه شؤونه . ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خير فتحدثت بما قام في نفسك من مؤاخذة صديقك بالهفوة التي ذممتها . وحمدِ عدوك على الخلة التي حمدتها . عدّك الناس متلوناً أو مخادعاً أو ذا وجهين تمدح اليوم من تذم بالامس وتذم في ساعة من تمدح في أخرى وقالوا إنك تظهر ما لا تضمر وتخفي غير الذي تبدي . ولو أنصفوك لاعجبوا بك وبصدقك ولا كبروا سلامة قلبك من هوى النفس وضلالها ولسمّوا ما بدا لهم منك اعتدالا لا نفاقاً . وإنصافاً لا خداعاً . لانك لم تغلُ في حب صديقك غلوّ من يعميه الهوى عن رؤية عيوبه ولم تمسك من صداقته بالسبب الضعيف فعُنيت بتعهد أخلاقه . وتفقد خلاله . لاصلاح ما فسد من الاولى . واعوج من الاخرى

إن صديقك الذى يبسم لك فى حالى رضاك وغضبك . وحلمك وجهلك . وصوابك وسقطك . ليس ممن يُغتبط بمودته . أو يوثق بصداقته . لانه لا يصلح أن يكون مرآتك التى تتراءى فيها فتكشف لك عن نفسك وتصدُقك عن زينك وشينك . وحلوك ومرك . وهو إما جاهل منهو رفى ميوله وأهوائه فلا يرى غيرما تريد أن ترى نفسه لاما يجب أن تراه . وإما منافق مخادع قد علم أن هواك فى الصمت عن عيوبك وتجرير الذيول عليها فجاراك فيما تريد . ليبلغ منك ما يريد

فها أنت ذا ترى أن الناس يعكسون القضايا ويقلبون الحقائق فيسمون الصادق كاذبا . والكاذب صادقا . ولكن الناس لا يعلمون

المدنية الغربية

سأودّع فى هذه النظرة الخيال والشعر وَداع من يعلم أن الأمر أعظم شأنا وأجل خطراً من أن يعبث فيه العابث بأمثال هذه الطرائف التى هى بالهزل أشبه منها بالجد والتى إنما يلهو بها الكاتب فى مواطن فراغه ولعبه . لا فى مواطن جده وعمله

إن فى أيدينا معشر الكتاب من نفوس هذه الامة وديعة يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدب عليها حتى نؤديها الى أخلافنا من بعدنا كما أداها الينا أسلافنا من قبلنا سالمة غير مأروضة[١] ولا متأكّلة . فان فعلنا فذاك أوْلا فرحمة الله على الصدق والوفاء . وسلام على الكتاب الامناء

الامة المصرية أمة مسلمة شرقية فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها فى أرضها . وذهبت أهرامها فى سمائها . حتى تُبدّل الارض غُيرَ الارض والسموات

إن خطوة واحدة يخطوها المصرى الى الغرب تدنى اليه أجله وتدنيه من مهوى سحيق يُقبر فيه قبراً لا حياة له من بعده الى يوم يبعثون

لا يستطيع المصرى وهو ذلك الضعيف المستسلم أن يكون من المدنية الغربية إن

(١) الخشب المأروض الذى اكلته الأرَضة

دانأها إلا كالغربال من دقيق الخبز يمسك خُشاره . و يُفلت لُبابه . أو الراووق من الخمر يحتفظ بعُقاره . و يستهين برحيقه . فخيرله أن يجتنبها وأن يفرمنها فرار السليم من الأجرب

يريد المصرى أن يقلد الغربى فى نشاطه وخفته فلا ينشط الا فى غدوته وروحته . وقعدته وقومته . فاذا جد الجد وأراد نفسه على أن يعمل عملاً من الأعمال المحتاجة الى قليل من الصبر والجلد دب الملل الى نفسه دبيب الصهباء فى الأعضاء . والكرى بين أهداب الجفون

يريد أن يقلده فى رفاهيته ونعمته فلا يفهم منهما الا أن الأولى التخلّج فى الحركات . والثانية الاختلاف الى الحانات

يريد أن يقلده فى الوطنية فلا يأخذ منها الا نعيقها ونعيبها . وضجيجها وصفيرها . فاذا قيل له هذه المقدمات فأين النتائج أسلم رجليه الى الرياح الأربع واستنّ فى فراره استنان المهر الأرن . فاذا سمع صفير الصافرات وجلا . واذا رأى غير شئ ظنه رجلا

يريد أن يقلده فى السياحة فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقبَ الارض الميتة فصل الربيع حتى اذا حان حينه طار الى مُدن أوربا طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئا مما حوله . ولا يلوى على شئ مما وراءه . حتى يقع على مجامع اللهو ومكامن الفجور وملاعب القمار . وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود بعده فقير الرأس والجيب . لا يملك من الاول الا ما يقوده الى طريق السفينة التى تحمله فى أوبته . ولا من الثانى أكثر من الجعالة التى يجتعلها منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته . حادثة عودته . موشاة بجمل الاجلال والاحترام . مطرزة بوشائع الاكرام والاعظام

يريد أن يقلده فى العلم فلا يعرف منه الا كلمات يرددها بين شدقيه ترديداً لا يلجأ فيه الى ركن من العلم وثيق . ولا يعتصم به من جهل شائن

يريد أن يقلده فى الاحسان والبر فيترك جيرانه وجاراته يطوون حنايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهابا حتى اذا سمع دعوة الى اكتتاب فى فاجعة نزلت فى القطب الشمالى

أوكارثة ألمت بسد يأجوج ومأجوج سجل اسمه فى فاتحة الكتاب . و رصد هبته فى مستهل جريدة الحساب

يريد أن يقلده فى تعليم المرأة وتربيتها فيقنعه من علمها مقالة تكتبها فى جريدة أو خطبة تخطبها فى محفل ومن تربيتها التفنن فى الازياء والمقدرة على سحر النفوس واستلاب الالباب

هذا شأنه فى الفضائل الغربية يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة لا يعرف لها مغزى ولا ينتحى بها مقصدا ولا يذهب فيها الى مذهب . فيكون مثله فى ذلك كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح فى تطهير الثياب وقلوبهم ملأى بالاقذار والاكدار . و يجارونهم فى آداء صور العبادات وان كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر . أو كمثل الذين يتشبهون بعمر فى ترقيع الثياب و إن كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة الاسرائيليين

أما شأنه فى رذائلها فانه أقدر الناس على أخذها كما هى فينتحر كما ينتحر الغربى و يلحد كما يلحد و يستهتر فى الفسوق استهتاره . و يترسم فى الفجور آثاره

إن فى المصريين عيوبا جمة فى أخلاقهم وطباعهم ومذاهبهم وعاداتهم فان كان لا بد لنا من الدعوة الى إصلاحها فلندع الى ذلك باسم المدنية الشرقية . لا باسم المدنية الغربية

إن دعوناهم الى الحضارة فلنضرب لهم مثلا بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا لا بباريس و رومة وسويسرة ونيويورك . و إن دعوناهم الى مكرمة فلنتل عليهم آيات الكتب المنزلة وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه لا آيات رسو و باكون ونيوتن وسبنسر . و إن دعوناهم الى حرب ففى تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن و بلوخر . وفى وقائع القادسية وعمورية وأفريقية والحروب الصليبية ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار واوسترليتز والسبعين

إن عارا على التاريخ المصرى أن يعرف المسلم الشرقى فى مصر من تاريخ بنوبارت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص . و يحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية . ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية . ومن مبادئ ديكارت وأبحاث درون ما لا يحفظ من حكم الغزالى

وأبحاث ابن رشد . ويروى من الشعر لشكسبير وهوجو ما لا يروى للمتنبي والمعرى

لا مانع من أن يعرّب لنا المعرّبون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب والجيد الممتع من أدب كتابهم وشعرائهم على أن ننظر اليه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم . فلا نأخذ كل قضية علمية قضية مسلمة ولا نطرب لكل معنى أدبي طرباً متدفقاً . ولا مانع من أن ينقل الينا الناقلون شيئاً من عادات الغربيين ومصطلحاتهم في مدنيتهم على أن ننظر اليه نظر من يريد التبسط في العلم بشؤون العالم والتوسع في التجربة والاختبار لا على أن نتقلدها وننتحلها ونتخذها قاعدتنا في استحسان ما نستحسن من شؤوننا . واستهجان ما نستهجن من عاداتنا

و بعد فليعلم كتاب هذه الامة وقادتها أنه ليس في عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيرا . فلا يخدعوا أمتهم عن نفسها ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها ولا يزينوا لها هذه المدنية الغربية تزييناً يرزؤها في استقلالها النفسي . بعد ما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي

يوم الحساب

ساهرتُ الكوكبَ ليلة أمس حتى ملني ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعاً وقد وقف الهم بيني وبين الكرى أجذبه فيدفعه . وأُدنيه فيبعده . حتى أسلس قياده . وسكن جماحه لم تخالط جفني سِنة الكرى حتى خيل الى أنى انتقلت من العالم الاول الى العالم الثانى ورأيت كأنى بعثت بعد الموت وكأن أبناء آدم مجتمعون فى صعيد واحد يحاسبون على أعمالهم فأُلهمت أنه موقف الحشر وأنه يوم الحساب

أنشأت أمشى مِشية الحائر الذاهل لا أعرف لى مذهبا ولا مضطرَباً ولا أجد من يأخذ بيدى ويدلنى على نفسى فى هذا الموقف الذى ينشد فيه كل ذى نفس نفسه فلا يجد اليها سبيلا . فطفقت أتصفح وجوه الواقفين . وأقلب النظر فى الغادين والرائحين . علنى أجد

صديقا أستأنس به فى وحدتى . وأستعين بمرافقته على وحشتى . فلا أرى الا خلقا غريبا . ومنظرا عجيبا . ووجوها ما رأيت لها فى حياتى شبيها ولا ضريبا . ولولا أنى أعلم أن الحساب خاص بالانسان . لظننت أن الله يحاسب فى هذا الموقف جميع أنواع الحيوان

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما من نفسى رأيت على البعد وجها يبتسم لى ويدنو منى رويدا رويدا فأقبلت نحوه حتى بلغته فاذا صديق «فلان» واذا وجهه يتلألأ تلألؤ الكوكب فى علياء السماء . فسألته ما فعل الله به . فقال حاسبنى حسابا يسيرا ثم غفر لى . وها أنذا ذاهب الى ما أعد الله لعباده الصالحين فى جنته من النعيم المقيم . فعجبت لشأنه وقلت فى نفسى لقد هان أمر الحساب على كل عاص بعد ما هان على هذا الذى كنت أعرفه فاسقا ولاهيا لا يتقى مأثما . ولا يهاب منكرا . ولا يخرج من حان الا الى حان . ولا يودع مجمعا من مجامع الفسق الا على موعد من اللقاء . فنظر الى نظرة العاتب اللائم وابتسم ابتسامة علمت منها أن الرجل قد ألم بما زورته فى نفسى فذكرت أن قد كشف الغطاء فى هذه الدار وأن قد رفع الحجاب بين الناس فلا سر ولا جهر . ولا بطن ولا ظهر . ولا فرق بين حركات اللسان . وخطرات الجنان . نظر الى تلك النظرة وقال لا تعجب لأمر فى هذه الدار فكل ما فيها عجيب . واعلم أن الله حاسبنى على كل ما كنت أجترح من الاثم فى الدار الاولى الا أنه وجد لى فى جريدة حسناتى حسنة ذهبت بجميع السيئات . ذلك أنه كان لى جار من ذوى النعمة والثراء والصلاح والخير والمروءة والبر نكبه دهره نكبة ذهبت بماله فأهمنى أمره وأزعجنى أن أراه فى مستقبل الايام بائسا معدما يريق ماء وجهه على أعتاب الذين كان يسدى اليهم نعمته . وعلمت أنى إن عرضت عليه شيئا من مالى أخجلته وصغرت نفسه فى عينه فاحتلت على أن أدخل فى بيته خادما كانت فى بيتى وجعلت لها جعلا على أن تدس فى كيس دراهمه كل ليلة خمسة دنانير من حيث لا يشعر بما تأتاها . ولا يقف على سرها . وما زال هذا شأنى وشأنه لا يعلم من أين يأتيه رزقه ولا يشعر أحد من الناس باستحالة حاله . وذهاب ماله . حتى فرق الموت بينى وبينه فما نفعنى عمل من أعمالى ما نفعنى هذا العمل . وما كان الاحسان وحده سبب سعادتى بل كان سببها أنه أصاب الموضع وخلص من شائبة الرياء . فهنأته بنعمة الله عليه

وشكوت اليه وحشتى من الوحدة وخوفى من المحاسبة . فقال أما الوحشة فانى لن أفارقك حتى يأتى دورك . وأما الخوف فلا حيلة لى ولا لأحد من الناس فى نقض ما أبرم الله فى شأنك . قلت أنت من السعداء فهل تستطيع أن تشفع لى أو تطلب لى شفاعة من ولى من الاولياء . أو نبى من الانبياء . قال لا تطلب المحال . ولا تصدق كل ما يقال . فقد كنا مخدوعين فى الدار الاولى بتلك الآمال الكاذبة التى كان يبيعها منا تجار الدين بثمن غال ولا يتقون الله فى غشنا وخداعنا . وما الشفاعة الى مظهر من مظاهر الاكرام والتبجيل يختص به الله بعض عباده المقربين . فلا يشفع عنده أحد الا باذنه . ولا يأذن بالشفاعة لاحد الا اذا كان بين أعمال المشفوع له أو فى أعماق سريرته ما يقتضى إيثاره بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين . والله سبحانه وتعالى أجل من العبث وأرفع من المحاباه .

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى رأينا كوكبة من ملائكة العذاب تحيط برجل يساق الى النار ورأينا فى يد كل واحد منهم مقرعة من الحديد يقرع بها رأسه وهو يصرخ ويقول « أهلكتنى يا أبا حنيفة » فسألت صاحبى ما ذنب الرجل . فقال إنه كان فى حياته يتخذ فى أعماله ما يسمونه « الحيل الشرعية » فكان يهب ماله لاحد أولاده على نية استرداده قبل أن يحول عليه الحول ليتخلص من فريضة الزكاة . ويطلق زوجته ثلاثا ثم يأتى بمحلل يحللها له فيعود الى معاشرتها . وكان يرابى باسم الرهن فاذا جاءه من يريد أن يقترض منه مالا أبى أن يقرضه الا اذا وضع فى يده رهنا فاذا وضع يده على ضيعته ألزمه أن يستأجرها منه بمال كثير يراعى فيه النسبة التى يراعيها المرابون بين الربح وأصل المال . وكان اذا حلف لا يدخل بيتا مثلا دخله من نافذته . أولا يأكل رغيفا أكله الا لقمة منه . فذنبه أنه كان يعمد الى الاحكام الشرعية فينتزع منها حكمها وأسرارها ثم يرفعها الى الله قشورا جوفاء ليخدعه بها ويغشه فيها كما يفعل مع الاطفال والبله مستندا على تقليد أبى حنيفة أو غيره من كبار الائمة وأبو حنيفة أرفع قدرا وأهدى بصيرة من أن يتخذ الله هزأ أو سخرية وأن يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين

وما انقطع عنا صوت هذا الشقى حتى رأينا شقيا آخر ذا لحية طويلة كثة قد أحاط به

ملكان وشد اعنقه بسبحة طويلة ذات حبات كبيرة وقد أخذ كل منهما بطرف منها وهو يهمهم بكلمات مبهمة فيقرعه أحدهما على رأسه ويقول له « أمكرٌ وأنت في الحديد » فدنوت منه وأنعمت النظر في وجهه فعرفته فتراجعت ذعراً وخوفاً وقلت أيكون هذا من أشقياء الآخرة وقد كان بالامس من أقطاب الاولى. فقال لي صاحبي إن هذا الذي كنت تحسبه في أولاه من الاقطاب كان أكبر تاجر من تجار الدين. وما هذه اللحية والسبحة والهمهمة والدمدمة الاحبائل كان ينصبها لاصطياد عقول الناس وأموالهم ولكن الناس لا يعلمون

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يمرون بنا هذا الى جنته وذاك الى ناره وأنا أسأل عن شأن كل منهم واحداً فواحداً فأرى سعيداً من كنت أحسبه شقيا . وشقيا من كنت أحسبه سعيدا . فعلمت أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على قلوبهم . لا على جوارحهم . ويسألهم عن نياتهم . لا عن أفعالهم . وأن لا سعادة الا الصدق . ولا شقاء الا الكذب . وعلمت أن الله لا يغفر من السيئات الا ما كان هفوة من الهفوات يُلِمّ بها صاحبها إلماما ثم يندم عليها . ورأيت أن أكبر ما يعاقب الله عليه جناية المرء على أخيه بسفك دمه أو هتك عرضه أو سلب ماله . وأن أضعف الوسائل الى الله ذلك الركوع والسجود . والقيام والقعود . فلو أن امرأ قضى حياته بين ليل قائم . ونهار صائم . ثم ظلم طفلا صغيراً في لقمة يختطفها من يده لاستحالت حسناته الى سيئات وما أغنى عنه نسكه من الله شيئاً

وبينا أنا أحدث نفسي بهذا الحديث وأقلب النظر في وجوه تلك المواعظ والعبر إذ قال لي صاحبي أتعرف هذين . وأشار الى رجلين واقفين ناحية يتناجيان . أحدهما شيخ جليل أبيض اللحية . وثانيهما كهل نحيف قد اختلط مبيضه بمسوده . فما هي الا النظرة الاولى حتى عرفت الرجلين العظيمين . رجل الاسلام « محمد عبده » ورجل المرأة « قاسم أمين » . فقلت لصاحبي هل لك في أن ندنو منهما ونسترق نجواهما من حيث لا يشعران . ففعلنا فسمعنا الأول يقول للثاني . ليتك يا قاسم أخذت برأيي وأحللت نصحي لك محلا من

نفسك . فقد كنت أنهاك أن تفاجئ المرأة المصرية برأيك فى الحجاب قبل أن تأخذ له عدتها من الأدب والدين فجنى كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفسادها وتبذلها وإراقة تلك البقية التى كانت فى وجهها من ماء الحياء منذ عهدها بالحجاب . فقال له صاحبه إنى أشرت عليها أن تتعلم قبل أن تسفر وأن لا ترفع برقعها قبل أن تنسج لها برقعاً من الأدب والحياء . قال له ولكن قد فاتك ما كنت نبأتك به من أنها جاهلة لا تفهم هذا التفصيل وضعيفة لا تعبأ بهذا الاستثناء . فكنت كمن يعطى الجاهل سيفاً ليقتل به غيره فيقتل نفسه . فقال له أتأذن لى يا مولاى أن أقول لك إنك وقعت فى مثل ما وقعت فيه من الخطأ وأنك نصحتنى بما لم تنتصح به . أنا أردت أن أنصح المرأة فأفسدتها كما تقول . وأنت أردت أن تحيى الاسلام فقتلته . إنك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والأغراض الشريفة فأرادوا غير ما أردت . وفهموا غير ما فهمت . فأصبحوا ملحدين . بعد أن كانوا مخرفين . وأنت تعلم أن ديناً خرافياً خير من لا دين . أولت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملك والشيطان والجنة والنار . وبينت لهم حكم العبادات وأسرارها . وسفهت لهم رأيهم فى الأخذ بقشورها دون لبابها . فتركوها جملة واحدة . وقلت لهم إن الولى إله باطل . والله إله حق . فأنكروا الألوهية حقها وباطلها . فتهلل وجه الشيخ وقال له ما زلت يا قاسم فى أخراك . مثلك فى دنياك . لا تضطرب فى حجة . ولا تنام عن ثأر . يا قاسم لا تحمل هماً . ولا تخش شراً . وثق أن الله سيحاسبنا على نياتنا وسرائرنا . ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا . إنما أردنا الا الخير لأمتنا . وما قدرنا لها فى مستقبلها إلا ما تحتمله عقولنا . فان كذبت فراستنا أو أخطأ تقديرنا فذلك لأن المستقبل بيد الله

وما وصلا من حديثهما الى هذا الحد حتى تركا مكانهما وذهبا لشأنهما . فقلت لصاحبى هل لك أن ترينى الميزان والصراط والجنة والنار فانى ما زلت فى شوق الى رؤية تلك الأشياء ورؤية مواقعها منذ رأيتها فى «خريطة الآخرة» التى رسمها الشعرانى فى بعض كتبه . قال أما الميزان فتقدير الأعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات . وأما

الصراط فهو سبيل الانسان الى سعادته أو شقائه . وأما الجنة والنار فلا علم لى حتى الساعة بهما

و بينا أنا كذلك إذ سمعت صوتا صارخاً ما قرع سمعى فى حياتى مثله ينادينى باسمى فعلمت أن قد جاء دورى فأدركنى من الهول والرعب ما أيقظنى من نومى . فاستيقظت فلم أر حساباً ولا عقاباً . ولا موقفاً ولا محشرا . فعلمت أنها خيالات وأوهام . أو أضغاث أحلام . وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين

الشعرة البيضاء

مررت صباح اليوم أمام المرآة فلمحت فى رأسى شعرة بيضاء . تلمع فى تلك اللمة السوداء . لمعان شرارة البرق فى الليلة الظلماء

رأيت الشعرة البيضاء فى فودى[1] فارتعت لمرآها كأنما خيل الىّ أنها سيف جرده القضاء على رأسى . أو علمٌ أبيضُ يحمله رسول جاء من عالم الغيب ينذرنى باقتراب الاجل . أو بأس قاتلٌ عرض دون الامل . أو جذوة نار علقت بأهداب حياتى علوقها بالحطب الجزل . ولا بد مهما ترفقت فى مشيتها وتأدت فى مسيرها من أن تبلغ مداها . أو خيط من خيوط الكفن الذى تنسجه يد الدهر وتعده لباساً للحى عندما تجردها من لباسها يد الغاسل

أيتها الشعرة البيضاء : ما رأيت بياضاً أشبه بالسواد من بياضك . ولا نوراً أقرب الى الظلمة من نورك . لقد أبغضتُ من أجلك كل بياض حتى بياض القمر . وكلَّ نور حتى نورَ البصر . وأحببتُ كلَّ سواد حتى سوادَ الغربان . وكلَّ ظلام حتى ظلام الوجدان .

أيتها الشعرة البيضاء : ليت شعرى من أى نافذةٍ تخلصتِ الى رأسى . و فى أى مسلكٍ من مسالك الدهر مشيتِ الى فودى

كيف طاب لكِ المقام فى هذه الارض الموحشة التى لا تجدين فيها أنيساً يسامركِ . ولا

(١) الفود ناحية الرأس

جليساً يساهرك . وكيف لم يُرعْ قلبك لمنظر هذا الليل الفاحم . ولم يَعْشَ بصرُك في هذا الظلام القاتم

أيتها الشعرة البيضاء : لقد عييتُ بأمرك . و بَعِلْتُ (١) بحملك . وأصبحتُ لا أعرف وجه الحيلة في البعد عنك . والفرار من وجهك

لا ينفعني معك أن أنزعك من مكانك لانك لا تلبثين أن تعودى اليه . ولا ينصفنى منك أن أخضّبك بالسواد لانك لا تلبثين أن تنصُلى (٢) ولانى لا أحب أن أجمع على نفسى بين مصيبتين . مصيبة الشيب ومصيبة الكذب

أيتها الشعرة البيضاء : يخيّل الى وأنا أنظر اليك أنك من ذوات الحيلة والدهاء والكيد والخبث . وأنك تهمسين فى آذان أخواتك السود اللواتى بجانبك تحاولين إغراءهن بالتشبه بك والتردى بردائك . وكأنى بك وقد أشعلت فى هذه المدينة الهادئة المطمئنة حرباً شعواء . وفتنة عمياء . يختلط فيها الرامح بالنابل . (٣) والدارع بالحاسر . (٤) و يهلك فيها القاعد والقائم . والمظلوم والظالم .

إن كان هذا مصيرك فسيكون شأنك شأن ذلك السائح الابيض الذى ينزل بأمة الزنج مستكشفاً فيصبح مستعمراً . و يدخل أرضها سلماً . و يفارقها حرباً . فأسأل الله لرأسى العافية منك . ولأمة الزنج السلامة من صاحبك . فكلا كما مشئوم الطلعة فى مُقامه وارتحاله . وكوكب النحس فى وقوفه وتسياره

أيتها الشعرة البيضاء : ما أنت . وما وفودُك الى . وما مكانُك منى . وما مُقامك عندى . إن كنت ضيفاً فأين استئذان الضيف وتلطفه . وتجمّله وتودده . و إن كنت نذيراً فأنا أعلم من شأن الموت ما لا أحتاج معه الى نذير . فلم يبق الا أن تكونى أوقح الخلائق وجهاً . وأصلبها خداً . وأنك قد نزلت من السماجة والفضول منزلة لا أرى لك فيها شبيهاً الا تلك الحية التى تدلج كل جُحر من أجحار الهوامّ والحشرات تَعُدُّه جحرها . وتحسبه بيتها

---

(١) بعل بالشىء برم به واستثقله (٢) نصل الشعر خرج من الخضاب

(٣) الرامح حامل الرمح والنابل ذو النَّبل (٤) الدارع لابس الدرع والحاسر خلافه

أبلغ بكِ الشأن وأنتِ التي يضربون الامثال بدقتها وخفائها ويبعثون وراءها الملاقط والمقاريض فلا يكادون يعرفون السبيل الى مدارجها ومكامنها أن تملئي من الرعب قلباً لا تروعه السيف المجرد . ولا السهم المسدد .

لا لا ، ماذُعرتُ ولا ارتعت . وما حزنت ولا بكيت . وانما هي خطرة من خطرات الامل الكاذب . ولمحة من لمحات البرق الخالب .

أيتها الشعرة البيضاء : هل لك أن تجاوزي عما أسأت به اليك في إدالة عتبك . واستثقال ظلك . فلقد رجعتُ الى نفسي فعلمتُ أنكِ أكرم الخلائق عندي . وأعظمها في عيني . هنيئاً لك رأسي مَصيفاً ومَربَعاً . وهنيئاً لك فودي مَراداً ومَسرحاً . فأنتِ رسولُ الموت الذي مازلتُ أطلبه مذعرفته . فلا أجد له سبيلا . ولا أعرف اليه رسولا

ما الذي يحمله في صدره لك من الحقد والموجدة رجل لم ينعم بشبابه . فيحزنَ على ذهابه . ولم يذق حلاوة الحياة . فيجزع لمرارة الممات . ولم يستنشق نسمات السعادة غصناً رطباً . فيأسى عليها عوداً يابساً

ما الذي ينقمه منك من الشؤون رجلٌ يعلم أنك وحي الامل الذي يبشره بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناء الا لحظات قليلة يكدرها ما يحيط بها من الهموم والاكدار كما تكدر أنفاسُ الحزن الحارة صفحة المرآة

أليس كلُّ ما أُعده عليك من الذنوب أنك طليعة الموت والموتُ هو الذي يخلصني من منظر هذا العالم المملوء بالشرور والآثام . الحافل بالآلام والاسقام . الذي لا أغمض عيني فيه إلا لأفتحها على صديق يغدر بصديقه . وأخ يخون أخاه . وعشير يحدد أنيابه ليمضغ عشيره . وغني يضن على الفقير بفُتات مائدته . وفقير يقترح على الدهر حتى بُلغةَ الموت فلا يظفر بأمنيته . وملك لا يفرق بين رعيته وماشيته . ومملوك لا يميز بين مُلك الملك وربوبيته . وقلوب تضطرم حقداً على غير طائل . ونفوس تتفانى قتلا على لون حائل . وظل زائل . وغرض سافل . وعيش باطل . وعقول تتهالك وجداً على نار تحرقها . وأنياب تمزقها . وعيون حائرة . في رءوس طائرة . تنظر ولا ترى شيئاً مما حولها . وتلمع ولا تكاد تبصر ما تحتها .

إن كان هذا هو ذنبك عندي فاستكثري من ذنوبك فاني لك من الغافرين

أيتها الشعرة البيضاء : مرحباً بك اليوم ومرحباً بأخواتك غداً . ومرحباً بهذا القضاء الواقف وراءك . أو الكامن في أطوائك . ومرحباً بتلك الغرفة التي أخلو فيها بربي . وآنس فيها بنفسي . من حيث لا أسمع حتى دوي المدافع . ولا أرى حتى غبار الوقائع .

أهلاً بوافدةٍ للشيب واحدة ... وإن تراءت بشكل غير مودود

الصياد

حدّث أحد الأصدقاء قال : بينا أنا في منزلي صبيحة يوم إذ دخل علي رجل صياد يحمل في شبكة فوق عاتقه سمكة كبيرة فعرضها عليّ فساومته فيها ثم نقدته الثمن الذي أراده فأخذه شاكراً متهللاً وقال : هذه هي المرة الاولى التي أخذت فيها الثمن الذي اقترحته . أحسن الله اليك كما أحسنت اليّ وجعلك سعيداً في نفسك . كما جعلك سعيداً في مالك . فسررت بهذه الدعوة كثيراً وطمعت أن تفتح لها أبواب السماء . وعجبت أن يهتدي شيخ عامي الى معرفة حقيقة لا يعرفها الا القليل من الخاصة . وهي أن للسعادة النفسية شأناً غير شأن السعادة المالية . فقلت له يا شيخ وهل توجد سعادة غير سعادة المال . فابتسم ابتسامة هادئة مؤثرة وقال : لو كانت السعادة سعادة المال لكنت أنا أشقى الناس لانني أفقر الناس . قلت وهل تعدّ نفسك سعيداً قال نعم لأنني قانع برزقي مغتبط بعيشي لا أحزن على فائت من العيش ولا تذهب نفسي حسرة وراء مطمع من المطامع فمن أي باب يخلص الشقاء الى قلبي . قلت أيها الرجل أين يُذهب بك وما أرى الا أنك شيخ قد اختُلس عقله . كيف تعد نفسك سعيداً وأنت حافٍ غير متنعل وعارٍ الا قليلاً من الاسمال البالية والاطمار السحيقة . قال ان كانت السعادة لذة النفس وراحتها . وكان الشقاء ألمها وعناءها . فأنا سعيد لانني لا أجد في رثاثة ملبسي ولا في خشونة عيشي ما يؤدّي لي ألماً . أو يسبّب لي هماً . وان كانت السعادة عندكم أمراً وراء ذلك . فأنا لا أفهمها الا كذلك . قلت ألا يحزنك النظر الى الاغنياء في أثاثهم ورياشهم . وقصورهم ومراكبهم . وخدمهم وخولهم . ومطعمهم ومشربهم . ألا يحزنك هذا

الفرق العظيم بين حالتك وحالتهم . قال انما يُصغر جميع هذه المناظر فى نظرى ويهونها عندى أنى لا أجد أن أصحابها فقدنالوا من السعادة بوجدانها . أكثر مما نلته بفقدانها

هذه المطاعم التى تذكرها إن كان الغرض منها الامتلاء فانا لا أذكر أنى بت ليلة فى حياتى جائعاً . وان كان الغرض منها قضاء شهوة النفس فأنا لا آكل الا اذا جعت فأجد لكل ما يدخل جوفى لذة لا أحسب أن فى شهوات الطعام لذة تفضلها . أما القصور فان لدى كوخاً صغيراً لا أشعر بأنه يضيق بى وبزوجتى وولدى فأقرع السن على أن لم يكن قصراً كبيراً . وان كان لا بد من إمتاع النظر بالمناظر الجميلة فحسبى أن أحمل شبكتى فوق كتفى كل مطلع فجر وأذهب بها الى شاطىء النهر فأرى منظر السماء والماء . والاشعة البيضاء . والمروج الخضراء . فما هى الا لفتة الجيد حتى يطلع من ناحية الشرق قرص الشمس كأنه خوان من ذهب . أو قطعة من لهب . فلا يبعد عن خط الافق ميلا أو ميلين حتى ينثر فوق سطح النهر حليه المتكسر . أو دره المتحدر . فاذا تجلى هذا المنظر فى عينى بتخلله سكون الطبيعة وهدوؤها ملك على شعورى ووجدانى فاستغرقت فيه استغراق النائم فى الاحلام اللذيذة حتى لا أحب أن أعود الى نفسى الى يوم النشور . ولا أزال هكذا غارقاً فى لذتى حتى أشعر بجذبة قوية فى يدى فأنتبه فاذا السمك فى الشبكة يضطرب . وما اضطرابه إلا لانه فارق الفضاء الذى كان يهيم فيه مطلق السراح وبات فى المحبس الذى لا يجد فيه مراحاً ولا مسرحاً . فلا أجد له شبيهاً فى حالتيه الا الفقراء والاغنياء . يمشى الفقير كما يشتهى وينتقل حيث يريد كأنما هو الطائر الذى لا يقع الا حيث يطيب له التغريد والتنقير . ولولا أن تتخطاه العيون وتنبو عنه النواظر ما طار فى كل فضاء . ولا تنقل حيث يشاء . أما الغنى فلا يتحرك ولا يسكن الا وعليه من الاحداق نطاق . ومن الارصاد أغلال وأطواق . ولا يخرج من منزله الا اذا وقف أمام المرآة ساعة يؤلف فيها من حقيقته وخياله ناظراً ومنظوراً ثم يطيل التفكر هل يقع المنظور من الناظر موقعاً حسناً . حتى اذا استوثق من نفسه بذلك خرج الى الناس يمشى بينهم مشية يحرص فيها على الشكل الذى استقر رأيه عليه فلا يطلق لجسمه الحرية فى الحركة والالتفات حتى لا يخرج بذلك

من حكمها ولا لفكره الحرية في النظر والاعتبار بمشاهد الكون ومناظره مخافة أن يغفلَ عن إشارات السلام . ومظاهر الاكرام .

فاذا أخذت من السمك كفاف يومي عدتُ به و بعته في الاسواق أو على أبواب المنازل . فاذا أدبر النهار عدت الى منزلي فيعتنقني ولدي وتبش زوجتي في وجهي . فاذا قضيت بالسعي حق عيالي و بالصلاة حق ربي نمتُ في فراشي نومة هادئة مطمئنة لا أحتاج معها الى ديباج وحرير . أو مهد وثير . فهل أستطيع أن أعدَّ نفسي بعد ذلك شقياً وأنا أروح الناس بالا . وان كنت أقلهم مالا

لا فرق بيني وبين الغني الا أن الناس لا ينهضون اجلالا اذا رأوني . ولا يمدون أعناقهم نحوي اذا مررت بهم . وأهوِن به من فرق لا قيمة له عندي ولا أثر له في نفسي . وما يعنيني من أمرهم ان قاموا أو قعدوا . أو طاروا في الهواء . أو غاصوا في أعماق الماء . ما دمتُ لا علاقة بيني وبينهم وما دمتُ لا أنظر اليهم الا بالعين التي ينظر بها الانسان الى الصور المتحركة

لا علاقة بيني و بين أحد في هذا العالم الا تلك العلاقة التي بيني و بين ربي . فانا أعبده حق عبادته وأخلص في توحيده فلا أعتقد ربوبية أحد سواه . ولا أكتمك يا سيدي أني لا أستطيع الجمع بين توحيد الله والاعتراف بالعظمة لأحد من الناس . ولقد أخذ هذا اليقين مكانه من قلبي حتى لو طلع عليَّ الملك المتوج في مواكبه وكواكبه ، و بطانته وجنده . لما خفق له قلبي خفقة الرهبة والخشية . ولا شغل من نفسي مكانا أكثر مما يشغله ملك التمثيل

ولقد كان هذا اليقين أكبر سبب في عزائي و راحة نفسي من الهموم والاحزان . فما نزلت بي ضائقةٌ ولا هبت عليَّ عاصفة من عواصف هذا الكون الا انتزعني من بين مخالبها وهوَّنها عليَّ حتى لا أكاد أشعر بوقعها . وكيف أتألم المصاب أعلمُ أنه مقدورٌ لا مفر منه وأني مأجور عليه على قدر احتمالي إياه وسكوني اليه

آمنت بالقضاء والقدر خيره وشره . و باليوم الآخر ثوابه وعقابه . فصغرت الدنيا في عيني وصغر شأنها عندي حتى ما أفرح بخيرها . ولا أحزن لشرها . ولا أعوّل على شأن من شؤونها حتى شأن الحياة فيها . وأُقسم ما خرجت مرة الى شاطئ النهر حاملا شبكتي فوق

عاتق الا وقع الشك فى نفسى هل أعود الى منزلى حاملا أم محمولا

ما العالم الا بحر زاخر . وما الناس الا أسماكه المائجة فيه . وما ريب المنون الا صياد يحمل شبكته كل يوم و يلقيها فى ذلك البحر فتمسك ما تمسك . وتترك ما تترك . وما ينجو من شبكته اليوم لا ينجو منها غدا . فكيف أغتبط بما لا أملك . أو أعتمد على غير معتمد . اذاً أنا أضل الناس عقلا وأضعفهم إيمانا

قال المحدث فأكبرت ذلك الرجل كل الإكبار وأعجبت بصفاء ذهنه وصفاء قلبه وحسدته على قناعته واقتناعه بسعادة نفسه وقلت له : ياشيخ ان الناس جميعا يكون على السعادة و يفتشون عنها فلا يجدونها فاستقر رأيهم على أن الشقاء لازم من لوازم الحياة . قال لا ياسيدى . ان الانسان سعيد بفطرته وانما هو الذى يجلب بنفسه الشقاء الى نفسه . يشتد طمعه فى المال فيتعذر عليه مطمعه فيطول بكاؤه وعناؤه . و يعتقد أن بلوغ الآمال فى هذه الحياة حق من حقوقه فاذا أخطأه سهمه والتوى عليه غرضه أن وشكى شكاة المظلوم من الظالم . و يبالغ فى حسن ظنه بالايام فاذا غدرت به فى محبوب لديه من مال أو ولد فجئه من ذلك مالم يكن يقدر وقوعه فناله من الهم والالم مالم يكن لينال لو خبر الدهر وقتل الايام علما وتجربة وعرف أن جميع ما فى يد الانسان عارية مستردة . ووديعة موقوتة . وأن هذا الامتلاك الذى يزعمه الناس لانفسهم خدعة من خدع النفوس الضعيفة .

إن أكثر ما يصيب الناس من الشقوة من طريق الاخلاق الباطنة . لا من طريق الوقائع الظاهرة . فالحاسد يتألم كلما وقع نظره على محسود . والحقود يتألم كلما تذكر أنه عاجز عن الانتقام من عدوه . والطماع يتألم كلما خاب أمله فى مطمع . والشارب يتألم كلما أفاق من سكره . والزانى يتألم كلما فاوضته فى الاثم سريرته . والظالم يتألم كلما سمع ابتهال المظلوم بالدعاء عليه أو حاق به ظلمه . وكذلك الكاذب والنمام والمغتاب وكل من تشتمل نفسه على رذيلة .

من أراد أن يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة . والا فهو أشقى العالمين وان ملك ذخائر الارض وخزائن السماء

قال الصديق: فما وصل الصياد من حديثه الى هذا الحد حتى نهض قائماً وتناول عصاه وقال أستودعك الله ياسيدى وأدعو لك الدعوة التى أحببتها لنفسك وأحببتها لك. وهى أن يجعلك الله سعيداً فى نفسك. كما جعلك سعيداً فى مالك. والسلام عليك ورحمة الله

الانتحار

فى كل موسم من مواسم الامتحان المدرسى نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين الذين لا ينجحون من التلاميذ فى الامتحان. ولو رُبى التلميذ تربية دينية لهان عليه أن يخسر سعادته الاخروية خسراناً مبيناً أسفاً على أن لم ينل كلَّ حظه من السعادة الدنيوية. ولو رُبى تربية أدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوّى وجهه عنها لانها لم تُقدّم اليه فى لُفافة الشهادة المدرسية. ولو أن أستاذه ملأ قلبه بنور الايمان ولقّنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه أن جناية المرء على نفسه أكبر إثماً عند الله وأعظم جرماً من جنايته على غيره لما خاطر بدينه فى آخر ساعة من ساعات حياته. وهى الساعة التى يُنيب فيها العاصى الى ربه. ويستغفر فيها المذنب من ذنبه. ولو أنه لقنه فيما يلقنه من دروس الأخلاق والآداب أن العلم صفةٌ من صفات الكمال لا سلعةٌ من سلع التجارة يجب ان يحفل به صاحبه من حيث ذاته لا من حيث كونه وسيلةً من وسائل العيش لما جرى على تلك القاعدة الفاسدة « الشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة ». ولو أنه رباه على الاستقلال الذاتى وعلمه أن الشرف فى هذه الحياة على قدر ما يبذله الانسان من الجهد فى خدمة الامة أو المجتمع سواء أكان فى قصر الملك أم فى دار الوزارة. وفى حانوت التجارة. أم فى معمل الصناعة. لما أكبرَ مناصبَ الحكومة هذا الاكبارَ ولا احتفلَ بها احتفالَ من لا يرى للحياة معنى بدونها. ولو انه نفث فى رُوعه روحَ الشجاعة النفسية وعوّده الصبر والجلد فى مواقف اليأس لما جزِعَ هذا الجزعَ الفاضح ولا جُنَّ هذا الجنون الذى خيلَ اليه أن عذاب النزع أهونُ من عذاب الهم

الوالد والاستاذ والمجتمع فى مصر عون على الناشئ المتعلم وآفة عقله وأخلاقه وآدابه

أما الوالد فانه يقول له وهو ذاهب الى المدرسة ستكون غداً يا بني حاكما من الحكام كهذا الوزير أو ذلك المدير. وكلما أراد أن يحثه على الاجتهاد في طلب العلم ويخوفه عاقبة الخيبة في الامتحان صور له المستقبل المظلم المجرد من الوظيفة أقبح تصوير. وربما أشار عليه بوجوب الانتحار على تقدير الخيبة فيقول له اذا لم تنجح في الامتحان فموتك أفضل من حياتك. وأما الاستاذ فانه يضرب له من نفسه مثلاً على وجوب احترام المنصب وإجلاله وإنزاله المنزلة الأولى بين أعمال المجتمع الانساني اذ يراه بعينه يتجرع مرارة الذل ويعاني من كبرياء رؤسائه وقسوة المسيطرين عليه عناء شديداً ويحتمل من ذلك ما لا يحتمله الرجل الشريف حرصاً على منصبه وإرعاء عليه. فكأنما يتلقى عنه درساً عملياً موضوعه « إن من يخاطر بمنصبه يخاطر بحياته لان المنصب كل شيء في هذه الحياة » . أما المجتمع فانه يحترم المستخدم الصغير. أكثر مما يحترم العالم الكبير. ويطير الى تهنئته باقبال المنصب عليه وتعزيته عن إدباره عنه كأن الكوكب لا يدور الا في دائرة المناصب نحوساً وسعوداً. فاذا رأى الناشيء ذلك أكبر الوظيفة أيما إكبار ولج به الحرص عليها. واللصوق بها. وكان سروره وحزنه على قدر قربها منه أو بعدها عنه. فاذا وفق اليها لطم بأنفه قبة السماء. وداس بنعله رأس الجوزاء. وإن يئس منها قتل نفسه وهو يتمثل بقول ذلك الشاعر الاحمق :

فاما الثريا وإما الثرى :

أيها الناشيء : لقد جهل أبوك وغشك أستاذك وخدعك هذا المجتمع الفاسد فكن أحسن حالا منهم واعلم أن شرف العلم أكبر من شرف المنصب وأن المنصب ما كان شريفاً إلا لأنه حسنة من حسنات العلم وأثر من آثاره. فان فاتك حظك منه فلا تحفل به فهو أحقر من أن تشتد في أثره أو تبذل حياتك حزنا عليه. ولا تحسد أرباب المناصب على مناصبهم فانما يخدعونك بزخرف من القول وظاهر من النعمة وبهرج من الابتسام. ووراء ذلك لو علمت قلب يقطر دماً وفؤاد يضطرم لوعة وأسى

خذ لنفسك حظها من العلم والأدب ولا تحفل بعد ذلك بشيء. فقد ربحت كل شيء

الجمال

الجمال هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة سواء أكان ذلك فى الماديات أم فى المعقولات . وفى الحقائق أم الخيالات

ما كان الوجه الجميل جميلاً الا للتناسب بين أجزائه . وما كان الصوت الجميل جميلا الا للتناسب بين نغماته . ولولا التناسب بين حبات العقد ما افتتنت به الحسناء . ولولا التناسق فى أزهار الروض ما هامت به الشعراء

ليس للتناسب قاعدة مطردة يستطيع الكاتب أن يبينها . فالتناسب فى المرئيات . غيره فى المسموعات . وفى الرسوم غيره فى الخطوط . وفى القواعد العلمية . غيره فى القصائد الشعرية . على أنه لا حاجة الى بيانه ما دامت الاذواق السليمة تدرك بفطرتها ما يلائمها فترتاح اليه وما لا يلائمها فتنفر منه

إن كثيراً من الناس يستحسنون الانف الصغير فى الوجه الكبير . والرأس الكبير فى الجسم الصغير . ولا يفرقون بين البرص فى الجسم الاسود . والخال فى الخد الابيض . ويطربون لنقيق الضفادع كما يطربون لخرير الماء . ويفضلون أنغام النواعير على أنغام العيدان . ويعجبون بشعر ابن الفارض وابن معتوق والبرعى أكثر مما يعجبون بشعر أبى الطيب وأبى تمام والبحترى . ويضحكون لما يبكى ويبكون مما يضحك . ويرضون بما يغضب ويغضبون مما يرضى

أولئك هم أصحاب الاذواق المريضة . وأولئك الذين تصدر عنهم أفعالهم وأقوالهم مشوهة غير متناسبة ولا متلائمة . لانهم لم يدركوا سر الجمال فيصدر عنهم . ولم تألفه نفوسهم فيصير غريزة من غرائزهم

إن رأيت شاعراً يبتدئ قصائد التهنئة بالبكاء على الاطلال . ويودع القصائد الرثائية النكات الهزلية . ويتغزل بممدوحه . كما يتغزل بمعشوقه . أو متكلماً يقتضب الاحاديث اقتضاباً أو يهزل فى موضع الجد ويجد فى موضع الهزل . أو صحفياً يضع العنوان

الضخم للخبر التافه . و يكتب مقدمة في السماء لموضوع في الارض . أو حاكما يضع الندى في موضع السيف والسيف في موضع الندى . أوماشيا يتلوى في طريقه من رصيف الى رصيف كانما يرسم خطا معوجا . أو لابسا في الشتاء غلالة الصيف وفي الصيف فروة الشتاء . أو داعيا في المسجد الى حفلة رقص . أو صارخا بالدعاء الى مذهب سياسي في مجمع تمثيل . فاعلم أن ذوقه مريض وأنه في حاجة الى معالجة ذوقه . كحاجة المجنون الى علاج عقله . والمريض الى علاج جسمه

كما أنه ليس كل مجنون يرجى شفاؤه . ولا كل مريض يرجى إبلاله . كذلك ليس كل من فسد ذوقه يرجى صلاحه . فان رأيت من تؤمل في صلاحه خيراً وتجد في نفسه استعداداً لتقويم ذوقه فعلاجه أن تحفه بأنواع الجمال وتدأب على تنبيهه على متناسباته ومؤتلفاته . و إن استطعت أن تعلمه فنا من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى فافعل فانها المقومات للاذواق . والغارسات في النفوس ملكات الجمال

الكذب

كذب اللسان من فضول كذب القلب . فلا تأمن الكاذب على ود . ولا تثق منه بعهد . واهرب من وجهه الهرب كله وأخوف ما أخاف عليك من خلطائك وسجرائك الرجل الكاذب

عرف الحكماء الكذب بانه مخالفة الكلام للواقع ولعلهم جاروا في هذا التعريف الحقيقة العرفية ولوشاؤا لاضافوا الى كذب الاقوال كذب الافعال

لا فرق بين كذب الاقوال وكذب الافعال في تضليل العقول والعبث بالاهواء وخذلان الحق واستعلاء الباطل عليه . ولا فرق بين أن يكذب الرجل فيقول إني ثقة أمين لا أخون ولا أغدر فأقرضني مالا أؤده اليك ثم لا يؤديه بعد ذلك وأن يأتيك بسبحة يهمهم بها فتنطق سبحته بما سكت عنه لسانه من دعوى الامانة والوفاء فيخدعك في الثانية كما خدعك في الاولى . لا بل يستطيع كاذب الافعال أن يخدعك ألف مرة قبل أن

يخدعك كاذب الاقوال مرة واحدة . لانه لا يكتفي بقول الزور بلسانه حتى يقيم على قضيته بينة كاذبة من أحواله وأطواره

ليس الكذب شيئاً يستهان به فهو أس الشرور ورذيلة الرذائل فكأنه أصل والرذائل فروع له . بل هو الرذائل نفسها وانما يأتي في أشكال مختلفة وتمثل في صور متنوعة

المنافق كاذب لان لسانه ينطق بغير ما في قلبه والمتكبر كاذب لانه يدعي لنفسه منزلة غير منزلته . والفاسق كاذب لانه كذب في دعوى الايمان ونقض ما عاهد الله عليه . والنمام كاذب لانه لم يتق الله في فتنته . فيتحرى الصدق في نميمته . والمتملق كاذب لان ظاهره ينفعك وباطنه يلذعك

لقد هان على الناس أمر الكذب حتى انك لتجد الرجل الصادق فتعرض على الناس أمره وتطرفهم بحديثه كأنك تعرض عجائب المخلوقات . وتحدث بخوارق العادات .

فويل للرجل الصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقة مستقيمة . وويل له من صديق يخون العهد . ورفيق يكذب الود . ومستشار غير أمين . وجاهل يفشي السر . وعالم يحرف الكلم عن مواضعه . وشيخ يدعي الولاية كذباً . وتاجر يغش في سلعته . ويحنث في أيمانه . وحقي يتجر بعقول الاحرار كما يتجر النخاس بالعبيد والاماء . ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس في كل صباح ومساء .

غرفة الاحزان

كان لي صديق أحبه لفضله وأدبه . أكثر مما أحبه لصلاحه ودينه . فكان يروقني منظره ويؤنسني محضره . ولا أبالي بعد ذلك بشيء من نسكه وعبادته . أو فسقه واستهتاره . لاني ما فكرت قط أن أتلقى عنه علوم الشريعة أو دروس الاخلاق فقد علمت من ذلك ما حسبي به وكفى

قضيت في صحبته عهداً طويلاً ما أنكر من أمره ولا ينكر من أمري شيئاً حتى سافرت من القاهرة سفراً طويلاً فتراسلنا حيناً ثم انقطعت عني كتبه فرابني من أمره ما رابني ثم

عدت فجعلت أكبرهمي أن أراه فطلبته في جميع المواطن التي كنت أعرفه فيها فلم أجده. فذهبت الى منزله فحدثني جيرانه أنه هجره من عهد بعيد وأنهم لا يعرفون أين مذهبه. فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان. ثم شعرت كأن أولهما يغالب ثانيهما حتى غلبه. فعلمت أن قد فقدت الرجل وأني لن أجد بعد اليوم اليه سبيلا

هنالك نزفت من الوجد، وعالا يذر فها الامن قل نصيبه من الاصدقاء. وأقفر ربعه من الاوفياء. وأصبح غرضاً من أغراض الأيام لا تخطئه سهامها. ولا تغبه آلامها (١)

بينا أنا عائد الى منزلي في ليلة من ليالي السرار (٢) إذ دفعني الجهل بالطريق في هذا الظلام المدلهم الى زقاق موحش مهجور يخيل الناظر اليه في مثل تلك الساعة التي مررت فيها أنه مسكن الجان. أو مأوى الغيلان. فشعرت كأن البحر الاسود يتدفق بين جبلين شامخين. وكأن أمواجه تقبل بي وتدبر. وتقوم وتقعد. فلما توسطت لجته حتى سمعت في منزل من تلك المنازل المهجورة أنة تتردد في جوف الليل فأصغيت اليها فتلتها أختها ثم أخواتها فأثر في نفسي مسمعها تأثيراً شديداً وقلت يا للعجب. كم يكتم هذا الليل في صدره من أسرار البائسين. وخفايا المحزونين. وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم الا أرى محزوناً حتى أقف أمامه وقفة المساعد إن استطعت. أو الباكي اذا عجزت. فتلمست الطريق الى ذلك المنزل حتى بلغته فطرقت الباب طرقاً شديداً ففتحت لي فتاة صغيرة لم تكد تسلخ العاشرة من عمرها فتأملتها على ضوء المصباح الضئيل الذي كان في يدها فاذا هي في ثيابها الممزقة. كالبدر وراء الغيوم المتقطعة. وقلت لها هل عندكم مريض. فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها وقالت أدرك أبي أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت. ثم مشت أمامي فتبعتها حتى وصلت الى غرفة ذات باب قصير مستتم فدخلتها فخيل الى أني انتقلت من عالم الاحياء الى عالم الاموات. وأن الغرفة قبر والمريض ميت. فدنوت منه حتى صرت بجانبه فاذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء في البرج الخشبي. فسألته ما باله ففتح عينيه وأطال النظر في وجهي ثم فتح شفتيه قليلا قليلا وقال بصوت خافت « أحمد الله فقد وجدت صديقي

---

(١) أغبه الالم جاءه حيناً بعد حين (٢) السرار آخر ليلة من ليالي الشهر

فشعرت كأن قلبي تمشي في صدري جزعاً وقلقاً وعلمت أني قد عثرت بضالتي التي كنت أنشدها وكنت أتمنى ألا أعثر بها وهي في طريق الفناء . وعلى باب القضاء . وألا يجدد لي مرآها حزناً كان في قلبي كميناً . وبين أضالعي دفيناً . وكأن أنسه بي أمد مصباح حياته الضئيل بقليل من النور فأشار إلى أنه يحب النهوض فمددت يدي اليه فاعتمد عليها حتى استوى جالساً وأنشأ يقص علي هذه القصة :

منذ عشر سنين كنت أسكن أنا ووالدتي بيتاً يسكن بجانبه جار لنا من أرباب الثراء والنعمة . وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور أجنحتها على مثلها حسناً وبهاء . ورونقاً وجمالاً . فألم بنفسي من الوجد بها ما لم أستطع معه صبراً . فما زلت بها أعالجها فتمتنع وأستنزلها فتتعذر وأتأتى الى قلبها بكل الوسائل فلا أصل اليه حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه اليها . فسكن جماحها . وأسلس قيادها . فسلبتها قلبها وشرفها في يوم واحد . وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفت أن جنيناً يضطرب في أحشائها فأسقط في يدي وطفقت أرتئي بين أن أفي لها بوعدها . أو أقطع حبل ودها . فآثرت أخراهما على أولاهما وهجرت ذلك المنزل الى المنزل الذي كنت تزورني فيه أيها الصديق . ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً

مرت على تلك الحادثة أعوام طوال وفي ذات يوم جاءني منها مع البريد هذا الكتاب ومد يده تحت وسادته وأخرج كتاباً بالياً مصفراً فقرأت فيه ما يأتي

لو كان بي أن أكتب اليك لأجدد عهداً دارساً أو وداً قديماً ما كتبت سطراً . ولا خططت حرفاً . لأني لا أعتقد أن عهداً مثل عهدك الغادر . وودا مثل ودك الكاذب . يستحق أن أحفل به فأذكره . أو آسف عليه فأطلب تجديده

إنك عرفت حين تركتني أن بين جنبي ناراً تضطرم . وجنيناً يضطرب . تلك للأسف على الماضي . وذاك للخوف من المستقبل . فلم تبل بذلك وفررت مني حتى لا تحمل نفسك مؤونة النظر الى شقاء أنت صاحبه . ولا تكلف يدك مسح دموع أنت مرسلها . فهل أستطيع بعد ذلك أن أتصور أنك رجل شريف . لا بل لا أستطيع

أن أتصور أنك انسان . لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة فى نفوس العجماوات والوحوش الضاربة الا جمعتها فى نفسك وظهرت بها جميعها فى مظهر واحد

كذبتَ علىَّ فى دعواك أنك تحبنى وما كنت تحب الا نفسك . وكل ما فى الأمر أنك رأيتنى السبيلَ الى إرضاء نفسك فررتَ بى فى طريقك اليها . ولولا ذلك ما طرقتَ لى بابا . ولا رأيتَ لى وجها

خنتنى إذ عاهدتنى على الزواج فأخلفتَ وعدك ذهابا بنفسك أن تتزوج امرأة مجرمة ساقطة . وما هذه الجريمةُ ولا تلك السقطة الا صورةَ نفسك . وصنعةَ يدك . ولولاك ما كنتُ مجرمة ولا ساقطة . فقد دفعتك جهدى حتى عييتُ بأمرك فسقطتُ بين يديك سقوط الطفل الصغير . بين يدى الجبار الكبير

سرقتَ عفتى . فاصبحتُ ذليلة النفس حزينة القلب أستثقل الحياة وأستبطئ الأجل . وأى لذة فى العيش لامرأة لا تستطيع أن تكون زوجة لرجل ولا أما لولد بل لا تستطيع أن تعيش فى مجتمع من هذه المجتمعات البشرية الا وهى خافضة رأسها . مسبلة جفنها . واضعة خدها على كفها . ترتعد أوصالها . وتذوب أحشاؤها . خوفا من عبث العابثين . وتهكم المتهكمين

سلبتنى راحتى لانى أصبحتُ مضطرة بعد تلك الحادثة الى الفرار من ذلك القصر الذى كنت متمتعة فيه بعشرة أبى وأمى تاركة ورائى تلك النعمةَ الواسعة وذلك العيش الرغد الى منزل حقير فى حى مهجور لا يعرفه أحد ولا يطرق بابه طارق لأقضى فيه الصُبابة الباقية من أيام حياتى

قتلتَ أمى وأبى فقد علمتُ أنهما ماتا ولا أحسب موتهما إلا حزنا لفقدى . ويأسا من لقائى

قتلتنى لان ذلك العيش المر الذى شربته من كأسك . وذلك الهم الطويل الذى عالجته بسببك . قد بلغا مبلغهما من جسمى ونفسى فأصبحتُ فى فراش الموت كالذُبالة المحترقة .

وأحسب أن الله قد صنع لي وأجاب دعائي وأراد أن ينقلني من دار الموت والشقاء . الى دار الحياة والهناء

فانت كاذب خادع . ولص قاتل . ولا أحسبُ أن الله تاركك بدون أن يأخذ لي بحقي منك

ما كتبت اليك هذا الكتاب لاجدد بك عهداً . أو لأخطب اليك وُداً . فقد عرفتَ مكانك من نفسي . على أنني أصبحتُ على باب القبر وفي موقف وداع هذه الحياة خيرها وشرها . سعادتها وشقائها . وانما كتبتُ اليك لأن لك عندي وديعة وهي فتاتك . فان كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الأبوة فأقبل اليها وخذها اليك حتى لا يدركها من الشقاء ما أدرك أمها من قبلها

فما أتممت قراءة الكتاب حتى نظرت اليه فرأيت مدامعه تنحدر من مقلتيه فسألته ماذا تم بعد ذلك . قال إني ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تمشي في أضالعي وخيل الي أن صدري يحاول أن ينشق عن قلبي حزناً وقلقاً فأسرعت الى منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن فرأيتها في هذه الغرفة جثة هامدة لا حراك بها . ورأيت فتاتها الى جانبها تبكي بكاء مراً فصعقتُ لهول ما رأيت وتمثلت لي جرائمي في غشيتي كأنما هي وحوش ضارية . وأساود ملتفة . هذا ينشب أظافره وذاك يحدد أنيابه . فما أفقت حتى عاهدت الله ألا أبرح هذه الغرفة التي سميتها «غرفة الاحزان» حتى أعيش عيشها ثم أموت موتها

وها أنذا أموت اليوم راضياً مسروراً فقد حدثني قلبي أن الله قد غفر لي سيئاتي بما قاسيت من العناء . وكابدت من الشقاء

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى انعقد لسانه واصفرّ وجهه وسقط على فراشه فأسلم الروح وهو يقول : ابنتي يا صديقي : فلبثتُ بجانبه ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه ثم كتبت الى أصدقائه ومعارفه فحضروا وشيعوا جنازته ومارُئي مثل اليوم أكثر باكية وباكياً

ولما حثونا الترب فوق ضريحه ❊ جزعنا ولكن أي ساعة تجزع

ويعلم الله انى لا أكتب قصته ولا أملك نفسى من البكاء والنشيج ولا أنسى ما حييت نداءه لى وهو يودع نسمات الحياة وقوله «ابنى يا صديق»

فيا أقوياء القلوب من الرجال . رفقاً بضعفاء النفوس من النساء . إنكم لا تعلمون حين تخدعونهن عن شرفهن وعفتهن أى قلب تفجعون . وأى دم تسفكون

المرقص

إن كان حقاً ما يقولون من أن الكاتب لا يجمل به أن يصف مشهداً من المشاهد أو يحدث عن موقف من المواقف الا إذا رآه بنفسه وخالطه وأحاط علماً بحقيقته فقد أسقط فى يدى وارتقيت فى هذه النظرة مرتقى صعباً واستحال على أن أكتب فى هذا الموطن الذى أحاول الكتابة فيه سطراً واحداً لانى لا أعرف من تقويم «الازبكية» أكثر من أنها بقعة واقعة بين أديم الغبراء . وقبة السماء

ولولا أن الله أعانى بصديق من أصدقائى زار المرقص مرة واحدة فى حياته ووصف لى هذا المشهد من مشاهده لنفضت يدى منه نفض المودع يده من تراب الميت فراراً من تهكم المتهكمين . وسخرية الساخرين

حدث ذلك الصديق قال : ذهبت ذات ليلة الى مرقص من مراقص الازبكية فرأيت على بابه جندياً يمشى فى عرصته مشية هادئة مطمئنة فذعرت لمرآه وتراجعت قليلا قليلا وكدت أعتقد أنى أخطأت الطريق الى المرقص وأنى بين يدى دار من دور الحكومة يحرسها حاجبها لولا أنى لم أر فى وجوه الداخلين ذلك الخوف والاضطراب والذل والانكسار الذى أراه فى وجوه الشاكين والمتظلمين

وقفت لحظة أردد بين الاقدام والاحجام حتى لمس كتفى لامس فالتفت وراءى فاذا صديق من أصدقائى يسألنى ما وقوفك ههنا . فقلت له ما قاله أبو العيناء لصاحبه حينما سأله عن سبب بكوره «أراك تشركنى فى الفعل وتفردنى بالعجب» . قال أنا أفتش عن ابن عمى . قلت وأنا أفتش عنك . فابتسم ابتسامة المتهكم وقال هيا بنا ندخل قبل أن تمتد سلسلة التفتيش

الى حيث لا ننتهى حلقاتها . وأمسك بيدى حتى جاز بى باب المرقص فسألته ما هذا الجندى الواقف أمام الباب . فقال كيف ذهب عليك أن حكومتنا قد أصبحت اليوم حكومة مدنية مادية . لا أدبية ولا دينية . فتساوت فى نظرها المصالح والمراقص . واختلط عليها الأمر بين مواقف القضاء . ومصارع البغاء . فأصبح الجندى يحمى أبواب العاهرات . كما يحمى أبواب « النظارات » . ويقف أمام « البارات » . موقفه أمام « الادارات »

و إن العين لا تكاد تملك مدامعها تحدُّرا وتذرافا كلما أبصرت هذا الجندى الشريف واقفا هذا الموقف الذليل يسمع قراع الدفوف . لا قراع السيوف . ويرى حمرة الصهباء . لا حمرة الدماء . ويحمى الفسق والفجور . لا القلاع والثغور . وما أعجب لشىء عجبى لهذه الحكومة التى تضن بجندها أن يشتمه شاتم . أو يلمسه لامس . فتغضب له غضبة مضرية تتراءى فيها الشهامة والحمية والعزة والنخوة . ثم لا تضن به أن تؤجره ليكون نائحة فى الجنائز أو قوادة فى المراقص . وهو هو بعينه الذى يتلها فى وقفاته . وينوب عنها فى غدواته وروحاته

ذلك ما كان يحدثنى به الصديق وهو سائر بى الى قاعة المرقص حتى وصلت اليها فاذا رأيت .

إن كنت لم تسمع فى حياتك أن فدانا واحدا يبتلع فى جوفه ستة « ملايين » من الفدادين فاعلم أنه المرقص الذى يأكل وحده جميع ما تنبته تربة مصر من الخيرات والبركات . فكأنه العين التى تسع الفضاء بارضه وسمائه . أو القلب الذى يحمل فى سويدائه علم ما كان وما يكون

رأيت الدنانير ذائبة فى الكؤوس . والعقول جامدة فى الرءوس . والحبائل مبثوثة لاستلاب الجيوب . والسهام مسددة لاصطياد القلوب . ورأيت من كنت أحسبه أوفر الناس عقلا . وأذكاهم قلبا . ومن كنت أراه فأغضى بين يديه إجلالا و إكبارا واقعا فى حبالة بغى تقيمه وتقعده . وتطويه وتنشره . وتعبث به عبث الطفلة بلعبتها . وهو فى غير هذا المكان قيصر الروم عزة وفخارا . وكسرى فارس أنفة واستكبارا

رأيت من يزعم أن الله قد وهبه عقلا تخترق أشعته حجب الغيب وعلما تتساوى أمامه

المادةُ وما وراءها ومن لا يزال يمثل صبحه ومساءه بقول الشاعر

وعلمتُ حتى ما أسائل واحداً   عن حرفِ واحدة لكي أزدادَها

يجهل أمراً من الامور التي يشترك في فهمها الاذكياء . والاغبياء . والعلماء والجهلاء .

رأيته يجلس في المرقص فتمر به البَغيّ فما هي الا لمحة طرف . أو غمزة كف . حتى تحدثه نفسه أنه وقع من نفسها . وأنه ملأ فراغ قلبها . فيدعوها اليه فتجلس الى جانبه فما هي الا ابتسامةٌ خالبة . أو كلمة كاذبة . حتى يُقسم بكل محرّجة من الأيمان أن نفسه صادقة فيما حدثته وأن الفتاة قد عَلِقت بحبه علوقاً لا نجاة لها من بعده

هنالك يَبذُل لها ما تشاء من نفسه وشرفه وماله ويرى أن ذلك قليل في جانب ما تَبذُل له من لحظات تقضيها بين يديه . وابتسامات تحسن بها اليه

لقد كَذَبَتكَ نفسك أيها الرجل فما هي المرآةُ بجانبك فهل ترى فيها منظراً رائعاً . أو جمالاً ساطعاً . يأسر أقسى النساء قلباً . وأعصاهنّ عنانا

إن الفتاة التي أسمعتك كلمة الحب قد أسمعتها قبلك وستُسمعها بعدك كلّ صاحب جيب مثل جيبك . وعقل مثل عقلك

إن كنتَ في شك مما أقول فأمسكْ عن فتح الزجاجات لحظة قصيرة ثم انظر بعد ذلك أين مكانُتك من نفسها . وموقعك من قلبها . فان لم تُمطر عليك سحائب اللعنات . وتجعلك غرضاً لسهام التهكمات . فأنت أصدق الصادقين . وأنا أكذبُ الكاذبين

رأيت هنالك كل حاسة من الحواس قد لبست منظاراً يكبر المنظورات . ويضاعف المسموعات . تغني المغنية بصوت مضطرب النغمات . بارد الترجيعات . ثقيل الحركات والسكنات . فتمتلئ أرجاء القاعة بالآهات . وتَدوّي فيها الصيحات المزعجات .

وتُطل العجوز الدرديسُ على الناس بوجه معضّن . وجفن مقرح . وسن بارزة . وخد غائر . فتطير حولها القلوب . وتتحلب لها الافواه . وتترامى تحت أقدامها الوجوه . فقلت في نفسي أهذا هو المرقصُ الذي تَخرَب فيه البيوت العامرة . وتذبل فيه الرياض الزاهرة .

أهذا هو الذي تتدفق فيه الأموال الغزار . تدفقَ الانهار في البحار . وتُقبر فيه نفوس

الكرام . قبل أن تقبر تحت الرغام . والله لا يبلغ العدو منا بخيله ورجله . وأساطيله وقنابله . ولا تبلغ السماء منا بصواعقها ورجومها . ولا الارض بزلازلها وبراكينها . ما يبلغ منا المرقص ببغاياه

قال المحدث : والحق أقول إنى دخلت المرقص وأنا أحسب أنى أنفس عن نفسى كربة فرأيت ما زاد نفسى هماً . وملأ قلبي غيظاً . فقلت لصاحبي هل لك فى القيام . فقام وقمت وأنا أقول . والله لا أدرى ما ترك هذا المكان للبيمارستان

الشرف

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء

ما من عامل يعمل فى هذه الحياة الا وهو يطلب فى عمله الشرف الذى يتصوره أو يصوره له الناس . إلا أنه تارة يخطئ مكانه وتارة يصيب

يقتل القاتل وفى اعتقاده أن الشرف فى أن ينتقم لنفسه أو عرضه باراقة هذه الكمية من الدم . ولا يبالى أن يسميه القانون بعد ذلك مجرماً لأن البيئة التى يعيش فيها لا توافق على هذه التسمية وهى فى نظره أعدل من القانون حكماً . وأصدق قولا

يفسق الفاسق وفى اعتقاده أنه قد نفض عن نفسه بعمله هذا غبار الخمول والبله الذى يظلل الاعفاء والمستقيمين . وأنه استطاع أن يعمل عملاً لا يقدم عليه الا كل صاحب حيلة وشجاعة وإقدام

يسرق السارق ويزور المزور ويخون الخائن وفى اعتقاده أن الشرف كل الشرف فى المال وإن كان السبيل اليه دنيئاً وسافلا . وأن للذهب رنيناً تخفت بجانب صوته أصوات المعترضين والناقدين شيئاً فشيئاً ثم تنقطع حتى لا يسمع بجانبه صوت سواه

هكذا يتصور الادنياء أنهم شرفاء . وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانه . وما أفسد عليهم تصورهم الا الذين أحاطوا بهم من سجرائهم وخلطائهم وذوى جامعتهم .

أولئك الذين يحتقرون الموتورحتى تغسل الدمَ بالدم فيعظمونه . وينعوْن على الرجل المستقيم العفيف بلاهته وخموله حتى ينبُه ويُستهتر فيبخبخون له ويقرظونه . ويكرمون صاحب الذهب ولوأن كل دينارمن دنانيره محجم من الدم . وأولئك الذين يسمون الفقير سافلا . وطيب القلب مغفلا . وطاهر السريرة بليداً . والحليم عاجزاً

لا تعجب إن سمعت أن جماعة الأغبياء الجهلاء تنعكس فى أدمغتهم صورُ الحقائق حتى تلبس فى نظرهم ثوباغير ثوبها . وتتراءى فى لون غير لونها . فان بين الخاصة الذين تعتدّ بعقولهم وتمتدح أفهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة . حتى انه ليكاد يفخر بالاولى ويستحيي من الاخرى

لولا فساد التصور ما افتخر قائد الجيش بأنه قتل مائة ألف من النفوس البشرية فى حرب لا يدافع فيها عن وطن ولا يؤيد بها حقا من الحقوق المغصوبة . ولولا فساد التصور ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفاح بجانب أسماء العلماء والحكماء والاطباء خدمة الانسانية وحملة عرشها وأصحاب الأيادى البيضاء عليها فى سطر واحد من صحيفة واحدة. ولولا فساد التصور ما جلس القاضى المرتشى فوق كرسى القضاء يفتل شاربيه . ويصعر خديه . وينظر نظرات الاحتقار والازدراء الى المتهم الواقف بين يديه موقف الضراعة والذل . ولا ذنب له الا أنه جاع وضاقت به مذاهب العيش فسرق درهما . ولولا فساد التصور ما تصور ذلك اللص الكبير . أنه أشرفُ من هذا اللص الصغير . ولولا فساد التصور لوقف هذان اللصان فى موقف واحد أمام قاض عدل يحكم بادانة الاول لانه سرق مختاراً ليرفه عيشه . وبراءة الثانى لانه سرق مضطراً لينقذ حياته من براثن الموت

فمن شاء أن يهذب أخلاق الناس ويقوم اعوجاجها فليهذب تصوراتهم . وليقوم أفهامهم . يبوا فيه ما يريد من التهذيب والتقويم

ليس من الرأى أن يشير المعلمُ على المتعلم أن يجعل هذا المجتمع الانسانى ميزانا يزن به أعماله . أو مرآة يرى فيها حسناته وسيئاته . فالمجتمع الانسانى مصاب بالسقم فى فهمه والاضطراب فى تصوره . فلا عبرة بحكمه . ولا ثقة بوزنه وتقديره .

ليس من الرأى أن يرشد المعلمُ المتعلمَ الى أن يطلب فى حياته الشرف الاعتبارى . فليس كل ما يعتبره الناس شرفا هو فى الحقيقة كذلك

ألا تراهم يَعُدون أشرف الشرف أن يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة أو الذهب يحلى بها صدره . وربما كانوا يعلمون أنهُ ابتاعها بماله كما تبتاع المرأة من الجوهرى حليتها

لاشرف الا الشرف الحقيقى وهو الذى يناله الانسان ببذل حياته أو ماله أو راحته فى خدمة المجتمع البشرى جميعه أو خدمة نوع من أنواعه

فالعالم شريف لانه يجلو صدأ العقل الانسانى ويصقُل مرآته . والمجاهد فى سبيل الدفاع عن وطنه شريف لانه يحمى مواطنيه غائلة الاعداء . ويقيهم عادية الفناء . والمحسن الذى يضع الاحسان فى موضعه شريف لانهُ يأخذ بأيدى الضعفاء . ويحيي أنفس الاشقياء . والحاكم العادل شريف لانه رسول العناية الالهية الى المظلومين يمنعهم أن يبغيَ عليهم الظالمون . وصاحب الاخلاق الكريمة شريف لانه يؤثر بكرم أخلاقه وجمال صفاته فى عشرائه وخلطائه . ويعلمهم بالقدوة الصالحة أفضلَ درس فى الاخلاق والآداب . والصانع والزارع والتاجر أشراف متى كانوا أمناء مستقيمين لانهم يحملون على عواتقهم هذا المجتمع البشرى ويحتملون ما يحتملون من المؤونة والمشقة فى ذلك حذراً عليه من التهافت والسقوط

فان رأيت فى نفسك أيها القارئ أنك واحد منهم فاعلم أنك شريف والا فاسلك طريقهم جهدَك . فان لم تبلغ غايته فأخذُ القليل خير من ترك الكثير . فان لم يكن هذا ولا ذاك فلتبكِ على عقلك البواكى

الحب والزواج

قرأت فى بعض المجلات قصة قصها أحد الكتاب السوريين وموضوعها أن كاتبها غاب عن بيروتَ بضعةَ أعوام ثم عاد اليها بعد ذلك فزار صديقاً له من أسرياء الرجال

و وجوههم ومن ذوى الاخلاق الكريمة والانفس العالية اسمه رشيد بك فوجده حزيناً كئيباً على غير ما يعهد من حاله قبل ذلك . فاستفهم منه عن دخيلة أمره فعرف أنه كان متزوجاً من فتاة يحبها و يجلها و يفديها بنفسه وماله فلم تحفظ صنيعه و لم ترع عهده وأنها فرت منه الى عشيق لها رقيق الحال وضيع النسب . فاجتهد الكاتب أن يلقى تلك الفتاة ليعرف منها سر فرارها من بيت زوجها فلقيها فى منزل عشيقها فاعتذرت اليه من فعلتها بأنها لا تحب زوجها لانه فى الاربعين من عمره وهى لم تبلغ العشرين . وقالت إنها جرت فى ذلك على حكم الشرائع الطبيعية وان خالفت الشرائع الدينية . لان الاولى عادلة والثانية ظالمة . وقالت إن ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو فى الحقيقة طهارة وأمانة . لان أساسه الحب . وكل ما كان أساسه الحب فهو طاهر وشريف . وإن كان فى نظر الناس عيباً وعاراً . وقالت ما الخيانة ولا الجريمة ولا الغش ولا الخداع الا أن تعاشر المرأة زوجا تكرهه فيفترشها كما يفترشها من تحبه لانها لا تكون فى حكم العقل ولا فى نظر العدل زوجاله ما دامت لا تحبه ولا تألف عشرته . وقالت لو أدرك الناس أسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنها متفقة فى هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية وأنها ربما تعد المرأة فى بيت زوجها زانية . وفى بيت عشيقها طاهرة . إذا كانت تكره الأول وتحب الثانى

هذا ملخص القصة على طولها وأحسبها قصة موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأى من الآراء أو تأييد مذهب من المذاهب . لان الكاتب أعذر (١) تلك الفتاة فيما فعلت واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعداها على زوجها (٢) وحكم لها عليه

وسواء أكانت القصة حقيقية أم خيالية فالحق أقول إن الكاتب أخطأ فى وضعها وما كنت أحسب الا أن مذهب الاباحية قد مضى وانقضى بانقضاء العصور المظلمة حتى قرأت هذه القصة منشورة باللغة العربية بين الامة العربية فنالنى من الهم والحزن ما الله عالم به

(١) أعذرها قبل عذرها (٢) أعداها عليه انتصف لها منه

قرأنا ما كتب الكاتبون فى سبيل المرأة الساقطة وهى التى هفت فى حياتها هفوة دفعها اليها دافع خداع أو سائق حاجة ثم تاب اليها رشدها وهداها فقلنا لا بأس بغيرتهم على ذنب جسمته العادة وألبسته ثوبا أوسع من ثوبه . ولا بأس برحمتهم فتاة مذنبة تحاول الرجوع الى ربها . والتوبة من ذنبها . ويأبى المجتمع البشرى الا أن يسد دونها أبواب السماء المفتحة للقاتلين والمجرمين

فأما وقد وصل الحد الى تزيين الزنا للزانية وتهوين إثمه عليها وإغراء العفيفة الصالحة بالتمرد على زوجها والخروج من طاعته كلما دعاها الى ذلك داع من الهوى فهذا ما لا يطاق احتماله . ولا يستطاع قبوله

إن فتاة الرواية لم تهف فى جريمتها فقط كما يهفو غيرها من النساء لانها مقيمة فى منزل عشيقها من زمن بعيد وقد عقدت عزمها على البقاء فيه ما دامت روحها باقية فى جسدها . ولم يسقها الى ذلك سائق شهوة بشرية إن صح أن تكون الشهوة البشرية عذراً يدفع مثلها الى مثل ما صنعت . لانها فرت من فراش زوجها . لا من وحشة خلوتها . ولا سائق جوع لانها كانت أرق النساء عيشاً . وأروحهن بالا . بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة والتقلب فى أعطاف العيش البارد لم تر مثلها من قبل ولا من بعد . إذاً فهى امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطة

إن كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللغة جميعاً فى وضع كلمة الفساد فى معاجمهم لانها لا مسمى لها فى هذا العالم عالم العفة والطهارة والخير والصلاح . ولا يمكن أن يكون المراد منها فتاة المواخير لانها لم تترك وراءها زوجا معذبا ناقما منكوبا ولم تكن راضية تمام الرضى عن نفسها ولا مغتبطة بعيشها فتبلغ فى حالها مبلغ « ورده الهانى »

كل الازواج « رشيد بك » الا قليلاً . فاذا جاز لكل زوجة أن تفر من زوجها الى عشيقها كلما وقع فى نفسها الضجر من معاشرة الاول وبرقت لها بارقة الانس من بين ثنايا الثانى فويل لجميع الرجال من جميع النساء . وعلى النظام البيتى والرابطة الزوجية بعد اليوم ألف سلام

أيها الكاتب : ليس فى استطاعتى ولا فى استطاعتك ولا فى استطاعة أحد من الناس أن يقف دورة الفلك و يصد كرّ الغداة ومر العشى حتى لا يبلغ الاربعين من عمره فتراه زوجته غير أهل لمعاشرتها اذا علمت أن فى الناس من هو أصغر منه سناً وأكثر رشاقة وأنضر شبابا

إن الضجر والسآمة من الشيء المتكرر المتردد طبيعة من طبائع النوع الانسانى فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشير واحد . وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه وعلم أن نظام الاسرة لا يتم الا اذا بنى على رجل وامرأة تدوم عشرتهما . و يطول ائتلافهما . فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب . وأمر الزوجين أن يعتبرا هذا الرباط رباطاً مقدساً حتى يحول بينهما و بين رجوعهما الى طبيعتهما وذهابهما فى أمر الزوجية مذهبهما فى المطاعم والمشارب من حيث الميل لكل جديد . والشغف بكل غريب

هذا هو سر الزواج وهذه حكمته . فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرة بدلا من الزواج فقد خالف إرادة الله وحاول أن يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيتية

أى امرأة متزوجة بأجمل الرجال لا تحدث نفسها بالرغبة فى استبداله بأجمل منه . وأى رجل متزوج بأجمل النساء لا يتمنى أن يكون فى منزله أجمل منها لولا هذا الرباط المقدس رباط الزوجية . فهو الذى يعالج أمثال هذه الامانى وتلك الهواجس وهو الذى يعيد الى النفوس النزاعة سكونها وقرارها .

لا بأس أن يتثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه فى المرأة التى يختارها لنفسه . ولا بأس أن تصنع المرأة صنيعه . ولكن لا على معنى أن يكون الحب الشهوى هو قاعدة الزواج يحيا بحياته . و يموت بموته . فالقلوب متقلبة والاهواء نزاعة . بل بمعنى أن يكون كل منهما لصاحبه صديقا . أكثر منه عشيقاً . فالصداقة تنمو بالمودة غرسها . و يمتد ظلها . أما الحب فظل يتنقل . وحال يتحول

الاسلام والمسيحية

ما عجبت لشيء في حياتي عجبي لهؤلاء الناس الذين يعجبون كثيراً مما كتبه اللورد كرومر عن الاسلام كأنما كانوا يتوقعون من رجل يتدين بدين غير دين الاسلام و يضن به فوق ما يضن بنفسه وماله أن يعتقد الوحدانية . و يصدق الرسالة المحمدية . ويقيم الصلاة و يؤتى الزكاة و يحج البيت ما استطاع اليه سبيلا

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحى متمسك بيسوعيته أن الاسلام دين موضوع ابتدعه رجل عربى بدوى أمى ما قرأ فى حياته صحيفة . ولا دخل مدرسة . ولا سمع حكمة اليونان . ولا رأى مدنية الرومان . ولا تلقى شيئاً من علوم الشرائع والعمران

هذا مبلغ معتقده فيه فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من أن يناقشه و يناظره و يخطئه فيما وضعه للناس من الشرائع والاحكام . وكيف يسمح لنفسه أن ينظر اليه بالعين التى ينظر بها المسلم اليه من حيث كونه نبياً مرسلاً موحى اليه من عند الله تعالى بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . أما ما نقرؤه أحياناً لبعض علماء الغرب المسيحيين من وصف الدين الاسلامى بصفات جميلة أو مدح آرائه وأحكامه فهى مكتوبة بأقلام أقوام مؤرخين أدوا للتاريخ حق الامانة والصدق فلم يعبث التعصب الدينى بكتاباتهم . ولا مشت الروح المسيحية فى أقلامهم . ولا ريب فى أن اللورد كرومر ليس واحداً منهم . فان من قرأ كتابه « مصر الحديثة » تخيل أنه يسمع صوت راهب فى صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلق صليبه فى زناره

فهل يحق بعد ذلك لاحد من المسلمين أن يندهش أو يذهب به العجب كل مذهب إذا رأى فى كتاب اللورد كرومر ما يراه كل يوم فى كتب المبشرين الانجيليين وجرائدهم ومجلاتهم من الطعن على الاسلام وعقائده وشرائعه

بلغ التعصب الدينى بجماعة المبشرين أن يحكموا بوجود اللحن فى القرآن بعد اعترافهم

بانه كتاب عربى نطق به على حسب معتقدهم رجل هو فى نظرهم أفصح العرب . وليست مسئلة الاعراب واللحن مسئلة عقلية يكون للبحث العقلى فيه مجال . وانما الاعراب ما نطق به العرب واللحن ما لم ينطقوا به . فلو أنهم اصطلحوا على نصب الفاعل و رفع المفعول مثلا لكان رفع الاول ونصب الثانى لحنا . ولكن جهلة المبشرين لم يدركوا شيئا من هذه المسلمات واستدلوا على وجود اللحن فى القرآن بقواعد النحو التى مادونها علماؤه الا بعد أن نظروا فى كلام العرب وتتبعوا تراكيبه وأساليبه . وأكبر ما اعتمدوا عليه فى ذلك القرآن المجيد . فالقرآن حجة على النحاة وليست النحاة حجة على القرآن . فاذا وجد فى بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربى ما يخالف قواعد النحاة حكمنا بأنهم مقصرون فى التتبع والاستقراء . على أنهم ما قصروا فى شىء من ذلك وما تركوا كثيراً ولا قليلاً ولا نادراً ولا شاذاً الا دونوه فى كتبهم . فما فى القرآن لحن . ولا النحاة مقصرون . ولكن المبشرين جاهلون . فاذا كان التعصب الدينى الاعمى أنطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة فليس بغريب أن نسمع من هذا الرجل المتشبه بهم هذا الطعن على الاسلام فى نظاماته وأحكامه

إنا لا ننازع اللورد كرومر ولا أمثاله من الطاعنين على الاسلام فى معتقدهم ولكننا نحب منهم الا ينازعونا فى معتقدنا وأن يعطونا من الحرية فى ذلك ما أعطوه لانفسهم

يقول اللورد كرومر إن الدين الاسلامى دين جامد لا يتسع صدره للمدنية الانسانية ولا يصلح للنظام الاجتماعى و يقول إن ما لا يصلح له الدين الاسلامى يصلح له الدين المسيحى و يستدل على الاسلام بالمسلمين . وعلى المسيحية بالمسيحيين

فى أى عصر أيها الفيلسوف التاريخى كانت الديانة المسيحية مبعث العلم والعرفان . ومطلع أشعة المدنية والعمران . أفى العصر الذى كانت تدور فيه رحى الحروب الدموية بين الارثوذكس والكاثوليك تارة و بين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى بصورة وحشية فظيعة اسود لها الباس الانسانية و بكت الارض منها والسماء . أم فى العصر الذى كانت ارادة المسيحى فيه صورة من إرادة الكاهن الجاهل فلا يعلم الا ما يعلمه أياه . ولا يفهم

الا ما يلقيه اليه . فما كان يترك له الحرية حتى فى الحكم على نفسه بكفر أو ايمان . و بهيمية أو إنسانية . فيكاد يتخيل فى نفسه أن لذنبا متحركا وخيشوما طويلاً وأنه يمشى على أربع إذا قال له الكاهن أنت كلب أو قال له إنك لست بانسان . أم فى العصر الذى كان يعتقد فيه المسيحى أن دخول الجمل فى سم الخياط أقرب من دخول الغنى فى ملكوت السموات . أم فى العصر الذى كان يحرّم فيه الكاهن الاعظم على المسيحى أن ينظر فى كتاب غير الكتاب المقدس وأن يتلقى علماً فى مدرسة غير مدرسة الكنيسة . أم فى العصر الذى ظهرت فيه النجمة ذات الذنب فذعر لرؤيتها المسيحيون و رفعوا الى البابا عرائض الشكوى فطردها من الجوفولت الادبار . أم فى العصر الذى أهدى فيه الرشيد العباسى الساعة الدقاقة الى الملك شارلمان فلما رآها الشعب المسيحى وسمع صوتها فرّ من وجهها ظناً منه أنها تشتمل على الجن والشياطين . أم فى العصر الذى ألفت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمت فى وقت قصير على ثلاثمائة وأربعين ألفاً بالقتل حرقاً أو صلبا . أم فى العصر الذى أحرق فيه الشعب المسيحى فتاة حسناء بعد ما جرّد لحمها عن عظمها لانها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة

هذا الذى نعلمه أيها الفيلسوف التاريخى من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران فى العصور المسيحية . ولا نعلم أكانت تلك المسيحية التى كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحةً فى نظرك أم باطلة . وانما نريد أن نستدل بالمسيحيين على المسيحية وإن لم نقف على حقيقتها . كما فعلت أنت فى استدلالك بالمسلمين على الاسلام وان لم تعرف حقيقته وجوهره . على أن استدلالنا صحيح واستدلالك باطل . فان المدنية الحديثة ما دخلت أوربا الا بعد أن زحزحت المسيحية منها لتحل محلها كالماء الذى لا يدخل الكأس الا بعد أن يطرد منه الهواء لانه لا يتسع لهما . ولا يجمع بينهما . فان كان قد بقى أثر من آثار المسيحية اليوم فى أكواخ بعض العامة فى أوربا فما بقى الا بعد أن عفت عنه المدنية و رضيت بالابقاء عليه . لا باعتبار أنه دين مقدس يجب اجلاله واعظامه . بل باعتبار أنه زاجر من الزواجر النفسية التى تستعين الحكومات بأى نوع من أنواعها على كسر شرّة النفوس الجاهلة . فلا

علاقة بين المسيحية والتمدين الغربي حتى يُستدل به عليها باعتبار أنه أثر من آثارها . ونتيجة من نتائجها . ولو كان بينه وبينها علاقةٌ ما افترقت عنه نحو تسعة عشر قرناً كانت فيها أوروبا وراءها بتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل . فما نفعتها مسيحيتها . ولا أغنى عنها « كهنوتها » و « اكليروسها »

أما المدنية الاسلامية فانها طلعت مع الاسلام في سماء واحدة من مطلع واحد في وقت واحد . ثم سارت الى جانبه كتفاً لكتف ما يُنكر من أمرها ولا تنكر من أمره شيئاً . فالمتعبد في مسجده . والفقيه في درسه . والمعرّب في مكتبته . والرياضي في مدرسته . والكيماني في معمله . والقاضي في محكمته . والخطيب في محفله والفلكي أمام اسطرلابه . والكاتب بين محابره وأوراقه . إخوة متصافون . وأصدقاء متحابون . لا يختصمون ولا يقتتلون . ولا يكفر بعضهم بعضاً ولا يبغي أحد منهم على أحد

أيها الفيلسوف التاريخي : إن كان لا بد من الاستدلال بالأثر على المؤثر فالمدنية الغربية اليوم أثرٌ من آثار الاسلام بالامس والانحطاط الاسلامي اليوم ضربة من ضربات المسيحية الاولى . واليك البيان

جاء الاسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج اليه في معاده ومعاشه . ودنياه وآخرته . وما يفيده منفرداً . وما ينفعه مجتمعاً

هذب عقيدته بعدما أفسدها الشرك بالله والتسفل الى عبادة التماثيل والاوثان وإحناء الرءوس بين أيدي رؤساء الأديان وأرشده الى الايمان بربوبية الله واحداً لا يشرك به شيئاً . ثم أرشده الى تسريح عقله ونظره في ملكوت السموات والارض ليقف على حقائق الكون وطبائعه . وليزداد ايماناً بوجود الاله وقدرته وكمال تدبيره . وليكون اقتناعه بذلك اقتناعاً نفسياً قلبياً فلا يكون آلة صماء . في يد الاهواء . تفعل به ما تشاء . ثم أرشده الى مواقف تذكره بربه . وتنبهه من غفلته . وتطرد الشرور والخواطر السيئة عن نفسه كلما ابتغت اليها سبيلا وهي مواقف العبادات . ثم أطلق له الحرية في القول والعمل ولم يمنعه الا من الشرك بالله والاضرار بالناس . وعرّفه قيمة نفسه بعدما كان يجهلها وعلّمه أن

الانسانية لا فرق بين فقيرها وغنيها . ووضيعها ورفيعها . وضعيفها وقويها . وأن الملك والسوقة والشريف الهاشمى . والعبد الزنجى . أمام الله والحق سواء . وأن الامر والنهى والتحليل والتحريم والنفع والضر والثواب والعقاب والرحمة والغفران بيد الله وحده لا ينازعه فيها منازع . ولا يملكها عليه أحد من الانبياء والمرسلين . والملائكة المقربين . ثم نظر فى أخلاقه فأرشده الى محاسنها . وحال بينه وبين رذائلها . حتى علمه آداب الاكل والشرب والنوم والمشى والجلوس والكلام والسلام . ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبر الابن أباه . ويرحم الوالد ولده . ويعطف الاخ على أخيه . ويكرم الزوج زوجته . وتطيع الزوجة زوجها . وكيف يكون التراحم والتواصل بين الاقرباء وذوى الرحم . ثم نظر فى شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاة التى لو جمعت ووضعت فى مصارفها لما كان فى الدنيا بائس ولا فقير . وندبه الى الصدقة ومساعدة الاقوياء للضعفاء . وعطف الاغنياء على الفقراء . ثم شرع له شرائع للمعاملة الدنيوية ووضع له قوانين البيع والشراء والرهن والهبة والقرض والتجارة والاجارة والمزارعة والوقف والوصية والميراث ليعرف كل انسان حقه فلا يغبن أحد أحداً . ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه أن يبغى بعضه على بعض بشتم أو سب أو قتل أو سرقة أو انتهاك حرمة أو مجاهرة بمعصية أو شروع فى فتنة أو خروج على أمير أو سلطان . ثم نظر فى شؤونه السياسية فقرر الخلافة وشروطها . والقضاء وصفاته . والامارة وحدودها . وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفيهم فى الدين البعيدين عنهم . والنازحين اليهم . وذكر مواطن القتال معهم . ومواضع المسالمة لهم

وجملة القول إن الدين الاسلامى ما غادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها . ولا ترك الانسان يمشى فى ميدان هذه الحياة خطوة من مهده الى لحده الا مد يده اليه وأنار له مواقع أقدامه وأرشده الى سواء السبيل

طلعت هذه الشمس المشرقة فى سماء بلاد العرب فملأت الكون نوراً واشراقاً واختلف الناس فى شأنها ما بين معترف بها ومنكر وجودها . ولكنهم كانوا جميعاً سواء فى الانتفاع بنورها . والاستنارة بضيائها . على تفاوت فى تلك الاستنارة . وتنوع فى ذلك الانتفاع .

طلعت هذه الشمس المشرقة فتمشت أشعتها البيضاء الى أوربا من طريق اسبانيا وجنوب ايتاليا وفرنسا فأبصرها عدد قليل من أذكياء الغربيين فانتبهوا من رقدتهم . واستيقظوا من سباتهم . ورأوا من جمال المذاهب الاسلامية وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة ما لفت نظرهم الى المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع الشرقي اليقظ النابه . فقالوا أيمكن أن يعيش الانسان على ظهر هذه المسكونة حراً لا يستعبده ملك ولا يسترقه كاهن . أيمكن أن يبيت الانسان ليلة واحدة في حياته هادئاً في مضجعه مطمئناً في رقدته لا يروعه دولاب العذاب ولا سيف الجلاد . أيمكن أن تملك النفس حريتها في النظر الى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها . أيمكن أن يطلع فجر المدنية الاسلامية على هذا المجتمع الغربي فيمحو ظلمته التي طال عهدنا بها حتى غشيت أبصارنا فما يكاد يرى بعضنا بعضاً

كانت هذه الخواطر المترددة في عقول أولئك الاذكياء هي الخطوة الاولى التي مشتها أوربا في طريق المدنية والعمران بفضل الاسلام وشرائعه التي عرفها هؤلاء الافراد من مخالطة المسلمين في أوربا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضارتهم ومدنيتهم . ثم أخذوا يعلمونها الناس سراً ويبثونها في نفوس تلاميذهم شيئاً فشيئاً ويلقون في سبيل نشرها عناء شديداً . واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قروناً عديدة حتى انتهى أمره بالثورة الفرنسية فكانت هي القضاء الاخير على الوحشية السالفة . والهمجية القديمة

أيها الفيلسوف التاريخي : إنك لا بد تعلم ذلك حق العلم لانه أقل ما يجب على المؤرخ أن يعلمه كما تعلم أن المدنية الاسلامية اذا وسعت غيرها فأحرى بها أن تسع نفسها . ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه فما كفاك أن أنكرت فضل صاحب الفضل عليك حتى أنكرت عليه فضله على نفسه

لا حاجة بي الى أن أشرح لك المدنية الاسلامية أو أسرد لك أسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم في الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والاخلاق والعمران أو اعدد لك مدارسها ومجامعها ومراصدها في الشرق والغرب أو

أصف لك مدنها الزاهرة . وأمصارها الزاخرة . وسعادتها وهناءها . وعزتها وسطوتها . فأنت تعرفها إن كنت مؤرخا كما تقول

غير أني لا أنكر عليك ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الاخيرة من الضعف والفتور . وما أصاب جامعتهم من الوهن والانحلال . ولكن ليس السبب في ذلك الاسلام كما تتوهم بل المسيحية التي سرت عدواها اليهم على أيدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الاسلام وتزيوا بزيه ودخلوا بلاده وتمكنوا من نفوس ملوكه الضعفاء . وأمرائه الجهلاء . فأمدوهم بشيء من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين حتى أفسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم وأوقعوا الفتنة فيهم وحالوا بينهم و بين الاستمداد من روح الاسلام وقوته فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان

كل ما تراه اليوم بين المسلمين من الخلط في عقيدة القضاء والقدر وعقيدة التوكل وتشييد الاضرحة وتجصيص القبور وتزيينها والترامي على أعتابها والاهتمام بصور العبادات وأشكالها دون حكمها وأسرارها و إسناد النفع والضر الى رؤساء الدين أثر من آثار المسيحية الاولى وليس من الاسلام في شيء

أيها الفيلسوف التاريخي : لا تقل إننا متعصبون تعصباً دينياً فانك قد أسأت الينا والى ديننا فلم نر بداً من الذب عنا وعنه بما نعلم أنه حق وصواب . على أنه لا عار علينا فيما تقول . وهل التعصب الديني الا اتحاد المسلمين يداً واحدة على الذود عن أنفسهم . والدفاع عن جامعتهم . و إعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله

إن كان رفضاً حب آل محمد ❊ فليشهد الثقلان أني رافضي

اهناء ام عزاء

فارق مصر على أثر الدستور العثماني كثير من فضلاء السوريين بعد ما عمروا هذه البلاد بفضائلهم ومآثرهم وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب ولقنوا المصريين تلك الدروس

العاليةَ فى الصحافة والتأليف والترجمة . و بعدما كانوا فينا سفراء خير بين المدنية الغربية والمدنيةِ الشرقيةِ . يأخذون من كمال الاولى ليُتمموا ما نقص من الاخرى . و بعدما علّموا المصرى كيف يَنشَط للعمل وكيف يَجِد و يجتهد فى سبيل العيش وكيف يَثبت و يتجلد فى معركة الحياة

قضوا بيننا تلك البرهةَ من الزمان يُحسنون الينا فنسىء اليهم و يَعطفون علينا فنسميهم تارة دخلاء . وأخرى ثقلاء . كأنما كنا نحسَبُ أنهم قوم من شُذّاذ الآفاق أو نفاياتِ الامم جاءوا الينا يُصادرونا فى أرزاقنا . و يتطفلون على موائدنا . ولو أنصفناهم لعرفناهم و عرفنا أن أكثرهم من بيوتاتِ المجد والشرف وانما ضاقتْ بهم حكومة الاستبداد ذَرعاً وكذلك شأنُ كل حكومة مستبدةٍ مع أحرار النفوس وأُباةِ الضيم فأحرجت صدورهم . وضيقتْ عليهم مذاهبَهم . ففروا من الظلم تاركين وراءهم شرفاً يَنعيهم . ومجداً يبكى عليهم . ونزلوا بيننا ضيوفاً كراماً . وأساتذة كباراً . فما أحسنا ضيافتهم ولا شكرنا لهم نعمتهم

و بعد فقد مضى ذلك الزمن بخيره أوشره وأصبحنا اليوم كلما ذكرناهم خَفقتْ أفئدتنا مخافة أن يلحقَ باقيهم بماضيهم فلا نعلمُ أنشكر للدُستور أن فرّج عنهم كربهم . وأمّنهم على أنفسهم . و ردهم الى أوطانهم . أم ننقمُ منه أن كان سبباً فى حِرماننا منهم بعدأُنسنا بهم . واغتباطنا بحسن عِشرتهم . وجميل مودتهم . ولا ندرى هل نحن بين يدى هذا النظام العثمانى الجديد فى هناء أم فى عزاء

فيأيها القوم المودِّعون . والكرام الكاتبون

اذكرونا مثلَ ذِكرانا لكم * ربَّ ذكرَى قرّبتْ من نزحا

واذكروا صبًّا اذا غنى بكم * شربَ الدمع وعافَ القدحا

الزوجتان

حدّث أحد الاصدقاء قال : سأقص عليك قصة ليست من خيالات الشعراء ولا أكاذيب القصاصين

أويت الى مضجعي في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب . غدافية الاهاب . فما استقبلت أول طليعة من طلائع النوم حتى قرع باب غرفتي فسمعت فاذا الخادم تقول: إن امرأة سيئة الحال بذة الثياب في زي المتسولات تلح في طلب مقابلتك وتقول إن لها عندك شأناً . فقلت في نفسي لا شأن لي مع امرأة وربما كانت ذات حاجة وكانت حاجتها إلى أكثر من حاجتي الى النوم . على أن النوم لا يفوتني فليل الشتاء . أطول من يوم القضاء . فارتديت ردائي ونزلت فاذا فتاة في ملاءة بالية وبرقع خلق ينم بجمالها كما ينم السحاب المتقطع بضوء الشمس . واذا هي ترعد وتضطرب وتقول بصوت شجي : أما في الناس أخو همة ومروءة يعين على الدهر الغادر ويطفئ هذه الجذوة التي تتأجج بين أضالعي بقطرة واحدة من الرحمة . فقلت من أنت يرحمك الله . قالت أنا فلانة زوج فلان . فدهشت وغصصت بريقي حتى ما أجد بلة أحرك بها لساني لهول ما سمعت . وسوء ما رأيت . وقلت يا للعجب . زوجة فلان على عظمه وعظمها . وجلاله وجلالها . تخرج في مثل هذه الساعة في مثل هذه الملابس . فسألتها ما شأنك ياسيدتي ومم تبكين . قالت لا تحدث نفسك بريبة ولا تذهب بك الظنون مذاهبها فو الله ما جئت اليك تحت حجاب الليل الا وأنت أوثق الناس عندي . وأرفعهم في عيني . ولولا شدة أقلقت مضجعي وفرقت ما بين جفني والكرى ما خضت سواد الليل في مثل هذه الساعة ولا حملت في سبيلي اليك ما حملت . قلت عهدي بسيدتي رخية البال ناعمة العيش سعيدة الحظ بزوج عذب الاخلاق كريم السجايا لا يؤثر هوى نفسه على هواك ولا يعدل بك أحداً . قالت إنك تقص على حديث الامس وقد مضى به الفلك الدائر . والكوكب السيار . فاسمع مني حديث اليوم

إنك لابد تعلم تاريخ زواجي منه منذ ثلاثة أعوام وأن أبي لم يجعه بدلا على كثرة الخاطبين اليه من علية القوم وجلتهم وأنا لا ألومه على ذلك رحمة الله عليه فما أراد بي شراً ولا اعتمد أن يسيء الاختيار لي ولكنه كان رجلاً أبيض السريرة طاهر القلب تخدعه الخادعون عني . ومن ذا الذي لا يخدع بشاب متعلم مهذب من ذوي المناصب الكبيرة والرتب العالية . وكيفما كان الامر فقد تم عقد الزواج بيننا فاغتبطت به واغتبط بي برهة من الزمان حسبتها

دائمة لا انقطاع لها حتى يفرّق بيننا الموت . وكنت امرأة أجمع فى نفسى جميع ما يَمُتّ به النساء الى الرجال فما خنته ولا ضقت ذرعاً بأمره ولا قطّبت فى وجهه مرة ولا أتلفت له مالاً ولا نقضت له عهداً فجازانى سوءاً بالاحسان . وكفر بنعمة الله بعد الايمان . وخان وُدى . ونقض عهدى . لا لذنب أتيته . أو وصمة تصمنى بها . وكل ما فى الأمر أنه رجل ملول . لا تغضب ياسيدى إن قلت لك إن قلب الرجل متقلب متلون يُسرع الى البغض كما يسرع الى الحب . وإن هذه المرأة التى تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الامثال بخفة عقلها وضعف قلبها أوثق منه عقدا . وأمتن وُدا . وأوفى عهدا . ولو وفى الزوج ُلزوجته وفاءها له ما استطاع أن يفرّق بين قلبيهما الا ريبُ المنون . قلت أنا لا أغضب لشىء الا للانسانية أن يُنقض عهدها . ويُخفر ذمامها . ثم ماذا تم بعد ذلك . قالت مات أبى كما تعلم وخلف لى مالاً أمكنتُ منه زوجى فأتلفه بين الخمر والقمر . فكنت أُغضى على هفواته رحمة به وشفقة عليه واستبقاء لوُده . حتى اذا صفِرت يدى وأقفر ربعى أحسست منه مللا كان يدعوه الى سوء عشرتى وتعذيب جسمى ونفسى . وكان كثيراً ما يتهكم بى ويقول إنى لا أُحب المرأة الجاهلة التى لا تفهمُنى ولا أفهمُها . وآونة كان يعرّض بى قائلاً إن الرجل السعيد هو الذى يُرزَق زوجة متعلمة تقرأ له الجرائد والمجلات . وتفاوضه فى المسائل العقلية والسياسية . بل تجاوز التعريضَ الى التصريح فيقول كلما دخل علىّ متأففاً متذمراً . ليت لى زوجة كفلانة فانها تحسن الرقص والغناء والضرب على «البيانو» . فكنت أشك فى سلامة عقله وأقول فى نفسى كيف يُفضل الزوجة المتبذّلة المستهترة على الحييّة المحتشمة . و والله ما تمنيت مرة أن أكون على الصفة التى يحبها ويرضاها مع ما كنت أبذُل فى رضاه من ذات اليد وذات النفس . وبعدُ فما زال الملل يدبُّ فى نفسه دبيب الصهباء . فى الاعضاء . حتى تحوّل الى بغضاء شديدة . فما كان يلحظنى الاّ شزْراً ولا يدخل المنزل الا لتناول غرض أو قضاء حاجة . فكنت أحتمل كلّ هذا باقتاب صبور . وجنان وقور . ثم عرض له بعد ذلك أن نُقل الى منصب أرقى من منصبه فى بلد آخر على ما تعلم فسافر وحده وتركنى فى المنزل وحيدة لا مؤنس لى غيرُ طفلتى فلبثت أرقب كتابا منه يدعونى فيه الى اللحاق به فما أرسل

كتاباً ولا رسولاً ولا نفقة . فاستكتبتُ اليه الكتاب بعد الكتاب فما أسلس قيادُه . ولا طاوع عنادُه . فسافرت اليه مخاطرةً بنفسي غيرَ مبالية بغضبه لأعلم غاية شأنه وشأني معه . فما نزلتُ من القطار حتى قيَّض الله لي من وقفني على حقيقة أمره وأعلمني أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضه في المسائل العقلية والسياسية وتحسن الرقص والغناء والضرب على « البيانو » . فداخلني من الهم ما الله به عليم . وجزعت ولكن أيَّ ساعة تجزع . ولا أظن الا أن العدلَ الالهي سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التي أرقتُها في هذا السبيل حساباً غير يسير

وكأنه شعر بمكاني فجاء اليَّ يتهددني ويتوعدني فتوسلت اليه ببكاء طفلته التي كنت أحملها بين يديَّ وذكرته بالعهود والمواثيق التي تعاقدنا عليها وذهبت الى استعطافه كلَّ مذهب فكنت كأني أخاطب رَكوداً صمَّاء(1) . أو أستنزل أبوداً عصماء(2) . ثم طردني وأمر من حملني الى المحطة فعدت من حيث أتيت

فما وصلت الى المنزل حتى خلعتُ ملابسي ولبست هذه الثياب وجئتك متنكرة في ذمام الليل لأني وحيدة في هذا العالم لا قريبَ لي ولا حميم ولأني أعلم كرمك وهمتك وما بينك وبين ذلك الرجل من الودّ والاتصال عسى أن ترى لي رأياً في التفريق بيني وبينه على أجد في فضاء الحرية منفذاً كسم الخياط أرتشف منه ما أتبلَّغ به أنا وطفلتي حتى يبلغ الكتابُ أجله

فأحزنني من أمر تلك الفتاة البائسة ما أحزنني ووعدتُها بالنظر في أمرها بعد أن خفّضت كثيراً من أحزانها ولواعجها . فعادت الى منزلها وعدت الى مضجعي أفكر في هذه الحادثة الغريبة وقد اكتنفني همَّان . همُّ تلك البائسة التي لم أر في تاريخ شقاء النساء قلباً أشقى من قلبها . ولا نجماً أنحس من نجمها . وهمُّ ذلك الصديق الذي ربحته سنين طوالا وخسرته في ساعة واحدة . فقد كنت أغبط نفسي عليه فأصبحت أعزيها عنه . وكنت

(1) الرَّكود من الركود وهو الثبات والسكون . والصخرة الصماء الصُّلبُ المصمتة

(2) أبدَت البهيمة توحشت . والعصماء من الظباء التي في ذراعيها بياض وسائرها أسود

أحسبه إنساناً فإذا هو ذئب عَمَلَّس تستره الصورة البشرية وتواريه البشاشة والابتسام

و والله ما أدرى أية داهية رمى بها الغرب شبان مصر فى هذا العصر . وكيف ملك حب التقليد عليهم نفوسهم وأهواءهم فاستهانوا بعاداتهم الشرقية واستخفوا بها وودوا لو تجردوا عنها . وما يتجردون إن تم لهم ذلك الا من الفضيلة ومذاهبها . والانسانية وكمالاتها

يسمع الواحد منهم ذكر المرأة الغربية ووصف شؤونها وأطوارها . وعلومها ومعارفها . وكمالاتها وآدابها . وعفتها ونزاهتها . فيلذ له ذلك الخيال كما يلذ للعامة خيال الشجرة التى تُثمر نساءً حساناً فى جزائر « واق الواق » فيتمناها زوجاً له أو يتمنى أن تكون زوجه على هذه الصورة الخيالية اللذيذة . وما هى الا خدعة من خدع الامانى والاحلام . ولو رجع الى نفسه لوجدها نفساً شرقية . تحب الفضيلة الشرقية . وتعاف الرذيلة الغربية . ولوجد غريته متكلفة متصنعة جلبها الخيال الى ذهنه . ولم يصل بها الى قرارة نفسه

المرأة الشرقية من حيث ذاتها صديقة الزوج وخادمته . والمخلصة اليه . والوفية بعهده والمنقطعة عن كل شىء سواه . إن تعبت فنى قضاء حاجته . أو تجملت بالملابس فلأجله . أو ابتسمت فلادخال السرور على نفسه . أو بكت فلحزنها عليه . أو جزعت فلملمة ألمت به . وإن كانت جاهلة لا تعرف طبائع الكائنات . ولا أسرار الموجودات . ولا عدد الانهار . ولا أنواع الاشجار . ولا مواقع القارات من الارض . ولا منازل الكواكب فى السماء . فكيف يتصور أن رجلاً شرقياً كريم النفس طيب العنصر يتمنى أن يرى مكانها امرأة متفرنجة لا هم لها الا نفسها ولذائذها . ولا تنظر اليه الا بالعين التى كانت تنظر بها فى صغرها الى عرائسها ولعبها لا تزال تحفل بها ما صادفت هوى من نفسها فان ملتها وعافتها ففى حوانيت التجار ما لا حصر له من العرائس والتماثيل

يظن أحدهم أنه استنزل ملكاً من السماء وأسكنه داره اذا تزوج زوجة تحمل فى يدها ورقة مختومة بخاتم نظارة المعارف وهو وهم باطل نشأ من الاعتقاد أن بين التعليم والتربية

تلازماً طبيعياً ولا تلازمَ بينهما إلا حيث يكون التعليم صحيحاً ولا يكون كذلك إلا اذا كان ممزوجاً بالتربية العملية . فاذا استقل بذاته فما هو إلا صورة تنتقش فى الاذهان لا دخل لها فى الغرائز والملكات . والتعليمُ فى مصر من هذا النوع الاخير . يرفع الجهل ولا يغرس الفضيلة فى نفس المتعلم . لا بل هو فى يد المرأة التى لم تأخذ بنصيب من التربية الشرقية الصحيحة سلاح تحارب به الفضيلة وتجنى به على النظام البيتى جناية فظيعة فما غبطةُ الرجل بها بعد ذلك

أنا لا أبغض العلم بل أحبه حباً جماً وأحب أن أجالس الشاعر والكاتب والطبيب والكيماوى والنباتى والفلكى ولكنى لا أحب أن يكون واحد منهم زوجة لى . لأن الشاعر كبيرُ النفس أنوف عزوف كثير الاشغال العقلية والخيالات الذهنية . والطبيب لا يقبل أن يحمل طفلى على كتفه أو يزعج نفسه كل ساعة ببكائه وصريخه . والكيماوىُّ لا يحمل دخان المطبخ فى عينيه ولا يقوى على آلام الخدمة البيتية . والفلكى له من شواغل السماء ما يغنيه عن شواغل الارض

أنا لا أكره تعليم المرأة لذاته ولكن أكره أن يكون علمها سبباً فى فسادها . ولو خيرتُ بين الجهل والفساد لتمنيت أن أكون من الجاهلين . لان الصلاح ثمرة العلم . ولا حيا الله شجرةً لا تمد ظلاً . ولا تثمر ثمراً . فهى بالقطع أولى منها بالبقاء . حتى لا تكون عقبة عسراء فى طريق السائرين

ثقيل جداً على النفس أن يرى المرء زوجته المتعلمة لا تقرأ من الجرائد إلا الهزلية لتضحك وتضحك أترابها ولتتعلم منها أبواب التهكم والتعريض وتحفظ الهُجر من القول والسافل من المجون . ولا تقرأ من المجلات إلا باب الملابس والأزياء لتقترح على زوجها كل يوم ما يضيق به ذرعه وجيبه من أثمان الثياب ونفقاتها من حيث لا فائدة له من وراء ذلك سوى أنه يقيم من زوجته معرضاً عاماً فى أسواق المدينة تحوم حوله القلوب وتسرح فيه الابصار . ولا تقرأ من الروايات إلا الغرامية لتستفيد طرق الهيام . ولغة الغرام . ومذاهب العشاق . ومواقف الفراق والتلاق

هــذا كل ما يجده الرجل من أثر العلم فى نفس الزوجة المتعلمة فى مصر . فاذا فتش عما وعدوه به من أن الزوجة المتعلمة هى الانسان الكامل أدبا وفضلا لم يجد لذلك أثراً فى نفسها . ولا فى تربية أولادها . ولا فى القيام بحقوق زوجها . فقد وعدوه أنها تحسن حساب دخلها وخرجها فوجد أنها تنفق ما تشاء بغـير حساب . و وعدوه أنها تحسن القيام على تربية ولدها تربية صحيحة أدبية فوجـد أنها تكل أمره إلى المرضع فى مهده . والخادم بعد فطامه . ولا يعنيها من أمره ما يعنى الشاةَ من سَخلتها والظبيةَ من طَلاها . ووعدوه أنها تحسن إدارة المنزل فوجدها تقسم بياض نهارها بين الحمّام والمرآة . لا تتركه إلا إليها ولا تتركها إلا اليه . فاذا أقبل الليل خرجت مع البازى عليها سواد . والله يعلم أين مصيرُها . و وعدوه أنها تحسن القيام بواجب زوجها فوجد أنها تملأ قلبه كل يوم غيظاً وقيحاً بكبريائها وتفرنجها . وفسادها وتمردها

وليس الذنب فى ذلك ذنب العلم فالعلم لا يوصّل إلا إلى الفضائل والمحامد . بل الذنب ذنب التعليم الفاسد والبارد معاً . أما كونه فاسداً فلأنه غير ممزوج بالتربية العملية التى تجعل للعلم فى النفس أثراً جيـداً . وأما كونه بارداً فلأن الفتاة التى تريد أن تكون زوجة الرجل ومدبرة المنزل و والدة الاطفال لا يناسبها بحال من الاحوال التوسع فى العلم بتقويم البلدان . وحقائق الاكوان . وتاريخ الشرق والغرب قديماً وحـديثاً والجذر والتربيع . والتحليل والتركيب . والعناصر والجواهر . والنشوء والارتقاء . وطبقات الارض والسماء . اه

هذا ما قصه علىّ ذلك الصـديق الكريم وما اسـتطرد اليه من الحكم والعظات . والآيات البينات . ثم لم أعد أعلم بعد ذلك ما تم من أمره مع تلك الفتاة المسكينة ولا ما تم من أمرها مع زوجها حتى جاءنى منه أمس ذلك الكتاب بعد مرور رعام على تلك القصة الغريبة . وهذا نصه

سيدى

يهمنى كثيراً أن أرى بين كتب التهنئة التى ترد إلىّ كتاباً منك لأسر بمشاركتك إياى فى سرورى وهنائى

إنك لا بد تذكر تلك القصة التي كنت قصصتها عليك منذ عام في شأن تلك الفتاة البائسة التي خانها زوجها « فلان » وغدر بها وهجرها إلى أخرى غيرها بعد ما جردها مما كانت تملك يدُها وما كان من أمر مجيئها عندي وبث شكواها إليّ . وربما كنت لا تعلم بما تم من أمرها بعد ذلك فاعلم أنها دفعت زوجها الى موقف القضاء فضاق بأمرها ذرعاً فطلقها فصادف ذلك هوًى من نفسي اذ كانت فكرة الزواج تشغل ذهني في ذلك التاريخ كما تعلم . وما كنت لأجد زوجة أشرف نفساً ولا أكرم جوهراً ولا أذكى قلباً منها . فتزوجتها فأمتعت نفسي بخير النساء . وأنقذت الانسانية المعذبة من شقوتها وبلائها . وأبشرك أن الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم انتقاماً شديداً . فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعاني اليوم من زوجه الجديدة الموت الأحمر . والشقاء الاكبر . وأنها امرأة قد أخذت التربية الحديثة من نفسها ما أخذاً عظيماً فحولتها إلى فتاة غربية في جميع شؤونها وأطوارها . والرجل شرقي بفطرته . أما غربيته فهي متكلفة متعملة يديرها لسانه ولا أثر لها في نفسه . فهو لا يزال رجلاً غيوراً شريفاً . ولا يزال يقاسي اليوم من تلك المرأة الخرقاء . أضعاف ما كانت تقاسيه منه أشرف النساء . والسلام

في سبيل الاحسان

الاحسان شيء جميل وأجمل منه أن يحل محله . ويصيب موضعه .

الاحسان في مصر كثير . ووصوله الى مستحقه وصاحب الحاجة اليه قليل . فلو أضاف المحسن إلى إحسانه إصابة الموضع فيه لما سمع سامع في ظلمة الليل شكاة بائس ولا أنة محزون

ليس الاحسان هو العطاء كما يظن عامة الناس . فالعطاء قد يكون نفاقاً ورياء . وقد يكون أحبولة ينصبها المعطي لاصطياد النفوس وامتلاك الاعناق . وقد يكون رأس مال يتجر فيه صاحبه ليبذل قليلاً ويربح كثيراً

إنما الاحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتألم لمناظر البؤس ومصارع الشقاء . فلو أن جميع ما يبذله الناس من المال ويسمونه إحساناً صادراً عن تلك العاطفة الشريفة لما تجاوز محله ولا فارق موضعه

فوضى الاحسان

الاحسان فى مصر فوضى لا نظام له . ينال‌ه من لا يستحقه ويُحرَم منه مستحقه . فلا بؤساً يرفع . ولا فقراً يدفع . فمثله كمثل السحاب الذى يقول فيه أبو العلاء

ولو أن السحاب همى بعقل * لما أروى مع النخل القتادا (١)

الاحسان فى مصر أن يدخل صاحب المال ضريحاً من أضرحة المقبورين فيضع فى صندوق النذر قبضة من الفضة أو الذهب ربما يتناولها من هو أرغد منه عيشاً وأنعم بالا . أو يُهدى ما يسميه نذراً من نعم وشاء الى دفين فى قبره قد شغله عن أكل اللحوم والتفكه بها ذلك الدودُ الذى يأكل لحمه . والسوسُ الذى ينخُل عظمه . وما أهدى شاته ولا بقرته لو يعلم الا الى « ديوان الاوقاف » وكان خيراً له أن يُهديها الى جاره الفقير الذى يبيت ليله طاوياً يشتهى ظلفاً (٢) يشبع جوعته . أو عرقوباً يطفئ لوعته

وأعظم ما يتقرب به محسننا الى الله ويحسب أنه بلغ من البر والمعروف غايتهما أن ينفق بضعة آلاف من الدنانير فى بناء مسجد للصلاة فى بلد مملوء بالمساجد . حافل بالمعابد . وفى البلد كثير من البائسين وذوى الحاجات . ينشدون مواطن الصِلات . لا أماكن الصلوات . أو يبنى بنية ضخمة فخمة مرفوعة القباب . فسيحة الرحاب . مموهة الجوانب والأركان . مذهبة السقوف والجدران . يسميها سبيلا . ولا يهولنك هذا الاسم الضخم فكل ما فى الامر أن السبيل مكان يشتمل على حوض من الماء ربما لا يكون بينه وبين ماء النهر الا بضع خطوات . على أن الماء كالهواء . ملء الأرض والسماء . أو يقفُ الرقاع الواسعة من الارض لتُنفق غلتها على أقوام من ذوى البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات . وترديد الصلوات . وقراءة الاحزاب والاوراد . وهو يحسب أنه أحسن اليهم . ولو عرف موضع الاحسان لأحسن اليهم بقطع هذا الاحسان عنهم علهم يتعلمون صناعة أو مهنة يرتزقون منها رزقاً شريفاً . فان كان يظن أنه يعمل فى ذلك عملاً يقربه الى الله فليعلم أن

---

(١) القتاد شجر صلب له شوك لافائدة منه (٢) ظلف البقرة ظفرها

الله تعالى أجل من أن يعبأ بعبادة قوم يتخذون عبادته سلماً الى طعام يطعمونه . أو درهم يتناولونه . أو يفتح أبواب منزله لهؤلاء المحتالين المتلصصين الذين يسمونهم مشايخ الطرق . ولو أنصفوهم لسموهم قطاع الطرق . ولا فرق بين الفريقين الا أن هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعصى . وأولئك يتسلحون بالسبح والمساويك . ثم يسقطون على المنازل سقوط الجراد على المزارع فلا يتركون صادحاً ولا باغماً . ولا خفاً ولا حافراً . ولا شيئاً مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها الا أتوا عليه

أسوأ الاحسان

لم أر مالاً أضيع ولا عملاً أخيب ولا إحساناً أسوأ من الاحسان إلى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الأرض ويقلبونها ظهراً على عقب ويجثمون فى مفارق الطرق وزوايا الدروب وعلى أبواب الأضرحة والمزارات يصمون الاسماع بصراخهم . ويقذون النواظر بمناظرهم المستبشعة . ويزاحمون بمناكبهم الفارس والراجل . والجالس والقائم . فلو أن نجماً هوى الى الارض لهوى على أثره أو طار الى الجو لكانوا قوادمه وخوافيه

وإن شئت أن تعرف المتسول معرفة حقيقية لتعرف هل يستحق عطفك وحنانك عليه وهل ما تسديه اليه من المعروف تسديه الى صاحب حاجة فاعلم أنه فى الأعم الأغلب من أحواله رجل لا زوجة له ولا ولد ينفق عليهما ولا مسكن عنده يحتاج الى مؤن ومرافق ولا شهوة له فى مطعم أو مشرب أو ملبس حتى لو علم أن الانقطاع عن ذلك الخسيس من الطعام والقذر من الشراب لا يعجزه عن السعي فى سبيله لانقطع عنه . وهو لو شاء أن يتزوج أو يتخذ له مأوى يأوي اليه لفعل ولو جد فى حرفته متسعاً لذلك . ولكن الحرص قد أفسد قلبه وأمات نفسه فهو يتوسل بانواع الحيل وصنوف الكيد ليجمع مالاً لا فائدة له من جمعه ولا نية له فى إصلاح شأن نفسه به اذا اجتمع عنده منه ما يقوم له بذلك بل ليدفنه فى باطن الارض حتى يدفن معه أو لينظمه فى سلك مرقعته حتى يرثه الغاسل من بعده . ولقد يبلغ به الحرص الدنىء والشره السافل أن يحمل فى سبيل المال ما لا يستطيع مجاهد أن يحمل مثله

فى سبيل الله فيتعمد قطع يده أو ساقه أو إتلاف عينيه أو إحداهما ليستعطف القلوب عليه . وكثيراً ما يحسد صاحبه اذا رآه أفظع منه شكلا أو أكثر تشويهاً كما يحكى أن شحاذاً مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب تقابل مع آخر كفيف البصر فتنافسا فى مصيبتهما أيهما أقذى للأعين وأوقع فى النفس وأجلب للرحمة . فقال الاول للثانى لقد وهبك الله نعمة العمى ومنحك بسلب ناظريك أفضل حبالة لاصطياد القلوب . واستفراغ الجيوب . فقال له صاحبه وأين يبلغ العمى من هذه الرجل الضخمة الثقيلة التى تجلب فى كل عام وزنها ذهباً

إن أكبر جريمة يجرمها الانسان الى الانسانية أن يساعد هؤلاء المتسولين بماله على الاستمرار فى هذه الخطة الدنيئة فيغرى كل من شعر فى نفسه بالميل الى البطالة وإيثار الراحة بالسعى على آثارهم . والاحتراف بحرفتهم . فكأنه قطع من جسم الانسانية عضواً كاملا . لو لم يقطعه لكان عضواً عاملا . وكأنه هدم بعمله هذا جميع تلك المساعى الشريفة التى بذلها الانبياء والحكماء قروناً عديدة لاصلاح المجتمع الانسانى وتهذيب أخلاقه وتخليصه من آفات الجمود والخمول . فهل رأيت معروفاً أقبح من هذا المعروف أو إحساناً أسوأ من هذا الاحسان

تنظيم الاحسان

ليست كمية المال التى ينفقها المحسنون فى سبيل الاحسان الباطل مما يستهان به فلو قال قائل إنها تبلغ فى مصر كل عام مليوناً من الذهب لما أخطأ التقدير

سألت رجلا من وجوه الريف المعروفين بالبر والاحسان عن كمية ما ينفقه كل عام فى هذا السبيل فأطلعنى على جريدة الحساب هذه

جنيه	
١٠	ولائم لمشايخ الطرق
٦٠	ليالى فى مولد البيومى والعفيفى

جنيه
٧٢ مرتبات قراء القرآن والدلائل والصلوات فى مسجده ومنزله
٣٠ هبات كبيرة للسائحين الذين يستجدون باسم المجد القديم والشرف الدائر
١٨ صدقات للمتسولين على تقدير خمسة قروش يومياً تقريباً
١٠ توضع فى صناديق الأضرحة
٤٠ ثمن خبز ولحم وملابس تفرق فى المواسم الدينية
———
٢٤٠ المجموع

فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها فى سبيل الاحسان رجل واحد من متوسطى الثروة فى عام واحد . وفى مصر مئات مثله وعشرات يزيدون عليه وآلاف يقلون عنه . فلا غرابة فى أن يقدر هذا النوع من الاحسان بمليون جنيه ينفقه منفقوه على غير شىء سوى إغراء الكسلان بكسله . وحمل العامل على ترك عمله . وفى اعتقادى لو أن هذا المقدار حل من الاحسان محله . وأصاب منه موضعه . وأنفق فى سبيل الخيرات النافعة ووجوه البر الحقيقية لارتقى بالامة المصرية الى ذروة الكمال . ولكان له الأثر الجليل فى وصولها الى ما تتطلع اليه من هناء العيش وسعادة الحياة

لذلك أقترح فى تنظيم الاحسان اقتراحا نافعاً وأدعو الكاتبين الذين لا غرض لهم من وراء الكتابات السياسية ولا غاية لهم من الاشتغال باثارة الخواطر وتهييجها وإغراء بعض الناس ببعض أن يساعدونى بأقلامهم على تحقيق ما أعناه فى هذا المقترح المفيد

أقترح أن يقوم جماعة من سراة الأمة ووجوهها وأصحاب الرأى والبصيرة فيها بتأليف مجتمع فى القاهرة يسمى « مجتمع الاحسان » ويكون له فى كل مدينة من مدائن الريف فرع تابع له

أما أعماله التى أحب أن يقوم بها بالاتحاد مع فروعه فهى ثلاثة

(١) استخدام فريق من مهرة الكتاب وفصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفراد الامة بكل واسطة من وسائط النشر وبكل وسيلة من وسائل التأثير معنى الاحسان . وما هو

الغرض منه . وما هى أفضل وجوهه . وأى أنواعه أجمع لخيرَي الدنيا والآخرة

(ب) بذل الجهد فى حمل الناس على اعتبار مجتمع الاحسان هذا بيت مال لهم أو وكالة عامة عنهم تتولى جمع الصدقات منهم وتوزيعها على مستحقيها . وحسبها أن تأخذ من كل فرد فى كل عام مجموع ما يحسن به عادة فى ذلك العام فلا يكون بعد ذلك مأخوذاً بشىء من الاحسان أمام ربه وأمام أمته أكثر مما قدمه لهذا المجتمع

(ج) إنفاق ما يجتمع من المال على تربية اليتامى الذين لا كاسب لهم والقيام بأود العاجزين والعاجزات عن الكسب وتفقد شؤون الذين نكبهم الدهر وتنكر لهم بعد العز والنعمة وصيانة ماء وجوههم أن تُراقَ على تراب الاعتاب والانفاق على تعليم من يُتوسم فيهم الذكاء والفطنة ويرجى أن تنتفع بهم الامة فى مستقبلها من أبناء الفقراء . الى أمثال هذه الاعمال الخيرية الشريفة التى لا يتحقق الاحسان بدونها . ولا ينصرف معناه الا اليها

أنا أعتقد اعتقاداً لا ريب فيه أن من يخطو الخطوة الاولى فى سبيل هذا العمل الجليل ومن يضع الحجر الاول فى بناء مجتمع الاحسان . هو أفضل عامل فى الوجود وأشرف انسان

التماثيل

جاءنى هذا الكتاب من حضرة الكاتب الفاضل محرر جريدة ثمرات الفنون ببيروت وقد ناشدنى الله أن أنشره بنصه فلم أرَ بُدّاً من تلبية طلبه وها هو

سيدى المنشىء الفاضل

أحييك بتحية الاسلام . وأبثك الشكر والثناء على ما تزين به صدر المؤيد الاغر من أبكار الافكار . ونفائس الآثار . مما يتلقاه أبناء هذا الثغر بالارتياح والابتهاج حتى أننا حلينا جيدَ الثمرات . بعدة من هاتيك الدرارى اللامعات . فجزاك الله عنا جزاء الخادم لامته . المحب لوطنه . الغيور على دينه . وزادك همة ونشاطاً فى هذا السبيل سبيل الاصلاح والهداية

ما كتبت اليك هذه الكلمات بقصد الادلال على فضلك والاعتراف بخدمتك فان نفثات قلمك تدل على أنك من ذوى الاخلاق الفاضلة والنفوس الكبيرة الذين لا تغرهم أمثال هذه الزخارف الباطلة فضلا عن أنك غنى بنفسك عن كل مدح وثناء.

وانما كتبت اليك لألفت نظرك الكريم الى أمر كان له عندنا أرسيء فى نفوس المسلمين قاطبة وهو عزم المصريين على نصب تمثال لفقيد مصر مصطفى كامل باشا رحمه الله. كأن إخواننا المصريين أصبحوا أغنياء عن كل مشروع علمى أو أدبى أو اجتماعى فلم يبق بين أيديهم ما ينفقون فيه أموالهم إلا أمثال هذه المشاريع التافهة. أوكأنهم لا يعلمون أنها محرمة فى دينهم دين الاسلام. أوكأنه صار من المحتم اللازم علينا أن نقلد الاوربيين فى كل ما يعملون شبراً بشبر وذراعاً بذراع. حتى لو دخلوا كما قال عليه الصلاة والسلام جحر ضب لدخلناه. أو شربوا نخباً لشربناه. أوصنعوا صنماً لصنعناه. كل ذلك يدل أصرح دلالة على أن الجمود ما برح مستحكماً فينا لان التقليد الأعمى شأن العاجز الضعيف الذى لا يدرى بماذا فاقه القوى القادر فهو يقلده فى جميع حركاته وسكناته ظناً منه أنها سر قوته وقدرته

لو أقام المصريون لكل عامل بينهم تمثالاً لعادت مصر إلى عهدها الاول فى زمن الفراعنة حيث فى كل بقعة هيكل وتمثال. وظنى أن لو كان المرحوم مصطفى كامل باشا حياً لما رضى عن مشروع كهذا يمس الامة المصرية فى وطنيتها ودينها

فناشدتك الله ياسيدى أن تنشر كلماتى هذه بنصها على صفحات المؤيد الاغر فان اليراع عندنا مغلول. إلى درجة ألف معها الخمول. فلا حول ولا قوة إلا بالله »

محرر ثمرات الفنون
أحمد حسن طباره

هذا نص كتابه وقد كتبت اليه هذا الرد

حضرة الكاتب الفاضل

قرأت كتابك فهبت علىّ من بين سطوره نسمة شرقية تمر بى الساعات والايام والاشهر والاعوام فى مصر أرقب هبوبها فلا أجد اليها سبيلا

كتبتَ إليَّ كلمة كان في استطاعتك أن تكتبها في جريدتك ولكن حال بينك و بين ذلك ظنٌّ قام في نفسك أن اللسان في مصر أوسع مجالاً منه في بيروت وأنك واجدٌ في بلدنا مالا تجد في بلدك من حرية الفكر وسعة الصدر. وليتك تعلم ياسيدي أن كلمتك هذه لم يستطع أن ينطق بها في مصر غيرُ رجلين. فكان نصيب أحدهما السب. والآخر الضرب.

ليتك تعلم ذلك فلا تبالغ في حسن ظنك بحرية الأقلام في مصر فإنها حرية موهومة لا يغتر بها من يعرف حقيقة الحرية ومن يعتبرُها بنتائجها وآثارها. لا بزخارفها وتهاويلها

نعم لا توجد في مصر شكائم في أفواه الناطقين. ولا جوامعُ في أيدي الكاتبين. ولكنَّ محكمة الرأي العام فيها محكمة وجدانية. أكثر منها قانونية. فهي إما أن تبرئ المتهم فتعلو به إلى مدار الأفلاك. أو تدينه فتهوي به إلى مقر الأسماك.

إن كثيراً من عقلاء الرجال في مصر يتهيبون التصريح بالحقائق التي يعلمون أنها نافعة لأمتهم أكثر مما يتهيب الكتاب في سوريا من الشكائم والأغلال. ذلك لأن الرأي العام هنا متهور في مذاهبه ومراميه. ظالم في أحكامه. لم يخطُ إلى اليوم الخطوة الأولى في احترام الآراء وإجلال الأفكار وإنزالها المنازل التي تستحقها

إن منظر العقلاء في مصر منظر محزن مؤثر يبعث الرحمة. و يستمطر العبرة. إنهم يعالجون من العامة فوق ما يعالج طبيب البيمارستان من مرضاه. إنهم يعانون من مجاراة الجاهلين في جهالاتهم وكتمان الحقائق التي تغلي في صدورهم غليان الماء في المرجل ما يُرنق صفاء العيش و يشوه وجه الحياة. إنهم في حيرة لا يجدون إلى الخلاص منها سبيلا. إن نطقوا بكلمة إصلاح في الدين سماهم الجاهلون كفاراً. أو في السياسة سموهم خونة. وإن سكتوا أغضبوا الله وأغضبوا الحق. فهم بين هذا وذاك كهارب من سبع مفترس لا يجد بين يديه إلا لجة البحر. فالهلاك إن أحجم. والغرق إن أقدم.

ربما تقول إن الصحافة في مصر تملك زمام الرأي العام فكيف تعجز عن إيقاف تياره وكسر شرته وقيادته إلى رشده وهداه. والجواب على ذلك أن الصحافة المصرية ناقصة نقصاً كبيراً مشتملة على عيوب و رذائل لو تجردت عنها لبلغت الغاية التي تريدها من تعليم

الشعب وتهذيبه وتقويم المعوج من ميوله ومذاهبه

الكتاب فى مصر ثلاثة . جاهل لا يميز بين ما ينفع أمته وما يضرها . وعاقل يتهيب مصادرة الرأى العام فى مألوفاته ومعهوداته فيسكت مغلولا بأعلى أمره . ومنافق يعرف الحقيقة ويعبث بها . فمن أى واحد من هؤلاء الثلاثة تستفيد الامة رشدها وهداها

وأكبر هؤلاء الثلاثة جرماً . وأشدهم ضرراً . وأسوأهم أثراً . ذلك الكاتب المنافق الذى هو أشبه شىء بالنائحة التى تسدل على وجهها نقابا تتباكى من دونه لتستبكى اللواتى يردن البكاء من النساء . وما فى جفنها يعلم الله قطرة من الدمع ولا فى قلبها لاعج من الحزن . ولكن هكذا قدّر لها أن يجرى رزقها من بين العبرات والزفرات . وإن شئت فقل إنه كشاعر «القهوات» يسرد على السامعين قصص الوقائع والحروب بين الابطال الخياليين حتى يثير عواطفهم . ويهيج أحقادهم . فاذا ألقى الفتنة بينهم وضرب بعضهم ببعض خلص من بينهم الى منزله فرحاً مغتبطاً برنات الدراهم فى كيسه وقد ترك وراءه أولئك المساكين أسرى الهموم والاحزان . قتلى الضغائن والاحقاد .

الكاتب العاقل يخدم عواطف الامة بتنميتها وتهذيبها وتحويل تيارها إلى الخطة المثلى . أما الكاتب المنافق فانه يستخدمها لنفسه وإن أفسدها على صاحبها

ولقد دخلتُ مرة على كاتب فعتبت عليه فى أنه يكتب غير ما يعتقد ويقول غير ما يعلم . وقلت إن خطتك هذه مضرة بالامة التى أنت أحد قادتها . وإنك قد سلكت فى مذهبك هذا سبيلا ما كنا نعرفه لك قبل اليوم . فقد عهدناك تصدع بالحق لا تبالى أغضب الناس أم رضوا . وتجهر به وإن لم تجد آذاناً واعية أو صدراً رحيباً . فأطرق طويلا ثم رفع رأسه وأحسب أنى رأيت قطرة من الدمع تترقرق فى عينيه وقال . والله ما سلكت هذا السبيل وأنا أعلم أن فيه رضى الله أو رضى الحق ولكنى امرؤ لا أعرف لنفسى صناعة غير صناعة القلم قبحها الله وقبح كل ما تأتى به وكنت أحسبنى أستطيع أن أجمع فيها بين شرف النفس ورغد العيش . فخاب ما أملت . إذ رأيت نفسى كسفينة ماخرة فى بحر زاخر . من شعب قاصر . يطلب منى ما يلذه لا ما يفيده . ويتقاضانى ما يعجبه لا ما ينفعه . فطفقت أرتئى بين أن

أرضي الحقيقة فأهلك جوعا أو أرضي الامة فأعيش سعيداً . فغلبني حب الحياة على أمري . فلم أر بداً من الدخول على الامة من ذينك البابين المعروفين . باب الوطنية وباب الدين . فاصطنعتهما لنفسي بعدما كنت أصطنع نفسي لهما فرغد عيشي وحسن حالي وأصبحت لا يكدر على صفائي غير الاسف على الحقيقة الضائعة

هذه الامة المصرية أيها الكاتب الفاضل . وهذه صحافتها . وهذا مبلغ الرأي العام فيها . وهذا موقف العقلاء بين يديه . فهل تظن بعد ذلك أن كاتباً يستطيع أن يقول للأمة ما لا تهوى أو يجرأ على التصريح بحقيقة يعتقدها بين هذا الشعب الهائج وتلك الصحافة المتملقة .

إن كثيراً من عقلاء مصر ينكرون كما ننكر نصب تمثال للمرحوم مصطفى كامل باشا وإن كانوا ممن يعتقدون أنه يستحق الاجلال والاعظام . ويقولون إنه رجل مسلم شرقي والأمة التي تريد نصب تمثال له مسلمة شرقية كذلك . فاسلامها يحرم عليها نصب التماثيل وشرقيتها تنعى عليها هذا التسفل والاسفاف في تقليد الغربيين في جميع عاداتهم ومألوفاتهم وهم الذين يترفعون عن الاعتراف باستحسان شيء من عاداتنا وصفاتنا فضلاً عن الاخذ بها أو محاكاتها

إن نصب الغربيين التماثيل لنوابغ الرجال فلسفة تاريخية أرادوا بها تمثيل التاريخ اليوناني القديم وإنزال عظمائهم ونوابغهم منزلة الآلهة وأنصاف الآلهة في ذلك التاريخ . أي إنها عادة منحوتة من الديانات الوثنية . فهل يجمل بنا معشر المسلمين أمة محمد صلى الله عليه وسلم هادم الاصنام وكاسر الاوثان . أن نحفل بعادة هذا منشؤها وتلك غايتها . وأن نستقبل بصدر رحيب نصب التماثيل في بلد هي بقعة الاسلام . وباب البيت الحرام . ومهد الأزهر الشريف ومدفن الصحابة والتابعين . والأئمة المطهرين

أيجمل بنا أن نتخذ هذه العادات الوثنية في عصر ندعو فيه الى الاصلاح الديني ومحاربة العادات الخرافية الداخلة في الدين لنرجع به الى عصره الاول عصر السلف الصالح حيث لا يصلح آخره الا بما صلح به أوله

على أنه إن كان الغرض من نصب التمثال للرجل العظيم تخليد ذكره واستبقاء صورته

مرتسمة فى أذهان الاجيال المقبلة حتى لا تنساه فان جميع رجال الاسلام من علماء الدين الى علماء الفنون لا تزال محفوظةً بين الجوانح مآثرهم ومفاخرهم . مذكورة على الألسنة أسماؤهم وألقابهم . ولا نعرف لواحد منهم صورة مرسومة أو تمثالا قائما

إن كان فى أعمال الرجل وآثاره ما يضمن له بقاءَ ذكره فى صدور الاجيال ومستقبل القرون فلا حاجةَ به الى تمثال يخلد ذكره . أولاً فمن المغالطة التاريخية الاحتيالُ على بقاء ذكره بنصب تمثاله

إن المسلمين لم يألفوا حتى اليوم أن يعتبروا نصبَ التمثال للرجل عنوانا لعظمته أو جائزة أدبية يكافأ به على عمله . بمعنى انه لا يوجد فيهم من إذا رأى تمثالا قائما يقول ليتنى أنفع أمتى أو أخدم وطنى فيُنصَب لى بعد موتى تمثال كهذا التمثال . فاذاً لا يمكن أن يكون نصبُ التماثيل فى البلاد الاسلامية داعية الجد والاجتهاد فى الاعمال . أو باعثاً على التشبه بعظماء الرجال

ولو شئت لقلت إن للرجل العظيم بعد موته جلالا فى القلوب لا يذهب به الا نصب تمثاله على قارعة الطريق تحت نظرات الرجال والنساء والاطفال . والاذكياء والاغبياء . ومن يعرف قيمة الرجال . ومن يجهل فائدة التمثال . ومن لا يرى فرقا بينه و بين الصور الخشبية المنصوبة فى حوانيت التجار

وغاية ما يستنتجه السواد الاعظم عند رؤية تمثال لاحد عظماء الرجال معرفةُ صورته الظاهرية وأنه طويل أو قصير . ونحيف أو بدين . وهى اعتبارات لا يُعتدّ بها فى رجولة الرجل . ولا علاقة بينها و بين علمه وجهله . وذكائه وغباوته . وجبنه وشجاعته . وانما تظهر رجولة الرجل واضحة مفهومة حتى للبلداء والاغبياء فى ثمرات عقله . ونتائج أعماله . وفى مكرُمة يخلدها أو مدرسة يعمُرها . أو كتب يؤلفها . أو عقول يثقفها

هذه أيها الأخ الفاضل آراء كثير من عقلاء المسلمين فى مصر يتحدثون بها فى مجالسهم ولا ينشرونها فى الصحف مخافة أن تلتصق بهم تهمة الخيانة للوطن وهى الكلمة التى يتسلح بها الكتاب المنافقون فى مصر ليحاربوا بها كل من خالفهم فى رأيهم . أو نازعهم حرفتهم . كما

كان يصنع رجال « الاكليروس » فى العصور الوسطى فى استخدام تهمة الكفر للفتك بأعدائهم ، والانتقام من خصومهم . والله يعلم بالخيانة أين مكانها . وفى أى قلب مستقرها

أحسن أثر يقام لمصطفى كامل باشا أن تنشأ باسمه مدرسة تربى فيها الناشئة الحديثة على ما كان يحب الرجل أن يكون عليه النشء الحديث فى المعارف والاخلاق والآداب الدينية والمذاهب الوطنية وينتخب لها معلمون متدينون مخلصون لله والوطن يستطيعون أن يقدموا للأمة فى كل عام رجالا يكون كل واحد منهم صورة حية من صور الرجل وتمثالا أنفع من تماثيل البرنز والاحجار

هذا ما أراه أكتبه اليك وأملى ضعيف أن يحقق الله رجائى فيه ولكنها الحقيقة يجب أن تقال كما يجب أن تعلم والسلام عليك ورحمة الله

ادب المناظرة

أنا لا أقول الا ما أعتقد ولا أعتقد الا ما أسمع صداه من جوانب نفسى فربما خالفت الناس أو بعض الناس فى أشياء يعلمون منها غير ما أعلم . ومعذرتى اليهم فى ذلك أن الحق أولى بالمجاملة منهم وأن فى رأسى عقلا أجله عن أن أنزل به الى أن يكون سيقة (١) للعقول وريشة فى مهب الاغراض والاهواء

فهل يجمل بعد ذلك بأحد من الناس أن يرمينى بجارحة من القول أو صاعقة من الغضب لانى خالفت رأيه أو ذهبت غير مذهبه وأن يكون له من الحق فى حملى على مذهبه أكثر مما يكون لى من الحق فى حمله على مذهبى

لا بأس أن يؤيد الانسان مذهبه بالحجة والبرهان . ولا بأس أن يناقض أدلة خصمه ويزيفها بما يعتقد أنه مبطل لها . ولا ملامة عليه فى أن يتذرع بكل ما يعرف من الوسائل الى نشر الحقيقة التى يعتقدها إلا وسيلة واحدة لا أحبها له ولا أعتقد أنها تنفعه أو تغنى عنه شيئاً .

(١) السيقة ما يساق سوقا ومنه أنا ابن آدم سيقة يسوقه الله

وهى وسيلة الشتم والسباب

إن لأخلاص المتكلم تأثيراً عظيما فى قوة حجته وحلول كلامه المحلّ الاعظم من القلوب والافهام . والشاتم يعلم الناس جميعاً أنه غير مخلص فيما يقول . فعبثاً يحاول أن يحمل الناس على رأيه أو يقنعهم بصدقه وإن كان أصدقَ الصادقين

أندرى لمَ يسب الانسانُ مناظره . لانه جاهل وعاجز معاً . أما جهلهُ فلأنه يذهبُ فى وادٍ غير وادى مناظره وهو يظن أنه فى واديه . ولانه ينتقل من موضوع المناظرة الى النظر فى شؤون المناظر وأطواره كأن كل مبحث عنده مبحثٌ «فسيولوجى» . وأما عجزه فلأنه لو عرف الى مناظره سبيلا غيرَ هذا السبيل لسلكه وكفى نفسه مؤونة ازدراء الناس له وحماها من الدخول فى مأزق هو فيه من الخاسرين محقاً كان أو مبطلا

لا يجوز بحال من الاحوال أن يكون الغرضُ من المناظرة شيئاً غيرَ خدمة الحقيقة وتأييدها . وأحسبُ أن لو سلك الكتاب هذا المسلك لاتفقوا على مسائلَ كثيرة هم لا يزالون مختلفين فيها . وما اختلفوا فيها الا لأنهم فيما بينهم مختلفون . يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه و يعتقد أنها كلمةُ حق لا ريب فيها ولكنه يبغضه فيبغضُ الحق من أجله فينهضُ للرد عليه بحجج واهيةٍ وأساليبَ ضعيفةٍ وان كان هو قويا فى ذاته لان القلم لا يقوى الا اذا استمد من القلب فاذا عىّ بالحجج والبراهين لجأ الى المراوغة والمشاغبة . فيقول لمناظره مثلا إنك رجل جاهل لا يعتد بآرائك أو إنك رجل مضطرب الرأى لاثبات لك لانك تقول اليومَ غيرَ ما قلت بالامس . وهنالك يقول له الناس رويداً لا تخلط فى كلامك . ولا تراوغ فى مناظرتك . ولا شأن لك بعلم صاحبك أو جهله . فانه يقول شيئاً فان كان صحيحاً فسلم به أو باطلاً فبين لنا أوجه بطلانه وهبه قولا لا نعلم قائله . ولا شأن لك باضطراب القائل أو ثباته فربما كان بالامس على رأى تبين له خطؤه اليوم . والمرء يخطئ مرة و يصيب . فاذا ضاق بمناظره و بالناس ذرعاً فرّ الى أدنى الوسائل وأضعفها فسب مناظره وشتمه وذهب فى التمثيل به كل مذهب فيسجل على نفسه الفرار من الحرب والانخذال فى ذلك الميدان

على أن أكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه . فان لكل شئ جهتين .

جهة مدح وجهة ذم . فاما أن يتساويا أو تكبرَ إحداهما الاخرى . فان كان الاول فلا معنى للاختلاف . وان كان الثانى وجب على المختلفين أن يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق لا أن يكون كل منهما من سلسلة الخلاف فى طرفها

كان يقع بين ملك من الملوك و وزيره خلاف فى مسائل كثيرةٍ حتى يشتد النزاع وحتى لا يلين أحدهما لصاحبه فى طرف مما يخالفه فيه . فحضر حوارَهما أحد الحكماء فى ليلة وهما يتناظران فى المرأة . يعلو بها الملك الى مصاف الملائكة ويهبط بها الوزير الى منزلة الشياطين ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته . فلما علا صوتهما واشتد نزاعهما خرج ذلك الحكيمُ وغاب عن المجلس ساعة ثم عاد وبين أثوابه لوح على أحد وجهيه صورةُ فتاة حسناء . وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء . فقطع عليهما حديثهما وقال أحب أن اعرض عليكما هذه الصورة ليعطينى كل منكما رأيه فيها . ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسناء فامتدحها ورجع الى مكان الوزير وقد قلب اللوح خلسة من حيث لا يشعر واحد منهما بما يفعل وعرض عليه صورةَ العجوز الشمطاء فاستعاذ بالله من رؤيتها وأخذ يذمها ذماً قبيحاً . فهاج غيظُ الملك على الوزير وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق وقد ظن أنه يذم الصورةَ التى رآها ، فلما عادا إلى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد تعرض لهما الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه فسكن ثائرهما وضحكا كثيرا . ثم قال لهما هذا الذى أنتم فيه منذ الليلة . وما أحضرت اليكم هذا الرسم إلا لأضرب به لكم مثلا لِتعلما أنكما متفقان فى جميع ما كنتما تختلفان فيه لو أن كلا منكما ينظر إلى المسائل المختلف فيها من جهتيها . فشكرا له همته وأثنيا على فضل حكمته . وانتفعا بحيلته حتى ما كانا يختلفان بعد ذلك الا قليلا

الاحسان فى الزواج

وردإلىَّ فى البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع

حضرة السيد الفاضل

ضمني وجماعةً من الاصدقاء مجلس جرى فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا فأخذته الرأفة بها فتزوجها وكان القوم ما بين مستحسن لهذا العمل ومستهجن له وطالت مدةُ الجدل ساعات ولم يستطع أحد الفريقين أن يُقنع الآخر برأيه فاتفق رأينا جميعاً على أن نكتب اليك بذلك عساك أن تمنحنا نظرة من نظراتك الصادقة والسلام

ف . س

أيها السائل الكريم

إن كان باعثُ الرجل إلى الزواج بهذه البغيّ شهوةً يريد قضاءها من امرأة يعشقها ولا يرى له سبيلاً إلى طول استمتاعه بها والاستئثار بحظه منها إلا سبيل الزواج كما هو شأن أكثر الذين يتزوجون البغايا فقد أخطأ خطأ جماً لان من كان هذا شأنه لا يَعنيه إلا ذاتُ نفسه ولا يَشغَله من شؤون هذه المرأة إلا الشأنُ الذي يرتبط بشهوته . و يلتصق بلذته . وآيةَ ذلك أنه لا ينظر فى إصلاح قلبها . ولا يحاول أن ينزع من بين جنبيها ملكةَ الفساد الراسخةُ فى نفسها . ولا يداخلها مُداخلةَ المؤدّب المهذب الذى يصور فى نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشمئز لها . بل لا يكفيها مُؤنة العيش ولا يرفِّهها ولا يقلّبها فى الرغد والنعمة إلا إذا شعَر بأن فى قلبه بقيةً من الوجد والشغف بها . فاذا أقفر قلبه من حبها وعلم أن فراقها لا يَهيج له وجداً . و رجوعها إلى عيشها السالف لا يثير منه غيرة . فارقها فراقاً هادئاً مطمئناً لا يمازجه حزن على فسادها . ولا يخالطه أسف على سقوطها . وهنالك تعود تلك المرأة إلى عُشّها الذى طارت منه وقد أمسكت بين جوانحها من الحقد والموجدة على معيشة الصلاح والاستقامة ما الله عالم به

فالرجل الذى يتزوج من البغيّ قضاء لشهوته و إيثاراً للذته . لا ينفعها ولا يحسن اليها . لانه لا يهذب نفسها . ولا يفي لها بما عاهدها عليه من البقاء معها . والاستمرار على عشرتها . بل يسيء اليها بسوء تصرفه معها فيبغّض اليها الصلاح و يحبب اليها الفساد . وعندى أنه فى عمله هذا فاسق لا متزوج . لانه لولم يرَ أن فى الزواج وسيلةً من وسائل الاستئثار والتوسع فى الاستمتاع ما سمى الأجر مهراً ولا المتعةَ عقداً

فان كان حقاً ما تقولُ من أن باعثه إلى ذلك الرحمةُ والرأفة والحنان والشفقة فقد أحسن كل الاحسان . ولا أحسب أن بين أعماله الصالحة عملاً هو أفضل عند الله ذخراً . وأعظم أجراً . من هذا العمل الصالح

العِرض أثمن من الحياة فان كان من يمنح الحياةَ فاقدَها شريفاً فأشرفُ منـه من يردّ العرض الضال إلى صاحبه المفجوع فيه

ليت الرجالَ يتفقون جميعاً على أن يستنقذوا بهذه الوسيلةِ الشريفة كل امرأة ساقها فقرُها وعُدمها أو فقد عائلها إلى البِغاء . بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قبل أن تضيق بهنَّ حلقات العيش فيسقطن

لم َلا يكون باباً من أبواب الاحسان أن يتفقدَ المحسنون من الرجال الفقيرات ِ من النساء فيتزوجوا منهن أو يُزوجوهن من أولادهم أو أقربائهم وإن لم يكنّ من ذوات الجمال أو ذوات النسب ِ لانه إحسان والاحسان لا يجمُل إلا إذا أصاب موضعَه من الشدة ومكانَه من الشقاء

لو عَرف المحسنون معنى الاحسان لعرفوا أن إنفاق الاموال على بناء التكايا والزوايا وتوزيعه على المتسولين والمتكففين ووقفه على القارئين والذاكرين لا يدّخر لهم من المثوبة والاجر عند الله ما يدخره لهم الاحسان إلى النساء . بالعصمة من البِغاء .

البِغاء للبغى شقاء ما جناه عليها إلا الرجل . فجدير به أن يَغرم ما أتلفَ ويُصلح ما أفسد يَهجُم الرجل على المرأة و يعِـدُها ويمنيها ما شاء الله أن يعـدّه من وعد كاذب . وقول خالب . وسحر جاذب . حتى إذا خدعها عن نفسها . وغلبها على أمرها . وسلبها أثمنَ ما تملك يدُها . نفض يده منها وفارقها فراقاً لا لقاء بينهما من بعده

هنالك تجلس فى كسر بيتها جلسة الكئيب الحزين مسبلةً دمعها على خدها . مسندة رأسها بكفها . تقلى أناملها التراب . لا تدرى أين تذهب . ولا ماذا تصنع . ولا كيف تعيش تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها لان الرجل يسميها ساقطة . وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنهُ منه . لان الرجل أهمل شأنها فلم يعلمها من العلم

ما تستعين به على ضائقة العيش . وتطلبه من طريق التسول فلا تجده . لان الرجل يؤثر أن يمنحها القنطار حراماً . على أن يمنحها الدرهم حلالاً . فلا تجد لها بداً من أن تطلبه من طريق البغاء

فها أنت ذا ترى أن شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات المحزنة . وأن الرجل هو الذي يمثل جميع أدوارها . ويظهر في كل فصل من فصولها . ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل فانا لا نزال نعتقد أن الرجل غريم المرأة وأن حقاً عليه أن يؤدي دينه ويغرم أرش (١) جنايته .

إن أبى الرجل أن يتزوج المرأة بغياً فليحل بينها وبين البغاء . ولا سبيل له إلى ذلك إلا إذا اعتبر الزواج باباً من أبواب الاحسان . أي انه يتزوجها لها أكثر مما يتزوجها لنفسه . وأحق النساء بالاحسان أولئك اللواتي لم يرزقهن الله الجمال والمال ، والحسب والنسب . فان أبى إلا أن يتزوج المرأة السعيدة فليعلم أنه هو الذي أخذ الشقية من يدها . وساقها بنفسه إلى قرارة الشقاء . ورماها بيده في هوة الفسق والبغاء

لاهمجية في الاسلام (٢)

أيها المسلمون : إن كنتم تعتقدون أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين إلا ليموتوا ذبحاً بالسيوف . وقصفاً بالرماح . وحرقاً بالنيران . فقد أسأتم بربكم ظناً . وأنكرتم عليه حكمته في أفعاله . وتدبيره شؤونه وأعماله . وأنزلتموه منزلة العابث اللاعب الذي يبني البناء ليهدمه . ويزرع الزرع ليحرقه . ويخيط الثوب ليمزقه . وينظم العقد ليبدده

لم يزل الله سبحانه وتعالى منذ كان الانسان نطفة في رحم أمه يتعهده بعطفه وحنانه . ويمده برحمته وإحسانه . ويرسل اليه في ذلك السجن المظلم الهواء من منافذه . والغذاء من

(١) الارش دية الجراحات (٢) كتبت لمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين في ولاية اطنه من ولايات الدولة العثمانية وقتلهم اياهم وتمثيلهم بهم في عام ١٩٠٩

محاربه . ويذود عنه آفاتِ الحياة وغوائلها نطفةً فعلقة فمضغة فجنيناً فبشراً سوياً

إنّ إلهاً هذا شأنه مع عبده وهذه رحمته به وإحسانه اليه محال عليه أن يأمر بسلبه الروحَ التي وهبه إياها أو يرضى بسفك دمه الذي أمده به ليجرى فى عروقه وشرايينه . لا بينَ تلال الرمال . وفوق شِعاف الجبال .

فى أى كتاب من كتب الله وفى أى سنة من سنن أنبيائه ورسله قرأتم جواز أنْ يعمِد الرجلُ إلى الرجل الآمن فى سربه . القابع فى كسر بيته . فينتزعَ نفسه من بين جنبيه . ويفجعَ فيه أهله وقومه . لأنه لا يدين بدينه . ولا يذهب مذهبه .

لو جاز لكل انسان أن يقتل كل من يخالفه فى رأيه ومذهبه لأقفرت البلاد من ساكنيها وأصبح ظهرُ الارض أعرَى من سراة أديم

إن وجود الاختلاف بين الناس فى المذاهب والاديان والطبائع والغرائز سنة من سنن الكون التى لا يَمكن تحويلها ولا تبديلها . حتى لو لم يبقَ على ظهر الارض إلا رجل واحد لجرد من نفسه رجلا آخر يخاصمه وينازعه . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة

إن الحياة فى هذا العالم كالحرارة لا تنتج إلا من التحاكّ بين جسمين مختلفين . فمحاولة توحيد المذاهب والاديان محاولة القضاء على هذا العالم وسلبه روحَه ونظامَه

أيها المسلمون : ليس ما كان يجرى فى صدر الاسلام من محاربة المسلمين للمسيحيين مراداً به التشفى والانتقامُ منهم . أو القضاء عليهم . وانما كان لحمايةِ الدعوة الاسلامية أن يعترضها فى طريقها مُعترض أو يحول بينها وبين انتشارها فى مشارق الارض ومغاربها حائل . أى ان القتال كان ذوْداً ودفاعاً . لا تشفياً وانتقاماً

وآية ذلك أن السريّة من الجيش ما كانت تخطو خطوة واحدة فى سبيلها الذى تذهب اليه حتى يصل اليها أمر الخليفة القائم أن لا تزعج الرهبان فى أديرتهم . والقسيسين فى صوامعهم . وأن لا تحاربَ إلا من يقاومها . ولا تقاتلَ الا من يقفُ فى سبيلها . ولقد كان أحرى أن تُسفك دماء رؤساء الدين المسيحى وتُسلبَ أرواحهم لو أن غرض المسلمين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم والقضاء عليهم

لو أنكم قضيتم على كل من يتدين بدين غير دينكم حتى أصبحت رقعة الأرض خالصة لكم لانقسمتم على أنفسكم مذاهب وشيعاً وقاتلكم على مذاهبكم تقاتل أرباب الاديان على أديانهم . وهكذا حتى لا يبقى على وجه الارض مذهب ولا متمذهب

أيها المسلمون : ما جاء الاسلام الا ليقضي على مثل هذه الهمجية والوحشية التي تزعمون أنها الاسلام

ما جاء الاسلام الا ليستل من القلوب أضغانها وأحقادها ثم يملؤها بعد ذلك حكمة ورحمة ليعيش الناس في سعادة وهناء . وما هذه القطرات من الدماء التي أراقها في هذا السبيل الا بمثابة البضع العضوي الذي يتذرع به الطبيب الى شفاء المريض

عذرتكم لو أن هؤلاء الذين تريقون دماءهم في الاناضول كانوا ظالمين لكم في شأن من شؤون حياتكم . أو ذاهبين في معاشرتكم والكون معكم مذاهب سوء تخافون مغبتها . وتخشون عاقبتها . أمّا والقوم في ظلالكم والكون تحت أجنحتكم أضعف من أن يعدوا اليكم بسوء أو يبتدروكم ببادرة شر فلا عذر لكم

عذرتكم بعض العذر لو لم تقتلوا الاطفال الذين لا يسألهم الله عن دين ولا مذهب قبل أن يبلغوا سن الحلم . والنساء الضعيفات اللواتي لا يحسن في هذه الحياة أخذاً ولا رداً . والشيوخ الزاحفين الى القبور قبل أن تزحفوا اليهم وتتعجلوا قضاء الله فيهم

أمّا وقد أخذتم البريء بجريرة المذنب فأنتم مجرمون لا مجاهدون . وسفاكون لا محاربون

من أي صخرة من الصخور وهضبة من هضبات الجبال نحتتم هذه القلوب التي تنطوي عليها جوانحكم والتي لا تروعها أنات الثكالى . ولا تحركها رنات الايامى

من أي نوع من أنواع الاحجار صيغت هذه العيون التي تستطيعون أن تروا بها منظر الطفل الصغير والنار تأكل أطرافه وتمشي في أحشائه و بين جوانحه فتصرخ أمه وأمه عاجزة عن معونته لان النار لم تترك لها يداً تحركها . ولا قدماً تمشي عليها

لا أستطيع أن أهنئكم بهذا الظفر والانتصار لاني أعتقد أن قتل الضعفاء جبن وعجز .

ولؤم ودناءة . وأنّ سفكَ الدماء بغير ذنب ولا جريرة وحشيةٌ وهمجية أحرى أن يُعزَى صاحبها عنها . لا أن يُهنأ عليها

أيها المسلمون : اقتلوا المسيحيين ما شئتم وشاءت لكم شراستكم و وحشيتكم . ولكن حذار أن تذكروا اسم الله على هذه الذبائح البشرية فالله سبحانه وتعالى أجلُّ من أن يأمرَ بقتل الابرياء . أو يرضى باستضعاف الضعفاء . فهو أحكم الحاكمين . وأرحم الراحمين

البخيل

سألني سائل ماذا يستفيد الانسان من بخله حتى على نفسه وأيُّ غرض يرمي اليه من ذلك فأجبته بهذا الجواب

البخلُ إحدى الملكات النفسية . والملكة صفة راسخة في النفس تصدر عنها آثارها عفواً بدون روية ولا اختيار . فكما لا يُسأل المسرف عن سبب إسرافه . والغاضبُ عن غايته من غضبه . والحاسد عن غرضه من حسده . كذلك لا يُسألُ البخيل عما يستفيده من بخله وحرصه . فكثيراً ما تعرض لارباب هذه الملكاتِ عوارضُ تنزع بهم الى الرغبة عن التخلي عنها حيناً فلا يجدون الى ذلك سبيلا لمكان تلك الملكات من نفوسهم ونزولها منها منزلة لا تزعجها الرغبات . ولا تزعزعها الارادات . وربما عرَض للبخيل ما يدفعه الى بذل شيء من ماله فاذا وضع يده في كيسه وحاول القبض على شيء مما فيه أحس بتيار كهربائي قد سرى من نفسه الى يده فتشنجت أعصابُها وأعيَت أناملُها على الالتواء والانثناء فأخرجها صفراً كما أدخلها و بوده أن لا يفعلَ لولا أن للغريزة قوةً فوق قوة الارادة وسلطانا تخضع له الرغبات وتنقاد اليه العقول الا اذا كان وراءها وازع من القانون يزعها فانه يكسر شِرَّتها أحيانا . و إن لم ينتزعها انتزاعا

ويحكى أن شحيحاً تحركت في قلبه يوماً الشفقة على ابنته الجائعة العارية فأراد نفسه على أن يبذل لها شيأ من ماله فتأبَّت عليه فأذن لوكيله أن يختلس لها من ماله ما يسدُّ خلتها

من حيث لا يعلمه بذلك ولا يدعه بتنبه لشيء منه علماً بأنه لا يستطيع أن يكون كما يريد

فالوجه في السؤال أن يقال ما هي الاسباب التي غرست ملكة البخل في نفس البخيل فيكون الجواب عن ذلك أن الأسباب تختلف باختلاف الاشخاص البخلاء وأطوارهم وأخلاقهم وتربيتهم . ونحن نذكر أهم تلك الاسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها واجتماع ما يجتمع

الاول — الوراثة — وهي وان كانت سبباً ضعيفاً لما يعرض للاخلاق الموروثة أحيانا من التغير والانقلاب بمعاشرة المتصفين بأضدادها والتأثر بمخالطتهم الا أنها كثيراً ما تنمو وتتجسم اذا أغفلت ولم يعترضها ما يسد سبيلها ويقف في طريق نمائها

الثاني — التربية — إذا نشأ الطفل بين أهل أشحاء ولم يكن في فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه أخذ إخذهم في الحرص وتخلق فيه بأخلاقهم كما يتخلق بها في العقائد والعادات من حيث لا يفكر في استحسان أو استهجان كما هي عدوى الامراض التي تسري الى الانسان من حيث لا يدري بها ولا يشعر بسريانها . ويحكى أن رجلا دخل منزلا يعرف أهله بالشح والحرص فرأى طفلا صغيراً في يده ليمونة صغيرة فسأله إياها فأجابه الطفل « إن يدك لا تسعها »

الثالث — سوء الظن بالله — ذلك أن المتدين اذا أخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ في قلبه الايمان بأن الله سبحانه وتعالى عيناً ساهرة على عباده الضعفاء فهو أرحم من أن يغفل شأنهم ويكلهم الى أنفسهم ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الايام . فلا يلج به الحرص على الجمع . ولا يزعجه الخوف من البذل . وعلى العكس منه ضعيف الايمان ضعيف الثقة بواهب الارزاق ومقسم الحظوظ والجدود فهو لسوء ظنه به لا يزال الخوف من الفقر نصب عينيه حتى يصير البخل ملكة راسخة فيه

الرابع — النكبات — كثيراً ما تحل بالانسان نكبات تصهر قلبه وتزعج غريزته عن مستقرها . ومن ذلك النكبات التي يكون مرجعها قلة المال كأن يقع الرجل في خصومة يرى أنه لولا ضيق ذات يده لما وقع فيها فلا يكون له فكر بعد ذلك الا في التوقي

من الوقوع فى أمثالها . فكلما تمثلت له نكبته لج به الحرص وأغرق فى المنع حتى يصير ذلك غريزة فيه وخلقاً له . ومن ذلك جديد النعمة الذى ذاق مرارة الفقر برهة من الزمان وتجسمت آلامه فى نظره فانه مهما حسنت حاله وأقبلت عليه الدنيا بوجهها وفاضت خزائنه بالذهب لا تذهب من فمه تلك المرارة ولا تضيع من ذاكرته آلامها فلا يزال يملك قلبه وسواس مقلق يخيل اليه ما لا يتخيل ويريه ما لا يرى كمن تمثل له خيال الشيطان مرة فى أبشع صورة وأفظع شكل فهاله منظره وذهب الخوف الشديد برشده وطار بطائر عقله فلا يزال يراه فى كل مكان وزمان . وفى حالتى الأمن والخوف . والوحشة والأنس

الخامس — اللؤم — فان النفس إذا خبثت طينتها ولؤم طبعها كان من أخص صفاتها الحقد على الوجود بأجمعه وبغض الخير للناس قاطبة فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألماً على ألم وحسرة فوق حسرة . وهو لو استطاع أن يكف عنهم سارية السماء ويعترض دونهم نابتة الارض لفعل

السادس — سقوط الهمة — اذا نشأ الانسان عالى الهمة طموحا الى المعالى محباً للذكر الحسن والثناء الجميل سهل عليه أن يبذل فى سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده أو ذات نفسه . وحب المجد أسال الذهب من خزائن الاغنياء . وصير نفوس الشجعان نهباً مقسماً بين شفرات السيوف وأسنة الرماح طلباً لسعادة الحياة بالذكر وسعادة الممات بالخلود . فمن لساقط الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه الى بذل المال على مكانته من قلبه وامتزاج حبه به . أيدفعه حب الثناء وهو لا يشعر بلذته . أم خوف المذمة وهو لا يتألم منها ولا يذوق مرارتها . أم سعادة الحياة وسعادة الممات وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما اقنع على لسان الحطيئة من المكارم بلقمة يمضغها . وحلة يلبسها

السابع — فساد المجتمع الانسانى — ذلك أن كثيراً من الناس قد بلغ بهم حب المال والتعبد له أن صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة يرجونها أو خير يطمعون فيه بل لانه ذو مال وذو المال فى نظرهم أحق الناس بالمحبة والاخلاص والاجلال والاعظام وان لم يحصلوا منه على طائل . فلو أنهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهذا النوع من العبادة ساعة واحدة لاصبحوا

من عباده المقربين . فمن ذا الذي لا يحب من البخلاء أن ينال هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه وبينها الا الحرصُ الذي لا يتكلفه ولا يتعمّل له والذي هو أشهى الاشياء اليه وأكثرُها ملاءمة لفطرته ليزدادَ شرفاً وعزاً . كلما ازداد بالحرص ثراءً ووفراً . ومن هنا قال أحد البخلاء لاولاده يا بَنيّ لأن يعلمَ الناس أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظمُ له في أعينهم من أن يقسمها فيهم . وقال رجل لآخر يا بخيلُ فقال له لا أحرمني الله بركةَ هذا الاسم فاني لا أكون بخيلاً الا اذا كنتُ غنياً فسمِّ لي المالَ ولقبني بما تشاء

هذه هي أهم الاسباب التي تألفت منها رذيلةُ البخل فان أغفلْنا النظرَ اليها وسلمنا للسائل صحةَ سؤاله عما يستفيده البخيل من بخله حتى على نفسه وفرضنا البخيل مختاراً فيما يفعل غيرَ مساق الى هذا المورد الوبيل بسائق الغريزة الفاسدة كان منالُ النجم أقربَ من تطبيق حاله على قاعدة من قواعد العقل لان الله تعالى خلق الانسان وركب فيه رغبات وشهوات مختلفةً بعضها نفسيٌ . والآخر جسديٌ . فهو لا يزال يتطلبها مالم يعجز عنها . فصاحب المال الكثير الذي يقنع بالشَملة والمَضغة . والجَرعة والظُلة . ويحمل في كل لحظة أشد الآلام من مقاومة نزوات نفسه الى ميولها ورغباتها . لا يمكن أن يحمل حالهُ على محمل العجز لأنه قادر . ولا على الزهد لانه ما زهد فيما لا ينفع فيزهدَ فيما ينفع . ولا على الخوف من الفقر لان عنده من المال ما يُفني الاعمار فهيهات أن يُفنيه عمر واحد . ولا على الرغبة في سعادة الذرية لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته في أن يراه شريكاله في سعادته . فأما أن يشقى هو في حياته . ليسعدَ ولده بعد مماته . فمما لا يقبله العقل ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم . فلم يبقَ لنا الا أن نتوسلَ الى علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسع في تفسير معنى الجنون حتى لا يكونَ مقصوراً على المعربدين والهاذين . بل يكون شاملا للعابثين . الذين لا يدرون ما يأخذون وما يتركون . والذين يجلبون لانفسهم بارادتهم واختيارهم آلاماً نفسية هي أشد مما يجلبه المجانين على أنفسهم بمناطحة الجدران . ومطاردة الصبيان . كما نتوسل الى علماء الشرائع أن يضعوا قانوناً لاستخراج المال من خزائن المقترين . كما وضعوا قانوناً لحفظ المال في صناديق المبذرين . فان تبذيرَ المال يضر قوماً وينفع أقواماً . أما منعهُ

فيضر صاحبه ويضر معه الناسَ أجمعين

البعوض والانسان

اضطجعت ليلةَ أمس فى فراشى على وسادتى وعلّقت قلمى بين أصابعى وأنشأت أفكر فى الموضوع الذى يجمل بى أن أكتب فيه . وتلك عادتى التى يعرفها عنى كثير من خلطائى وعشرائى أننى لا أميل الى الكتابة فى بياض النهار ولا أحب أن أخط حرفا على قرطاس إلا اذا كنت بين الوطاء والغطاء

ولا يظن المتفلسفون فى اكتناه الحقائق والمولعون بالصناعة اللفظية . والانواع البديعية . أننى أريد بذلك مراعاةَ النظير بين سواد المداد وسواد الظلام . أو أننى أرقب طلوع النجم لاُتسلقَ أشعته الى سماء الخيال . فكلُّ ذلك لم يكن . وليس فى الناس من هو أدرى بدخيلة نفسى منى . وكل ما فى المسئلة أن هذه عادتى . وتلك حكايتى . وكنى

لم أكد أفرغ من التفكير فى الموضوع حتى شعرت بطنين البعوض فى أذنى ثم أحسست بلذعاته فى يدى فتفرق من ذهنى ما كان مجتمعاً . وتجمع من همى ما كان مفترقا . ولم أر بداً من إلقاء القلم وإعداد العُدّة لمقاومة هذا الزائر الثقيل

طاردته بالمذبّة فما أجدى ذلك نفعاً لانه على الطيران أقوى من يمينى على المطاردة . وفتحتُ النوافذ لأُخرجَ ما كان داخلا . فدخل ما كان خارجا . وحاولتُ قتله فوجدته متفرقا . ولو كان مجتمعاً فى دائرة واحدة لانقرض نسله جميعاً بضربة واحدة . ولم أرَ فى حياتى أمة ينفعها تفرقها ويؤذيها تجمعها غيرَ أمة البعوض . فما أضعفَ هذا الانسانَ وما أضلّ عقله فى اغتراره بقوّته . واعتداده بنفسه . واعتقاده أن فى يده زمامَ الكائنات يُصرّفها كيف شاء . ويدبّرها كما هوى . وأنه لو أراد أن يذهب بنظام هذا الوجود ويأتىَ له بنظام جديد لما كان بينه وبين ذلك إلا أن يُرسل أشعة عقله . ويستحث عزيمته . ويقتدح فكرته .

يزعم ذلك وهو يعلم أنه أضعف من أن يحتال لنفسه فى مدافعة أصغر الحيوان جسماً وعقلاً . وأدناها قيمة وشأناً . بيد أنه يعلم ذلك بلسانه وفى فلتات وهمه . ولو علمه علماً يتغلغل فى نفسه . ويتمثل فى سويداء قلبه . لكفكف من غلوائه . وخفض من كبريائه . وعلم علم اليقين أن الانسان العاقل والحيوان الملهم والنبات النامى والجماد الجامد سواء بين يدى القوة الغيبية الكبرى التى لا ينفع معها حول ولا قوة

علمت أنى عييت بأمر هذا الحيوان فلذت بجانب الصبر . والصبر كما يعلم إخواننا الصابرون حجة العاجز . وحيلة الضعيف . وأيسر ما يستطيع أن يدفع به دافع عن نفسه ملامة اللائمين . وفضول المتطفلين . وقلت فى نفسى لو كان البعوض يفهم ما أقول لقصصت عليه قصتى . وشرحت له عذرى . وسألته أن يمنحنى ساعة واحدة أقوم فيها بكتابة رسالتى هذه ثم هو بعد ذلك فى حل من جسمى ودمى ينزل حيث يشاء . ويمتص ما يشاء . ولكنه ويا للأسف لا يسمع شكاتى ولا يرحم ضراعتى ولا يفهم معنى الرحمة ولا يعرف قيمة المروءة لانه ليس بانسان

أحسب أن لذعات البعوض قد أخذت مأخذها من عقلى وفهمى وأنى قد بدأت أهذى هذيان المحموم فمن أين لى أن لو كان البعوض إنساناً كان يسمع شكاتى . ويكشف ظلامتى . أو يفهم معنى الرحمة . ويعرف قيمة المروءة . ومتى كان الانسان أحسن حالاً من البعوض وأرحم قلباً وأشرف غاية فأتمنى أن لو كان مكانه . بل من أين لى أن هذا الذى أحسبه بعوضاً ليس بانسان تقمص البعوض وتمثل لى فى جسمه الصغير وجناحه الرقيق . وأى غرابة فى أن أتخيل ذلك التقمص ما دام الانسان والبعوض سواء فى حب الشر . والميل الى الاذى . وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها فى جانب الأعراض الذاتية . والصفات المقومة للماهية

أى قيمة لما يمتصه البعوض مجتمعاً من جسم الانسان فى جانب ما يمتصه القاتل منفرداً من جسم المقتول

إن البعوض فى امتصاصه الدم من الجسم أقل من القاتل ضرراً وأشرف غاية وأجمل

مقصداً . لانه إن آذى الجسم فقد أبقى على الحياة . ولانه يطلب عيشه وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف سواه . ولا يستطيع أن يدبر لنفسه غيره . ولو استطاع لعافت نفسه أن يكون كالانسان يتطوع للشر . ويتعبد بالضر

إني وجدت بين الانسان والبعوض شبهاً قريباً في صفات كثيرة أنا ذاكر لك طرفاً منها وتارك لفطنتك الباقي

البعوض يمتص من الدم فوق ما يستطيع احتماله . فلا يزال يشرب حتى يمتلئ فينفجر . فهو يطلب الحياة من طريق الموت . ويبحث عن ضالة النجاة في مكامن الهلاك . وهو أشبه شيء بشارب الخمر يتناول الكأس الاولى لانه يرى فيها وجه سروره وصورة سعادته . فتطمعه الاولى في الثانية . والثانية في الثالثة . ثم لا يزال يلح بالشراب على نفسه حتى يتلفها ويودي بها من حيث يظن أنه ينعشها ويجلب اليها سرورها وهناءها

البعوض سيء التصرف في طلب العيش لانه لا يسقط على الجسم الا بعد أن يدل على نفسه بطنينه وضوضائه . فيأخذ الجالس منه حذره ويدفعه عن مطلبه أو يقتله قبل البلوغ اليه . فمثله في ذلك مثل أصحاب المطالب السياسية من المصريين يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولامتهم غير أنهم لا يكتمونها ولا يحسنون الاحتفاظ بها في صدورهم فلا يبتغون الوسيلة اليها إلا بين الصراخ والضجيج . ولا يمسكون بالحلقة الاولى من سلسلتها حتى يملأوا الخافقين بذكرها . ويشهدوا الملأ الأعلى والأدنى عليها . وهنالك يدرك عدوهم مقاصدهم فيعد لها عدتها ويلتمس وجه الحيلة في إفسادها عليهم هادئاً ساكناً من حيث لا يشعرون

البعوض خفيف في وطأته . ثقيل في لدغته . فهو كذلك الصاحب الذي يسرك منظره . ويسوءك مخبره . يلقاك بابتسامة هي العذب الزلال . عذوبة وصفاء . والسحر الحلال . جمالا وبهاء . وبين جنبيه في مكان القلب صخرة لا تنفذها أشعة الحب . ولا يتسرب اليها ماء الوفاء . يقول لك إني أحبك ليملك على قلبك . ويملك عليك نفسك . فان تم له ما أراد سلبك مالك إن كنت من ذوي المال . أو استخدم جاهك

إن كنت من ذوى الجاه . فان لم تكن هذا ولا ذاك أغراك بالسير فى طريق يُسقط مُروءتك ويَثلِم شرفك . فان فاته ما يَشفى به داء بطنته . لا يفوته ما يطفئ به نار حقده وحسده

لا يزال البعوض مُلحًّا فى مُهاجمتى . ولا أزال عاجزاً عن كتابة سطر واحد من رسالتى . والسلام

الجزع

يا صاحب النظرات

لى صديق سقط فى امتحان (البكالوريا) هذه السنة فأثّر فيه ذلك السقوط تأثيراً كبيراً فهو لا ينفك باكياً متألماً حتى أصبحنا نخاف عليه الجنون . وكلما عزيناه عن مصابه يقول كيف أستطيع معاشرة إخوانى ومعارفى وكيف أستطيع مقابلة والدى وأهلى فهل لك أيها السيد أن تعالج نفسه بنظرة من نظراتك التى طالما عالجت بها قلوب المحزونين ؟

حقوقى

ليست المسئلة مسئلة صديقك وحده بل مسئلة الساقطين أجمعين . فان المرء لا يكاد يتناول نظره منهم فى هذه الايام إلا وجوهاً قد نسج الحزن عليها غبرة سوداء . وجفوناً تحار فيها مدامعها حيرة الزئبق الرجراج . حتى ليخيّل اليك أن نازلةً من نوازل القضاء نزلت بهم فزلزلت أقدامهم . أو فاجعة من فواجع الدهر دارت عليهم دائرتها فأثكلتهم ذخائر نفوسهم . وجواهر عقولهم . وأقامت بينهم و بين سعادة العيش وهنائه سداً لا تنفذه المعاول . ولا تنال من أيده الزلازل

خفّض عليك قليلاً أيها الطالب فالأمر أهون مما تظن وأصغر مما تقدّر . واعلم وما أحسبك إلا عالماً أنك لم تسقط من قمة جبل شامخ الى سفح متحجر فتبكى على شظيّة طارت من شظايا رأسك . أودم مسفوح تدفق من بين لحييك

إنك قد سعيت الى غرض فان كنت هيأت له أسبابه . وأعددت له عدته . و بذلت له

من ذات نفسك ما يبذل مثله الباذلون فى مثله . فقد أعذرتَ الى الله والى الناس والى نفسك فحرى بك أن لا تحزنَ على مصاب لم يكن أثراً من آثار يديك . ولا جناية من جنايات نفسك عليك . وإن كنت قصرت فى تلمس أسبابه . ومشيت فى سبيله مِشية الظالع المتقاعس . فما حزنُك على فوات غرض كان جديراً بك أن تترقبَ فواتهُ قبلَ وقت فواته . وما بكاؤك على مصاب كان خيراً لك أن تعلم وقوعَه قبل يومِ وقوعه

مالك تبكى بكاء الواثق بمواتاة الايام ومطاوعة الاقدار فهل تستطيع أن تُبرز لنا صورة العهد الذى أخذتَه على الدهر أن يكون لك كما تحب وتشتهى وعلى الفلك أن لا يدور إلاَّ بسعدك . ولا يجرى َإلا بجَدك . وعلى القلم أن لا يكتب فى لوحه الا ما دللته عليه . وأوحيت به اليه .

لا تجعل لليأس سبيلا الى نفسك فلعل الأمل يعوض عليك فى غدك ما خسرتَ فى أمسك . وامض لشأنك ولا تلتفت الى ما وراءك . فان تم لك فى عامك المقبل من طَلِبتك ما أردت فذاك . أولا فما فقدتَ إذ فقدتَ الا ورقة كان كلُّ ما تستفيده منها أن تشترىَ بها قيداً لرجلك . وغُلاً لعنقك . ثم ترتبط فى سجن من سجون الحكومة بجانب رئيس من الرؤساء المدلِّين بأنفسهم يسومُك من الذل والخسف ما لا يحتمله الاسراء فى سجون الآسرين

إن اعتدادَك بهذه الورقة هذا الاعتدادَ وإكبارَك اياها هذا الاكبارَ دليل على أنك كنت تريد أن تجعلها منتهى أملك . وغاية همتك . وأنك لا ترى بعدها مزيداً من الكمال لمستزيد . فان صدقتْ فراستى فيك فاعلم أن الله قد خار لك فى هذا المصير وساق اليك من الخير ما لا تعرف السبيل اليه . وأنه ما خيب رجاءك فى هذا الكمال الموهوم إلا لتطلبَ لنفسك كمالا معلوماً . وما صرف عنك هذه الشهادة المكتوبة فى صفحات الاوراق إلا لتسعى وراء الشهادة المكتوبة فى صفحات القلوب .

إن كنت تبكى على الشرف فبابُ الشرف مفتوح بين يديك لا شأن للحكومة فيه ولا حاجب لها عليه . وما هو الا أن تجدَّ فى التزيد من العلم والمعرفة واستكمالِ ما ينقصك

من الفضائل النفسية فاذا أنت شريفٌ فى نفسك وفى نفوس الخاصة من الناس واذا أنت فى منزلة يحسدك عليها كثير من أرباب الشهادات والمناصب . ولا حيا الله شرفاً يحيا بورقة ويموت بأخرى . ولا مجداً تأتى به قعدة . وتذهب به قَوْمة . وإن كنت تبكى على العيش ففى أى كتاب من كتب الله المنزلة قرأت أن أرزاقه وقفٌ على الحاكمين . وحبائسُ على المستخدَمين . وأنه لا يُنفق درهماً واحداً من خزائنه الا اذا جاءته « حوالة » بتوقيع أمير . أو إشارة وزير

أيها الطالب : قل لأبيك وأخيك وأهلك وأصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء إن الذى وهبنى عقلى لم يسلبنيه . و إن الذى صوّر لى أعضائى لم يَحُلْ بينى و بين الذهاب بها الى ما خُلقت له . و إن الذى خلقنى سوف يهدينى فهو الرزاق ذو القوة المتين

الاتحاد

ألمّت بى كربة من تلك الكُرب التى لا تزال تختلف الى كما تختلف الى المحموم نوبته حيناً بعد حين

كربة ما كفاها أنها حبست قلمى عن الكتابة وفكرى عن الحركة حتى حالت بينى و بين مطالعة الصحف والاشراف على الامة من نوافذها برهة من الزمان . ثم أدركتنى رحمة الله فاستفقتُ فاذا صخب ولجب . وغوغاء وضوضاء . وأصوات ملء الفضاء . وكظة الارض والسماء . فما هو الا سؤال السائل و إجابة المجيب حتى عرفتُ كل شىء

عرفتُ أن الامة المصرية فى موقف من أحرج مواقفها . ومسلك من أضل مسالكها . وأنها بين ماضغى الاسد وفوق رَوْق الظبي . وأن حوادث الدهر وعاديات الايام قد ملكت عليها سبيلها والتفّت حولها التفاف الحية بالعنق وأحاطت بها إحاطة الجامعة باليد والقيد بالرجل . فمثلها كمثل رجل أحاطت النار ببيته من كل جانب وعلقت بسقوفه وجدرانه . ونوافذه وأبوابه . فما هو بناج إن أراد نجاء . ولا بباق إن أراد بقاء . بل مثلها

كمثل آخر ضل به سبيله . واشتبهت عليه مسالكه . في ليلة داجية مدلهمة قد غابت كواكبها . واستسرّت نجومها . فوقف وقفة الحائر المضطرب يسمع العواء والزئير . والضجيج والصفير . فلا يعلم أيقدم فيزداد ضلالاً . أم يحجم فلا يجد مجالاً . أم يقف فيصبح فريسة المفترس ولقمة المزدرد

عرفتُ أن الأمة المصرية أصبحت لا تدري ما تريد . ولا ما يراد بها . ولا تجد من يرد إليها رشدها . ولا من يمد يده إليها . ليأخذ بيدها في هذا الظلام الحالك . والليل المدلهم

كثر رؤساؤها . وتعددت قادتها . وتنوعت مذاهبهم . واختلفت طرقهم . واستحكمت حلقات البأس بينهم فلم يتفقوا في شأن من شؤون هذه الامة على شيء الا على وضع حبل متين في عنقها قد أخذ كل منهم بطرف من طرفيه يجذبه اليه جذبة المستقتل المستميت حتى بح صوتها . وضاق صدرها . وتعلقت أنفاسها . وجحظت مقلتاها . وجف ريقها . وتحجر لسانها . وهم ينظرون اليها نظرة المداعب اللاعب . ولا أحسبُ أنهم تاركوها حتى يفرقوا بين الرأس والجسد فراقاً لا لقاء بينهما من بعده

لو بُعث إرسطو واضع علم المنطق من قبره وأراد أن يضع لهذه الامة حداً تاماً جامعاً مانعاً لما استطاع الا أن يضع لها هذا الحد « الامة المصرية هي التي تصدق كل ما يقال » .

ولقد عرف كلُّ أولئك اللاعبين بها والعابثين بميولها وأهوائها منها هذا الخلقَ وتلك الطبيعةَ وكانوا قساة القلوب غلاظ الاكباد فنفذوا من تلك الآذان اللينة الى تلك القلوب الطيبة فما بلغوها حتى أخذوا يلعبون بها لعبَ الصبي بكُرته . ويتلقفونها واحدٌ بعد واحد . فهي لا ترتفع حتى تتناولها الصوالجةُ . ولا تستقر حتى تدفعها الاقدام . كلٌّ يزعم أنه صديقها وكل يزعم أنه يدُ لها على عدوها . والله يعلم أنهم أعداؤها قبل الأعداء . وخصومها أكثر من الحصباء . وأن السماء بصواعقها ورجومها . والارض بزلزالها وبراكينها . أعجزُ من أن تبلغ منها ما بلغوه . أو تجني عليها ما جنوه

فيأيها الرؤساء والزعماء : أيّ خير تطلبون لهذه الامة بعد أن فرقتموها شيعاً . وصيرتموها أحزاباً . وقطعتم أوصالها ووشائجها . وألقيتم العداوة والبغضاء بين الرجل

ووالده . والرجل وأخيه . والجار وجاره . والصديق وصديقه . حتى ركب كل فرد من أفرادها رأسه ومضى لسبيله . وحتى تناكرت الوجوه . واستوحشت النفوس . وأصبحت ساحة البلاد كساحة الحرب . لا ترى فيها الا نابا يقرع نابا . وعينا تنظر شزرا وصدرا يغلي حقدا . وقلبا يخفق خوفا وحذرا

كل غرض تزعمون أنكم تسعون اليه لابلاغ هذه الامة أمنيتها من السعادة والهناء . لا قيمة له بعد ما أضعتم عليها غرضها من الاتحاد والائتلاف . بل لا سبيل لها الى بلوغ غرض من أغراضها الا اذا كان الاتحاد قائدها اليه . ودليلها عليه

ليس هذا التنافر بين أفراد الامة والتفرق بين جماعاتها حالة من الحالات الطبيعية التي لا بد منها . ولا مناص عنها . أو حادثة من الحوادث السماوية التي تحتملها النفوس . وتسكن اليها القلوب . وتطرف عليها العيون إجلالا للسماء . ورضاء بالقضاء . وانما هي صنعة أيديكم . وجناية أقلامكم . ولو أنكم تركتم هذه الأمة وشأنها . وخليتم بينها وبين فطرتها . ما كان يخطر لها ببال أن تتعادى وأن تتباغض ولا كان يوجد بين أفرادها من تحدثه نفسه بمقاطعة أخيه في سبيل صحيفة من الصحف أو حزب من الاحزاب

عجز الاختلاف الديني بين عنصري الامة المصرية عن أن يفرق بين أوصالها . وأن يحل جامعتها . وعجز الاختلاف الجنسي أن يؤثر في جامعتها تأثير أمثاله في أمثالها من الجوامع الاخرى . فكيف لا يعجز الاختلاف السياسي . عما عجز عنه الاختلاف الديني والجنسي . لولا أنكم كبرتم ما صغر من هذا الاختلاف وعظمتم منه ما حقر . وألححتم عليه إلحاحا شديدا حتى حولتموه الى فتنة شنعاء . وغارة شعواء

أنا لا أطلب منكم رحمة بهذه الامة ولا شفقة عليها . فان قلوبا مثل قلوبكم التي تنطوي عليها جوانحكم أقسى من أن ينفذ فيها سيف الضارب . أو قلم الكاتب . وإنما أريد أن أحدث الامة المصرية بكلمة لا أريد منها أن تأخذها مني عفوا ولا أن تسلم بها قبل إنعام نظرها فيها . وعرضها على عقلها . فذلك ما لا أحبه لها . بل ذلك ما أنقمه منها

أيها المصريون : إني لأكتب اليكم كلمتي هذه وليس على وجه الارض ولا تحت

أديم السماء أمة أحب الى منكم . وحسبكم من ذلك الحب أنى أسمع بالكارثة تحل بكم . والنازلة تنال منكم . فيشغلنى من أمركم ما لا يشغلنى من أمر نفسى . وتجود عينى فى سبيلكم على ما بها من جمود وشح بما لا تجود بمثله فى أحرج مواقفها . وأصعب مواطنها

بهذا القلم الذى يستمد مداده من هذا القلب المخلص اليكم أدعوكم الى الاتحاد والائتلاف وأن تتبايعوا بين يدى الله والوطن على الحب والود والصفاء والاخلاص وأن لا تجعلوا لهؤلاء المفسدين منفذاً ينفذون منه الى قلوبكم . فان طاف بكم طائف من شياطينهم فأعرضوا عنه وامضوا فى سبيلكم . واحذروا أن تكونوا سيقة لرئيس أو لعبة فى يد زعيم وليكن كل منكم زعيم نفسه . ومسترشد قلبه . فنفوسكم أرحم بكم . وقلوبكم أصدق فى نصيحتكم . فان فعلتم ذلك نجوتم من ذل الانقياد . وسلكتم سبيل الرشاد . وأصبحتم وإذا أنتم أمة واحدة ترى رأياً واحداً وتحس إحساساً واحداً

واعلموا أن ما بينكم اليوم من الاختلاف فى الرأى والاضطراب فى المذهب إنما هو وهم من الاوهام الكاذبة . وخيال من الخيالات الباطلة . ولو رجعتم الى أنفسكم وأصغيتم الى أصوات قلوبكم لتبين لكم أنه لا يوجد فرد من أفرادكم إلا وهو أحرص من أخيه على حب الوطن وإرادة الخير له

سدد الله طريقكم . وأنار لكم سبيلكم . وأفاض عليكم من رحمته وإحسانه ما يفرج كربتكم . ويكشف غمتكم . والسلام

النبوغ

من العجز أن يزدرى المرء نفسه فلا يقيم لها وزناً . وأن ينظر الى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الاعجم الى الحيوان الناطق . وعندى أن من يخطىء فى تقدير قيمته مستعلياً . خير ممن يخطىء فى تقديرها متدلياً . فان الرجل إذا صغرت نفسه فى عين نفسه يأبى لها من أحواله وأطواره الا ما يشاكل منزلتها عنده . فتراه صغيراً فى علمه . صغيراً فى أدبه . صغيراً

فى مروءته وهمته . صغيراً فى ميوله وأهوائه . صغيرا فى جميع شؤونه وأعماله . فان عظمت نفسه عظمُ فى جانبها كلُّ ما كان صغيراً فى جانب النفس الصغيرة

ولقد سأل أحدُ الائمة العظماء ولده وكان نجيباً يا بنىّ أى غاية تطلب فى حياتك . وأى رجل من عظماء الرجال تحب أن تكونه . فأجابه أُحب أن أكون مثلك . فقال ويحك يا بُنىّ لقد صغُرت نفسُك . وسقطت همتك . فلتبكِ على عقلك البواكى . لقد قدّرتُ لنفسى يا بنىّ فى مبدأ نشأتى أن أكون كعلى بن أبى طالب فما زلت أجدُّ وأكدح حتى بلغتُ المنزلة التى تراها . وبينى وبين علىّ ما تعلم من الشأو البعيد والمدى المستطيل . فهل يسرك وقد طلبتَ منزلتى أن يكون ما بينك وبينى من المدى مثلُ ما بينى وبين علىّ

كثيراً ما يخطئ الناس فى التفريق بين التواضع وصغر النفس . وبين الكبر وعلوّ الهمة . فيحسبون المتذلل المتملق الدنىء متواضعاً . ويسمون الرجل إذا ترفع بنفسه عن الدنايا وعرَف حقيقةَ منزلته من المجتمع الانسانى متكبراً . وما التواضعُ الا الادب . ولا الكبرُ الا سوء الأدب . فالرجل الذى يلقاك متبسماً متهللاً . ويُقبل عليك بوجهه ويُصغى اليك إذا حدثته . ويزورك مهنئاً ومعزّياً . ليس صغير النفس كما يظنون . بل هو عظيمها . لأنه وجد التواضع أليقَ بعظمة نفسه فتواضع . والأدبَ أرفعَ لشانه فتأدب

فتًى كان عذب الروح لا من غضاضة * ولكنّ كبراً أن يقالَ به كِبر

فان بلغ الذلُّ بالرجل ذى الفضل أن ينكس رأسه للكبراء ويترامى على أيديهم وأقدامهم لثماً وتقبيلاً . ويتبذّل بمخالطة السُّوقة والغوغاء بلا ضرورة ولا سبب . ويكثر من شتم نفسه وتحقيرها ورميها بالجهل والغباوة ليكون متواضعاً . ويُبصبص برأسه بصبصةَ الكلب بذنبه ليكون متأدبا . ويجلس فى مدارج الطرق جِلسةَ البائس المتسول . ويمشى مِشيةَ الخائف المبلِس . فاعلم أنه صغيرُ النفس ساقط الهمة لا متواضعٌ ولا متأدب

إنّ علو الهمة إذا لم يخالطه كِبر يُزرى به ويدعو صاحبه الى التنطع وسوء العشرة كان أحسنَ ذريعة يتذرع بها الانسانُ الى النبوغ فى هذه الحياة . وليس فى الناس من هو

أحوجُ الى علوّ الهمة من طالب العلم . لان حاجةَ الأُمة الى نبوغه أكثرُ من حاجتها الى نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين . وهل الصانعون والمحترفون إلا حسنةٌ من حسناته . وأثرٌ من آثاره . بل هو البحرُ الزاخرُ الذى تستقى منه الجداول والغدران

فيا طالبَ العلم كن عالىَ الهمة . ولا يكن نظرُك فى تاريخ عظماء الرجال نظراً يبعث فى قلبك الرهبة والهيبة فتتضاءلَ وتتصاغرَ كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب . أو خرافة من خرافات الجن . وحذارِ أن يملك اليأسُ عليك قوّتك وشجاعتك فتستسلمَ استسلامَ العاجز الضعيف وتقولَ من لى بسُلّم أصعدُ عليها الى السماء حتى أصلَ الى قبة الفلك فأجالسَ فيها عظماء الرجال

يا طالبَ العلم أنت لا تحتاج فى بلوغك الغايةَ التى بلغها النابغون من قبلك إلى خَلق غير خَلقك . وجوّ غير جوّك . وسماء وأرض غيرِ سمائك وأرضك . وعقل وأداة غير عقلك وأداتك . ولكنك فى حاجة الى نفس عالية كنفوسهم . وهمة عالية كهممهم . وأمل أوسعَ من رُقعةَ الارض وأرحبَ من صدر الحليم . ولا يقعدنّ بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك فى خلواتهم من وصفك بالوقاحة أو بالسماجة . فنعم الخلُق هى إن كانت السبيلَ الى بلوغ الغاية . فامضِ على وجهك ودعهم فى غيهم يعمهون

جَناحان عظيمان يطير بهما المتعلم الى سماء المجد والشرف . علو الهمة . والفهم فى العلم . أما علو الهمة فقد عرفته . وأما الفهم فى العلم فاليك الكلمةَ الآتية :

العلمُ علمان . علم محفوظ وعلم مفهوم . أما العلم المحفوظ فيستوى صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم . ولا فرق بين أن تسمع من الحافظِ كلمة . أو تقرأ فى الكتاب صفحة . فان أشكل عليك شئ مما تسمع فانظر إن نطق الكتاب بشرح مشكلاته . نطق الحافظ بتفسير كلماته .

الحافظ يحفظ ما يسمع لانه قوى الذاكرة . وقوة الذاكرة قدرٌ مشترَك بين الذكى والغبي والنابه والابله . لان الحافظةَ ملكة مستقلة بنفسها عن بقية الملكات . وإنك لترى الشيخَ الفانىَ الذى لا يميز بين الطفولةِ والهرم . والذى يَبكى على الحلوى بكاءَ الطفل عليها .

ويرتعد فرقا إذا سمع ابنته تخيف طفلها بأسماء الشياطين . بسرد لك من تواريخ شبيبته وكهولته ما لو دونته لكان تاريخاً صحيحاً ضخماً مملوءاً بالغرائب والنوادر . وقيل لأحد العلماء إن فلاناً حفظ متن البخاري فقال لقد زادت نسخة في البلد

ذلك هو السر العظيم في كثرة المتعلمين وقلة العاملين . لأن من فهم معلوماً من المعلومات حق الفهم أشربته روحه . وخالط لحمه ودمه . ووصل من قلبه الى سويدائه . وكان إحدى غرائزه فلا يرى له بداً من العمل به رضي أم أبى

لولا أن العلم الديني اليوم علم محفوظ لما وجدت في العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحدانية والتردد على أبواب الاحياء والاموات في مزاراتهم أو في مقابرهم يسألونهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره . ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالى « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضراً » من يسند النفع والضرر إلى كل من سال لعابه . وتمزق إهابه . ولا وجدت في الناس كثيراً من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون ما ورد على ألسنة النبوة والحكمة من مدح الفضائل وذم الرذائل . ثم لا تجد فرقاً بينهم وبين العامة في ارتكاب المنكرات . والنفور من الصالحات .

لو كان العلم المحفوظ علماً وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الأثر وقلة الجدوى ما ورد مدح العلم في كتاب ولا سنة ولا قدسه كاتب أو ترنم بمدحه شاعر . فاذا سمعت ذكر العلم فاعلم أنه العلم المفهوم لا المحفوظ . وإذا أردت أن تلقب بالعالم فلا تلقب به من يحفظ بل من يفهم ما يحفظ . وآية فهم المعلوم تأثر العالم به وظهوره في حركاته وسكناته وترقرقه في شمائله ترقرق الصهباء في وجه شاربها . ولا تثق بالحافظ فيما ينقل اليك فربما مر بالمعلوم محرفاً فأخذه على علاته . وأقبح ما عرفنا من أطواره أنه يجمع في حافظته بين النقيض ونقيضه . والغث والسمين . والجيد والزائف . فكأن ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الادوية الشافية بالعقاقير السامة

وجملة الامر أن الحافظ البحت لا رأي له في مبحث فيسأل عن مذهب . ولا أثر لمعلوماته في نفسه فيقتدى به . ولا ذوق له في الفهم فيعتمد على شرحه وتأويله

أما العلم المفهوم فهو الواسطة التي إذا جمع المتعلم بينها و بين علو الهمة طار إلى المجد بجناحين . وكان له سبيل مختصر إلى منزلة العظماء ودرجة النابغين . والعلم سلسلة طويلة طرفاها في يدي آدم أبي البشر و إسرافيل صاحب الصور . [1] ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من نوابغ العلماء منها حلقة . ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ إلا إذا وضع في العلم الذي يمارسه مسألة . أو كشف حقيقة . أو أصلح هفوة . أو اخترع طريقة . ولن يسلس له ذلك إلا إذا كان علمه مفهوماً لا محفوظاً . ولا يكون مفهوماً إلا اذا أخلص المتعلم اليه . وتعبد له . وأنس به أنس العاشق بمعشوقه . ولم ينظر اليه نظر التاجر لسلعته . والمحترف إلى حرفته . فالتاجر يجمع من السلع ما ينفق سوقه . لا ما يغلو جوهره . والمحترف لا يهمه من حرفته إلا لقمة الخبز وجرعة الماء . أحسن أم أساء .

لا يزور العلم قلباً مشغولا بترقب المناصب . وحساب الرواتب . وسوق الآمال . وراء الاموال . كما لا يزور قلباً مقسما بين تصفيف الطرة . وصقل الغرة . وحسن القوام . وجمال الهندام . وطول الهيام . بالكأسين كأس المدام . وكأس الغرام

البائسات

زرت منذ أيام حاكم بلدة في منزله فرأيت بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسة عليلة تشكو ألما في عنقها . وجرحا في ذراعها . وهما في نفسها . وتدير في الحاضرين عيونا حائرة مضطربة كأنما ركبت على زئبق رجراج . فسألت ما شأنها فعلمت أن أهلها زوجوها وهي في هذه السن وعلى هذه السذاجة من رجل وحشي الخلق والخُلق ثم زفوها اليه فحاول أن يفترشها وهي على حالة لا تستطيع معها أن تلم بفراش فامتنعت عليه فأراد اغتصابها فعجز فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها ففرت منه إلى منزل

(١) المراد أن العلوم لا يتم تدوينها ولا تنحصر مسائلها مادامت العقول تفكر فالعمل دائب فيها من ابتداء الدنيا الى انتهائها

أهلها فنقموا منها هذا الاباء الذى سموه بلادة أو غفلة وأعادوها إلى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفار من السجن إلى سجنه مرة أخرى . وهنالك عاد زوجها الى عادته معها فعادت هى الى فرارها فعاد أهلها الى قسوتهم وجبروتهم . فلما أعياها الأمر خرجت الى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لها مذهباً ولا مستقراً حتى رُفع إلى ذلك الحاكم شأنها بعد أيام فآواها إلى منزله ليخلصها من ذلك الموقف الذى كانت فيه بين ذراعى وجبهة الاسد . وما فرغ من هذه القصة حتى رُفعت اليه حادثة أخرى تشبه الحادثة الأولى من جميع وجوهها إلا أن الزوج فى هذه المرة خدع زوجه عن نفسها وسقاها مخدراً فعقرها كما عقر شقى ثمود ناقته من قبل

إن المرأة المصرية شقية بائسة ولا سبب لشقائها وبؤسها إلا جهلها وضعف مداركها انها لا تحسن عملا ولا تعرف باب مرتزق ولا تجد بين يديها سلعة تتجر بها وتقتات منها إلا قلب الرجل . فان استطاعت أن تملكه عاشت عيشاً رغداً . وإلا فلا مفر لها من الشقاء من المهد إلى اللحد

ودون امتلاكها هذا القلب القاسى المتحجر أهوال عظام وعقبات لو كلف الرجل على ما به من قوة وأيد وسعة حيلة أن يجتاز عقبة واحدة منها لسقط بين اليأس والاستسلام

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواء أكان ذلك على تقدير الطبيعة أو تقدير أولئك الجهلاء أولياء أمر تينك الفتاتين استثقل أهلها ظلها وبرموا بها وحاسبوها على المضغة والجرعة . والقومة والقعدة . ورأوا أنها عالة عليهم . وأن لا حق لها فى العيش فى منزل لا يستفيد من عملها شيئاً . وودوا لو طلع عليهم وجه الخاطب يحمل فى جبينه آية البشرى بالخلاص منها

وإن قوماً هذا مبلغ عقولهم من الفهم وقلوبهم من القسوة وهذه منزلة فلذات أكبادهم من نفوسهم لا يمكن بحال من الاحوال أن يفاوضوها فى اختيار الزواج أو يحسنوا الاختيار لها

فاذا دخلت هذا المنزل الجديد الذى لا تعرفه ولا تعرف شأناً من شؤون صاحبه دخلت فى دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل

فان كانت ذات جمال أو مال فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع

التطليق . وإلا فهي تقاسي كل صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب . والجمال المصنوع . آلاماً جثمانية تُطفئ نور شبيبتها . وتُذبل زهرة حياتها . وتلاقي في سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم . والابتسام في موضع البكاء إن بكى . ما يجعل أخلاقها فضاء مملوءاً بالكذب والكيد . والخبث والرياء . وهي على ذلك تنتظر من فم زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق . كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الاعدام

ليست كلمة الاعدام من قبيل الاستعمال المجازي فما أنس لا أنسى ليلة زرت فيها صديقاً لي فرأيت عند باب منزله امرأة بائسة ليس وراء ما بها من الهم غاية . وكأنها هي الخلال رقة وذبولا . ووراءها صبية ثلاث يدورون حولها . ويجاذبونها طرف ردائها . فترخي فضل مئزرها على ماقيها المقرحة رأفة بهم أن يلموا ببعض شأنها فيبكوا لبكائها .

فسألتها عن شأنها فأخبرتني أنها مطلقة من زوجها وأن بيدها حكماً من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مر عليها زمن طويل و « الادارة » تماطلها في إنفاذه . فجاءت الى هذه الصديق تستعين به على أمرها . ثم أخذت تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشدة ومعالجة القوت . ما أسال شؤوننا . وصعد زفراتنا . وأمسكنا الأكبادنا خشية أن تصدعا

فخففت أنا وصديقي شيئاً من آلامها فانصرفت . وفي صباح تلك الليلة سمعنا أن امرأة فقيرة ماتت فجأة بحمى دماغية فسألنا عنها فعلمنا أنها صاحبتنا بالامس وأنها ماتت شهيدة الزوجية الفاسدة

أيها الرجل . إن كنت تعتقد أن المرأة إنسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مداركك . واستعداداً مثل استعدادك . فعلمها كيف تأكل لقمتها من حرفة غير هذه الحرفة النكدة . وإلا فأحسن إليها وارحمها كما ترحم كلبك وشاتك

إن كنت زوجاً فلا تطردها من منزلك بعد أن تقضي مأربك منها كما تصنع بنعلك التي تلبسها . وإن كنت أباً فهذه فلذة كبدك فلا تضق بها ذرعاً ولا تلق بها في حجر وحش ضار يأكل لحمها . ويمتص دمها . ثم يلقي اليك بعظامها

ويا أيها المحسنون . والله لا أعرف لكم باباً في الاحسان تنفذون منه الى عفو الله ورحمته

أوسعَ من باب الاحسان الى المرأة

افتحوا لها المكاتب . وابنوا لها المدارس . وعلموها من العلم ما يرفع همتها . ويرقّى آدابها . ومن الصناعة ما يناسب قوّتها . وما يُشبع جوعتها . إن نبا بها دهر . أو تجهّم لها حظ

علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلمُ فيها أولادُكم قبل المدرسة . وأدّبوها ليتربى فى حجرها المستقبلُ العظيم . للوطن الكريم

مدرسة الغرام

كنت لا أسأل الله تعالى إلا تقدُّمَ هذه الامة وارتقاءها وبلوغها فى المدنية الغربية مبلغاً يؤهلها لمجاراة تلك الامم فى عظمتها وسلطانها فأصبحتُ أسأله أن لا يستجيبَ دعائى لها وأن لا يُنيلها من تلك المدنية فوق ما أنالها

أصبحت أعتقد أن مفاسدَ الاخلاق والمدنيةَ الغربية شيئان متلازمان . وأخوان معتنقان . لا افتراق لاحدهما عن صاحبه الا إذا افترقت نشوة الخمر عن مرارتها . فكيف أتمناها لأمة هى أعزّ علىّ من نفسى التى بين جنبى

قرأت حوادثَ الانتحار فى الغرب فقلت قومٌ ضعفتْ قلوبهم عن احتمال حوادث الدهر ورزاياه فلم يستطيعوا الوقوف بين يديه وقفةَ الشجاع المستقتل ففروا من وجهه الى حيث يجدون الراحة الدائمة فى أكسار القبور . وما أكثرَ الجبناء فى مواقف الحروب

قرأتُ حوادث المبارزة هناك فقلت قومٌ عجزت يد المدنيـة الحاضرة أن تستل من بين جنوبهم ما كانوا يعتقدونه فى الهمجية الماضـية من أن العرْض إناء إذا ألمّ به القذى لا يَغسله إلا الدم المسفوح . وكثيراً ما تورد العقائدُ النفوسَ مواردَ الحتوف

قرأتُ حوادث عشاق الموتى الذين يتسللون تحت ستار الليل إلى المقابر فينبشونها عن رُفات الفتيات المقبورات . شوقاً إلى لثمةٍ من خدّ يرشح صديدُه . أو رشفةٍ من ثغر يتناثر دودُه . حتى أنه ليروقهم من الساكنات تحت الرجام . ما لا يروقهم من المقصورات

فى الخيام . وقرأت أن الحكومة طاردتهم عن أمنيتهم . وحالت بينهم و بين معاهد غرامهم . ومراتع عشقهم وهيامهم . فأرادوا أن يحتالوا على الالمام بأولئك الموتى خيالاً عند ما فاتهم الالمام بهم حقيقة فأنشأوا لأنفسهم تحت الارض قاعة كبرى كسوا جدرانها بالاستار السوداء و وضعوا فى وسطها صندوقا من صناديق الموتى تنام فيه فتاة حية تتصنع الموت باصفرار لونها . و إسبال جفونها . وسكون أعضائها . وتعليق أنفاسها . فاذا لجّ بأحدهم الشوق الى قضاء حاجة من فتاة ميتة نزل الى تلك القاعة السوداء وعالج خياله على أن يتصورها قبراً مظلماً موحشاً يضم بين جانحيه فتاة ميتة لا حراك بها ثم يُلمّ بها وهو يسمع نغمات الاحزان من قيثارة أُعدت وراء القاعة لتجسيم ذلك الخيال

قرأت هذا وقرأت أن من الناس ناساً فى تلك الديار الغربية تجاوزوا ذلك الحد إلى الغرام ببعض أنواع الحيوان حتى أنهم نصبوا لانفسهم مواخير خاصة يُلمّون فيها بالدجاج إلمام غيرهم بالبغايا من النساء . فقلت لا عجب فى ذلك وهل هو إلا فن من فنون الجنون التى لا يجد المرء الى حصرها سبيلا

إن كنتُ أغتفرُ للمدنية الغربية كل ذنوبها فانى لا أغتفر لها ذنبها فى مدرسة الغرام التى أنشأها قوم من الامريكيين فى وسط مدينة من مدن أمريكا ليعلموا فيها النساء والرجال فنون الحب والمغازلة جهرة من حيث لا يرون فى ذلك بأساً . ولا يجدون فيه متلوّماً . وقد وضعوا لها هذا النظام

يوم الاحد — دروس استعدادية

« الاثنين — الغزل

« الثلاثاء — المطارحة

« الاربعاء — صناعة التقبيل والتجميش

« الخميس — فلسفة الدلال والتصبي

« الجمعة — انتقاء مواعيد اللقاء

« السبت — الامتحان

هذه هي المدرسة الغرامية وهذا نظامها . فهل سمعت في حياتك أن أمة من الامم المتوحشة التي يسمونها بالأمم البهيمية إشارة الى ما بينها وبين البهائم من الشبه في حب الشهوات والاستهتار بها بلغت في تهتكها وفساد أخلاقها مبلغ تلك الامة التي يقولون عنها إنها زهرة المدنية الحديثة وتاجها المرصع

لماذا نسمي قبائل الزنوج قبائل متوحشة ونحن نعلم فيما نعلم من أخلاقهم أنهم لا يتركون عزابهم ينام وسط البيوت مخافة أن يكون له سبيل إلى مخالطة النساء فيأخذونهم جميعاً الى مكان خاص بهم خارج القرية يبيتون فيه فوق هضبة مرتفعة يذرون حولها ترابا معبدا . حتى إذا أراد أحدهم أن يختلس من ظلام الليل غرة نم أثره عليه . كما نعلم أنهم يخيطون فروج العذارى من نسائهم حتى لا يحدث أحد من الرجال نفسه بقرع ذلك الباب إلا مالكه وصاحب الحق فيه . ولماذا نسمي الامة الامريكية أمة متمدنة وها هي ذا تفتح المواخير باسم المدارس حتى لا تكون في نفس أحد من الناس غضاضة في دخولها والأخذ بنصيبه من لذائذها وشهواتها

إن كان توحش الاولين لاغراقهم في صون الاعراض فالآخرون أكثر منهم توحشاً لاغراقهم في هتكها وابتذالها . والاغراق في الخير خير من الاغراق في الشر

فيأيها الزنجي المسكين . لقد ظلمك من سماك متوحشاً . ويأيها الاميركي المتوحش . لقد كذبك من سماك متمدينا

أيها الزنجي الاسود : إن كنت أسود اللون فالفضيلة أشرف من أن تنزل إلى اعتبار السواد ذنباً تنفر منه وتأبى أن تأوي اليه . وإن كنت جاهلا فهل استفاد صاحبك من علمه الا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها والتفنن في فجور الحياة وفسوقها تفنناً لا أحسبك تحن اليه . أو تتقطع حسرات عليه . وإن كنت عاريا فربما لبست من الفضيلة ثوبا يحسدك عليه لو يعقل ذلك الذي يفخر عليك بخزه وديباجه . ودمقسه وحريره

ولو بتّما عند قدريكما * لبتّ وأعلا كما الاسفل[1]

---

(١) أي لو نزل كل منكما المنزلة التي يستحقها لاخذ الاعلى مكان الاسفل والاسفل مكان الاعلى

البيان

قال لى أحد الوزراء الأذكياء ذات يوم « إنى لتاتينى أحيانا رقاع الاستعطاف فأكاد أهملها لما تشتمل عليه من الاساليب المنفرة لولا أن الله تعالى يلهمنى نيات كاتبيها وأين يذهبون . ولولا ذلك لكنت من الظالمين . »

ذلك ما يراه القارئ فى أكثر المخطوطات التى يخطها اليوم كاتبوها فى الصحف ورقاع الشكوى والكتب الخاصة والمؤلفات العامة

هزل فى موضع الجد . وجد فى موضع الهزل . وإسهاب فى مكان الايجاز . وإيجاز فى مكان الاسهاب . وجهل بفرق ما بين العتاب والتأنيب . والانتقام والتأديب . والاستعطاف والاستخفاف . وقصور عن إدراك منازل الخطاب ومواقفه بين السوقة والامراء . والعلماء والجهلاء . حتى أن الكاتب ليقيم فى الشوكة يشاكها . مناحة لا يقيمها فى الفاجعة يفجع بها . ويكتب فى الحوادث الصغار . ما يعجز عن كتابة مثله فى الحوادث الكبار . ويخاطب صديقه بما يخاطب به عدوه . ويناجى أجيره . بمثل ما يناجى به أميره

ذهب الناس فى معنى البيان مذاهب متفرقة واختلفوا فى شأنه اختلافا كثيرا ولا أدرى علام يختلفون . وأين يذهبون . وهذا لفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشتبه وجوهها . ولا تتشعب مسالكها

ليس البيان إلا الابانة عن المعنى القائم فى النفس وتصويره فى نظر القارئ أو مسمع السامع تصويرا صحيحا لا يتجاوزه ولا يقصر عنه . فان علقت به آفة من تينك الآفتين فهو العى والحصر

جهل البيان قوم فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونادر الاساليب فأغصوا بها صدور كتاباتهم وحشوها فى حلوقها حشوا يقبض أوداجها ويحبس أنفاسها . فاذا قدر

لك أن تقرأها وكنت ممن وهبهم الله صدراً رحبا . وفؤاداً جلداً . وجناناً يحتمل ما حمل عليه من آفات الدهر ورزاياه . قرأت متناً مشوشاً من متون اللغة . أوكتاباً مضطرباً من كتب المترادفات

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذر فى القول والتبسط فى الحديث واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع . فلا يزالون يجترون بالكلمة اجترار الناقة بجرتها . ويتمطقون بها تمطق الشفاه بريقها . حتى تسفل . وتتبذل . وحتى ما تكاد تسيغها الحلوق . ولا تطرف عليها العيون . وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً

يخيل إلى أن الكتاب فى هذا العصر يكتبون لانفسهم أكثر مما يكتبون للناس . وأن كتابتهم أشبه شئ بالاحاديث النفسية التى تتلجلج فى نفس الانسان حينما يخلو بنفسه . ويأنس بوحدته . فانى لا أكاد أرى بينهم من يضع فمه على أذن السامع وضعاً محكماً . وينفث فى روعه ما يريد أن ينفث من خواطر قلبه . وهواجس نفسه

البيان صلة بين متكلم يفهم . وسامع يفهم . فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من الرفعة والسقوط . فان أردت أن تكون كاتباً فاجعل هذه القاعدة فى البيان قاعدتك . واحرص الحرص كله على أن لا يخدعك عنها خادع فتسقط مع الساقطين

ما أصيب البيان العربى بما أصيب به الا من ناحية الجهل بأساليب اللغة العربية . ولا أدرى كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً عربياً قبل أن يطلع على أساليب العرب فى أوصافهم ونعوتهم . ومدحهم وهجوهم . ومحاوراتهم ومساجلاتهم . وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاتبون ويؤنبون . ويعظون وينصحون . ويتغزلون وينسبون . ويستعطفون ويسترحمون . وبأى لغة يحاول أن يكتب ما يريد إن لم يستمد تلك الروح العربية استمداداً يملأ ما بين جوانحه حتى يتدفق مع المداد من أنبوب يراعه على صفحات قرطاسه

إنى لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابى والهمذانى والخارزمى

وأمثالهم من كتاب العربية الاولى ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكاتبون في هذه الصحف والاسفار فأشعر بما يشعر به المنتقل دفعة واحدة من غرفة محكمة نوافذها . مسبلة ستورها . الى جو يسيل قرا وصبرا . ويتر قرق ثلجا وبردا

ذلك لأني أقرأ لغة لا هي بالعربية فأغتبط بها . ولا هي بالعامية فأتفكه بهذيانها ومجونها

رأيت أكثر الكاتبين في هذا العصر بين اثنين . رجل يستمد روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها في أساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة . وربما كان كتاب تلك المخطوطات أحوج من قارئها الى الاستمداد . فاذا علقت بنفسه تلك الملكة الصحفية التي بها في روع قارئ كتابته أدون مما أخذها فيدلى به آخذها كذلك الى غيره أسمج صورة وأكثر تشويها . وهكذا حتى لا يبقى فيهما من روح العربية الا كما يبقى من الاطلال البالية بعد كر الغداة ومر العشى . وطالب قصارى ما يأخذه عن أستاذه نحو اللغة وصرفها وبديعها وبيانها ورسمها واملاؤها ومفرداتها ومتونها ومؤتلفاتها ومختلفاتها وأمثال ذلك من آلاتها وأدواتها . أما روحها وجوهرها فأكثر أساتذة البيان في المدارس علماء غير أدباء . وحاجة طالب اللغة الى أستاذ يفيض عليه روح اللغة ويوحى له بسرها . ويفضى اليه بلبها وجوهرها . أكثر من حاجته الى أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتها . وعندى أن لا فرق بين أستاذ الاخلاق وأستاذ البيان . فكما أن طالب علم الاخلاق لا يستفيده الا من أستاذ كملت أخلاقه . وحسنت آدابه . كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أستاذ مبين

ولا يقذفن في روع القارئ أني أحاول استلاب فضل الفاضلين أو أني أنكر على فصحاء هذه اللغة ما وهبهم الله من نعمة البيان فما هذا أردت . ولا اليه ذهبت . وإنما أقول إن عشرة من الكتاب المجيدين . وخمسة من الشعراء البارعين . قليل في بلد يقولون عنه إنه بلد اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصيب

وبعد فاني لا أرى لك يا طالب البيان العربي سبيلا اليه الا مزاولة المنشآت العربية منثورها ومنظومها والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج . فان

رأيت أنك قد شغفت بها . وكلفت بمعاودتها والاختلاف اليها . وأن قد لذّ لك منها ما يلذ للعاشق من زورة الطيف فى غرة الظلام . فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيب فامض لشانك ولا تلوِ على شئ مما وراءك حتى تبلغ من طَلِبتك ما تريد

ولا تحدثنّك نفسك أنى أحملك على مطالعة المنشئات العربية لاسلوبٍ تسترقه . أو تركيب تختلسه . فانى لا أحب أن تكون سارقا ولا مختلساً . على أنك إن ذهبت الى ما ظننت أنى أذهب اليه فى نصيحتك لم يكن درَكك دركا . ولا بيانك بيانا . وكان كلُّ ما أفدته (١) من ذلك أن تُخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تناسب بين أجزائها . وبُردة مرقعة لا تشابه بين ألوانها . وانما أريد أن تحصّل لنفسك ملكة فى البيان راسخة تصدر عنها آثارها بصورة واحدة حتى لا يكون شأنك شأن أولئك الذين قد علقت ذاكرتهم بطائفة من منثور العرب ومنظومها فقنعوا بها وظنوا أنهم قد بلغوا من اللغة ما أرادوا . فاذا جد الجد وأرادوا أنفسهم على الافصاح عن شئ من خلجات نفوسهم رجعوا الى تلك المحفوظات ونبشوا دفائنها . فان وجدوا بينها ما يدل على المعنى الذى يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعا . وحشروه فى كتاباتهم حشراً . وإلا فإما أن يتبذلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة . أو يهجروا تلك المعانى الى أخرى غيرها لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولاحقاتها . فهم لا بد لهم من إحدى السوأتين . إما فساد المعانى واضطرابها . أو هُجنة التراكيب وبشاعتها

فاحذر أن تكون واحداً منهم أو أن تصدق ما يقولونه فى تلمس العذر لانفسهم من أن اللغة العربية أضيقُ من أن تتسع لجميع المعانى المستحدثة . وأنهم ما لجئوا الى التبذل فى التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها . فاللغة العربية أرحب صدراً من أن تضيق بهذه المعانى العامة المطروقة بعد ما وسعت من دقائق العلوم ما لا قبل لغيرها باحتماله وقدرت من هواجس الصدور وأحاديث النفوس وسرائر القلوب على الذى عيّت به اللغات القادرات

وليس الشأنُ فى عجز اللغة وضيقها وانما الشان فى عجز المشتغلين بها عن الاضطراب فى

(١) أفاد واستفاد بمعنى

أرجائها . والتغلغل فى أثنائها . واقتناعهم من بحرها بهذه البلة التى لا تثلج صدراً . ولا تشفى أواماً

وكل ما يعد عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على أعلام لهذه الهنات المستحدثة وهو فى مذهبى أقل الذنوب جرماً . وأضعفها شأناً . مادمنا نعرف وجه الحيلة فى علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه . أو التعريب والوضع إن عجزنا عن الاشتقاق . فالأمر أهون من أن نحارفيه . وأصغر من أن نقضى أعمارنا فى الوقوف ببابه . والأخذ والرد فى شأنه . والمساجلة والمناظرة فى اختيار أقرب الطرق إليه . وأجداها عليه

واعلم أنه لابد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المنشئات العربية فليس كل متقدم ينفعك . ولا كل متأخر يضرك . ولا أحسبك إلا واقفاً بين يدى هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب . لأن حسن الاختيار طلبة تتعثر بين يديها الآمال . وتقطع دونها أعناق الرجال . فالجأ فى ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف الناس منهم ذوقاً سليماً . وقريحة صافية . وملكة فى الأدب . كأنها مصفاة الذهب . فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاء وفطنة وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يلقى فيها من البذور الطيبة عدت وبين جنبيك ملكة فى البيان زاهرة يتناثر منها منثور الأدب ومنظومه تناثر الورود والأنوار . من حديقة الأزهار

السريرة

لو كشف للانسان عن سريرة الانسان لرأى منها ما يرى من غرائب هذا الكون وعجائبه أعمى أدركته رحمة الله بعد طول محنته فارتد بصيراً

تتراءى لك السريرة فى ظاهرها كأنها أديم السماء . أو صفحة الماء . فإن بدا لك أن تكتنه باطنها فانك غير بالغ من ذلك مأربك إلا إذا استطعت أن تخترق السماء فترى ما وراءها من بدائع الكائنات . وتغوص فى أعماق الماء فتشاهد ما فى باطنه من عجائب المخلوقات

يعجز المرء عن رؤية الهباء فيتربّث رَيثما تمجّ الشمس لُعابها من نافذة غرفته فاذا هو مائج وضّاء يروح ويغدو رواح السانحات . وغدوّ البارحات . ويعجز عن رؤية الجراثيم فيستعين عليها بمنظار يصورها في نظره تصويراً يخيل اليه أنه يكاد يلمسها بيمينه . ويعجز عن اكتناه السريرة فلا يجد الى الوصول اليها سبيلا

وقف آدم أمام باب السريرة يوم الشجرة يعالج فتحه فاستعصى عليه . ثم وقف بنوه من بعده موقفه فعجزوا عجزه . فلجّ بهم الشوق اليها لجاجاً طار بعقولهم . وذهب بألبابهم . فتراموا على أقدام المنجمين والعرّافين لثماً وتقبيلا . وابتدروا النُّصُبَ والتماثيل ركوعا وسجوداً . وهاموا بزاجرات الطير والضوارب بالحصى هيام الابل العطاش بمنازل الماء يطلبون ما وراء السريرة والسريرة كنز مرصود لا تنجع فيه النفثات . ولا تجدي معه العزائم والرُّقى

إنك لترى الرجل يتلألأ جبينه تلألؤ الكوكب في جنح ليل مُبرِد . ويفترّ ثغره عن الأنوار . افترار الاكمام عن الازهار . فتحسده على نعمته وسعادته . وتتمنى أن لو منحك الله مامنحه من هناء ورغد . وإنّ بين جنبيه لو تعلم همّاً يعتلج . وقلباً يدب فيه اليأس دبيب الآجال في الأعمار . وكبداً مقروحة لو عرضها في سوق الهموم والاحزان . ما وجد من يبتاعها منه بأبخس الأثمان

وإنك لترى الصديق فيعجبك منه حديثه الحُلو وثغره المبتسم . ويروقك من ودّه كلفه بك . وإعظامه لك . وإعجابه بشمائلك ومحاسنك . وتشيعه لآرائك ومذاهبك . ولو كُشف لك من نفسه ما كشف له منها لوددت أن لو استطعت أن تبتاع أقدام السُّليك (١) بجميع ما تملك يمينك ففررت من وجهه فرارك من وجه الاسود السالخ (٢) ووددت بجدع الانف أن لا يصافح وجهك وجهه من بعدها حتى في جنة النعيم

لولا ما أسدل الله دون السرائر من الحجب لبُدّلت الارض غير الارض . وكان للكون نظام غير هذا النظام . وللتاريخ صفحات غير هذه الصفحات

(١) السليك رجل معروف بسرعة العدو في العرب (٢) ذكر الحيات

لوعلم الجند أنهم لايحاربون إلا ليضعوا « نيشانا » فى صدر القائد . أوجوهرة فى تاج الملك . وأنهم كثيراً ما يكونون مخدوعين فى وقائعهم ومواقفهم بأشراك الوطنية وحبائل الدين . لما دالت الدول ولا تنقلت التيجان . ولضعف ظهر الارض عن حمل ما فوقه من بنى الانسان . ولو علم جهلة المتدينين أن رؤساء الاديان كثيراً ما يشترون عقولهم وأموالهم بالقليل التافه من هذه المدهشات الدينية . والاحلام النفسانية . ويملأون قلوبهم بالمخاوف والمزعجات ليبيعوهم الأمن والسلامة بثمن غال لضعفت أصوات النواقيس . وقصرت قامات المنائر . ولهلك أرباب الطيالس والقلانس جوعا وسغباً . ولاصبحت حبات السبح أكسد فى سوق الاديان من بعر الشاء فى سوق الانعام . ولو علم الابن أن أباه يحبه لما يرجوه من منفعته فى شيخوخته . وأنه لا يعجب إلا بنفسه فى إعجابه به وثنائه عليه . ولا يفخر إلا بقوة عقله وحسن تدبيره فى نجره بذكائه ونبوغه . لضعفت صلة الود بينه وبينه . ولما كان بين حلقات الأنساب هذه الوشائج وتلك الأواصر . ولو علمت الزوجة أن زوجها يحب منها جسمها أكثر مما يحب نفسها . وأنه يتربص بها الدوائر ويعد ليومها الساعات والايام لما وثقت بوده . ولا اطمأنت لعهده . ولما كان للمنازل سقوف تظلل الاسرة والمهاد

زيد وعمرو

أراد داود باشا أحد الوزراء السالفين فى الدولة العثمانية أن يتعلم اللغة العربية فأحضر أحد علمائها وأنشأ يتلقى عليه دروسها عهداً طويلا فكانت نتيجة علمه ما ستراه

سأل شيخه يوماً ما الذى جناه عمرو من الذنوب حتى استحق أن يضربه زيد كل يوم ويقتله تقتيلا ويبرح به هذا التبريح المؤلم . وهل بلغ عمرو من الذل والعجز منزلة من يضعف عن الانتقام لنفسه . وضرب ضاربه ضربة تقضى عليه القضاء الاخير

سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرق غيظاً وحنقاً ويضرب الارض بأقدامه فأجابه

الشيخ ليس هناك ضاربٌ ولا مضروب وإنما هي أمثلة يأتي بها النحاة لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين . فلم يعجبه هذا الجواب وأكبر أن يعجز مثلُ هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة في هذه القضية فغضب عليه وأمر بسجنه . ثم أرسل الى نحويّ آخر فسأله كما سأل الاولَ فأجابه بنحو جوابه فسجنه كذلك . ثم مازال يأتي بهم واحداً بعد واحد حتى امتلأت السجون وأقفرت المدارس وأصبحت هذه القضية المشؤومة الشغل الشاغل له عن جميع قضايا الدولة ومصالحها . ثم بدا له أن يستوفد علماء بغدادَ فأمر باحضارهم فحضروا وقد علموا قبل الوصول اليه ماذا يُرادبهم . وكان رئيسُ هؤلاء العلماء بمكانة من الفضل والحذق والبصر بموارد الامور ومصادرها . فلما اجتمعوا في حضرة الوزير أعاد عليهم ذلك السؤال بعينه فأجابه الرئيس إن الجناية التي جناها عمرو يامولاي يستحق أن ينال لاجلها من العقوبة أكثر مما نال . فانبسطتْ نفسه قليلا وبرقت أساريرُ وجهه وأقبل على محدثه يسأله ما هي جنايته . فقال له إنه هجم على اسم مولانا الوزير واغتصب منه الواو فسلط النحويون عليه زيداً يضربه كل يوم جزاء وقاحته وفضوله « يشير الى زيادة واو عمرو واسقاط الواو الثانية من داود في الرسم » فأُعجبَ الوزير بهذا الجواب كل الاعجاب . وقال لرئيس العلماء أنت أعلم من أقلّته الغبراء . وأظلّته الخضراء . فاقترح عليّ ما تشاء . فلم يقترح عليه إلا إطلاق سبيل العلماء المسجونين . فأمر باطلاقهم وأنعم عليهم وعلى علماء بغداد بالجوائز والصلات

أحسن داود باشا في الاولى وأساء في الاخرى . ولو كنتُ مكانه لما أطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتى آخذَ عليهم عهداً وثيقاً أن يتركوا هذه الامثلة البالية الى أمثلة جديدة مستطرَفة تؤنسُ نفوس المتعلمين وتذهب بوحشتهم وتحول بينهم وبين النفور من منظر هذه الحوادث الدموية بين زيد وعمرو . وخالد وبكر

لاينال المتعلم حظه من العلم إلا إذا استطاع مطابقته على العمل والانتفاع به في مواطنه ومواقفه التي وضع لاجلها . ولن يستطيع ذلك إلا إذا استكثر له معلمه من الامثلة والشواهد الملائمة لقواعد ذلك العلم وافتنَّ له في ايرادها افتنانا يقرّب الى ذهنه تلك الصلةَ بين العلم

والعمل ويسهل له الوصول الى القدرة على تلك المطابقة . وإن أكثر المتعلمين فى مدرسة الازهر أبعدُ الناس عن القدرة على المطابقة لِما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف عند المثل الواحد لكل قاعدة من قواعد العلم . فلو أنك أردت أحدَهم على أن يخرج فى المنطق عن الحيوانية والناطقية . وفى النحو عن ضرب زيدٍ عمراً وقتلِ خالدٍ بكراً . وفى البيان عن تشبيه زيد بالبدر واستعارةِ الاظافر للمنية . وفى الصرفِ عن فعللَ وافعوعل . لوجدتَ فى نفسه من الجهد والمشقة وفى لسانه من العِيّ والحصر ما يحزنك على أعوام طوال قضاها بين المحابر والدفاتر . ثم لم يحصلْ من بعدها على طائل

علامَ يتعلم الطالب النحو والصرف إن عجز عن أن يقرأ صحيحاً فى كل كتاب وكل صحيفة . وعلامَ يتعلم علوم البلاغة إن عجز عن معرفة أسرار الكلام وأوجه بلاغته وفهم المراد من مختلفات أساليبه وعن البيان بياناً فصيحاً يضمّنه ما يشاء من أغراضه ومقاصده . وعلامَ يتعلم المنطق إن عجز عن التمييز بين فاسد القضايا وصحيحها فى كل مناحيه ومذاهبه . وإن لم يكن الموضوعُ الانسان . ولا المحمولُ الحيوان الناطق

عجيب جداً أن يفهم الصانع الاميُّ أن العلم للعمل فلا يتعلم النجارة الا ليصنع الابواب والصناديق . ولا الحدادةَ إلا ليصنع الاقفال والمفاتيح . وأن يجهل المتعلمُ هذه القضية الضرورية فلا يهمه من العلم إلا الاستكثارُ من المعلومات والقواعد وإن عجز بعد ذلك عن التصرف فيها . والانتفاع بها فى مواطنها .

ما دامت مدرسةُ الازهر على هذه الحال من أسلوب التعليم العقيم فليس بمقدورها فى مستقبل الايام أن ينبغَ منها العلماء الذين تستطيع أن تنتفع بهم الامة انتفاعَ أمثالها بأمثالهم فى مشارق الارض ومغاربها . فويل للعلم من العلماء

ابو الشمقمق (١)

إن كثيراً من الفقراء لم تمتدّ يدُ الفقر الى رءوسهم . كما امتدت الى جيوبهم . فهم يدركون

(١) هو فى الاصل رجل أديب من أدباء المولدين كان شديد الفقر

كما يدرك الاغنياء . ويفهمون كما يفهمون . وكما أن فى أغنياء الجيوب فقراء الرءوس . كذلك فى فقراء الجيوب أغنياء الرءوس

ولقد جلستُ فى منزلى صبيحةَ يوم مع قوم من الماديين المستهترين الذين ملأ المالُ فراغ أذهانهم حتى أنساهم كلَّ شىء وأنساهم أنفسهم قبل ذلك . فأخذوا يتجاذبون أسلاك الأحاديث الذهبية ما بين تاجر يعجب بصفقته الرابحة . وزارع يفخرُ بقلة ما أعطى وكثرة ما أخذ . وآخرَ يعلل نفسه بكثرة الغَلات وارتفاع الاسعار . والكل متفقون على أن السعادة التى أظلتهم أجنحتها فى هذا العهد الاخير عهدِ الاحتلال عهد الحرية والمساواة عهد الترقى والعمران هى أشبه شىء بسعادة المتقين فى جنات النعيم

كل هذا وأبو الشمقمق جالس ناحية يخزُر طرفه . ويهز رأسه . ويُصعّد أنفاسه . ويَعضّ أضراسه . ويئن من قلبه أنينا خفيا يكاد يسمع فيه السامع قول الشاعر

فيالك بحراً لم أجد فيه مَشربا * على أن غيرى واجدٌ فيه مَسبحا

فما هو إلا أن قضوا لُباناتهم من الكلام المملول والحديث المُعاد حتى قاموا يطيرون مع الآمال . وراء الأموال . فأشرت إلى أبى الشمقمق أن يتخلف فتخلف فسألتهُ مالك لم تشترك معنا فيما كنا فيه . فأجاب : إنى أكره الفضول من الحديث وقد فرّق المقدار بينى وبينكم فى المال . فلا أشترك معكم فى المقال . فقلت : ألا يعجبك يا أبا الشمقمق حديثُ النهضة الحديثة التى نهضتها الامة المصرية فى العهد الاخير . وأنت فرد من أفرادها . وجزء من أجزاء جسمها . فنهوضها نهوضُك . وسقوطها سقوطُك . والامة كما تعلم هى الفرد المكرّر والواحد الدائر . فأنت الأمة والأمة أنت . فقال والله لا أدرى هل تكلمنى بلسان الصوفية ولستُ بصوفىّ . أم بلغة الفلاسفة ولا أفهم للفلسفة معنى . وكأنك تقصدنى بالفرد المكرّر والواحد الدائر . فان كنت تريد أنى فرد مكرّر كثيرُ الأشباه والأمثال فى العوز والفاقة . وواحدٌ لا سندَ لى ولا عضد . ودائرٌ فى مدارج الطرق ومَعابر السبل . فقد أصبتَ وأحسنت . وإن كنت تريد معنى غير ذلك . فأنا لا أفهم إلا كذلك . فهل لك أن تُعفينى من هذه المعمّيات وتزنَ كلامك على قدر عقلى وتُحدّثنى

فما يتناوله سمعي و بصري . فقلت أنا لم أخرج بك عن المحسوس المعروف . ولا أريد إلا أن الامة ليست في الخارج شيئاً غير أفرادها فاذا سعدت أو شقيت فالسعداء والأشقياء أبناؤها . وحسبك أن ترى تقدم الأمة المصرية في ثروتها وعمرانها . و بذخها وترفها . وكثرة ناطقها وصامتها . فتسعد بسعادتها وتُسر بسرورها . فقال إن لم تبين لى سهمي من هذه السعادة ونصيبي من ذلك الارتقاء فلا أصدّق سعادةً ولا أتصوّر ارتقاء . ومادمتُ أرى أن لى تشخُّصاً متميزاً عن تشخّص سواي من السعداء . و يداً تقصر عما يتناولونه . و بطناً لا يمتلئ بما تمتلئ به بطونهم . ومادمت لا أرى واحداً بينهم يلبس معي ردائي الممزق . وقيصي المخرّق . و يقاسمني همي . و يشاطرني فقري . فهيهات أن أسعد بسعادتهم . وأُسر بسرورهم . وهيهات أن أفهم معنى قولك أنت الامة والامة أنت . فقلت إن الغيث إذا نزل يسقي الخصيب والجديب . والنجد والوهد . و ينتظم من الارض الميتَ والحي . فقال كلُّ سماء فيها هذا الغيثُ إلا سماء مصر وغيثها . فاني أراه

كبدر أضاء الارض شرقا ومغربا ❊ وموضعُ رجلي منهُ أسود مظلم

مالي وللروض الذي لا أستنشق رَوحه وريحانه . والقصر الذي لا أدخله مالكا ولا زائراً . وهب أن الطرق مفروشة بالحرير والديباج لا بالحصى و « الاسفلت » فهل أبقى لى الدهر من حاسة اللمس شيئاً فأُميز بين خشن الملمس وناعمه . ومعوج الارض ومستقيمها . وهبني إذا مشيت خضت في بحر مائج بأنوار الكهرباء فهل يغني ذلك عني شيئاً . وهل يكون نصيبي منه إلا انكشافَ سوأتي ورثاثتي لأعين الناظرين . ولقد حُبّبَ إليّ الظلام حتى تمنيت دوامه لألبس من ثوبه الطبيعي ما يكفيني مؤونة الرتق والفتق . والتمزيق والترقيع . و بعد فما هو الارتقاء الذي تزعمه وتزعم أنه يعنيني ويشملني . هل نزقت غرائزُ الاحسان في نفوس المحسنين . وهل خفقت قلوب الاغنياء . رحمة بالفقراء . فقلت نعم . أما ترى الاموال التي يتبرع بها الاغنياء للمجتمعات الخيرية والتي ينفقها المحسنون على بناء المدارس والمكاتب والمستشفيات . فقال إن هذه التي تسميها مكارم . لا يسميها أصحابها إلا مغارم . ألجأهم اليها التملق للكبراء . وحب التقرب من الرؤساء .

والطمع في الزخرف الباطل . والجاه الكاذب

مالي وللمدارس والمستشفيات وأنا جوعان خبزلا جوعان علم . ولا مرض عندي إلا مرضُ الفاقة . فهل أجد في المدارس خبزاً أو في المستشفيات دواء كذلك الدواءَ الذي وصفه أحد الاطباء القدماء لرجل جائع دخل عليه وشكا له مرضاً فعرف سر مرضه فأعطاه عُلبة وكتب عليها « يؤخذ منه عند اللزوم » فلما ذهب بها الفقير وفتحها وجد فيها عشرةَ دنانير

أنا رجل ضعيف البصر ضعيف القوة كما ترى . فلا قدرة لي على العمل . وعندي صِبيةٌ صغار ليس بينهم من يستطيع عملاً أو يحسن صنعاً . ولقد كان لي في الزمن الذي تذمونه . والعهد الذي تنقمون عليه . مُنفسَح عظيم في منازل المحسنين . ومورد نمير من صدقاتهم وهباتهم . وظل ظليل من تحنن الاغنياء ورحمتهم بالفقراء البائسين . أما اليوم فاني أبيت طاوياً . وأُصبح شاكياً . وأغدو راجياً . وأروح بائساً

وهنا أرسلَ من جفنيه دمعةً ليست بأول دمعة بلّل بها رداءه ولكنها أحرُّ من سابقاتها لانه لم يَبكِ في غير خلوته غير هذه المرة

ثم نهض ومد يده الى مودّعاً فمسحتُ بيمينى دمعةً واحدة من دموعه الكثيرات

دورة الفلك (١)

أيها القصر : أين الكوكبُ الزاهر الذي كان يتنقل في أبراجك . أين النسرُ الطائر الذي كان يُحلّق في أجوائك . أين الملك القادر الذي كان يطلُع شمساً في صباحك . وبدراً في مسائك

أين الاعلامُ والبنود تخفق في شرفاتك . والقواد والجنود تخطر في عرصاتك . أين الشفاه التي كانت تلثم تراتك . والافواه التي كانت تقبل أعتابك . والرءوس التي

(١) كتبت بمناسبة سقوط السلطان عبد الحميد

كانت تُطرق لهيبتك . والقلوب التي كانت تخفق لروعتك

أين الصوت الذي كان يجلجل فيقرع أذن الجوزاء . ويهدر فتلتفت عيون السماء .

أين الفلك الذي كان يدور بالسعد والنحس . والنعيم والبؤس . والرفع والخفض . والابرام والنقض

كيف استطاع الدهر أن يمدّ يده إلى شملك فيبدّده . وجمعك فيفرّقه . وسمائك فيكوّر شموسها . وأرضك فيزعج أنيسها

أين كانت أسوارك وأبوابك . وحراسك وحجابك . وكيف عجزت أن تمتنع على القضاء . وتصدّ عن نفسك عادية البلاء

ولم أر مثل القصر إذ ريع سربه * وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
تحمل عنه ساكنوه وهتّكت * على عجل أستاره وستائره

أيها السجن : حلّ بأرجائك اليوم ملك كانت تضيق به الدنيا فكيف وسعته . وتعجز عن احتماله قلل الجبال الرواسي فكيف احتملته

رفقاً به لا تزعجه ولا تحرج صدره . وضم جانحتيك عليه كما تضم على القلب حنايا الضلوع . واعطف عليه عطف المرضعات على الرضيع . وارحم هذا الجلال الذاهب . والعز الزائل . والرأس الذي بيضته حوادث الدهور . والظهر الذي قوسته أيدي المقدور

أيها الدهر : ألا تستطيع أن تنام عن هذا الانسان لحظة واحدة . ألا تستطيع أن تسقيه كأس السرور خالصة لا يمازجها كدر ولا يشوبها عناء

إن كنت تريد أن تسلبه فلم أعطيته . وإن كنت تريد أن تعطيه فلم سلبته . كان خيراً له أن لا تعطيه حتى لا تفجعه في تلك العطية . وأن لا تسقيه كأس السرور حتى لا يتجرع ذلك السم الذي أودعته في تلك الكأس

أيها الراحل المودع : كان ارتفاعك عظيماً فوجب أن يكون سقوطك عظيماً

إنك ذقت حلاوة الحياة خالصة فلما ذقت مرارتها جزعت وقطّبت كما يجزع ويقطّب كلّ من ذاق من الشراب ما لا عهد له به . ولا قبل له باحتماله

لا تأس على ما فاتك فإنما كان وديعة من ودائع الدهر أعارَكها برهة من الزمان ثم استردها

إنك لا تدرى لعل الله أراد بك خيراً فمنحك قبل حلول أجلك فرصة من الزمان تخلو فيها بنفسك . وتراجع فيها فهرس أعمالك . فان رأيت خيراً اغتبطت . أو شراً استغفرت .

قضى الله أن يقيم فى كل حين لهذا العالم الغافل الراقد عبرة من العبر تزعجه من رقدته . وتوقظه من غفلته . فكنت أنت عبرة هذا الدهر وموعظته

من بات بعدك فى ملك يُسرُّ به ❊ فإنما بات بالاحلام مغروراً

تأبين فولتير (١)

فى مثل هذا اليوم . منذ مائة سنة . مات الرجلُ العظيم . مات الرجلُ الخالد . مات فولتير

ما مات فولتير حتى احدودب ظهره تحت أثقال السنين الطوال . وأثقال جلائل الاعمال . وأثقال الامانة العظيمة التى عُرضت على السموات والارض فأبين أن يحملنها فحملها وحده . وهى تهذيب السريرة الانسانية فهذّبها فاستنارت فاستقام أمرُها

مات فولتير مرذولاً محبوباً فى آن واحد . يُبغضه الماضى لانه تجهله . ويحبه المستقبل لانه عرفه

إن فى هاتين العاطفتين . البغض والحب . سراً عظيماً من أسرار المجد العظيم . لذلك الرجل العظيم

(١) وهى ترجمة خطبة خطبها فكتور هيجو فى باريس فى حفلة تأبين فولتير الفيلسوف المشهور سنة ١٨٧٨ بعد مرور قرن على وفاته مع بعض تصرف

كان وهو على سرير الموت محفوفا بعاطفتين مختلفتين شكلا . متفقتين معنى . لانهما جميعاً فى سبيل مجده وفخاره . كان ينظر أمامه . فيسره منظر التبجيل والتعظيم من حاضره ومستقبله . ويلتفت وراءه فيسطر به مشهد البغض والازدراء والحقد الذى يكنه الماضى فى صدره لاولئك الرجال البواسل الذين قاتلوه فانتصروا عليه

كان فولتير رجلا وأكبر من رجل . كان وحده أمة كاملة . إنه عاهد نفسه على إنجاز عمل فأنجزه ولم يخلف وعده . وكان الارادة الالهية المتجلية فى الشرائع . تجليها فى الطبائع . نثرت كنانة هذا المجتمع الانسانى وعجمت عيدانه فوجدت فولتير أصلبها عوداً فاختارته للقيام بالعمل الذى قام به فأتمه

إنا أتيناها هنا لفصل الخطاب فى المسائل الاجتماعية . جئنا لنرفع شأن المدنية ونكرم الفلسفة إكراماً ينفعها ويفيدها . جئنا لنتلو على القرن الثامن عشر رأى القرن التاسع عشر فيه . جئنا لنكرم المجاهدين . والعاملين المخلصين . اجتمعنا لنمهد الطريق للوحدة الانسانية التى يسعى اليها العلماء والعاملون . والصناع المجدون . وجملة القول إنا ما اجتمعنا هنا إلا لنمجد العاطفة الشريفة السامية عاطفة السلام العام

إنا نمجد السلام حباً فى المدنية وحرصاً على رونقها ورُوائها . فان السلام فضيلة المدنية والحرب رذيلتها

نحن فى هذه الساعة العظيمة . فى هذا الموقف الرهيب . نجثو على الركب ونعفر جباهنا بين يدى الشريعة الادبية ونقول للعالم الذى ينصت لسماع صوت فرنسا « لاقوة إلا قوة الضمير ولا مجد إلا مجد الذكاء » ذلك فى سبيل العدل . وهذا فى سبيل الحق

لقد كان شأن المجتمع الانسانى قبل الثورة الفرنساوية على هذا المثال . الشعب فى المنزلة الدنيا . وفوق الشعب الدين والقضاء . هذا يمثله القضاة . وذاك يمثله « الاكليروس »

أتدرون كيف كان الشعب . وكيف كان الدين . وكيف كان القضاء فى ذلك العهد . كان الشعب جهلا . والدين رياء . والقضاء ظلماً

إن كنتم فى شك مما أقول فانى أقص عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى

فيهما غناء ومقتنعا

في ١٣ أكتوبر سنة ١٧٦١ وُجد شاب مصلوباً في الطبقة الارضية من بيت في مدينة « طولون » فهاج الشعب ولغط « الاكليروس » وبحث القضاة. فكانت النتيجة أن كان الشاب منتحراً فسمي قتيلا. وكان والده بريئاً فسمي قاتلا

هكذا أراد الدين وأرادت مصلحته أن يهلك والد الفتى لانه كان بروتستانياً ولانه كان يمنع فتاه أن يتدين بالكثلكة. إنها لجناية عظيمة جداً ينكرها الدين ويحيلها العقل. ولكن هان عليهم أمرها ولم يحفلوا بالشريعتين شريعة القلب وشريعة العقل. فحكموا أن الشيخ الكبير. قتل ولده الصغير

هكذا قضى القضاء وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها

في شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيق إلى الميدان العام شيخ أبيض الشعر هو « جان كالاس » ثم جُرد من ثيابه وطرح على دولاب العذاب وشُدت به أطرافه وتُرك رأسه متدلياً

ثلاثة رجال تلوثت أيديهم بدم القتيل. كاهن يحمل الصليب. وجلاد يحمل القضيب. وقاضٍ يحمل في صدره عهد القوم اليه بالتنكيل والتعذيب

لم يكن الشيخ المسكين وقد شق الخوف مرارته وتمشى قلبه في صدره لينظر إلى الصليب في يد الكاهن بل إلى القضيب في يد الجلاد

رفع الجلاد القضيب وضرب ذراع الشيخ ضربة كاسرة صاح على أثرها صيحة مؤلمة ثم أغمى عليه فتقدم القاضي الرحيم وأمر له بالمنبهات فانتعش فضربه الجلاد الضربة الاخرى فوق الذراع الآخر فعاد إلى صرخته وإغمائه. فعادوا إلى تنبيهه وإنعاشه. وهكذا حتى تم لكل ذراع من ذراعيه ضربتان وصدعتان. فكأنما قتلوه قبل موته ثماني مرات

في الاغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب تقدم الكاهن ومد اليه الصليب ليُقبله فحول وجهه عنه. وكذلك تبلغ القسوة الدينية من نفوس المتدينين. فأقبل الجلادُ

وسدد إلى صدره الطرف الغليظ من القضيب الحديد وضربه ضربة ألصقت صدره بظهره فكانت القاضية

على هذه الصورة مات « جان كالاس »

وما هى الأيام قلائل حتى عرف الناس أن الفتى مات منتحراً لا مقتولا . فحكموا ببراءة الشيخ بعد أن نفذ سهم القضاء فيه

أما الحادثة الاخرى فهى عبرة الشباب كما كانت الاولى موعظة الشيخوخة

بعد مضى ثلاث سنين من تاريخ الحادثة الاولى وجدوا فى « ابفيل » فى ليلة عاصفة صليباً عتيقاً أكل السوس أحشاءه حتى عاف البقاء فيه مطرحاً فوق الجسر بعد أن عاش فوق السور ثلاثة قرون

من ألقى به من أعلى السور . من أهانه . من ذا الذى دنس هذا الاثر المقدس . من ذا الذى أجرم هذا الجرم العظيم

ربما عصفت به ريح . أو عبث به عابر طريق . أو هوى به ضعف الشيخوخة وإعياء الهرم . لالا . كل ذلك لم يكن . لان الدين أبى إلا أن يوجد مجرماً . هنالك أعلن مطران « أميان » براءة من غفران الله ورحمته لكل مؤمن علم أو ظن أنه علم شيئاً عن هذه الحادثة فكتمه

إن الحرمان فى الكثلكة جريمة فظيعة قاتلة متى أوحى به التعصب الذميم . الى الجهل العظيم . كان هذا الحرمان سبباً فى أن القضاء عرف أو ظن أنه عرف أن ضابطين اسم أحدهما (لابار) والآخر (دبتالون) مرا على جسر « ابفيل » فى تلك الليلة المشؤومة يترنحان سكراً وينشدان نشيداً عسكريا . مرا بالجسر وأنشدا النشيد فهما المجرمان . وكانت المحكمة مقدس « ابفيل » ولم تكن بأقل عدلاً وإنصافاً من مجلس « الكابيتول » فى « طولوز » فأمرت بالقبض على الرجلين فاختفى دبتالون وقبض على لابار وأسلم الى القضاء . فاعترف بالنشيد وأنكر المرور على الجسر فحكمت عليه محكمة ابفيل بالاعدام وأيدحكمها برلمان باريس فدنت الساعة المخيفة الهائلة

لقد تفننوا فى تعذيب لابار و إرهاقه ليكشفوا عن سر فعلته . وعن شركائه فى جريمته . أى جريمة المرور على الجسر و إنشاد النشيد

لقد عذبوه عذابا أليما حتى أن الكاهن الذى جىء به ليتسمع اعترافه أغمى عليه حينما سمع قرقعة عظام ركبتيه

مضى هذا اليوم وجاء اليوم الثانى وهو يوم ٥ يونيه ١٧٦٦ وجىء بالشاب المظلوم الى ساحة « ايفيل » الكبرى حيث تشتعل نار العذاب وتضطرم اضطراماً فأسمعوه نص الحكم ثم بتروا يده ثم استلوا لسانه بقابض من الحديد فاستأصلوه . ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسه وألقوا بها فى النار

على هذه الصورة مات « الشيفاليه دى لابار » كما مات من قبله « جان لاكاس »

أحزنك هذا المنظر يا فولتير وآلم نفسك وملك عليك شعورك و وجدانك فصحت صيحة الرعب والجزع فكانت تلك الصيحة الحجر الاول فى بناء مجدك العظيم الخالد

هنالك انبعثت نفسك الى النزول فى ميدان المجتمع الانسانى لتكف عادية الظالمين وتقلم أظفار الوحوش الضارية . وجلست فى منصة القضاء لتحاكم الماضى على جرائمه وتنتصف منه للمستقبل فانتصفت وانتصرت وكنت من المحسنين

فيأيها الرجل العظيم : طبت حياً وميتاً

حدثت تلك الحوادث التى ذكرتها على مشهد من المجتمع المهذب الراقى وفى حياة حافلة بالسعادة مغتبطة بالهناء يغدو اليها الانسان لاهياً . ويروح ساهياً . لا يرفع رأسه فيعلم ما فوقه . ولا يخفضها فيدرى ما تحته

حدث ذلك وأيام البلاط أعياد و « فرسايل » تتلألأ حسناً و بهاء . و رونقاً وماء . وظرفاء الشعراء مثل « سان اولاير » و « بوفلير » و « جنتيل برنار » لاهون بالغزل الرقيق والوصف الجميل

حدث ذلك و باريس تتجاهل ما يجرى حولها فاستطاع القضاء الظالم بمعونة القسوة الدينية أن يمثل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع بذلك القضيب الحديد . وأن يستل لسان الفتى

لأنه أنشد الاناشيد

كان المجتمع في ذلك التاريخ مؤلفاً من قوى عظيمة هائلة . قوةُ البلاط . وقوة الاشراف . وقوة المال . وقوة الشعب المائج المتدفع . وقوة الحكومة التي كانت أسداً على الرعية ونعامةً بين يدي الملك تجثو أمامه خاضعة صاغرة إلا أن جثيها كان على جثة الشعب . وقوة « الاكليروس » المؤلف من الرياء الكاذب والتعصب الأعمى

تقدم فولتير وحده وأثار حرباً عواناً على هذا العالم المؤلف من تلك القوى المختلفة المخيفة ولم يره أكبر من أن ينخذل . ولم ير نفسه أصغر من أن ينتصر

أتدري ما كان سلاحه . ما كان له سلاح غيرُ تلك الاداة التي تجاري العاصفة في هبوبها . وتسبق الصاعقة في انقضاضها . ما كان له سلاحٌ غيرُ القلم . فبالقلم حارب وبالقلم انتصر

انتصر فولتير . فولتير وقف وحده تلك المواقفَ المشهودة . فولتير أدار وحده رحى تلك الحروب الهائلة . حرب العلم والجهل . والعدل والظلم . والعقل والهوى . والصلاح والفساد . فتم على يديه الغلبُ للخير على الشر وفاز فوزاً مبيناً

كان فولتير قلباً وعقلا . كان له رقة الفتاة في غلالتها[1] وشدة الاسد في لبدته

فولتير محى الخرافات الدينيةَ والعاداتِ الفاسدةَ وأرغمَ أنف الكبرياء . وأذل عز الرؤساء . ورفع السوقيَّ الى حيث لا يصل اليه ظلم القاضي وتنطع الكاهن

علّم ومدّن وهذّب ولقي في سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفي والقهر ما يكسر سورة النفس فلم تنكسر سورته . ولم تفتر عزيمته . بل كان يلقى الاستبداد بالسخرية . والغضبَ بالاستخفاف . والقوةَ القاهرة . بالابتسامة المؤثرة

أقف هنا قليلاً إجلالاً لابتسامة فولتير

فولتير هو الابتسامة . والابتسامة هي فولتير

أفضل مزايا الرجل الحكيم أن يملك نفسه عند الغضب وكذلك كان فولتير

---

(١) الغلالة شعار يلبس تحت الثوب

كان عقله ميزان أعماله فما غلبه حتى الغضب للحق

كنت تراه عابساً مقطباً فما هي إلا كرة الطرف حتى ترى فولتير الضاحك المبتسم في مكان فولتير العابس المقطب

يكاد يكون ابتسامه ضحكاً لولا حزن الحكيم وهمّ العاقل

كان ابتسامه كبارقة السيف يرتاع لها الاعداء . ويرتاح لها الاولياء

كان يبتسم للقوى فيخجله بتهكمه واستخفافه . وللضعيف فيسره بتحننه وانعطافه

فلنمجد ذلك الابتسام الذي كانت أشعته كأشعة الفجر تمحو الظلام وتبعث الانوار

نعم الابتسام ابتسام أنار الطريق للعدل والحق والصلاح وكشف عن ظلمات التقليد

إن ابتسامة فولتير أنشأت هذه الهيئة الاجتماعية وزينتها بالاخاء والمودة والحرية والمساواة . فنال العقل منزلته من الاجلال والاعظام . سواء أسكن القصر الكبير . أو الكوخ الحقير . ولبس المعلم تاج الملك فتصرف في العقائد الباطلة والعادات الفاسدة والخرافات الدينية تصرف الحاكم القدير . ونشر السلام أجنحته البيضاء على المجتمع الانساني فقرت السيوف في الاغماد . وهدأت الدماء في العروق والأرواح في الاجسام . كل ذلك بفضل ابتسامة فولتير . ولسوف يأتي ذلك اليوم العظيم يوم الرحمة بالضعفاء والعفو عن الخاطئين فيبتسم فولتير في السماء ابتسامة تتلألأ بين لألاء النجوم

فلنمجد ابتسامة فولتير كل التمجيد . ولنكبرها كل الاكبار

هل كان فولتير يحلم دائماً فلا يستخف حلمه الغضب . كلا بل كان يغضب أحيانا في سبيل الحق

إن التوسط وحفظ الموازنة بين الاخلاق هو القانون العقلي للانسان حتى لا تهبط به كفة وتعلو به أخرى . وحتى لا يهلك بين عاطفتي الحب والبغض . وإن الفلسفة هي الاعتدال وإظهار الحقائق واضحة بين مؤتلفات الاعمال والاقوال . ولكن أرى أن حب الحق يجب أن يكون في مرتبة الغلو حتى تهب عاطفته هبوب العاصفة فتذهب بالاقذاء والاقذار

يعيشُ المرءُ بين سعادتين من حاضرهِ ومستقبله . أما الاولى فيكفلها العدل . وأما الثانية فيحرسها الرجاء والأمل . لذلك يُحب الناس القاضيَ العادل . والكاهنَ الصالح . لان الأول صورة العدل . والثانى مِثالُ الرجاء . فاذا انقلبَ العدلُ ظلماً . والأمل يأساً . عافهما الانسان ولوى وجهه عنهما . وقال للقاضى « لا أحب قانونك » وللكاهن « لا أعتقد بدعتك » وهناك يهبّ الفيلسوف الغيور غاضباً فيُحاكمُ القضاء أمامَ العدل والكهنوتَ أمام الله . وكذلك فعلَ فولتير فكان من المحسنين

إن الرجل العظيم لا يَظهر فى المجتمع وحيداً إلا قليلا . وكلما كثر العظماء حوله ارتفع شأنه وعلا ذكره . فهو كالشجرة تكونُ فى نظر الناظر أطولَ فى الغابةِ الشجراء . منها فى التربة الجرداء . لانها تكون فى منبتها ومستقرها . وكان فولتير فى غابة من العقول الكبيرة . روسو وديدرو وبوفون وبومارشه ومونتسكيو . أولئك القوم المفكرون هم الذين علموا الناس النظر فى حقائق الاشياء والتفكرَ الموصلَ الى إتقان الاعمال . وعلموهم أن صلاح القلب أثر من آثار صلاح العقل فأجادوا وأفادوا

مات أولئك القوم العظام وهوَت من أفقها كواكبهم . ولقد كانوا فى حياتهم جسداً وروحا . أما الجسد فقد طواه القبر . وأما الروح فهى الثورة التى تركوها من بعدهم

أجل . إن الثورة روحهم والمظهرُ الساطع المتلألئ بحكمتهم ومبادئهم

هم فى الحقيقة أبطال الثورة المقدسة التى هى خاتمة الماضى وفاتحة المستقبل

إنك تراهم بعين بصيرتك فى كل مواقفها ووقائعها . إذا اخترقتْ أشعة العقل حجاب المسببات ونفذت الى الاسباب ترى فى نور الثورة الساطع أن ديدرو كان واقفاً وراء دانتون وروسو وراء روبسبير وفولتير وراء ميرابو ونجد أن أبطال الثورة صنيعة أبطال الفلسفة (١)

إن الكلمةَ الاخيرة التى أنطقُ بها فى هذا الموقف هى دعاء المجتمع البشرى إلى التقدم بهدوء وسكون وثبات ووقار

(١) دانتون وروبسبير وميرابو أبطال الثورة الفرنساوية

قد وجد الحق ضالته التى كان ينشدها وهى الاخاء الانسانى . والتعارف النفسى . فمن العبث أن تشغل القوة بعد ذلك مكانا من هذا المجتمع . فان فعلت كان أليق الأسماء بها الاستبداد

إن المجتمع الانسانى أنكر على القوة حقها المزعوم وضاق صدره بجرائمها وآثامها فقاضاها بين يدى التمدن ووضع بين يديه جريدة المتهمين من الرؤساء والزعماء وأتى بالتاريخ شاهداً على دعواه فقضى التمدن له عليها وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً

شف ثوب الرياء عما تحته وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لا غبار عليها فأصبح الابطال والمجرمون فى نظر الانسان سواء

هدم التمدن تلك القاعدة الفاسدة . وهى أن الجرم العظيم أصغر من الجرم الصغير . فأدرك الانسان أن قتل الشعوب أكبر إثماً وأعظم جريمة من قتل الأفراد . واستكبر أن يعتبر الحرب مجداً وهو يعتبر السرقة عاراً . وبالجملة عرف أن الجريمة جريمة حيث حلت . وفى أى مظهر ظهرت . وأن القاتل لا يغنى عنه من الله شيئاً أن يسمى القيصر أو يدعى الامبراطور . ولا يخفى على الله من أمره شىء سواء ألبس تاج الملك أو قلنسوة الاعدام

فلنصرح بالحقيقة المقررة الواضحة . ولنحتقر الحرب أشد الاحتقار

إن الحرب المباركة لا أثر لها فى الوجود

إن منظر الدماء والاشلاء أفظع منظر

لا يعقل أن يكون الشر طريق الخير . وأن يكون الموت وظيفة الحياة

أيتها الامهات الجالسات حولى . خففن من أحزانكن فقد أوشكت يد الحرب أن تكف عن اختلاس أفلاذ أكبادكن

أتشقى المرأة فتلد . ويغرس الزارع فيكسو الارض بساطها الأخضر . ويجهد العامل فيملأ الخزائن ذهباً وفضة . ويأتى الصانع بعجائب المصنوعات . وغرائب

المدهشات . حتى إذا أخذت الارض زخرفها . وفاخرت السماء بنجومها وكواكبها . وذهبنا لرؤيته بمعرضها العام وجدناه ساحة القتال

لا لا . إنا لا نستطيع أن نخدع أنفسنا ونُنكرَ أن الساعة التى نحن فيها تشتمل على بضع دقائق محزنة تكدر صفوَها وتنقص من سرورها

لا تزال فى مرآة السماء الصافية سحابة سوداء

إن الشعب لم يقضِ كلَّ أربه من السعادة لأن الحرب لم تزل باقية

فلنذكر عند ذكر ملوكِ الحرب فولتير وجان جاك وديدرو ومونتسكيو ملوك السلام . ولنوجهْ وجهتنا الى تلك الروح العالية . إلى تلك الحياة العظيمة . الى ذلك الدفين المقدس . الى فولتير . ولنركع أمام قبره عسى أن يمدنا بروح منه ويهدينا الى حظيرة السلام . فانه بعد مرور قرنٍ على موته لم يزل فى الاحياء الخالدين

ولنقف فى طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفاكين بصوت عال . كفى كفى . إنها همجية . إنها تشوه وجه المدنية الجميل

إن أسلافنا من الفلاسفة هم رُسلُ الحق الى البشر . فلنتضرعْ اليهم فى تذكارهم هذا أن يتداركوا الفتنة قبل وقوعها ويُنادوا أن الحياة ملك للانسان . وعظيمٌ عليه أن تُسلبَ منه . وأن التمتع بالحرية حقٌ من حقوق العقول والافكار

إن النور لا أثر له بين أضواء القصور . فلنطلبه بين ظلمات القبور

العلماء والجهلاء

لا تحسبنَّ أن الفلسفة الاصطلاحية مطلب من المطالب التى لا تُرام . أو أن بين من نسميهم العلماء ومن نسميهم الجهلاء ذلك الفرقَ العظيمَ الذى يتصورُه الناس عند ما يريدون التفريق بينهما . و إنزالهما منازلهما . فالعلماء والجهلاء إن دققتَ النظر سواء . لا فرق بينهما إلا أن هؤلاء يعلمون المعلوماتِ منظمة . وأولئك يعلمونها مبعثرة . وأن

هؤلاء يحسنون البيان عنها وأولئك لا يبينون

ومن نظر الى البصائر نظراً ثاقباً نافذاً وجد أن المعاني الصحيحة والقضايا الكونية المتعلقة بالخير والشر . والنفع والضر . والمسائل المنوطة بالانسان في حياتيه المادية والمعنوية يشترك في العلم بها الناس جميعاً عامتهم وخاصتهم . كبارهم وصغارهم . من ربي منهم تحت سقوف الكليات . ومن عاش تحت سقوف السموات . لان العلم ينبوع يفور من الداخل . لا سيل يتدفق من الخارج . ولأن المعلومات كامنة في النفوس كمون النار في الزند والقوة في المادة . وما وظيفة التعليم إلا استثارتها من مكامنها . وبعثها من مراقدها

وآية ذلك أنك لا تجد مثلاً من أمثال العلماء التي يفخرون بها ويعدونها مظهر حكمتهم . وآية فلسفتهم . ألا وترى في ألسنة العامة وشوارد أقوالها وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها . كما لا تجد قاعدة من قواعد الحكمة ولا قضية من قضايا الآداب والاخلاق التي نعدها من ذخائر الاسفار ونفائس الأعلاق إلا وهي ملقاة تحت أقدام العامة . ومذالة بين أيدي الجاهلين والاميين

وعندي أنه لولا عجز العامة عن بيان ما يجول في خواطرهم . ويهجس في ضمائرهم . من المعلومات على صورة مرتبة منظمة لما خيل اليهم أنهم يسمعون من الخاصة كلاماً عجيباً . أو معنى غريبا

وليست هذه الغبطة التي نراها تعلق بنفوسهم عندما يتلقون أحاديث الخاصة لانهم علموا ما لم يكونوا يعلمون . أو أدركوا ما لا عهد لهم به من قبل . بل لانهم عثروا على من يترجم عن أفكارهم . ويجمع لهم شمل المعاني المبعثرة في أنحاء أدمغتهم . ولأنهم وجدوا في أنفسهم لذة الانس بأفكار تشابه أفكارهم . وآراء تشاكل آراءهم

ولا أخشى بأساً إن قلت إن علم العامة أفضل من علم الخاصة . لانه علم خالص من شائبة التكلف والتعمل . حتى أنك لتجد في بعض الاحايين بين معلومات الخاصة ومذاهبهم وآرائهم ما يضحك الثكلى لغرابته وشذوذه وما يترفع أضيق العامة ذهناً وأضعفهم فهماً أن يجعل له شاناً . أو يقيم له وزناً . ولانه يعلق بالنفس ويتغلغل بين طياتها تغلغلاً تظهر

آثاره على الجوارح . وكثيراً ما تجد بين الجهلاء من تعجبك استقامته . و بين العلماء من يدهشك اعوجاجه . و إن كان صحيحاً ما يقولون من أن العلم ما ينتفع به صاحبه فكثير من الجهلاء . أعلم من كثير من العلماء

فلا تبالغ فى تقدير فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء . ولا تنظر اليهم نظراً يملأ قلبك رهبة وهيبة . ولا تغلُ فى احتقار الجهلاء . وازدراء العامة والضعفاء . ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرى العناوين وعبيد الالقاب

و إنّ فى اختفاء الحقائق الكونية وتنكرها وضلال هذا العالم فى مذاهبه ومراميه وتفرقه مذاهبَ وشيعاً وركوب كلِّ فريق رأسه وهيامه على وجهه ووقوف طلاب الحقيقة فى كل دهر وعصر فى مفارق الطرق ورءوس المسالك حيارى ينشدون فلا يجدون . ويجدّون فلا يصلون . لدليلاً على أن الفلاسفةَ والحكماء والعلماء كلمات غيرُ مفهومات . وأسماء بلا مسمّيات . وأنّ حقائقَ الاشياء وأسرارَ الكائنات قد استأثر الله بعلمها . واحتجنها من دون عباده . ولم يمنحهم منها الا بلّة تزيدهم وجداً كلما وجدوا بردها . وتملأ قلوبهم شوقاً كلما ذوقوا طعمها

ضريبُك فى بنى الدنيا كثيرٌ * وعزَّ اللهُ ربُّك من ضريب
وما العلماء والجهلاء الا * قريبٌ حين تنظر من قريب

الرجل والمرأة

جاءنى أمس من الاسكندرية هذا الكتاب

حضرة السيد المحترم

لا تعجب إن رأيت إعجابى بك ظاهراً فى كل سطر من سطور كتابى هذا فانما أنا أنطق بلسان كثير من العقلاء الذين يحبونك حباً جماً و يعتقدون أنك فريد فى أدبك . فريد فى قلمك . فريد فى تسامحك وتساهلك . لذلك أردنا أن نوجه اليك السؤال الآتى راجين

منك الاجابة عليه

لماذا ترى الهيئة الاجتماعية تحكم على المرأة الفاسقة حكماً صارماً فتنبذها وتحتقرها ولا تحكم بمثل هذا الحكم على الرجل الفاسق مع أن جريمتهما واحدة

هذا ما أردنا أن نسترشد برأيك فيه والسلام

سائل

أيها السائل الكريم

يعتقد كثير من الناس أن الرجل والمرأة سواء في العقل والذكاء . وعندي أنهم أخطأوا في الاولى وأصابوا في الاخرى

تستطيع المرأة أن تجاري الرجل في سرعة الفهم وحضور البديهة ولا تستطيع أن تجاريه في الأناة والرفق والاستمساك وامتلاك هوى النفس والاخذ بفضيلة الصبر على ما تكره وعما تحب

تستطيع المرأة أن تدرك ما يدركه الرجل من الشؤون والاطوار وأن تستخرج كما يستخرج المجهولات من المعلومات . ولكنها لا تستطيع أن تنتفع بمعلوماتها كما ينتفع . لأن بين جنبيها نفساً غير نفسه . وهوى غير هواه . ولأن لها قلباً صغيراً لا يقوى على احتمال ما يحتمله عقله الكبير

يمشي الرجل وراء عقله فيهديه . وتمشي المرأة وراء قلبها فيضلها . فما وقفت معه في موقف الا سقطت بين يديه عجزاً وضعفاً . لانه يعرف السبيل الى قلبها . ولا تعرف السبيل الى عقله

لا تعجب إن قلت لك إن الذكاء غير العقل . فاللصوص والمحتالون والمزورون والكاذبون والفاسقون والمنافقون أذكياء وليس بينهم عاقل واحد . لانهم يوردون أنفسهم موارد التلف والهلاك من حيث لا يغني عنهم ذكاؤهم شيئاً . وكثيراً ما يكون الذكاء الشديد داعية الجنون . حتى أنك لا تكاد ترى ذكياً من الاذكياء إلا وترى له في شؤونه وأطواره أحوالاً شاذة لا تنطبق على قانون من قوانين العقل ولا قاعدة من قواعد

الطبيعة . وعندى أن أكثر ما يصيب النوابغ والاذكيا من بؤس العيش وسوء الحال عائدٌ الى ضعف فى عقولهم . ونقص فى تدبيرهم . و بعدُ فالذكاء فى رأس الانسان كالسيف فى يد الشجاع . وكثيراً ما يضرب الشجاع رأس نفسه بسيفه إذا كان طائشاً أهوجَ لا يملك نفسه فى موقف من مواقف الحزن أو الغضب

فماذا يغنى المرأة ذكاؤها إذا لم يكن وراءه عقل يملكها و يصرفها و يمسك بيدها أن تعثر فى جريانها واشتدادها بعقبةٍ من عقبات هذه الحياة

لابد أن سيثقل هذا الحكم على نفوس النساء ونفوس الرجال الذين يجاملونهن . ولكن ماذا أعمل و بين يدى برهان ساطع ليس فى استطاعتهن أن ينازعننى فيه مع شدة ذكائهن . ولا فى استطاعة أنصارهن من الرجال أن ينقضوه ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

لولا أن الرجل أعقل من المرأة ما كان له عليها هذا السلطان وذلك الغلب . ولا استطاع أن يقودها وراءه كما يقاد الجنيب[1] . ولا أن يملك عليها أمر فقرها وغناها وحبسها واطلاقها وحجابها وسفورها و يستأثر من دونها بوضع القوانين والشرائع الخاصة بها من حيث لا ترى فى نفسها قوة لمدافعتها والخروج عليها

القوى يملك على الضعيف بحكم الطبيعة كل شىء حتى نفسه وهواه . وكذلك كان شأن الانسان مع الحيوان وشأن الرجل مع المرأة

الانسان نوع من أنواع الحيوان لم يكن فى مبدأ خليقته خيراً منه فى شأن من شؤون الحياة . ولكنه كان أوفر منه عقلاً وأوسع حيلة . فما زال يطلب لنفسه الغاية التى تناسب استعداده وفطرته حتى أصبح سيد الحيوان . فمدن المدن ومصر الأمصار وشاد و بنى وتأنق وترفه ثم طرد صاحبه الى تلال الرمال . ورءوس الجبال . يأكل بعضه بعضا . والرجل أخو المرأة وقسيمها فى الرحم والمهد . والأبوة والأمومة . والقومة والقعدة . والنومة واليقظة . ولكنه وجد فى نفسه فضلاً من قوة العقل والتدبير عليها . وكان

(١) الجنيب المهر الذى يقاد الى مهر آخر

ظالماً خشن النفس قاسي القلب فأبى إلا أن يأسرها ويغلبها على أمرها ويملك عليها جسمها ونفسها فتم له ما أراد

ملك عليها جسمها لأنه حجبها عن النور والهواء فأذعنت . وملك عليها نفسها لأنه ألقى في روعها أن ذنبها في الفسق المشترك بينهما أكبر من ذنبه . وأن جريمتها ضعف جريمته فصدقت . وطلب منها أن تسلم إليه الأمر في تدبير شؤونها والتصرف بأموالها فسلمت . وأصبحت تنظر إلى هذه القوانين الجائرة التي وضعها لها والاعتبارات الفاسدة التي اعتبرها بالنسبة إليها كما ينظر إليها هو بعين الاجلال والاعظام

يخدع الرجل المرأة عن شرفها فيسلبها إياه . فإذا سقطت هاج المجتمع الانساني عليها وملأ قلبها هولا ورعبا وأوسع نفسها تقريعا وتأنيبا من حيث لا تطير على الرجل شرارة واحدة من هذه النار المتأججة . لأنه هو الذي وضع هذا القانون وشرع تلك الشريعة . وما كان له أن يقصر في محاماة نفسه ومحاباتها لأنه شره طماع محب لذاته . ولا أن يعدل في القضاء في قضية غيره لأنه ظالم جبار

لو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقل لاستطاعت أن تحجبه في المنزل وأن تتولى شأنه وأن تعبث بعقله فتعظم جريمته وتصغر جريمتها في عينه وأن تنفذ إلى قلبه فتلعب به لعب الصبي بالكرة وأن تحدثه فيصدق وتأمره فيأتمر وأن تسن له القوانين الجائرة والشرائع الفاسدة فيؤمن بها إيمانه بالإله المعبود كما صنع هو بها في جميع ذلك فبلغ منها ما أراد

لا أريد أن هذا الفرق في القوة العقلية بين الرجل والمرأة يمنحه هذا الحق في ظلمها وغلبها على حقها . بل أريد أن هذا الفرق هو سبب ذلك السلطان القاهر . والحكم الجائر

وجملة القول أن حكم المجتمع الانساني بإدانة المرأة الزانية وبراءة الرجل الزاني حكم ظالم . ولو أنه أنصفهما لعرف فرق ما بينهما في القوة العقلية فجعل عقاب الرجل القوي المهاجم فوق عقاب المرأة الضعيفة المدافعة . ولكنه لم يفعل ذلك لأن رجاله ظلمة جائرون . ولأن نساءه ساذجات ضعيفات . يصدقن الرجال في أقوالهم وينظرن إلى المستحسنات والمستهجنات بأنظارهم . فإن أردنا أن تنال المرأة حقها من الرجل وأن تنتصف منه فليس

سبيلها الى ذلك المغالبة والمصارعة . فانها أضعف منه جسما وعقلا . بل السبيل اليه أن تعلمها العلم لتعرف كيف تستعطفه وتسترحمه وكيف تحمله على إجلالها و إعظامها . وأن تعلمه كذلك ليستطيع أن يكون شخصاً كريماً . و إنسانا رحيما

الدعوة

ما من قائم يقوم فى مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعيا الى ترك ضلالة من الضلالات إلا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمد نارها ولا تخبو أوراها حتى تهلك تلك الضلالة أو يهلك دونها

ليس موقف الجندى فى معترك الحرب بأحرج من موقف المرشد فى معترك الدعوة .

وليس سلب الاجسام أرواحها باقرب منالا من سلب النفوس غرائزها وميولها

لا يضن الانسان بشىء مما تملك يمينه ضنه بما ينطوى عليه جوانحه من المعتقدات . و إنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته . ولا يبذل عقيدته صيانة لدمه . وما سالت الدماء ولا تمزقت الاشلاء فى مواقف الحروب البشرية من عهد آدم الى اليوم إلا حماية للمذاهب وذوداً عن العقائد

لذلك كان الدعاة فى الامم أعداءها وخصومها لانهم يحاولون أن يرزءوها فى ذخائر نفوسها . و يفجعوها فى أعلاق قلوبها

الدعاة أحوج الناس الى عزائم ثابتة وقلوب صابرة على احتمال المصائب والمحن التى يلاقونها فى سبيل الدعوة حتى يبلغوا الغاية التى يريدونها أو يموتوا فى طريقها

الدعاة الصادقون لا يبالون أن يسميهم الناس خونة أو جهلة أو زنادقة أو ملحدين أو ضالين أو كافرين . لان ذلك ما لابد أن يكون

الدعاة الصادقون يعلمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم عاش بين أعدائه ساحراً كذاباً فلما مات مات سيد المرسلين . وأن الغزالى عاش متهما بالكفر والالحاد ومات حجة

الاسلام . وأن ابن رشد عاش ذليلاً مهاناً حتى كان الناس يبصقون عليه إذا رأوه ومات فيلسوف الشرق . فهم يحبون أن يكونوا أمثال هؤلاء العظماء أحياء وأمواتا

سيقول كثير من الناس وما يغني الداعي دعاؤه في أمة لاتحسن به ظناً . ولا تسمع له قولا . إنه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمته فيكون أجهل الناس وأحمق الناس

هذا ما يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين . وهذا هو الداء الذي ألم بنفوس كثير من العلماء فأسكت ألسنتهم عن قول الحق وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيل الهداية والارشاد . فأصبحوا لاعمل لهم إلا أن يكرروا للناس مايعلمون . ويعيدوا عليهم ما يحفظون . فجمدت الاذهان وسكنت المدارك . وأصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس ولا ينفذ إليه الهواء

الجهل غشاء سميك يغشى العقل . والعلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويداً رويداً . فلا يزال العقل يتألم لحرارتها مادام الغشاء بينه وبينها . حتى إذا أتت عليه انكشف له الغطاء فرأى النار نوراً . والألم لذة وسروراً

لا يستطيع الباطل أن يصرع الحق في ميدان . لان الحق وجود والباطل عدم . وانما يصرعه جهل العلماء بقوته . ويأسهم من غلبته . وإغفالهم النداء به . والدعاء اليه

محال أن يهدم بناء الباطل فرد واحد في عصر واحد . وإنما يهدمه أفراد متعددون في عصور متعددة . فيهزه الاول هزة تباعد ما بين أحجاره . ثم ينقض الثاني حجراً والثالث آخر وهكذا حتى لا يبقى منه حجر على حجر

الجهلاء مرضى والعلماء أطباء . ولا يجمل بالطبيب أن يحجم عن العمل الجراحي فراراً من إزعاج المريض أو خوفاً من صراخه وعويله أو اتقاء لسبه وشتمه . فانه سيكون غداً أصدق أصدقائه وأحب الناس إليه

وبعد فقليل أن يكون الداعي في الامة الجاهلة حبيباً اليها إلا إذا كان خائناً في دعوته سالكاً سبيل الرياء والدهان في هدايته . وقليل أن ينال حظه من إكرامها وإجلالها إلا بعد أن تتجرع مرارة دوائه . وتشعر بحلاوة الشفاء . بعد مرارة ذلك الدواء .

الدعاة فى هذه الامة كثيرون ملء الفضاء . وكِظة (١) الارض والسماء . ولكن لا يكاد يوجد بينهم داعٍ واحد لانه لا يوجد بينهم شجاع

أصحاب الصحف وكتّاب الرسائل والمؤلفون وخطباء المجامع وخطباء المنابر كلهم يدعون إلى الحق وكلهم يعظون وينصحون ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع أن يحمل فى سبيل الدعوة ضراً . أو يلاقى فى طريقها شراً

رأيتُ الدعاة فى هذه الامة أربعة . رجلٌ يعرف الحق ويكتمه عجزاً أو جبناً . فهو ساكت طولَ حياته لا ينطق بخير ولا بشرّ . ورجل يعرف الحق وينطق به . ولكنه يجهل طريقَ الحكمة والسياسة فى دعوته فيهجُم على النفوس بما يزعجها وينفرها . وكان خيراً له لو صنع ما يصنعه الطبيب الماهر الذى يضع الدواء المرّ فى « برشامة » ليسهلَ تناوله وازدراده . ورجل لا يعرف حقاً ولا باطلا فهو يخبط فى دعوته خبط الناقة العشواء فى مسيرها فيدعو إلى الخير والشرّ والحق والباطل والضارّ والنافع فى موقف واحد . فكأنه جواد امرئ القيس الذى يقول فيه

مِكرٍّ مِفرٍّ مقبل مدبر معاً

ورجل يعرف الحق ويدعو الامة إلى الباطل دعوةَ المجد المجتهد . وهو أخبث الاربعة وأكثرهم غائلةً لانه صاحب هوًى يرى أنه لا يبلغ غايته منه إلا إذا أهلك الامةَ فى سبيله . فهو عدوها فى ثياب صديقها لانه يوردها مواردَ التلف والهلاك باسم الهداية والارشاد . فليت شعرى من أى واحدٍ من هؤلاء الأربعة تستفيد الأمة رشدَها وهداها

ما أعظمَ شقاء هذه الأمة وأشدّ بلاءها . فقد أصبح دعاتها فى حاجة إلى دعاةٍ ينيرون لهم طريقَ الدعوة ويعلمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال فى سبيلها . فليت شعرى متى يتعلمون . ثم متى يُرشدون

---

(١) الكظة البطنة

العبرات

كنت أغبط نفسي على التجلد والصبر وأحسبني قادراً على الاستمساك في كل رزء مهما جلّ شأنه وعظم وقعه . فلما مات مصطفى كامل علمت أنّ من الرزايا ما لا يطاق تجرعهُ . ولا يستطاع احتماله

كل يوم نرى الموت ولا نزال نعد الموت غريباً . هيهات لا غرابة في الموت . ولكن الغريبَ موتُ الغريب

كل يوم تمرّ بنا قوافل الموتى فلا نأبهُ لها . وأكبرُ نصيبها منا الحوقلةُ والاسترجاع . فلما مرت قافلةُ مصطفى كامل دهشنا وجزعنا . لأنه كان غريباً في حياته . فأحرى أن يكون غريباً في مماته

مات مصطفى كامل فعرفنا الموت وما كنا نعرفه قبل ذلك . لاننا ما كنا نرى إلا أمواتاً يُنقلون من ظهر الارض الى بطنها . أما مصطفى كامل فكان حيّاً حياةً حقيقيةً فكان موته كذلك

لا يحسب الكاتبون أنهم صنعوا شيئاً إذا بذلوا لذلك الفقيد العظيم قطرة من الدمع أو قطرة من المداد . فانه كان يبذل لهم ماء حياته قطرةً قطرةً حتى أفناه ومضى لسبيله . فشتان ما بين صنيعهم وصنيعه

أين قطراتُ الدموع التي يَربح بها الباكون أنفسهم أو قطراتُ المداد التي يُرصّع بها الكتاب أقلامهم من قطرات الحياة التي أراقها مصطفى كامل في سبيل وطنه وأمته

كان مصطفى كامل سراجاً كبير الشعلة . وكل سراج تكبرُ شعلتهُ تفرغ زيتهُ وشيكاً وتحترق ذُبالتهُ فينطفئ نوره

كان مصطفى كامل نشطاً سريع الحركة فقطع جسرَ الحياة في لحظة واحدة

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون . فلما جاء مصطفى كامل علمهم كيف يصيحون .

فلما صاحوا وأسمعوا عرفوا أن آذان السياسة لا يخترقها إلا الصوت الجهوري ولولاه ما كانوا يعرفون

كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ويسيئون الظن بها فلا يصدقون أن تربة مصر تنبت أمثال فولتير وهوجو وغاريبالدى وواشنطون . فلما نبغ بينهم مصطفى كامل عرفوا أن تربة مصر لا تختلف كثيراً عن تربة أوربا لو تعهدها الزارعون

كان لمصطفى كامل أنامل أشبه شيء بريشة الموسيقار يضرب بها على أوتار القلوب . وكأنما كان بينه وبينها سلك كهربائى فهى تتحرك بحركته وتسكن بسكونه

ما كان مصطفى كامل أذكى الناس ولا أعلم الناس ولا أعقل الناس ولكنه كان أشجع الناس

كان يفكر فيقتنع فيصمم فيمضى فلا يثنى حتى الموت

كان يخطىء أحياناً فى اتخاذ الوسائل الى آماله . ولكنه ما كان يتمهل كثيراً ليتبين أى طريق يأخذ . ولا أى مسلك يسلك . مخافة أن تفترهمته بين الاخذ والرد فيكون خطؤه فى قعوده . أكثر من خطئه فى جهاده

كان له منافسون يرمونه بالخفة والطيش . ويقولون له إنك مخطىء أو مضر أو غير محسن أو غير عظيم . فما كان يصدق من ذلك شيئاً . كأنما كان ينظر بعين الغيب الى هذا اليوم الذى اتفق فيه أصدقاؤه وأعداؤه وخصومه وأولياؤه أنه رجل عظيم

ما كان مصطفى كامل من الاغنياء ولا من بيت الملك . وما كان آمراً ولا ناهياً ولا رافعاً ولا خافضاً . ولكنه لقى من اجلال الناس لموته وإعظامهم لمصيبته ما لم يلق واحد من هؤلاء . ولا فضل لهم فى ذلك عليه فهو الذى علمهم كيف يحترمون العقول ويجلون المناقب والمزايا

فيأيها القارىء الكريم : إن كان لك ولد تحب أن تجعله رجلاً فاجعل بين يديه حياة مصطفى كامل ليتعلم منها الشجاعة والاقدام

ويأيها المصرى : كن أحرص الناس على وطنيتك . ولا تبغ بها بدلا من عرض الدنيا

وزُخرفها . فانك إن فعلتَ كنتَ مصطفى كامل

ويأيها الانسان : أقدِم على عظائم الأمور ولا تلتفتْ يَمنة ولا يَسرة واخترقْ بسيف شجاعتك صفوفَ المعترضين والمنتقدين والمتهكمين . فانهم سيعترفون بفضلك ويسمونك عظيماً كما سمّوا مصطفى كامل

ويأيها الراحل المودع : إن بين جنبي لوعةً تعتلج لفراقك لا أعرف سبيلاً الى التعبير عنها الا القلم

ها أنذا أعالج القلم علاجاً شديداً على أن يُسعفني بحاجتي وها أنذا أقلّبه ظهراً لبطن وأُكثِرُ من استمداده وأضغط به على القرطاس ضغطاً شديداً فلا أراه يغني عني شيئاً

خطرَ لي أن الحزن في سويداء القلب وأنه بعيدُ الغور لا تَبلغ اليه هذه الاداة القصيرةُ التي في يدي فاستبدلت بها أداةً أطولَ منها فكان حكمُها حكمَ سابقتها

إذاً كيف أعبر عن وجدي عليك أيها الفقيد الكريم . وقد خرِس القلم وعيَّ اللسان

الآن عرفتُ السبيلَ ووصلتُ الى ما أريد

أنتَ الآنَ في عالم الارواح وقد انكشف لك كلُّ شيء من أسرار القلوب ودخائل الصدور . ولا بد أن يكون قد انكشف لك ما يكنُّ قلبي من الوجد عليك . فما حاجتي بعد ذلك الى ترجمة القلم أو تعبير اللسان

أيها الراحل المودع : طبتَ حيًّا وميتاً . خدمتَ أمتك في حياتك وبعد مماتك . لولا حياتُكَ ما نمت العاطفةُ الوطنية في نفوس المصريين . ولولا مماتك ما عرَف العالم بأجمعه أن الأمة المصرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة . وهي حب الوطن وحب رجاله العاملين

دمعة على الاسلام

كتب الىّ كاتب من علماء الهند كتاباً يقول فيه أنه اطلع على مؤلَّف ظهر حديثاً بلغة « التأميل » وهى لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مدارس . موضوعه تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلانى وذكرُ فضائله وكراماته فرأى فيه من بين الصفات والالقاب التى وَصف بها المؤلف السيدَ عبد القادر ولقّبه بها صفاتٍ وألقاباً هى أجدرُ بمقام الالوهية منها بمقام النبوة فضلاً عن مقام الولاية كقوله « سيد السموات والارض » و « النفاع الضرار » و « المتصرف فى الاكوان » و « المطلع على أسرار الخليقة » و « محيي الموتى » و « مبرئ الاعمى والأبرص والأكمه » و « أمره من أمر الله » و « ماحى الذنوب » و « دافع البلاء » و « الرافع الواضع » و « صاحب الشريعة » و « صاحب الوجود التام » الى كثير من أمثال هذه النعوت والالقاب

ويقول الكاتب إنه رأى فى ذلك المؤلَّف فصلاً يشرح فيه المؤلف الكيفية التى يجب أن يتكيف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلانى ويقول فيه

« أول ما يجب على الزائر أن يتوضأ وضوءاً سابغاً ثم يصلى ركعتين بخشوع واستحضار ثم يتوجه الى تلك الكعبة المشرفة وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول » :

« ياصاحب الثقلين أغثنى وأمدّنى بقضاء حاجتى . وتفريج كربتى »

« أغثنى يا محيي الدين عبد القادر . أغثنى ياولى عبد القادر . أغثنى ياسلطان عبد القادر . أغثنى يا بادشاه عبد القادر . أغثنى ياخوجه عبد القادر »

« ياحضرة الغوث الصمدانى ياسيدى عبد القادر الجيلانى عبدك ومريدك مظلوم عاجز محتاج اليك فى جميع الأمور فى الدين والدنيا والآخرة »

ويقول الكاتب أيضاً إن فى بلدة « ناقور » فى الهند قبراً يسمى « شاه الحميد »

وهو أحد أولاد السيد عبد القادر كما يزعمون وأن الهنود يسجدون بين يدى ذلك القبر سجودَهم بين يدى الله . وأن فى كل بلدة وقرية من بُلدان الهند وقُراها مزاراً يمثل مزار السيد عبد القادر فيكون القبلةَ التى يتوجه اليها المسلمون فى تلك البلاد والملجأ الذى يلجؤون فى حاجاتهم وشدائدهم اليه . وينفقون من الاموال على خدمته وسدنته وفى موالده وحفلاته مالو أنفق على فقراء الارض جميعاً لصاروا أغنياء

هذا ما كتبه إلىَّ ذلك الكاتب ويعلم الله أنى ما أتممتُ قراءة رسالته حتى دارتْ بى الارض الفضاء . وأظلمت الدنيا فى عينى فما أُبصِرُ مما حولى شيئاً حزنا وآسفاً على ما آلت اليه حالة الاسلام بين أقوام أنكروه بعدما عرفوه . ووضعوه بعدما رفعوه . وذهبوا به مذاهبَ لاعهد له بها . ولا قبلَ له باحتمالها

أىُّ عين يجمل بها أن تستبقىَ من شؤونها قطرة لاتريقها أمامَ هذا المنظر المؤثر منظرِ أولئك المسلمين وهم ركّع سجّد على أعتاب قبر ميت ربما كان بينهم من هو خير منه فى حياته . فأحرى أن يكون كذلك بعد مماته

أىُّ قلب يستطيع أن يستقرَّ بين جنبى صاحبه ساعة واحدة فلا يخفق وجداً أو يطير جزعاً حينما يرى المسلمين أصحاب دين التوحيد أكثرَ المشركين إشراكا بالله . وأوسعهم دائرة فى تعدد الآلهة وكثرة المعبودات

لماذا ينقِم المسلمون التثليثَ من المسيحيين . ولماذا يحملون لهم فى صدورهم تلك الموجدة وذلك الضِغن . وعلامَ يحاربونهم . وفيمَ يقاتلونهم . وهم لم يبلغوا من الشرك بالله مَبلغَهم . ولم يُغرقوا فيه إغراقهم

يَدين المسيحيون بآلهة ثلاثة ولكنهم كأنهم يشعرون بغرابة هذا التعدد وبُعده عن العقل فيُجملون فيه ويقولون إن الثلاثة فى حكم الواحد . أما المسلمون فيَدينون بآلاف من الآلهة أكثرها جذوع أشجار وجثث أموات وقطع أحجار من حيث لا يَشعرون

كثيرا ما يُضمر الانسان فى نفسه أمراً ولا يَشعر به . وكثيراً ما تشتمل نفسه على عقيدة وهو لا يُحس باشتمال نفسه عليها . ولا أرى مَثلاً لذلك أقرب من المسلمين الذين يلجؤون

فى حاجاتهم ومطالبهم الى سكان القبور ويتضرعون اليهم تضرعهم للاله المعبود . فاذا عتب عليهم فى ذلك عاتب قالوا إنا لا نعبدهم وانما نتوسل بهم الى الله . كأنهم لا يشعرون أن العبادة ما هم فيه وأن أكبر مظهر من مظاهر الاله المعبود أن يقف عباده بين يديه ضارعين اليه يلتمسون إمداده ومعونته . فهم فى الحقيقة عابدون لاولئك الاموات من حيث لا يشعرون

جاء الاسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين ويغرس فى قلوبهم الشرف والعزة والانفة والحمية وليعتق رقابهم من رق العبودية فلا يذل صغيرهم لكبيرهم . ولا يهاب ضعيفهم قويهم . ولا يكون لذى سلطان بينهم سلطان الا بالحق والعدل . وقد ترك الاسلام بسر عقيدة التوحيد ذلك الاثر الصالح فى نفوس المسلمين فى العصور الاولى . فكانوا ذوى أنفة وعزة وإباء وغيرة يضربون على يد الظالم اذا ظلم . ويقولون للسلطان اذا جاوز حده فى سلطانه لا تغل فى تقدير نفسك . ولا تخرج عن دائرتك . فانما أنت عبد مخلوق . لا رب معبود . واعلم أنه لا اله الا الله

هذه صورة من صور نفوس المسلمين فى عصر التوحيد . أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرى فقد ذلت رقابهم وخفقت رءوسهم . وذلت نفوسهم . وفترت حميتهم . فرضوا بخطة الخسف واستناموا الى المنزلة الدنيا فوجد أعداؤهم السبيل اليهم فغلبوهم على أمرهم وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين

والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم . ولن يبلغوا ما يريدون لانفسهم من سعادة الحياة وهنائها الا اذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد . وإن طلوع الشمس من مغربها وانصباب ماء النهر فى منبعه أقرب من رجوع الاسلام الى سالف مجده ما دام المسلمون يقفون بين يدى الجيلانى كما يقفون بين يدى الله ويقولون لهذا كما يقولون لذاك «أنت المتصرف فى الكائنات . وأنت سيد الاراضين والسموات»

إن الله أغير على نفسه من أن يسعد أقواماً يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم

ظهرياً . فاذا نزلتْ بهم جائحة أو ألمّتْ بهم ملمة ذكروا الحجر قبل أن يذكروه . ونادوا الجذعَ قبل أن ينادوه

بمن أستغيثُ وبمن أستنجد ومن الذى أدعو لهذه الملمة . أأدعو علماءَ مصرَ وهم الذين يتهافتون على يوم « الكنسة »[1] تهافتَ الذباب على الشراب . أم علماءَ الاَستانةِ وهم الذين قتلوا جمال الدين الافغانى فيلسوف الاسلام وأحيوا أبا الهدى الصيادى شيخَ الطريقة الرفاعيـة . أم علماء العجم وهم الذين يحجون الى قبر الامام . كما يحجون الى البيت الحرام . أم علماء الهند وبينهم مثل مؤلف ذلك الكتاب

يا قادةَ الاُمة ورؤساءها . عذَرنا العامة فى إشراكها وفساد عقائدها . وقلنا إن العاميَّ أقصرُ نظراً وأضعف إدراكا من أن يتصور الالوهية إلا اذا رآها ماثلة فى النُّصب والتماثيل والاُضرحة والقبور . فما عذرُكم أنتم وأنتم تتلون كتاب الله وتقرءون صفاته ونعوته وتفهمون معنى قوله تعالى « لا يعلم الغيب إلا الله » وقوله مخاطباً نبيه « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً » وقوله « وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى »

إنكم تقولون فى صباحكم ومسائكم وغدوكم ورواحكم « كل خير فى أتباع من سلف . وكل شر فى ابتداع مَن خلف » فهل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يخصصون قبراً أو يتوسلون بضريح . وهل تعلمون أن أحداً منهم وقف عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته يسأله قضاء حاجة أو تفريج كربة . وهل تعلمون أن الرفاعى والدسوقى والجيلانى والبدوى أكرمُ عند الله وأعظم وسيلة اليه من الانبياء والمرسلين . والصحابة والتابعين . وهل تعلمون أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما نهى عن إقامة الصورَ والتماثيل نهى عنها عبثاً ولعباً أم مخافةَ أن تعيد للمسلمين جاهليتهم الاولى . وأىُّ فرق بين الصورَ والتماثيل وبين الاضرحة والقبور ما دام كل منها يجر الى الشرك ويُفسد عقيدة التوحيد

والله ما جهلتم شيئاً من هـذا ولكنكم آثرتم الدنيا على الآخرة فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم . وانتقـاضِ أمركم . وسلط عليكم أعداءكم يسلبون أموالكم .

(١) يوم يذهب فيه علماء الدين الى ضريح الامام الشافعى للتبرك بكنس ترابه

ويستعبدون رقابكم . ويخربون دياركم . والله شديد العقاب

السياسة

حضرة السيد الفاضل

مالك لا تكثر من الكتابة فى الشؤون السياسية إكثارك منها فى الشؤون الاخلاقية والاجتماعية . وكيف يضيق بالسياسة قلمك وقد وسع كل شىء . فاكتب لنا فى السياسة فأمتك تحب أن تراك سياسياً والسلام فلان

أيها الكاتب

يعلم الله أنى أُبغض السياسة وأهلها بُغضى للكذب والغش والخيانة والغدر

أنا لا أُحب أن أكون سياسياً لانى لا أُحب أن أكون جلاّداً

لا فرق عندى بين السياسيين والجلادين إلا أن هؤلاء يقتلون الافراد وأولئك يقتلون الامم

هل السياسى إلا رجلٌ عرفتْ أمته أنه لا يوجد بين أفرادها من هو أقسى منه قلباً . ولا أكثر كيداً . فنصبته للقضاء على الامم الضعيفة وسلبها ما وهبها الله من الحسنات . وأجزل لها من الخيرات

أليس أكبر السياسيين مقاماً وأعظمهم فخراً وأسيرهم ذكراً ذلك الذى تقرأ صفحات تاريخه فترى حروفها من أشلاء القتلى ونُقطها من قطرات الدماء

أيستطيع الرجل أن يكون سياسياً إلا إذا كان كاذباً فى أقواله وأفعاله . يبطن ما لا يُظهر . ويظهر ما لا يبطن . ويبتسم فى مواطن البكاء . ويبكى فى مواطن الابتسام

أيستطيع الرجل أن يكون سياسياً إلا إذا عرف أن بين جنبيه قلباً متحجراً لا يُقلقهُ بؤس البائسين . ولا تزعجهُ نكبات المنكوبين

كثيراً ما يسرق السارق فاذا قضى مأربه رفع يده متضرعاً الى الله أن يرزقه المال حلالاً

حتى لا يتناوله حراما . وكثيرا ما يقتل القاتل فاذا فرغ من أمره جلس بجانب قتيله يبكى عليه بكاء الثكلى على وحيدها . أما السياسى فلا يرى يوماً فى حياته أسعد من اليوم الذى يعلم فيه أن قد تم له تدبيره فى إهلاك شعب و إفقار أمة . وآية ذلك أنه فى يوم انتصاره كما يسميه هو أو يوم جنايته كما أسميه أنا يسمع هتاف الهاتفين مطمئن القلب مثلج الصدر . حتى ليخيل اليه أن الفضاء بأرضه وسمائه أضيق من أن يسع قلبه الطائر المحلق فرحا وسرورا

يقولون إن السياسة ليست علماً من العلوم التى يتعلمها الانسان فى مدرسة أو يدرسها فى كتاب . و إنما هى مجموعة أفكار قانونها التجارب وقاعدتها العمل . أندرى لماذا

لأن العلماء أشرف من أن يدونوا المكايد والحيل فى كتاب والمدارس أجل من أن تجعل بجانب دروس الاخلاق والآداب دروس الأكاذيب والأباطيل . والا فكل طائفة من طوائف المعلومات المتشابهة تدخل بطبيعتها تحت قانون عام يؤلفها ويجمع بين أشتاتها

هؤلاء هم السياسيون وهذه هى أخلاقهم وغرائزهم فى الأعم الاغلب من شؤونهم وأطوارهم . فهل تعلم أيها الكاتب أن رجلا نصب نفسه لنصرة الحقيقة والاخذ بضبعى الفضيلة لاستنقاذها من بين مخالب الرذيلة ووقف قلمه على تهذيب النفوس وترقية الاخلاق وملأ برسائله فضاء الارض والسماء بكاء ونواحاً على أمته المسكينة المستضعفة يستطيع أن يكون سياسياً أو محباً للسياسيين

خداع العناوين

لقد جهل الذين قالوا إن الكتاب يعرف بعنوانه . فانى لم أر بين كتب التاريخ أكذب من كتاب بدائع الزهور ولا أعذب من عنوانه . ولا بين كتب الادب أسخف من كتاب جواهر الادب ولا أرق من اسمه . كما لم أر بين الشعراء أعذب اسما

وأحط شعراً من ابن مليك وابن النبيه والشاب الظريف

لقد كثر الاختلافُ بين العناوين وبين الكتب حتى كدنا نقول إن العناوين أدلُّ على نقائضها منها على مفهوماتها . وألصقُ بأضدادها منها بمنطوقاتها . وإن العنوانَ الكبير حيثُ الكتابُ الصغير . والكتاب الجليل . حيث العنوانُ الضئيل

الاتقياء

لولا خداع العناوين ما سمينا صالحاً تقياً كلَّ من حرك سُبحته . وأطال لحيته . ووسع جُبته . وكور عمامته . ولقد نعلم أن وراء هذا العنوان الابيض كتابا أسود الصفحات . كثير السقطات . وأن تحت هذا الستر الحريرى الرقيق نفساً سوداء مظلمة لا ينفذ اليها شعاع من أشعة الرحمة . ولا تهب عليها نسمة من نسمات الاحسان

لن يؤمنَ المؤمنُ حتى يبذل فى سبيل الله أو فى سبيل الجماعة من ذات نفسه أو ذات يده ما يشق على مثله الجودُ بمثله . أما الجود بالشفاه للهمهمة . والانامل للمسبحة . فعملٌ لا يتكلف صاحبه له أكثرَ مما يتكلف لتقليب ناظريه . وتحريك هُدبيه . وهل خلقت الشفاهُ الا للتحريك . والانامل الا للتقليب

إن للايمان مَواقفَ يمتحن الله فيها عبادَه ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين . فان بذل الضنينُ بماله ماله فى مواقف الرحمة والشفقة . والشحيحُ بنفسه نفسَه فى سبيل الذود عن حوضه . والذب عن عشيرته وقومه . وضعيفُ العزيمة ما يملك من قوة وأيدٍ فى مغالبة شهوات النفس ومقاومة نزواتها . فذلك المؤمنُ الذى لا يَشوب ايمانَه رياء ولا دِهان . ولا يخالط يقينَه خداع ولا كذب . أولاً فأهونْ بهمهمته ودمدمته ومسواكه ومسبحته . وهو بعنوان المنافق الكاذب . أحرَى منه بعنوان التقى الصالح «أحسبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون»

الوطنيون

كنا وكانَ الرجلُ لا يَبلغ ما يشتهيه من رتبة الوطنية الاَّ إذا قام فى أمته مَقاماً محموداً

يُخاطر فيه باحدى جوهرتيه ليدفع عنها خطباً مقبلا أو ينقذها من بلاء محيط . فإمّا بلغ في هجرته الغاية التي يريدها . وإما هلك من دونها هلاكا لا تؤلم نفسه صدمته . ولا تمرّ بفمه غضاضته . لانه مخلصٌ . وحسبُ المخلص جزاءً له على إخلاصه أنه وفّى دينه الذي كان يُثقل ظهره وكفى . فأصبحنا وليس بين المرء وبين نيل ألقاب الوطنية الأولى . وشاراتها الفُضلى . إلاّ صرخةٌ عالية يصرخها في أحد المجامع أو كلمة نافهة يكتبها في إحدى الصحف حتى تُقام له الحفلات كما تقامُ لعظماء الرجال . وتمد اليه الاصابع كما تمدُّ للقواد الابطال . وربما كانت صرخةُ ذلك الصارخ جِنّةً تمثلت في رأسه تمثُّلَ النهيق في رأس الحمار . فلما حان حينُها عطسَ بها في ذلك المجمع الذي صادفه في طريقه لينفّسَ عن نفسه . ويفرج من كربته . وربما كانت كلمة ذلك الكاتب نغمةً من نغمات السؤال التي يترنم بها المتسولون . أو رُقيةً من رُقى الممخرقين التي يهمهمون بها استنداءً للاكف واستدراراً لحسنات المحسنين

أعجبُ ما يَعجبُ له المرء في هذه الامة أنها لا تصدّق الرجل المستورَ اذا ادعى على آخرَ بفلسٍ أو بسحتوت حتى تطالبه بالشهود العدول والصكوك المؤكدة والايمان المحرّجة . فاذا قام بين يديها من لا تعرفُ له عدلاً في سيرته . ولا صدقاً في قوله . ولا إخلاصاً في عمله . فادعى الوطنية لنفسه والوطنيةُ أثمن من الجوهر المنتقى واللؤلؤ المكنون حكمتْ له بصحة دعواه في قضيته حكمَ القضاة الظالمين . بغير بينة ولا يمين

لولا خداع العناوين لوجدنا بين التجار الأمناء الذين يخدمون أمتهم بالصدق في القول والامانة والعمل . والموظفين الشرفاء الاعفاء الذين لا يحابون ولا يصانعون . والحكام العادلين المخلصين لله وللامة في السر والعلن . والزارعين المستقيمين . والصناع المجدين . والاكّارين المستضعفين . من هو أولى بلقب الوطنية من أولئك الصارخين المتهوسين . والكاتبين المخادعين

الامجاد

يقولون إن الولد سرُّ أبيه ويريدون بذلك أنه المرآة التي ترتسم فيها صورتهُ والبذرة

التي تكمن فيها حقيقته وماهيته . وعلى هذه القاعدة بنى البانون قاعدة المجد فأعظموا شأن الرجل الذي يمسك بطرف سلسلة في النسب يتصل أولها بعظيم من عظماء النفوس . أو شريف من شرفاء الاخلاق

ثم ما زال الناس يعبثون بعنوان الشرف ويتوسعون في معناه حتى نظموا في سلكه الجبابرة الذين يسمونهم أمراء . والظلمة الذين يسمونهم ملوكا . والسفاحين الذين يسمونهم قوّاداً . واللصوص الذين يسمونهم أسرياء . فساقهم الخطأ في فهم الشرف الى الخطأ في فهم المجد . فسمّوا ماجداً كلّ من وُلد في فراش ملك وإن كان الحاكم بأمر الله . أو أمير وإن كان الحجاج . أو وزير وإن كان ابن الزيات . أو قائد وإن كان تيمورلنك . أو غني وإن كان قارون

لا مجدَ الا مجدُ العلم . ولا شرفَ الا شرفُ التقوى . ولا عظمة إلا عظمةُ الآخذين بيد الانسانية البائسة رحمةً بها وحناناً عليها

أولئك هم الامجاد . وأولئك الذين يفخر الفاخرون بالاتصال بهم . والانتماء اليهم . وأولئك هم المفلحون

الاغنياء

لم أر بين جماعة المتسولين الذين يضربون في الارض وراء لقمة يتبلّغون بها أو خرقة يتّقون بخيوطها البالية ما يتقون من لفحة الرمضاء . وهبّة النكباء . ولا بين البؤساء الذين يحرقون لحمة الليل بكاءً ونحيباً حول صغار كفراخ القطا يتلوّون في مضاجعهم من الجوع تلوّي الافاعي المضطربة . فوق الرمال المتوقدة . وتحت الشمس المحرقة . أسوأ حالاً . ولا أنكد عيشاً . ولا أكثر عناء . من هؤلاء الفقراء . الذين يسميهم الناس أغنياء

يأكل الموسر الباخل كما يأكل الفقير ويجلس كما يجلس وينام كما ينام ويتشهّى كما يتشهّى حتى لتكاد تثب أمعاؤه من جوفه وتسيل أحشاؤه من فمه شوقاً الى ما حرّم على نفسه من شهوات العيش وملذاته . ويستنّ (١) استنان الجواد الضامر في ميدان السبق وراء

(١) استن الجواد قمص وعدا إقبالا وادباراً

الدرهم البعيد مَناله حتى تنبهرَ انفاسه . وتتخاذلَ أوصاله . حتى لو تخيل أن نجوم السماء دنانيرُ منثورة لطار إليها بغير جناح فسقط هاويا . أو أن في بطن الارض كنزاً مذخوراً لتمنى أن لو انفجر بُركانُها تحت قدميه فابتلعه فأصبحَ من الهالكين

الغنى هو الغنى بما فى يده عما فى أيدى الناس . والفقير هو الذى لا يُقنعه فى هذه الحياة الدنيا مُقنع . ولا تقف به نفسُه عند مَطمع

فانظر تحت أى عنوانٍ من هذين العنوانين تَضع البخلاء الموسرين

المجرمون

حضرتُ مجلساً من مجالس الاحكام حكم فيه قاضٍ مرتشٍ على متهم سرق رغيفاً . فوضعتُ يمينى على فمى مخافة أن يخرجَ أمرُ نفسى من يدى فأهتف صارخاً لما ألمَّ بقلبى من الرعب والفزع صرخةً تُدوِّى بها جوانب القاعة دوىَّ الموج الثائر . فى البحر الزاخر . قائلاً مهلاً رويداً أيها الحاكم الظالم . فأنت الى قاضٍ عادل تقف بين يديه . أحوجُ منكَ الى كرسى فخم تجلس عليه . ولو عدل القانونُ بينك وبين هذا الماثلِ بين يديك لبتَّ وأعلاً كما الاسفلُ

إنك ترتزق فى كل شهر ثلاثين ديناراً فلم ترتشِ الاَّ لأنك شره طماع . وهذا السارق لم يسرق ذلك الرغيف الا لأنهُ جائع مُلتاع . ولو ملك مما تملكُ ثلاثين درهماً ما فعل فعلته التى فعل . فأنت مجرمٌ الاَّ أنك فى وشاح شريف . وهو شريف الاَّ أنهُ فى شملةِ مجرم

فيالله للحقيقة التى عبثتْ بها القوانين . ولعبتْ بعقول الناس فيها العناوين

رُبَّ نفسٍ بين جدران السجون أطهرُ قلباً وأنقى رُدناً وأبيض عرضاً من مثلها بين جدران القصور . وربَّ طريدة من طرائد المجتمع الانسانى ساقها المقدار الذى لا مفرَّ من قضائه الى وقفة فوق أعواد المشنقة كان أجدرَ بها ذلك المرابى الذى ينصب حُبالةَ ماله لخراب البيوت العامرة . واطفاء النجوم الزاهرة . أو ذلك القائدُ الذى يسفك فى مواقفه دم مائة الف أو يزيدون فى غير سبيل سوى سبيل المجد المصنوع . والفخر الموضوع . أو

ذلك السياسي الذي يدبر المكيدة للحملة على أمة مستضعفة آمنة في مرقدها ، سعيدة باستقلالها ، فيستعبد أحرارها ، ويستذل أعزاءها ، ثم يسلبها أثمن ما تملك يمينها من حريتها واستقلالها ، وسعادتها وهنائها

المتمدنون

ليس بين المصري وبين أن يأخذ من إخوانه المصريين لقب الشاب العصري أو الرجل المتمدين إلا أن يصقل جبهته ، ويصفف طرته ، ويفتح فمه للابتسام المتصنع ، ويقوس يده للسلام المتعمل ، ويستكثر في حديثه من ذكر المدنية الغربية وشؤونها ، وسرد أسماء نسائها ورجالها ، وطرفها ونوادرها ، ويستحسن ما تستحسنه وإن كان البراز والانتحار ، ويستطرف ما تستطرفه وإن كان الزندقة والالحاد ، وربما زاد على ذلك شيئاً من العلم بفلسفة الميكروبات ، ونظرية البالونات ، ثم لا يحول بعد ذلك تمدينه بينه وبين أن يكون فاسقاً ينتهك الحرمات ، أو مدمناً يترامى على أعتاب الحانات ، أو أحمق لا يصفح عن ذنب ، ولا يصانع في هفوة ، ولا يعفو عن سيئة ، أو سفيهاً يشتم حتى أميره وسلطانه ، ووالده وأستاذه ، أو وقاح الوجه لا يستحيي لمكرمة ولا يغضى لمروءة ، أو شحيحاً لا يشرك صاحبه في مطعم ولا مشرب ، ولا يفتح بابه لضيف زائر ، أو طارق حائر

إن كان حقاً ما يقولون من أن التمدين يصقل الطباع الخشنة ، ويقوم الالسنة المعوجة ، ويهذب النفوس الجافية ، ويوسع الصدور الحرجة ، فكثير ممن ندعوهم متمدينين متوحشون ، وكثير ممن نسميهم همجيين مهذبون

***

لو كان بي أن أكتب لمحو الفساد من المجتمع الانساني والقضاء على شروره وآثامه لما حركت يداً ، ولا جردت قلماً ، لأني أعلم كما يعلم الناس جميعاً أن طلب المحال عثرة من عثرات النفوس ، وضلة من ضلالات العقول ، ولكنني أطلب مطلباً واحداً لا أرى في عقول الناس وأفهامهم ما يحول بينهم وبين تصوره وإدراكه ، أن يهذبوا قليلاً من هذه

المصطلحات التي أنسوا بها . والعناوين التي جمدوا عليها . فلا يسمون المنافق تقياً . ولا المخادع وطنياً . ولا المتمجد ماجدا . ولا البخيل غنياً . ولا الفلوك مجرماً . ولا المتوحش متمدينا . حتى لا يتزع محسن عن إحسانه . ولا يستمر مسيء في إساءته

الاغراق

بين الاغراق في المدح والاغراق في الذم تموت الحقيقة موتاً لاحياة لها من بعده الى يوم يبعثون

يسمع السامع أن زيداً ملك كريم . ثم يسمع أنه شيطان رجيم . فيخرج منه صفر اليدين . لا يعلم أين مكانه من هذين الطرفين

يقولون إن المشعوذين إذا أرادوا أن يسحروا أعين الناس وضعوا في سقف غرفة قطعة من المغناطيس وفي أرضها قطعة أخرى . ثم تركوا في الفضاء قطعة من الحديد لا تزال تترجح بين هذين الجاذبين

هكذا تضطرب الحقيقة في أيدي المغرقين . اضطراب الحديدة في أيدي المشعوذين .

الحقيقة بين الكاذب والكاذب . كالحبل بين الجاذب والجاذب . كلاهما ينتهي به الامر الى الانقطاع

لو علم الذي ينصب نفسه للموازنة بين الاشخاص أنه جالس على كرسي القضاء وأن الناس سيسألونه عما قال . كما يسألون القاضي عما حكم . ما طاش سهمه في حكمه . ولا ركب متن الغلو في تقديره

كما أنه يجب على القاضي أن يقدر لكل جريمة ما يناسبها من العقوبة كذلك يجب على الكاتب أن يضع كل شخص في المنزلة التي وضعته فطرته فيها . وأن لا يعلو به فوق قدره . ولا ينزل به دون منزلته

ليس بين كتاب هذا العصر من لم يقرأ في التاريخ الماضي متناقضات الاحكام على

الاشخاص . وليس بينهم من لم يتمنَّ أن يكون فى موضع أولئك المؤرخين حتى لا يغلوَ غلوَّهم . ولا يتطرفَ تطرفَهم فى أحكامهم

أيها الكتّاب المحزونون : لا يحزنكم ما كان فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره . ولئن فاتكم أن تكونوا مؤرخى العصر الماضى . فلن يفوتكم أن تكونوا مؤرخى العصر الحاضر . وكما أن للماضى مستقبلاً وهو حاضركم هذا . فسيكون لهذا الحاضر مستقبلٌ يحاسبكم فيه رجاله على هفواتكم فى أحكامكم . كما تحاسبون اليومَ رجالَ الماضى على غلوّهم فى أحكامهم . وتطرفهم فى آرائهم

إن من التناقض بين أقوالكم وأعمالكم أن تنقموا من المؤرخين المتقدمين ما أنتم فاعلون . وتأخذوا عليهم ما أنتم به آخذون

كل كاتب عندكم أكتب الكتّاب . وكل شاعر أشعر الشعراء . وكل مؤلِّف أعلم العلماء . وكل خطيب رئيس الأمة . وكل فقيه إمام الدين . فأين الفاضلُ والمفضول . وأين الرئيس والمرءوس . وكيف يكون زيد اليومَ أفضلَ من عمرو . ويكون عمرٌو غدا أفضلَ منه . وأين ملكة التمييز التى وهبها الله لكم لتميزوا بها بين درجات الناس ومنازلهم . وهل بلغ التفاوت بين عقولكم وأذواقكم أن يكون الرجلُ الواحد فى نظر بعضكم خير الناس . وفى نظر البعض الآخر شرَّ الناس

إنى حبست الآن قلمى عن الكتابة لأتجردَ عن نفسى ساعةً من الزمان فتخيلتُ كأنى رجل من رجال العصور الآتية . وأنى ذهبتُ الى دار من دُور الكتب القديمة لأفتش فيها عن تاريخ عظيم من عظماء عصركم فقرأتُ ما كتبتموه عنه فى مؤلفاتكم وصحفكم فرأيته تارةً عظيماً وأخرى حقيراً . ومرة شريفاً ومرة وضيعاً . ورأيته عالماً وجاهلا وذكياً وغبياً وعاقلاً وممروراً (١) فى آن واحد . فخرجت أضلّ مما دخلتُ لا أعرفُ من تاريخ الرجل أكثر من أنه رجل . أى ذكرٌ بالغ من بنى آدم

(١) الممرور المصاب بخبل فى عقله

أيها القوم : إنكم لا تستطيعون أن تكونوا رجالاً عادلين فى أحكامكم وآرائكم الا اذا أصلحتم نفوسكم قبل ذلك وتعلمتم كيف تستطيعون أن تتجردوا عن أهوائكم وأغراضكم قبل أن تُمسكوا بأقلامكم

أيها القوم : إن عجزتم عن أن تكونوا عادلين . فكونوا راحمين . فارحموا أنفسكم وأعفوها من الدخول فى مأزِق أنتم عاجزون عنه . فقد ضاقت صدورُنا بهذه المتناقضات . وسئمت نفوسُنا تلك المبالغات

اللقيطة

مرَّ عظيمٌ من عظماء هذه المدينة بزُقاق من أزقة الاحياء الوطنية فى ليلة من ليالى الشتاء ضريرٍ نجمُها . حالكٍ ظلامُها . فرأى تحت جدار متهدم فتاةً صغيرة فى الرابعة عشرة من عمرها جالسةً القرُفصاء(٢) وقد وضعتْ رأسها بين ركبتيها اتقاءً للبرد الذى كان يَعبث بها عبثَ النكباء بالعود . وليس فى يدها ما تتقيه به إلا أسمالٌ تتراءى مِزَقُها(٣) فوقَ جسمها العارى كأنها آثار السياط فوق أجسام المستعبَدين فى عهود الاستبداد

وقف الرجلُ أمام هذا المشهَد المحزن المؤثر وقفةَ الكريم الذى تؤلمه مناظر البؤس وتُزعجُ نفسَه مواقفُ الشقاء . ثم تقدم اليها وهزَّ يدَها برِفق فرفعت رأسها مرتاعة مذعورة وهمَّت بالفرار من بين يديه وهى تَصيح «لا أعود لا أعود» فلم يزل يَمسحها(٤) ويَروضُها حتى هدأ رُوعُها وعاد اليها رشدُها وعلمتْ أنها ليست بين يدى الرجل الذى تخافه فنظرتْ اليه نظرة هادئة مطمئنةً لو أنها اتصلتْ بلسانٍ ناطق وفمٍ لحدَّثتْ عما وراءَها من لواعج الاحزان . وأفانينِ الاشجان

— ما اسمُكِ أيتها الفتاة

---

(٢) القرفصاء أن يحتبى الرجل بيديه فيضعهما على ساقيه وهو جالس
(٣) المزق القطع (٤) مسحه أمر يده عليه

— لا أعلم ياسيدى

— بماذا ينادونك

— يدعوننى اللقيطة

— وهل أنتِ لقيطة كما يقولون

— نعم ياسيدى لانى لا أعرف لى أباً ولا أماً فى الاحياء ولا فى الأموات سوى رجلٍ يتولى شأنى ويضمنى فى منزله . وكنت أحسبه أبى فيمتلأ قلبى سروراً به وعطفاً عليه . فلما رأيتُ أنه يعذبنى عذاباً أليماً ويحمّلنى من آلام الحياة وأسقامها مالا يحمّله الآباء أبناءهم علمتُ أنى وحيدة فى هذا العالم وفهمتُ معنى الكلمة التى ينادينى بها فألمّ بنفسى من الحزن والالم ما الله عالم به . وكنت كلما مشيتُ فى الطريق ورأيت فتاةً صغيرة سألتها ألكِ أمّ فتجيبنى نعم . ثم تقص علىّ من قصص عطف أمها عليها ورأفتها بها ما يزيدنى هما . وعلا قلبى يأساً . حتى كان يخيّل الى أنى أذنبت قبل وجودى فى هذا العالم ذنباً عاقبنى الله عليه بهذا الوجود . بيد أنى صبرتُ على هذا الرجل وعلى ما كان يكلفنى به من التسول على قارعة الطريق إبقاء على نفسى وضنّاً بحياتى أن تغتالها غوائلُ الدهر . وكان كلما رأى حاجتى اليه وإلى مأواه اشتطّ فى ظلمى ولؤمَ فى معاملتى . حتى صار يضربنى ضرباً شديداً كلما عدت اليه عشاءً بأقلّ من الجعل الذى قدّر علىّ جمعه فى كل يوم . ومازلتُ أصابره برهةً من الزمان حتى جاءنى هذه الليلة بداهية الدواهى ومصيبة المصائب . فقد حاول أن يسلب من بين جنبيّ جوهرةَ العفاف التى لم يبق فى يدى ما يعزّينى عما فقدتُه من هناءِ الحياة ونعيمها سواها . فلم أر لى بدّاً من أن أفرّ من بين يديه متسللةً تحت جنح الظلام من حيث لا يشعر بمكانى . ومازلت أمشى على غير هدىً لا أعرف لى مذهباً ولا مُضطرَباً حتى أويتُ الى هذا الزُقاق كما ترانى . فهل لك ياسيدى أن تُحسن الىّ كما أحسن الله اليك . وأن تبتاع لى رغيفاً من الخبز أتبلّغُ به . فقد مرّ بى يومان لم أذق فيهما طعاماً ولا شراباً

سمع الرجلُ من الفتاة هذه القصةَ المحزنة فما استقبلها إلا بدموع حارة تنحدر على خديه انحدارَ العقد وهى سلكه . ثم أخذ بيدها ومشى بها صامتاً واجماً لا يكاد يستفيق

شهيقاً وزفيراً حتى بلغ منزله . وهنالك صنع بها صُنعَ الكريم بأهله . وأبلغها من دهرها مالم تكن تُمنّي نفسها بالوشل القليل منه . وما هى إلا أيامٌ قلائلُ حتى ظهرتْ فى قصر ذلك الرجل العظيم فتاة جديدة من أجمل الفتيات وجهاً وأكرمهنَّ أخلاقاً وأرقهنَّ شمائلَ وأكملهنَّ آدابا . يعرفها كلُّ من عرف صاحبَ القصر أنها ابنة قريب له مات عنها وخلّفها يتيمة فكان إلى هذا القصر مصيرُها

وكان لصاحب القصر فتاة من الفتيات اللواتى تربينَ التربية الحديثة التى يسمونها « التربية العصرية » ويريدون منها التربية الافرنجية . فكان كل ما حصلتْ عليه من العلوم والمعارف الفنون الآتية :

(١) الرطانة الاعجمية حتى مع خادمها الزنجى . وكلبها الرومى

(٢) الغرام بمطالعة الروايات الغرامية

(٣) البراعة فى معرفة أىّ الأزياء أعلق بالقلوب وأجذب للعقول

(٤) الكبرياء والعظمة واحتقار كل مخلوق سواها حتى أبويها

(٥) الأثرة وحب الذات حباً يملأُ قلبها غيرة وحسداً حتى أنها لا تستطيع أن تسمع وصفاً من أوصاف الحسن يوصف به سواها

رأتْ هذه الفتاةُ الشريفة أن هذه الفتاة اللقيطةَ قد أصبحت تقاسمها قلبَ أبيها وقلوبَ الزائرات من النساء بما وهبها الله من جمال الخَلق وجمال الخُلق . فأضمرتْ لها فى قلبها من البغض والموجدة ما يُضمرهُ أمثالها من اللواتى تربينَ تربيتها ونهجنَ فى سبل الحياة منهجها . فكانت تتعمد إساءتها وازدراءها وتتكلفُ تبكيتها وتأنيبها . والفتاةُ لا تبالى بشىء من هذا وفاءً لسيدها وولى نعمتها وترفعاً عن النزول إلى منزلةٍ من يغضب لمثل هذه الهنات الصغيرة حتى حدثتْ ذاتَ يوم هذه الحادثة

دخل صاحبُ القصر قصرَه ليلة من الليالى فبينا هو صاعدٌ على سلم القصر إذ عثر برقعةٍ ملقاة فتناولها فقرأ فيها هذه الكلمة

سيدتى

أنا منتظركِ الليلةَ منتصف الليل فى بستان القصر تحت شجرة السرْو المعهودة

حبيبك

فما أتمَّ الرجل قراءة البطاقة حتى دارت به الارضُ الفضاء وحتى لمس قلبه بيمينه ليعلمَ أطارَ أم لا يزال فى مكانه . ثم كأنه أراد أن يُخفف ما ألمَّ بنفسه من الحزن والقلق فقال لعلَّ ذلك الموعدَ مع تلك الفتاة اللقيطة . ومن الظلم أن أتهم ابنتى قبل أن أعلم الحقيقة . فنظر فى ساعته فاذا الساعةُ قريبة فرجع أدراجه وما زال يرفق فى مِشيته ويتنقل فى الحديقة من شجرة إلى شجرة حتى وصل الى شجرة اللقاء . فكمَن وراءها ينتظر ما خبَّأ له الدهر من حدثانه . وما أضمر له الغيب فى طياته

لم تكن الرسالةُ رسالةَ اللقيطة بل رسالةَ الشريفة . وبينما كانت الثانية واقفةً فى غرفتها أمام مرآتها تختار لنفسها أجمل الازياء . وأليقها بمواقف اللقاء . كانت الاولى نائمة فى غرفتها نوماً هادئاً مطمئناً لا تُزعجهُ زَوْرة الطيف ولا تَرُوعه أحلام الشباب . حتى سمعتْ وقعَ أقدام سيدها على سُلَّم القصر فاستيقظتْ ثم رابها موقفهُ فأطلتْ عليه من حيث لا يشعر بمكانها فعرفتْ كل شىء وعلمتْ أن سيدها سيقف على سر ابنته الذى كانت تعالج كتمانه زمناً طويلاً وأنه لا بد قاتلٌ نفسه فى ذلك الموقف حزناً ويأساً . فعناها من أمره ما عناها ثم أطرقتْ برأسها لحظة قصيرة تتلمس وجه الحيلة فى هذه النازلةِ وتطلب المخرج منها ثم رفعتْ رأسها فاذا هى مصممة على ما يأتى :

نزلتْ مسرعةً من سُلم القصر فرأت الفتاة قد خرجت من باب القصر الى ذلك الموعد فأدركتها وأمسكتْ بطرف ثوبها وأفضت اليها بالقصة من مبدئها الى منتهاها فأُسقطَ فى يدها وعلمتْ أن أباها قد وقف على سرها فقالت لها لا تُزعجى نفسكِ ياسيدتى . إنه لا يعلم أيتنا صاحبةُ الكتاب فعودى الى غرفتكِ وسأذهب الى الموعد مكانكِ حتى إذا رآنى أبوكِ ذهب من نفسه ما كان يخالجها من الشك فى أمركِ

ثم استمرت أدراجها حتى وصلتْ إلى تلك الشجرة وهنالك برز الرجل من مكمنه

واقترب منها حتى عرفها فحمد الله على سلامة شرفه وشرف ابنته ثم قال لها أيتها الفتاة إنى أحسنت اليكِ واستنقذتكِ من يد البؤس والشقاء فأسأت الىَّ بما فعلتِ حتى كدتُ أهلك الليلة حزناً وغماً وألصقُ بابنتى ذنبكِ وأحملُ عليها عاركِ فاخرجى من منزلى فاللئيم ليس أهلاً للاحسان

فخرجت خائبة تتعثر فى أذيالها حتى وصلت الى شاطىء النهر وهنالك أخرجت مذكرتها من محفظتها وكتبت فيها آخر كلمة خطتها أناملها

« أحمد الله أنى قدرتُ على مكافأة ذلك الرجل الذى أحسن إلىَّ بستر عاره وإزالة همه وحزنه وافتدائه بنفسى »

ثم ألقت بنفسها فى النهر وما هى إلا دورةٌ أو دورتان حتى افترق ذانك الصديقان الوفيان . جسمها وروحها . فطفا منهما ما طفا ورسب ما رسب

وفى صباح ذلك اليوم عثر الشرط على جثة الفتاة الشهيدة فعرفوها وعادوا بها الى منزل سيدها فبكاها بكاءً كثيراً وندم على ما أساء به اليها من طردها وإزعاجها ثم ألحدها بيده فى قبرها ولم تبقَ فى يده من آثارها غيرُ محفظتها التى حفظها فى صندوقه دهراً طويلاً

مرت الايام تلوَ الايام وجاءت الحوادث إثر الحوادث وظهر للرجل من أخلاق ابنته وطباعها وتهتكها واستهتارها ما لم يكن يعرفه لها من قبلُ حتى ضاق بأمرها ذرعاً وجلس فى غرفته فى إحدى الليالى يفكر فيما ساق اليه الدهر من خطوبه ورزاياه . ثم ألمَّ به الضجر فقام يقلب فى صندوقه حتى عثر بتلك المحفظة التى لم يكن فتحها حتى هذه الساعة . فانهُ ليقرأ فيها إذ عثر بتلك الكلمة التى كتبتها الفتاةُ على شاطىء النهر قبل موتها . فما أتى على آخرها حتى عرف كل شىء . فسقط مغشياً عليه يُعالج من الحزن والهم ما يعالج المحتضرُ من سكرات الموت

فما استفاق من غشيته حتى صار يهذى هذيانَ المحموم ولبث على هذا الحال بضعة أشهر يمرض ثم يبل ثم يمرض ثم يبل حتى أدركته رحمة الله فمرض مرضاً لم ينقض الا بانقضاء أجله

فيأيها الوالد المجهول الذى قذف بتلك الفتاة البائسة فى بحر هذا الوجود الزاخر: أعلمت قبل أن تفعل فعلتك التى فعلت أنك ستبرز الى هذا العالم فتاة تلاقى من شقائه وآلامه مالا قبل لها ولا لمخلوق من البشر باحتماله

ويأيها الاباء العظماء: إن كنتم تريدون أن تسلموا بناتكم الى هذه المدنية الغربية تتولى عنكم شأنهن وتكفل لكم تربيتهن فانزعوا من بين جنوبكم قبل ذلك غرائز الشهامة والعزة والانفة. حتى اذا رزأكم الدهر فيهن وفجعكم فى أعراضهن وقفتم أمام تلك المشاهد هادئين مطمئنين. لا تتعذبون ولا تتألمون

ويأيها الناس جميعاً: لا تحفلوا بعد اليوم بالانساب والاحساب. ولا تفرقوا بين تربية الأكواخ وتربية القصور. ولا تعتقدوا أن الفضيلة وقف على الاغنياء. وحبائس على العظماء. فقد علمتم ما أضمر الدهر فى صدره من رذائل الشرفاء. وفضائل اللقطاء

الصندوق

حضرة السيد الفاضل

يوجد فى ضريح السيد البدوى صندوق توضع فيه النذور والتى يبلغ مجموعها فى العام نحو ستة آلاف جنيه فاذا فتح ذلك الصندوق يختص بعض الخلفاء بأخذ نحو الربع مما فيه والباقى يوزع على أصحاب الأنصبة الكثيرين الذين يعدون بالمئات. فهل ترون أن هذه القسمة شرعية مع أن الذين يأخذون الالوف أغنياء. والذين يأخذون الآحاد فقراء. أفتنا أيها السيد الفاضل بما يوجبه الانصاف والعدل الدينى فى هذه المسئلة التى أصبحت الشغل الشاغل للكثير من الناس

ابن جلا

أيها السائل

أراك تسألنى عن القسمة الشرعية فى هذا المال كأنك تعتقد أنه ميراث شرعى وأن لهؤلاء

الذين تسميهم أصحاب الانصبة من الحق فى هذا المال ما للوارثين من مال المورثين

إن الذى أعلمه أن هذا الحق المزعوم حقٌ موهوم لا يستطيع أن يحمله الحاملُ على وجه من الوجوه الشرعية . لأن الذين يضعون المال فى ذلك الصندوق وأمثاله لا يريدون أن يهبوه لاحد من سدنة ذلك الضريح أو خدمته أو أصحاب العلائق بالميت المدفون فيه . ولو أنهم أرادوا ذلك لما كان بينهم و بين هؤلاء القوم حائلٌ يمنعهم عن وضع ذلك المال فى أيديهم . ولكنهم لما تصوروا أن ذلك الميت حى فى قبره يسمع نجواهم و يفهم حديثهم و يلبى دعاءهم تجسم فى نظرهم هذا الخيال فأرادوا أن يعطوه جميع أحكام الاحياء حتى فى حب المال وادخاره . فخُيل اليهم أن الصندوق من الميت بمنزلة الكيس من الحى . فهم يهبونه المال و يضعونه فى صندوقه لانهم يعجزون عن وضعه فى يده

أما كيفية تصرُّف الميت بهذا المال والبحثُ عن مذاهبه ومراميه فهو أمرٌ لا يخطر على بالهم ولا يدخل فى باب مقاصدهم ونياتهم

فان وُجد بينهم من يعلم أن مرجع هذا المال الذى يضعه فى الصندوق الى سدنة الضريح وخدمته وأشياع صاحبه فعِلمُه هذا لا يُستفاد منه أنه يهبُه لهم و يمنحه إياهم . لانهم لو أرادوه على أن يُعطيَهم ذلك المال أو يعطيهم بعضَه و يستبقى لنفسه الباقى لما وسعه ذلك ولا رأى إن فعله أنه عمل عملا صالحاً

بل هو يعتقد أن أخذهم المال من الصندوق أمرٌ لا علاقة له به ولا شان له فيه . لان المال قد خرج من يده الى صاحب الضريح وصاحبُ الضريح يتصرف فى ماله كيف يشاء

فهو فى جميع حالاته وشؤونه لا يهب هبة صحيحة ولا يتصرف تصرفاً شرعياً ولا يضع صدقة فى موضعها ولا يطرقُ باباً من أبواب البر والمعروف

وعندى أن مثل هذا المال بعد أن خرج من يد صاحبه الى غير يدٍ وانقطعت ملكيته الاولى من حيث لم تقم مقامها ملكيةٌ أخرى يُعتبر مالا مهملاً لا صاحب له ولا علاقة لاحد به

وأحسن الحالات الشرعية والعقلية فى مثل هذا المال أن يُنفق فى مصارف الصدقات

التى اعتبرها الشارع واعتمدها وافتتحها بأداة الحصر التى تمنع غيرها من الاشتراك معها فى حكمها فى قوله تعالى « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم و فى الرقاب والغارمين و فى سبيل الله وابن السبيل »

فان كان بين هؤلاء القوم المتظلمين من قلة أنصبتهم فى ذلك الصندوق ذو حاجة فهو داخل فى قسمه من الآية الشريفة . فله الحق فى ذلك المال من حيث كونه فقيراً معدماً كعامة فقراء المسلمين لا من حيث أن له علاقةً بصاحب الضريح تسوّغ له أن يكون من ذوى الأنصبة فى صندوقه . فان أمثال هذه العلاقاتِ قد انقطعت بانقطاع الجاهلية الأولى . فلا هيا كلَ اليوم ولا سدنة . ولا وسطاء ولا شفعاء . ولا أقراط تعلَّق فى آذان الاصنام . ولا عقودَ تقلَّد بها أعناق الاوثان . ولا مالَ يوضع مع الموتى فى قبورهم لينتفعوا به عندما يبدو لهم القيام من مراقدهم . و إنما الناس جميعاً سواءٌ بين يدى الله سبحانه وتعالى . لا فضلَ لأحد عنده على أحد الا بالتقوى . ولا زُلفى لاحد يزدلف بها اليه إلا يقينهُ وإيمانه . وبره و إحسانه .

ذلك ما أراه فى هذه المسئلة وهذا ما أعتقده فيها . ولا أعلمُ إن كنت أرضيتُ الناسَ فيما كتبت أو أغضبت . و إنما أعلم أنى أرضيت ضميرى وخالقى وحسبى ذلك وكفى

الغناء العربي

الغناء بقيةُ خواطر النفس التى عجز عن إبرازها اللسان . فأبرزتها الالحان . فهو أفصحُ الناطقين لساناً . وأوسعهم بياناً . وأسرعهم نفاذاً الى القلوب وامتزاجاً بالنفوس واستيلاءً على العقول وأخذاً بمجامع الافئدة . وبيانُ ذلك أن النطقَ ثلاثُ طبقات تختلف درجاتها باختلاف درجات الابلاغ والتأثير فيها . فأدناها النثر . وأوسطها الشعر . وأعلاها الغناء . فلو أن عاشقاً برّح به الهجرُ مثلاً فأراد أن يبلغك ما فى نفسه من ذلك فان

قال لك إنى مهجور فحسبُ فقد أبلغكَ بعضَ ما فى نفسه وترك فى قلبك من الأثر بمقدار ما تحتمله طبقة النثر من التأثير. وإن أنشدكَ قول الشاعر

فوا كبدا من حب من لا يحبنى   ومن زفراتٍ ما لهنّ فناءُ

أو قولَ الآخر

كأن قطاةً عُلقتْ بجناحها   على كبدى من شدة الخفقانِ

فقد سلكَ بك طريقَ الخيال وصور لك خواطرَ نفسه بصورة أوضح من الأولى وترك فى نفسك أثراً أعظمَ من الأثر الاول. وإن رفع عقيرته وكان يجيد التوقيع يتغنى بقول القائل:

وارحمتا للغريب بالبلد النا   زح ما ذا بنفسه صنعا

فارقَ أحبابه فما انتفعوا   بالعيش من بعده ولا انتفعا

فقد صور لك قلبه كما هو وألمسك مواقع الآلام والاوجاع فيه فبلغ بك التأثيرُ منتهاه وربما بكيت عند سماعه حزنا ورحمة. وما بكيتَ إذ بكيتَ إلا لأن الغناء لم يُبق بقيةً من خواطر هذه النفس القريحة إلا نطقَ بها لك وأسمعَك إياها. وكما أن الابيات قيودُ المعانى. كذلك الالحانُ قيودُ الابيات. فلا يزال المعنى مُشرَّداً ههنا وهنا حتى يحتويه بيت من الشعر فيستقرُّ مكانه. ثم لا يزال البيتُ يتجافى عن الآذان ذات اليمين وذات الشمال حتى يقودَه الصوتُ الحسن فإذا هو مستودَع فى الصدور

والغناء فن من الفنون الطبيعية تهتدى اليه الأمم بالفطرة المترنمة فى هديرِ الحمام وخرير المياه وحفيف الاشجار. فمن أبكاه الحمام غرد تغريده كلما أراد البكاء. ومن أطربه صوتُ الناعورة رنَّ رنينها ليُطرب جمله أوناقته فينشطان للمسير. وهكذا لا يزال هذا الفن مبتدياً ببداوة الأمة لا يكاد يتخطى فيها حداء الجمال. ومناغاة الاطفال. حتى إذا انتقلت من مضيق الحاجيات الى منفسح الكماليات توسعتْ فيه وزادت فى أنغامه وضروبه وتفننت فى آلاته وأدواته. وكذلك كان شأن العرب فى جاهليتهم ينظمون أشعارهم على نسب متوازية. فالبيت يوازن البيت فى ترتيب الحركات والسكنات

وتعدادها . والشطر والتفعيلة يوازنان الشطر والتفعيلة كذلك . فكأنهم كانوا يهيئون لانفسهم بمذهبهم هذا فى الشعر ألحاناً موسيقية . غير أن معارفهم لم تكن تتسع لاكثر من هذا النوع من الموسيقى وهو نوع التناسب الشعرى الذى هو قطرة من بحر هذا الفن الزاخر . ثم استمر شأنهم على هذا حتى جاء الاسلام واختلطت الأمة العربية بالأمة الفارسية التى كان لها من حضارتها وتمدينها متسع للبراعة فى هذا الفن والتفنن فى مناحيه ومقاصده . و وفد الكثير من مغنى الفرس والروم موالىَ فى بيوت العرب وفى أيديهم العيدان والطنابير والمعازف والمزامير يلحنون بها أشعارهم الفارسية والرومية . فسمعها منهم العرب فاقتبسوها ولحنوا بها أشعارهم تلحيناً بذّوا فيه أساتذتهم وولدوا ألحاناً وأنغاماً لم يؤت بها من قبلهم شأنهم فى جميع الفنون والصنائع التى كانوا يقتبسونها من الامم المتمدينة المعاصرة لهم . وظهر فيهم رجال أذكياء كان لهم الفضل الباهر فى تقدم الغناء واتساعه مثل ابن سريج . ومخارق . وطويس . وابرهيم الموصلى . وابنه اسحاق . وابراهيم المهدى . ومعبد الذى طالما ضربت به وبحسن صوته الامثال على ألسنة فحول الشعراء كقول أبى عبادة البحترى فى وصف فرس كان أهداه اليه أحد الامراء

هزجُ الصهيل كأن فى نبراته نغمات معبد فى الثقيل الأول

والثقيلُ والخفيف الاول والثانى أسماء اصطلح عليها العرب ومرجعها الى حركات الاصابع الخمسة فى أوتار العود الخمس شدةً وضعفاً . وما أحسن قول أبى العلاء المعرى

ولقد ذكرتك يا أميمة بعدما نزل الدليل الى التراب يسوفه(١)
وهواكِ عندى كالغناء لانه حسنٌ لدىّ ثقيله وخفيفه

وبالرغم من غضاضة الدين وغضارته فى ذلك العهد عهد الصدر الاول وشدته فى النهى عن التلهى بالغناء والعزف والزمر وأمثالها ونعيه على من يحترف بذلك أو يتخلقه فقد كان

(١) ساف التراب اشتمه . يريد انه ذكر حبيبته فى أعظم اوقات شدته وهو وقت ضلال الركب ونزول الدليل لشم التراب ليعرف منه نوع الارض التى يسيرون فيها

للمغنين الشأنُ الرفيع فى مجالس الخلفاء والامراء والنصيبُ الاوفر من جوائزهم وصلاتهم . ولا غروَ فى ذلك فسلطانُ الوجدان . فوقَ سلطانِ الأديان . ولقد بلغ من شأن المغنين و إدلالهم على الخلفاء أن إسحق الموصلى شَتمَ إبرهيمَ بنَ المهدى فى حضرة أخيه الرشيد غيرَ هياب ولا وجل فما استطاع أخ الخليفة أن ينتصف منه هيبة و إجلالا . وكان ابن عائشةَ المغنى لا يُغنى إلا لملك أو ولى عهد حتى كان الخليفةُ إذا أراد أن يختار من بين أبنائه من يعهد اليه بالأمر من بعده لا يكتب له بذلك عهداً بل يأذن لابن عائشة أن يغنى عنده فلا تَطلُع عليه الشمس حتى يفد الناس اليه يهنئونه بولاية العهد . فان دعاه الى الغناء لدعه أمير أو وزير وَجدَ من قوة الدالَّة بنفسه ما يَدفع به الطلب عنه . و يروى أن ابن أبى عتيق وهو من نعلمُ فى شرف البيت وجلال المحل رأى ابن عائشة يوماً وحَلقه مخدوش فقال من فعل بك هذا . قال فلانٌ وأشار الى ضاربه . فمضى ونَزع ثيابه وعاد فجلس للرجل على بابه . فلما خرج أخذ بتلبيبه (١) وجعل يضربه ضرباً موجعاً والرجل يصيح أى شئ صنعتُ وما ذنبي اليك وهو لا يجيبه حتى بلغ منه . وأقبل الناسُ فحالوا بينه و بينه وسألوه عن ذنبه . فقال إنه أراد أن يَكسر مزماراً من مزامير داود . فقد خنق ابن عائشةَ وخدشه فى حلقه . ومما يروى من حوادث تيهه وتَرفعه أنه خرج من عند الوليد بن عبد الملك وقد غناه

أبَعدكَ مَعقلا أرجو وحصناً   قد أعيتنى المعاقل والحصون

فأطربه وأمر له بثلاثين ألف درهم وكثير من الثياب فبيناهو يسير إذ نظر اليه رجل من أهل وادي القُرى كان يشتهى الغناء فدنا من غلامه وقال من هذا الراكب المختال . قال ابن عائشة المغنى . فدنا منه وقال جُعلتُ فداءك أنت ابن عائشةَ أم المؤمنين . قال لا أنا مولى لقريش وعائشةُ أمي وحسبكَ هذا فلا تُكثر . قال وما هذا الذى بين يديك . قال غنيتُ أمير المؤمنين صوتاً فأطربتُه فأمر لى بهذا المال وهذه الكسوة . قال جعلت

(١) التليب ما فى موضع اللب من الثياب أي ما يدور بالعنق من القميص ونحوه

فداءك هل تمنّ علىّ بان تُسمعنى ما أسمعتهُ إياه . فقال له ويلك أمثلي يكلم بمثل هذا فى الطريق . قال فما أصنع . قال الحقنى الى المنزل يريد مخاتلته والنجاة منه . وحرك بغلة شقراء تحته لينقطع عنه فعدا معه حتى وافيا المنزل كفرسىْ رهان . ودخل ابن عائشة فمكث طويلا طمعاً فى أن ينصرف فلم يفعل . فلما أعياه قال لغلامه أدخله . فلما دخل فقال له من أين صبحك الله علىّ . قال أنا رجل من أهل وادى القرى أشتهى هذا الغناء . قال له هل لك فيما هو أنفع لك منه . قال وما ذاك . قال مائتا دينار وعشرةُ أثواب تنصرف بها إلى أهلك . فقال له جعلت فداءك والله إن لى لبُنَيّة مافى أُذنها علمَ اللهُ حلقةٌ من الورق(١) وإن لى لزوجةً ماعليها يشهد اللهُ قميص . ولو أعطيتنى جميع ما أمر لك به أمير المؤمنين على خلتى وحاجتى لكان الصوتُ أعجب الىّ منه . ومازال به حتى رحمه ابن عائشة وغناه الصوت بعدلأْى(٢) فطرب له الرجل طرباً شديداً وجعل يحرك رأسه وينطح بها الجدار حتى خيف أن يندق عنقه . ثم انصرف ولم يرزأه فى ماله شيئاً

وفى هذا الحديث فوقَ الغرض الذى سقناه له ما يدل على أن الغناء العربى كان قريباً الى القلوب وأنه منها بمنزلة الاصابع من الاوتار . فاذا قرعها رنّت رنين الثكلى المرزوءة فى واحدها . وأن الوجدان العربى وجدانٌ رائق شفاف تأخذ منه مختلفاتُ الانغام . فوق ما تأخذ الكهرباء من الاجسام . كما تبلغ منه نظراتُ الغرام . فوق ما تبلغ من عقل شاربها المدام

وكانت الاصوات عندهم تُنسب الى واضعيها وتسمى بأسماء أصحابها كما هو الشأن فى الشعر . فيقال صوتُ إسحقَ أو معبد كما يقال شعر مسلم أو بشار . وكان المغنى أحرصَ على صوته من الكريم على عرضه . فاذا صنع صوتاً لا يسمح لاحد من المغنين بأخذه عنه حتى يغنيه مراراً أو تُعرفَ نسبته اليه كما يفعل اليوم المخترعون والصانعون من أخذ الامتيازات بمخترعاتهم وصنائعهم . وكان لاسحقَ الموصلى القدرةُ الغريبة على مخاتلة

(١) الورق الفضة (٢) اللأى الجهد

المغنين عن أصواته . حتى أنه صنع مرة صوتا وأراد الفحولُ منهم أن يأخذوه بعد ماسمعوه منه أكثرَ من سبعين مرة فما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وكانت مجالسُ الغناء عندهم تشبه أن تكون مجالسَ علم لدراسة هذا الفن وتهذيبه . فكان أحدهم لا يحجم إن رأى فى صوت صاحبه منتقدا أن يفجأه بالانتقاد ويبينَ له مواضع الخطأ مهما عظم شأن المجلس وشأن صاحبه . وكانت تقع بينهم المنافسات الشديدة فى ذلك كما تقع بين العلماء فى مجادلاتهم ومناظراتهم مما يدل على أن الغناء العربى كان له عند العرب صبغة جدية فوق صبغة اللهو وأن الغربيين فى هذا العهد الأخير ليسوا بأعلمَ بصناعة الغناء ولا أقومَ على أمرها من العرب فى ذلك العهد الاول . ولو أن العرب توسعوا فى فنونه وضروبه لبلغوا فيه الغاية التى لا غايةَ وراءها . ولكنهم كانوا قلما يحفلون بادخاله فى الاغراض العالية كالحروب ومواقف الفخر وأمثال ذلك من المناحى والمقاصد إلا قليلا . كما ورد فى تاريخ الدولة العباسية أن أعداء البرامكة لما أرادوا الايقاع بهم وعلموا أن سبيلَ الوشايات بهم الى الرشيد سبيل وعر دسوا له من القيان من يغنيه بقول عمرَ بن أبى ربيعة

ليت هنداً أنجزتنا ماتعد   وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدتْ مرة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد

فحرك ذِكرُ العجز والاستبداد ما كان كامنا فى نفس الرشيد من شعوره بسلطان البرامكة عليه واستبدادهم بالأمر دونه . فقال عند تمام الصوت « نعم إنى عاجز إنى عاجز » ثم كان من أمره معهم بعد ذلك ما كان . ولقد مضى الصدر الاول من الاسلام وشأنُ فن الغناء العربى هذا الشأن العظيم خصوصاً فى أواخر الدولة الاموية وأوائل الدولة العباسية . ثم أخذت شمسُه الباهرة تنحدر إلى الغروب بانحدار اللغة العربية وشعرها حتى أصبح فى حضارة الاندلس قدوداً وموشحات . بعد أن كان قصائدَ ومقطعات . فكان لا يسمع أبناء العرب فى ذلك العهد إلا قول المغنى « كحل الدجى يجرى . من مقلة الفجر . على الصباح . ومعصم النهر . فى حلل خضر . من البطاح » أو قولَه

« كللى . ياسحبُ تيجانَ الربى . بالحلى . واجعلى . سوارهامنعطف الجدول »

وليتَ الأمرَ وقف عندهذه الموشحات فانهاوان لم تكن شعريّةَ اللفظ فهى شعرية المعنى عاليـة الخيال . وهى على علاتها خيرٌ من شـعر العامة الذى قضى عليهم فساد اللغة وانحطاطها بانتهاجه والتغنى به كالزجـل والمواليا والقوما والدو بيت وكان و يكون وغير ذلك مما يُسمى فى عهدناهذا بالادوار والاغصان والمذاهب وأمثالها

فهل لجماعة المغنين فى عصرناهـذا أن يُعفونامن « أحب جميـل طبعه الدلال » ومن « ياحلوصن عهد ودادى الله يصونك » و يأخذوا بنافى مسلكٍ أشرفَ من هذا المسلك و يعيدوا للغناء العربى عهده الاول كما صنع شعراء العصر برفيقه الشعر . فلقد كان الشعر والغناء أخوين أليفين . رضيعى ثدى . وضجيعى مهد . ثم ضربهما الدهر بضرباته فافترقا . فماذا علينا لوقصرنا مسافة البعد بينهما . وماذاعلى المغنين والشـعراء فى مصرَ لوعقدوا بينهم عهداً أن يهذبوا أخلاق أمتهم و يرفعوا شأنها ليكون لهم من الفضـل فى نهضتها وارتقائها ماعجز عن دركه الفلاسفة والحكماء . فينظم الشاعر المقطعاتِ الرقيقةَ العذبة السائغة فى فضائل الاعمال ومكارم الأخلاق كالشجاعة والشهامة والشرف وحب الوطن والاتحاد والتزهيد فى صغائر الأمور والترغيب فى عظائمها فيأخذها منه المغنى ولا يتكلف فى تلحينها أكثرَ مما يتكلفه فى تلحين سواها من الادوار والمواويل ثم يغنيها فى الناس غيرمبالٍ بما يُفاجأه به ضعفاء النفوس من العامة من الانتقادالملازم لكل عمل شريف فى مبـدئه . وفى اعتقادى أن لهـذه الطريقة من الاثر الحسن فى نفوس العامة وتهذيب أخلاقهم وطباعهم وتقويم ألسنتهم وعقولهم مايخلد للمغنين أجمل ذكر فى تاريخ عظماء الرجال

التوبة

علم فلان وكان شابا من شبان الخلاعة واللهو وقاضيا من قضاة المحاكم أن المنزل الذى يجاور منزله يشتمل على فتاة حسناء من ذوات الثراء والنعمة والرفاهية والرغد فرنا اليها النظرة الأولى فتعلقها فكررها أخرى فبلغت منه فتراسلا ثم تزاورا ثم افترقا وقد ختمت روايتهما بما تختم به كل رواية غرامية يمثلها أبناء آدم وحواء على مرسح هذا الوجود

عادت الفتاة الى أهلها تحمل بين جانحتيها همًّا يضطرم فى فؤادها . وجنينا يضطرب فى أحشائها . ولقد يكون لها الى كتمان الاول سبيل . أما الثانى فسر مذاع . وحديث مشاع . إن اتسعت له الصدور . لاتتسع له البطون . و إن ضن به اليوم لا يضن به الغد

ذلك ما أسهر ليلها . وأقض مضجعها . وملك عليها وجدانها وشعورها . فلم تر لها بدا من الفرار بنفسها . والنجاة بحياتها . فعمدت الى ليلة من الليالى الداجية فلبستها وتلفعت بردائها ثم رمت بنفسها فى بحرها الأسود فمازالت أمواجها تتلقفها وتترامى بها حتى قذفت بها على شاطئ الفجر . فاذاهى فى غرفة صغيرة فى أحد المنازل البالية . فى بعض الأحياء الخاملة . و إذاهى وحيدة فى غرفتها لامؤنس لها الاذلك الهم المضطرم . وذلك الجنين المضطرب

كان لها أم تحنو عليها وتتفقد شأنها وتجزع لجزعها وتبكى لبكائها ففارقتها . وكان لها أب لاهم له فى حياته الا أن يراها سعيدة فى آمالها . مغتبطة بعيشها . فهاجرت منزله . وكان لهـا خدم يقمن عليها و يسهرن بجانبها فأصبحت لاتسامر غير الوحدة . ولاتساهر غير الوحشة . وكان لها شرف يؤنسها و يملأ قلبها غبطة وسروراً و رأسها عظمة وفخاراً ففقدته . وكان لها أمل فى زواج سعيد من زوج محبوب فرزأتها الأيام فى أملها

ذلك ما كانت تناجى نفسها به فى صباحها ومسائها . و بكورها وأصائلها . فاذا بدا لها أن تعرف علة مصائبها وسبب أحزانها علمت أنه ذلك الفتى الذى وعدها أن يتزوجها

تخدعها عن نفسها ثم لم يف بعهده فقذف بها وبكل ما تملك يمينها الى هذا المصير

فلا يكاد يستقر ذلك الخاطر في فؤادها ويأخذ مكانه من نفسها حتى تشعر بجذوة نار تتقد بين جنبيها من الحقد والموجدة على صاحبها لأنه قتلها . وعلى المجتمع الانساني لأنه لا يعاقب القاتل على جرمه ولا يسلكه في سلسلة المجرمين

وما هي الا أيام قلائل حتى جاءها المخاض فولدت وليدتها من حيث لا ترى بين يديها أحداً يأخذ بيدها ويساعدها على خطبها غير عجوز من جاراتها ألمت بشأنها فمشت اليها وأعانتها على أمرها بضع ساعات ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها ما تكابد . وتعاني من صروف دهرها ما تعاني

ولقد ضاق صدرها ذرعاً بهذا الضيف الجديد وهو أحب المخلوقات اليها وأكثرهم قرباً الى نفسها فجلست ذات ليلة وقد حملت طفلتها النائمة على حجرها وأسندت رأسها الى كفها وأنشأت تقول

ليت أمي لم تلدني وليتني لم أكن شيئاً

لولا وجودي ما سعدت . ولولا سعادتي ما شقيت

إن كان في العالم وجود أفضل منه العدم فهو وجودي

لقد كان لي قبل اليوم سبيل الى النجاة من الحياة . أما اليوم وقد أصبحت أما فلا سبيل

أأقتل نفسي فأقتل طفلتي أم أحيي بجانبها هذه الحياة المريرة

لا أحسب الموت تاركي حتى يأخذ بيدي فماذا يكون حال طفلتي من بعدي

إنها ستعيش عيشي وتشقى شقائي لا لذنب جنته ولا لجريمة اجترمتها سوى أنني أمها

هل تعيشين أيتها الفتاة حتى تغفري لي ذنب الأمومة حينما تسمعين قصتي . وتفهمين شكاتي

لم يبق في يدي يا بنيتي من حلاي إلا قليل سأبيعه كما بعت سابقه فكيف يكون شأني وشأنك بعد اليوم

محال أن أعود إلى أبي فأقص عليه قصتي . لأنه لم يبق لي مما يعزيني عن شقاء العيش

و بلائه إلا أن أهلي لا يعرفون شيئاً من أمري فهم يبكونني كما يبكون موتاهم الأعزاء .
ولأن يبكوا مماتي . خيرٌ لي ولهم من أن يبكوا حياتي

وكذلك ظلت تلك البائسة تحدث نفسها تارة وطفلتها تارة أخرى بمثل هذا الحديث المحزن حتى غلبها صبرُها على أمرها . فأرسلت من جفنيها قطرات حارة من الدموع هي كلُّ ما تملك الضعفاء . و يقدر عليه البؤساء

دارت الايام دورتها و باعت الفتاة جميع ما تملك يدُها وما يحملُ بدنُها وما تشتملُ غرفتها من حلي وثياب وأثاث . ولم يبق لها إلا قُمصُها الخُلقانُ ومُلاءتها و برقعها . ولم يبق لطفلتها الا ثيابٌ باليات تنم عن جسمها نميمةَ الوجه عن السريرة . فكانت تقضي ليلها شر قضاءٍ حتى إذا طار غرابُ الليل عن مجثمه أسدلتْ برقعها على وجهها واتزرت بمئزرها وأنشأت تطوف شوارع المدينة وتقطع طرقها لا تبغي مقصداً ولا تريد غاية سوى الفرار بنفسها من همها وهمُّها لا يزال يسايرها . و يترسم مواقع أقدامها

وأحسبُ أن عجوزاً من عجائز المواخير رأتها فألمت ببعض شأنها فاقتفت أثرها حتى عادت الى غرفتها فهجمتْ عليها ثم سألتها ما خطبُها فأنستْ بها وكذلك يأنس المصدورُ بنفثاته . والبائس بشكاته . فكشفتْ لها عن نفسها . وألقت اليها بخبيئة صدرها . ولم تترك خبراً من أخبار نعيمها ولا حادثاً من حوادث بؤسها لم تحدثها به . فعرفت الفاجرةُ محنتها و رأتْ بعينها ذلك الماء من الحسن الذي يجول في أديم وجهها جولانَ الخمر وراء زجاجتها . وعلمتْ أنها إن أحرزتها في منزلها فقد أحرزت لنفسها غنى الدهر . وسعادة العمر . فلم تزل ترسل اليها عقاربها وتنفث في نفسها عزائمها ورقاها حتى غلبتها على أمرها وقادتها إلى منزلها . فما هي إلا عشيةٌ أوضحاها حتى بلغت تلك الفتاة البائسة الغايةَ التي لا مفر لها ولا لأمثالها من بلوغها

عاشتْ تلك البائسة في منزلها الجديد عيشاً أشقى من عيشها الاول في منزلها القديم . لانها ما كانت تستطيع أن تزدردَ لقمتها التي هي كلَّ ما حصلتْ عليه في دورها الثاني إلا إذا بذلتْ راحتها وشرّدتْ نومها وأحرقتْ دماغها بالسهر وأحشاءها بالشراب وصبرَت

على كل من يسوقه اليها حظها من سباع الرجال وذئابهم على اختلاف طباعهم. وتنوع أخلاقهم. ولكنها لم ترلها بدا من ذلك فاستسلمت استسلام اليائس الذى لم تترك له ضائقة العيش الى الرجاء سبيلا

ولو أن الدهر وقف معها عند هذا الحد لألفت الشقاء وتمرنت عليه كما يألفه ويمرن عليه كل من أصيب بمثل ما أصيبت به. ولكنه أبى الا أن يسقيها الكأس الأخيرة من كؤوس شقائه. فساق اليها رجلا كان ينقم عليها شأنا من شؤون شهواته ولذاته فزعم أنها سرقت كيس دراهمه فى إحدى لياليه عندها ورفع أمرها الى القضاء واستعان عليها ببعض أترابها حتى أدانها

جاء يوم المحاكمة فسيقت المرأة الى المحكمة وفى يدها فتاتها وقد بلغت السابعة من عمرها فأخذ القاضى ينظر فى القضايا ويحكم فيها بما يشاء ويشاء له قانونه أوذمته حتى أتى دور الفتاة فأدناها منه. فما وقع بصرها عليه حتى شدهت عن نفسها وألم بها من الاضطراب والحيرة ما كاد يذهب برشدها. ذلك أنها عرفته وعرفت أنه ذلك الفتى الذى كان سبب شقائها. وعلة بلائها. فنظرت اليه نظرة شزراء ثم صرخت صرخة دوى بها المكان دويا وقالت:

رويدك يا مولانا القاضى. ليس لك أن تكون حكما فى قضيتى. فكلانا سارق وكلانا خائن. والخائن لا يقضى على الخائن واللص لا يصلح أن يكون قاضيا بين اللصوص

فعجب القاضى لهذا المنظر الغريب وغضب لهذه الجرأة العجيبة وهم أن يدعو الشرطى لاخراجها فحسرت قناعها عن وجهها فنظر اليها نظرة ألم فيها بكل شىء. فشعر بالرعدة تمشى فى أعصابه وسكن فى كرسيه سكون المحتضر على سرير الموت. وعادت الفتاة إلى إتمام حديثها فقالت:

أنا سارقة المال وأنت سارق العرض. والعرض أثمن من المال. فانت أكبر منى جناية. وأعظم جرما

إن الرجل الذي سرقتُ ماله يستطيع أن يعزي نفسه عنه باسترداده أو الاعتياض عنه . أما الفتاة التي سرقتَ عرضها فلا عزاء لها . لأن العرض الذاهب لا يعود

لولاك لما سرقت . ولا وصلت إلى ما إليه وصلت . فاترك كرسيك لغيرك وقف بجانبي ليحا كمنا القضاء العادل على جريمة واحدة أنت مدبرها وأنا المسخَّرةُ فيها

إن شريعة تعلمُ أننا شركاء في جريمة واحدة ثم تأتي بنا إلى هذا المكان فتقف أحدنا في أشرف المواقف ونقفُ الآخر في أدناها لشريعةٌ ظالمة ليس بينها وبين العدل نسب موصول أو ذمام غير منقضب

رأيتك حين دخلت الى هذا المكان وسمعتُ الحاجب يصرخ لمقدمك . ويستنهضُ الصفوف للقيام لك . ورأيتُ نفسي حين دخلتُ والعيون تتخطاني والقلوب تقتحمني فقلت يا للعجب . كم تكذب العناوين وكم تخدع الالقاب . وكم يعيش هذا العالم في ضلالة عمياء . وجهالة جهلاء

بخ بخ لاولئك القوم الذين منحوك هذه الشهادة شهادة العلم والفضل والأخلاق والآداب . ومرحى ومرحى لاولئك الذين أقعدوك هذا المقعد ووضعوا بين يديك هذا القانون وأوقفوا أمامك هذا الشرطي يأتمر بأمرك وينفذ حكمك ويجري على هواك

إن تحت هذه الثياب التي تلبسونها معشر القضاة نفوساً ليست بأقل من نفوسنا شراً ولا بأقوى منها عزيمة . وربما لا يكون بيننا وبين الكثير منكم فرقٌ إلا العناوين والالقاب . والشمائل والازياء

أيتَ بي الى هنا لتحكم عليَّ بالسجن كأن لم يكفك ما أسلفت الي من الشقاء حتى أردت أن تجيء بلاحق لذلك السابق

ألم أحسن اليك بساعة من ساعات السرور رفترعاها

ألم تكن انساناً فترثي لشقائي وبلائي

إن لم تكن عندي وسيلة أمتُّ بها اليك فوسيلتي اليك ابنتك هذه فهي الصلةُ

الباقية بيني وبينك

فرفع القاضي رأسه ونظر الى ابنته الصغيرة نظرة شفقة ورحمة . وقد قرر في نفسه أن لابد له من أن ينصف تلك البائسة وينتصف لها من نفسه . غير أنه أراد أن يتخلص من هذا الموقف خلوصاً جميلاً فأعلن أن المرأة قد طاف بها طائف من الجنون وأن لابد من إحالتها على الطبيب فصدق الناس قوله

ثم قام من مجلسه بنفس غير نفسه . وقلب غير قلبه . وماهي إلا أيام قلائل حتى هجر القاضي منصبه بحجة المرض . ومازال يسعى سعيه حتى ضم اليه ابنته واستخلص أمها من قرارتها وهاجر بها الى بلد لا يعرفهما فيها أحد . فتزوجها وأنس بعشرتها واحترف في دار هجرته بحرفة لولا أن أذل عليه إذا ذكرتها لذكرتها . ولا يزال حتى اليوم يكفر عن سيئاته إلى زوجته بكل ما يستطيعه من صنوف العطف وألوان الاحسان . حتى نسيا ما فات . ولم يبق أمامها الا ماهو آت

الحسد

لو عرف المحسود ما للحاسد عنده من يد وما أسدى اليه من نعمة لانزله من نفسه منزلة الاوفياء المخلصين . وأسجد بين يديه تلك السجدة التي يسجدها الشاكرون بين يدي المحسنين

لا يزال صاحب النعمة ضالاً عن نعمته لا يعرف لها شأناً . ولا يقيم لها وزناً . حتى يدله الحاسد عليها بنكرانها . ويرشده اليها بتزييفها والغض منها . فهو الصديق في ثياب العدو والمحسن في صورة المسيء

أنا لا أعجب لشيء عجبي لهذا الحاسد . ينقم على محسوده نعم الله عليه ويتمنى لو لم تبق له واحدة منها وهو لا يعلم أنه في هذه النقمة وفي تلك الامنية قد أضاف الى نعم محسوده

نعمةً هي أفضل من كل ما في يديه

وجهُ الحاسد ميزان النعمة ومقياسُها . فان أردتَ أن تزن نعمة وافتك فارم بخبرها في فؤاد الحاسد ثم خالسْه نظرةً خفيةً بحيث ترى الكآبة والهمّ فهناك جمال النعمة وسناؤها

ليس بين النعم التي ينعم بها الله على عباده نعمةٌ أصغر شأناً وأقلّ خطراً من نعمة ليس لها حاسد . فان كنت تريد أن تصفوَ لك النعم فقف بها في سبيل الحاسدين . والقها في طريق الناقمين . فان حاولوا تحقيرها وازدراءها فاعلم أنهم قد منحوك لقب « المحسد » فليهنأ عيشك . وليعذُبْ موردك

إن أردت أن تعرف أي الرجلين أفضل . فانظر الى أكثرهما نقمة على صاحبه وكلفاً بالغض منه والنيل من عرضه فاعلمْ أنه أصغرُهما شأناً وأقلّهما فضلاً

قد جعل الله لكل ذنب عقوبة آتية يتألم لها . فالشاربُ يتألم عند حلول مرضه . والمقامرُ يوم نزول فقره . والسارقُ يوم زيارة سجنه

أما الحاسد فعقوبته حاضرة لا تفارقه ساعة واحدة

إنه يتألم لمنظر النعمة كلما رآها . والنعمةُ موجود من الموجودات الثابتة التي لا يُلم بها الا التنقلُ من مَظهر إلى مَظهر والتحولُ من موقف الى موقف . فهيهات أن يَفنى ألمه . أو ينقضيَ عذابه . حتى تَقرّ عينه التي تُبصر . ويسكنَ قلبه الذي يخفق

الحسد مرض من الامراض القلبية الفاتكة . ولكل داء دواء . ودواء الحسد أن يسلك الحاسدُ سبيلَ المحسود ليبلغ مَبلغه من تلك النعمة التي يحسده عليها . ولا أحسبُ أنه يُنفق من وقته وعمله في هذه السبيل أكثرَ مما ينفق من ذلك في الغضّ من شأن محسوده والنيل منه . فان كان يحسده على المال فلينظرْ أيّ طريق سلك اليه فليسلكه . وان كان يحسده على العلم فليتعلم . أو الادب فليتأدب . فان بلغ من ذلك مأربه فذاك . وإلا فحسبهُ أنه ملأ فراغَ عمره بشؤون لولاها لقضاه بين الغيظ الفاتك . والكمد القاتل

الوفاء

يا صاحب النظرات

تزوجتُ منذ سنة من زوجة صالحة طيبة القلب والسريرة فاغتبطتُ بعشرتها برهة من الزمان . وفي هذه الأيام عَرَض لها رمدٌ في عينيها فذهب ببصرها فأصبحت عمياء وأصبحتُ أعمى بجانبها . وقد بدا لي أن أطلقها وأتزوجَ من غيرها فماذا ترى

انسان

أيها الانسان لا تفعل : فانك إن فعلت كان عليك إثم الخائنين . وجُرم الغادرين . كن اليومَ أحرصَ على بقائها بجانبك منك قبلَ اليوم . حتى تستطيع أن تدخرَ لنفسك عند الله من المثوبة والاجر ما يدخر أمثالك من الصابرين المحسنين

لا تقل إنها عمياء فلا خيرَ لي فيها ولا غبطةَ لي بها . فانك ستجد في نفسك من لذة المروءة والاحسان . والعطف والحنان . ما يحسدك عليه الناعمون بالحور الحسان . في مقاصير الجنان

إجلس اليها صباحك ومساءك وحادثها محادثةَ الصديق لصديقه . بل الزوج لزوجه . وتلطفْ بها جهدَك . وروّح عن نفسها ما يساورها من الكروب والاحزان . وقلْ لها لا تجزعي ولا تحزني فانما أنا بصرُكِ الذي به تُبصرين . ويدك التي بها تبطشين

أُعيذُك أيها الانسان بالله ورحمته . والعهد وذمامه . أن تجعل لهذا الخاطر السيء خاطرِ الطلاق أو الفراق سبيلاً الى نفسك . فانها لم تسيء اليك فتسيء اليها . ولم تنقضْ عهدك فتنقضَ عهدها . فان كنت لا بد ثائراً لنفسك فاثأرْ لها من القدَر إن استطعت إلى ذلك سبيلا

إنَّ عجزاً من الرجل وضعفاً أن يَغضبَ فيمدَّ يدُه بالعقوبة إلى غير من أذنب اليه . ويَعتدىَ على من لم يعتدِ عليه

إن لم يكن احتفاظُك بزوجك وإبقاؤك عليها عدلاً يسألك الله عنه . فليكن إحسانا تحاسبك الانسانية عليه

إنك خسرت بصرها ولكنك سَتربح قلبها . وحسبُ الانسان من لذة العيش وهنائه في هذه الحياة قلبٌ يخفق بحبه . ولسانٌ يهتف بذكره

إنها أسعدتك برهةً من الزمان فليخفق قلبك حناناً عليها بقدر ما خفق سروراً بها لا أحسبُ أنها كانت تاركَتك أو مُغفلةً أمرَك لو أن هذا السهم الذى أصابها أصابك من دونها . فاحرص الحرصَ كله على أن لا تكون امرأةٌ ضعيفة أسبقَ منك الى فضيلة الصدق والوفاء

إلى من تَعهد بها بعد فراقك إياها . وأيّ موطن من المواطن هيأته لمُقامها . وماذا أعددتَ لها من الوسائل التى تستعين بها على شؤون عيشها . وتأنسُ بها فى وحشتها ووحدتها

كيف يهنأ لك عيشٌ أو يغمضُ لك جفن إذا أظلك الليل فذكرتها وذكرتَ أنها تقاسى فى وحدتها من الوحشة ما لا قبل لها باحتماله . وأنها ربما كانت تطلب جرعة ماء فلا تجدُ من يُقدّمها اليها . أو كسرةَ خبز فلا تجد من يَدلها عليها . أو ربما قامت من مضجعها فى سكون الليل وهدوئه تتلمسُ الطريقَ الى حاجة من حاجها فاخطأ تقديرها فصدمها الجدارُ فى جبينها صدمةً سال لها دمها حتى امتزج بدمعها

أيها الانسان : إن لم تكن عادلاً ولا وفياً ولا محسناً فارحم نفسك من هذا الخيال الذى لابد أن سيساورك ويَفُتّ فى عضدك ويُزعجك من مَرقدك . فان لم تكن هذا ولا ذاك فغيرَك اخاطب . لانى لا أحسن الا مخاطبةَ الانسان

إنى محدثك عن صديق لى من كرام الناس وأوفيائهم تزوج زوجة حسناء فاغتبط بها برهة من الزمان ثم أصابها الدهرُ بمثل ما أصاب به زوجتك ولم يترك لها من ذلك النور الذاهب الا مثل ما تترك الشمس من الشفق الأحمر فى صفحة الأفق بعد غروبها . فلم يُقنعه من الوفاء لها أن استبقاها واستمسك بها بل كان يحرص جهدَه على أن لا تعلم أنه ينكر

من أمرها شيئاً . حتى أنه كثيراً ما كان يَعتِب عليها العتْب الكثير فى ذنوبٍ ما كان له أن يؤاخذها بها إلا من حيثُ كونُها ناظرةً مبصِرة . يريدُ بذلك أن يُلقى فى نفسها أنه لا يَعرف من قصة نظرها شيئاً . وأنه لا يرى فيها غيرَ ما يراه الرجال من نسائهم المبصرات . رفقاً بها و إبقاء على ما ربما تحب أن تحاوله من الاعتداد بنفسها . والادلال بمزاياها

ولقد قرأت جملة صالحة من نوادر العرب فى آدابهم ومكارم أخلاقهم ولطف وجداناتهم فلم أرَ بينها نادرة أعلق بالقلوب ولا أجمل أثراً فى النفوس من قول أبى عيينة الكاتب المعروف فى عهد الدولة العباسية وكان كفيفَ البصر « اختلفتُ الى القاضى أحمدَ بن أبى دؤاد أربعين سنة فما سمعته مرة يقول لغلامه عند تشييعى خذ بيده يا غلام . بل يقول اخرج معه يا غلام »

فان كنتَ تريد أن يُسجَّل لك من الوفاء فى صفحات القلوب ما سُجل لاحمد بن أبى دؤاد فى صفحات التاريخ فلا تطلقْ زوجتك ولا تنقِم منها أمراً خرج من يدها . و إن أبيت الا أن تأخذ لنفسك حظّاً من لذة العيش وهنائه فاعلم أنه ما من لذة يَلَذّ بها الانسان فى حياته الا و يشوبها الكدر . أو يعقبها الألم . الا لذةَ الاحسان

خبايا الزوايا

جلس قاضى التحقيق أمس على كرسيه فى غرفته و وقف عن يمينه رجلٌ من ذوى الاسنان (١) قذرُ الثوب دميم المنظر تسنح شعراتُه البيض فى أكناف رأسه ولحيته سنوحَ الشرر الابيض . فى الدخان الاسود . وتمشى فى أديم وجهه صفرة مغبرة من رآها علم أنها نسيجُ ذلك الدخانِ دخانِ الحشيشة الذى ينفُثه هذا الرجل من فيه فى صباحه ومسائه . وغدوه و رواحه . و وقف عن يساره صبية ستة نُحّلُ الابدان جوّع الاكباد لم يَترك

(١) جمع سن وهو العمر

لهم الدهر آكل البؤساء وشار بهم الاهيا كل من عظام تتقلب فى رءوسها عيون لا تستقر فى محاجرها الا اذا استقر الزئبق فى قرار مكين

نظر اليهم قاضى التحقيق نظرات تمازجها الرحمة . وتخالطها الشفقة . والقضاة لا يرحمون ولا يشفقون لولا أن من المناظر مناظر تعبث بالقلوب القاسية . وتستهوى الافئدة المتحجرة . وأنشأ يسألهم واحداً بعد واحد ما شأنهم وما خطبهم وما مصيرهم . فكان جوابهم جواباً واحداً محصله أن هذا النمر اللابس ملابس الانسان رأى خلتهم (١) من حيث تخفى مكانها فثغر (٢) فيها ثغرة انحدر منها إلى أعراضهم فعبث بها ما شاء وشاء العابثون . فكانوا فى داره الضروع التى يحتلبها حتى اذا استنفد درّها (٣) ألح على دمائها فاستنزفها . وقالوا إنه كان يديم مطال الجوع فى بطونهم فاذا علم أنهم هلكوا أو كادوا طفق يعللهم باللقمة بعد اللقمة . والمضغة اثر المضغة . ويرمقهم (٤) العيش ترميقاً لا إبقاء عليهم بل على ما كان يغتنمه من بسطة العيش من ورائهم . وزعموا أنه كان يريبه منهم فى بعض الاحيان تمردهم عليه واحتفاظهم بأعراضهم من دونه فيدخل فى أدمغتهم لصاً من دخان الحشيشة يسرق عقولهم . ويحل عقدة منعتهم . ويتركهم لا يدرون ما يأتون ولا ما يدعون

وما وصلوا من شكواهم الى هذا الحد حتى سقط منهم اثنان بين يدى القاضى فراعه من أمرهم ما راعه ثم علم أنه الجوع فأمر لهم بخبز وأدم فازدحموا عليه يتناهبونه ويزدردونه ازدراد الوحش فريسته . وقد وقف ذلك الذئب المستأنس ينظر اليهم نظرة شزراء كتلك النظرة التى يرمى بها الصائد صيده إذا أفلت من حبالته

بذلك حدثنى من رأى هذا المنظر بعينه فارتعت لسماع حديثه الارتياع كله وحسبت أنه يحدثنى عن حادثة وقعت فى مبدأ الخليقة فى مغارة من مغاور الجن أو شعفة (٥) من

(١) الخلة الحاجة (٢) ثغر الشىء ثلمه وفتحه (٣) الدر اللبن (٤) ترمق اللبن أخذه حسوة حسوة (٥) الشعفة رأس الجبل

شعفات الجبال . وقلت له أتعلم أيها الرجل أنك تحدثني عن إنسان . فقال لا تعجل فما حدثتك الاعن رجل حمار لا يفارق وجهه سوءة حماره ليله ونهاره . وربما سرت اليه تلك النتيجة من هذه المقدمة . فكيف بك لو علمت أن هذه الرذيلة لا يترفع عنها في هذا البلد كثير من الاتقياء والصالحين . والاساتذة والمعلمين

إن بين جدران هذه البنى التي يسمونها المدارس وقائع لا يسر منظرها . ولا يروق مخبرها . وحوادث لو تلاها التالون على مسمع الفلك الدائر لوقف عن دورته . أو الجبل الشامخ لصعق من دهشته

إن بين هؤلاء الذين تراهم وقوفاً في أشرف المواقف بعد مواقف الرسل والذين تغضي بين أيديهم العيون إجلالاً وإكباراً . وتترامى على أيديهم الافواه لثماً وتقبيلاً . والذين أسلمت الامة أمر بنيها اليهم وأخذت عليهم ما شاء الله أن تأخذ من العهود والمواثيق أن يكونوا لاولئك الابناء آباء محسنين . وأوصياء راحمين . قوماً لصوصاً يسرقون الاعراض . وخونة يعبثون بالامانات . وقتلة يفتكون بأعراض تلاميذهم فيوردونهم موارد الحتف والهلاك . ويجعلون مصيرهم مصير أولئك الصبيان الذين فارقناهم في غرفة التحقيق

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى سرى عن نفسي ما كنت أمسكه بين جنبي من الموجدة على ذلك الرجل . وعلمت أن الجناية ليست جناية الحشاشين والحمارين . وانما هي جناية المربين . وجريرة المهذبين

أساء الاب بادخال ولده المدرسة . وكان خيرا له لو أدخله المزرعة حيث لا سقوف ولا جدران . ولا خبايا ولا زوايا . ولا مكامن ولا مخادع . وحيث يجد النابت هناك من الطبيعة الطاهرة أستاذاً أميناً مستقيما . لا عاهراً ولا فاسقاً . ولا خائناً ولا غادراً . وحيث يرتشف من عرق جبينه نهلات باردات أصفى من المرآة وأطهر من الكوثر

وأساء المعلم لأنه هو الذي عمد إلى ذلك الصبي الطاهر فمزق عنه برقع عفافه وتصونه . ثم قذف به في ذلك المزدحم الانساني المائج بالشرور والآثام لا يحمل في يده

سلاحا يحارب به . ولا يعرف السبيل الى جُنّة يدفع بها عن نفسه . فما له بدٌّ من العجز أمام القادرين . والادبار بين أيدى المُقدِمين

وأساء الناس جميعاً باغفالهم أمر هؤلاء البؤساء و إمساكهم القوت عنهم والمعونة لهم . ولو أنهم أحسنوا إليهم لأنقذوهم من حياة كلها شقاء و بلاء . وعيب وعار

ليست مسئلة خبايا الزوايا أمراً يُستهان به . فاننا نريد أن نُعِدّ لوطننا من بعدنا رجالاً ذوى شجاعة وجرأة . وثبات و إقدام . من الذين إذا عظم الخطب كانوا حُماة الديار . واذا اشتد البأس لا يولون الأدبار

الجامعة الاسلامية

أنا لا أحب أن أخدع نفسى عن نفسى . ولا أحب أن أخدع الناس عنها

أنا مسلم قبل كل شىء . أى قبل أن أكون وطنياً أو سياسياً أو مجتمعياً . بل قبل أن أكون نسمة حية فى هذا الوجود

لو علمت أن مآرب هذه الدنيا وأغراضها لا تنال إلا بترك شعيرة من شعائر الدين أو العبث بفريضة من فرائضه لعفتها واجتويتها ونفضت يدى منها وقلت لها كما قال لها على ابن أبى طالب من قبل : اليك عنى غرّى غيرى مالى بك حاجة

لو لم يكن فى الامر الا أن أخسر دينى فأربح دنياى . أو أخسر دنياى فأربح دينى . لآثرت أخراهما على أولاهما . لانى أعلم أنى إن خسرت دينى فقد خسرت كل شىء

لو علمت أن الوطنية وهى أفضل ما حمل امرؤ بين جنبيه من خلال الخير تعترض دون طريقى الى آخرتى . أو تمد حجابا بينى و بين ربى . لخرجت منها كما أخرج من ردائى . ثم خلصت الى شعفة من شعفات الجبال أو صخرة فى منقطع العمران أخلو فيها بنفسى من حيث لا أسمع دعاء غير دعاء القلب . أو نداء غير نداء الله . حتى يحين حينى . و ينقضى أجلى ما أبغضت فى حياتى شيئاً بغضى للكذب والرياء . فإما أن أكون مسلماً .

فهاهوذا الاسلام . وهـذه شروطه وقيوده . وصفاته وطبائعه . أولا أبديتُ للناس صفحتى . وأعلنت لهم أمرى . حتى يعلموا من أمر نفسى مثل ما أعلم منها

أنا لا أحدث فى ذلك عن نفسى خاصة بل عن المسلم من حيث كونه مسلماً . أى مصدقا بالله ورسوله . ووعده ووعيده . وثوابه وعقابه . معتقداً أن الحياة الدنيا ممعبر يعبُره الى الحياة الاخرى . وأنه محاسب فى أخراه حساباً غير يسير على ما فرط فى أولاه . وأن الله لا يقبل منه فى موقف الحساب من المعاذير إلا ما رخص له فيه أو رفع عنه مؤنته . فلا سبيل له إلا أن يلبس ثوب الاسلام معلماً . لا خائفاً ولا مترقباً . ولا متحذراً ولا متكتماً . ولا محتفلاً بقول العيسوى أو الموسوى له أنت متعصب . ولا بقول الملحد أو الجاحد أنت مخرف . فهو ليس متعصبا بل متمسكا . ولا مخرفا بل مستيقناً . وأن يعترف به جهرة فى جميع مواطنه ومواقفه لا مستحيا ولا خجلا . فقد انقضى عهد الإسرار والإخفاء من تاريخ ذلك اليوم الذى أسلم فيه عمر بن الخطاب فمشى الى المسجد الحرام حيث يجتمع كفار قريش وأعلن فيه إسلامه بين هياجهم ونقمتهم . ثم مر يقرع أبواب رؤسائهم باباً باباً فاذا فتحوا له حدثهم عن اسلامه فضربوا الباب فى وجهه غيظاً وحنقاً

التمسك غير التعصب . والتهاون غير التسامح . فليس كل ممسك متعصباً . لان التمسك محافظة المرء على العمل بأوامر الدين ونواهيه . والتعصب بغضه لمخالفيه فى دينه بغضاً يحمله على محاولة النكاية بهم . والعبث بما حقن الله من دمائهم . وصان من أعراضهم وأموالهم . وليس كل متهاون متسامحاً . لان التهاون ترك المرء العمل بما فرض الدين عليه أن يفعل أو يترك . والتسامح اغضاؤه عن خلاف المخالفين له . بحيث لا يعد تلك الفروق الدينية التى بينه وبينهم وسيلة إلى بغضهم أو مناضلتهم . أو نصب الغوائل لهم . أو سد سبل العيش فى وجوههم

ولقد اعترضتُ الآراء والمذاهب حلوها ومرها . ومعوجها ومستقيمها . فلم أر رأياً أضعف حجة ولا أضل سبيلا من رأى الذى يقول إن الدين لا يجوز أن يتجاوز عتبة المسجد . وكيف يستطيع المسلم أن ينفرد بنفسه عن دينه فى موطن من المواطن . أو مذهب

من المذاهب . وهو رفيق طيته . ولصيق نفسه . في قيامه وقعوده . و يقظته ونومه . وانفراده واجتماعه

ذلك أن المسلم لا يستطيع أن لا يعطف على أخيه المسلم عطفاً خاصاً به فوق عطفه على غيره من أفراد البشر لانه مأمور أن يكون منه بمنزلة اللبنة من اللبنة في البناء الواحد . أي أن يكون عضداً له في شؤن دينه ودنياه

ولا يستطيع أن يسمع كلمة سوء يريد بها قائلها النيل من دينه والغض منه دون أن يغضب لها . لانه من دينه على بينة . والغضب لا يزال رذيلة من الرذائل حتى يكون للحق فهو أفضل الفضائل

ولا يستطيع أن يبيع أو يبتاع . و يقرض أو يقترض . و ينطق أو يصمت . و يعاشر أو يقاطع . و يوافق أو يخالف . الا اذا نظر فيما أحل الدين من البيع وحرم من الربا . و في ما رخص للمتكلم أن ينطق به . وأوجب عليه أن يمسك عنه . وفيما شرع من معاشرة خيار الناس ومجانبة شرارهم . وموافقة المحقين . ومخالفة المبطلين . وهكذا حتى لا يخرج في جميع أفعاله وتروكه عن الدين المحيط به في جميع شؤنه وحالاته . سواء أكان في المسجد أو البيعة أو المنزل أو السوق أو المجتمعات العامة أو المجتمعات الخاصة

وكما لا يستطيع أن يخرج عن أحكام الدين في شيء من هذا كذلك لا يستطيع أن يخرج عنها في كيفية معاملة المخالفين له في الدين من الرأفة بهم . والعطف عليهم . والاحسان اليهم . ما داموا موالين له . غير خارجين عليه . ولا مادّين اليه يد سوء

فلتنعموا أيها المسيحيون بالا . ولتثلجوا صدوراً . ولتعلموا أن المسلم لا يستطيع أن يكون متعصبا ما دام متمسكا بدينه . لان في تعصبه هدماً لاعظم ركن من أركان الدين الذي يتعصب له

فان رأيتم أنه يغضب لشتم دينه أو نبيه في صحيفة تنشر في بلاده . أو يضمر في قلبه جزعا من العهد بشؤون المسلمين الدينية الى غير مسلم . فلا تقولوا إنه متعصب . و إنما هو متمسك بدينه تمسككم بدينكم . ولا تطلبوا عنده أكثر مما تطلبون عند أنفسكم . وارحموه ولا تعذبوه

بإدماء قلبه . و إحراج صدره . فانه يرحمكم ولا يعذبكم

وان رأيتم أن فى المسلمين متعصبين فاعلموا أنهم متعصبو أقوال . لا متعصبو أفعال . أى أنهم يبغضون المسيحيين ولا يقاطعونهم . و يدعون عليهم بالهلاك ولا يمدون اليهم يد سوء . و يسيئون الظن بهم وهم يستعينون بهم فى جميع أعمالهم سرها وجهرها . و يتمنون لهم الخسران وهم يحمونهم مما يحمون منه أنفسهم وأولادهم . فهذا التعصب لو تبينتم مظهر من مظاهر الحماقة والبله لا أثر له فى نفوسهم . ولا علاقة بينه و بين تدينهم . ولا يمكن بحال من الاحوال أن يشبه تعصب المعروفين بالتعصب من المسيحيين الذين يضمرون للمسلمين فى قلوبهم ما تصمت عنه ألسنتهم . وتنطق به أعمالهم . فترى الواحد منهم لا يبتاع حاجته الا من المسيحى إن كان مشتريا . ولا يستعين على عمله إلا بالمسيحى إن كان تاجراً أو صانعاً . ولا يوظف إلا المسيحى إن كان رئيساً فى مصلحة . ولا يهتم الا بالدفاع عن المسيحى إن كان محامياً . ولا يرحم إلا المسيحى إن كان قاضياً

إن المسيحى الذى يقول للمسلم أنت متعصب قبل أن يرى فى سيماء وجهه أثر العداوة والبغضاء له و إرادة الايقاع به لا يريد بكلمته هذه خيراً له . بل خديعته عن دينه والهجوم على قلبه . والتمكن من مجالسته على مائدة واحدة تختلط فيها الايدى والافواه . و يخطئ فيها العد و يضيع الحساب . فيتناول منها ما الذ وحلا و يترك له ما مر وتفه . ولقد بلغ منه فى كثير من الاحيان الغرض الذى أراده فخدع كثيرمن المسلمين عن دينهم . ونالت تلك المكيدة المدبرة من نفوسهم . وعظم عليهم أن يسموا متعصبين وكانوا لا يدركون فرق ما بين التمسك والتعصب فتهاونوا فى أمر دينهم وازدروه . واستحيوا من اللصوق به . والاخذ بشعائره . فأصبح الواحد منهم لا يجرأ أن يفتتح خطابه أو كتابه أو طعامه بالبسملة . ولا يجرأ على السلام أو رده بالصيغة المأثورة . ولا على اقامة الصلوات فى أوقاتها فى مجتمع عام . ولا على الاعتذار عن ترك منكر من المنكرات بعذر الدين . بل إن فيهم من يرائى بالفسق والضلال كما يرائى الفساق والضُلّال بالصلاح والتقوى . فيقيم الصلاة فى بيته و يزعم أنه تاركها . و يترك شرب الخمر تدينا و يزعم أنه تاركها توفيراً لماله أو خوفا على صحته . فراراً من تهمة

التعصب ، أى تهمة التدين ، ولله الامر من قبل ومن بعد

ولم أر فى حياتى منظراً أبرد ولا أسمج من منظر المسلم الذى يجالس المسيحى فى مجتمع عام فيقول له إنى أحبك محبتى لنفسى لانى أعتقد أن كلينا يعبد إلهاً واحداً ويدين بدين صحيح يأمر بفضائل الاعمال وينهى عن رذائلها . وربما كان يضمر له فى قلبه فى تلك الساعة من العداوة والبغضاء مالو طارت شرارة منه لاحرقتهما جميعاً وتركتهما رماداً تذروه الرياح . وعندى أن الافضل من هذا الرياء الكاذب والدهان المصنوع أن يقول له إنى أعتقد صحة دينى فلا بد لى أن أعتقد فساد غيره من الاديان . لانى لو كنت معتقداً صحتها لتقلدتها وهجرت دينى لاجلها . وإنى على ذلك لا أحمل لك فى صدرى ضغينة ولا موجدة لانى أعلم أنك انسان . ودينى لا يسوغ لى أن أبغض أحداً من الناس . غير أنى لا أستطيع أن أحبك محبتى لاخى المسلم لانى ان أحببت الذى يساعدنى على حفظ مالى أو صيانة ولدى حباً جماً فأحرى بى أن أحب الذى يساعدنى على حفظ دينى الذى هو أعز علىّ من نفسى وولدى حباً لا حد له

ان المصانعة والمجاملة فى الدين ليست سبيل الاتحاد والاتفاق كما يظن الذين يصانعون ويجاملون . وما هى إلا الخداع والغش . وما علمنا أن أمة أسعدها الغش أو رفعها الخداع . وها هى ذا الجرائد المسيحية والاسلامية فى مصر يفتتح أكثرها كل يوم فصول العداوة والبغضاء . بعناوين المحبة والاخاء . فلم يف خيرها بشرها . ولا نفعها بضرها . بل السبيل الى ذلك أن يعلم المتدين علماً صحيحاً أن الاختلاف فى الدين شىء والتباغض فيه شىء آخر . وأن الدين الذى يسوق العالم الى الهلاك والفناء لا يمكن أن يكون ديناً الهيا

ان الابهام والاغماض فى التدين يقتل الدين فى نفوس المتدينين قتلا لا حياة له من بعده . فلا بدّ للمسلم من أن يكون مسلماً فى جميع حالاته وشؤونه . وإسراره وإعلانه . فلا يستحي أن يلبس عمامته فى باريس كما يلبسها فى مصر . وأن يقيم الصلاة لوقتها فى قصر الفاتيكان كما يقيمها فى مسجد قريته . وأن يترفع عن مجاراة الغربيين فى عاداتهم التى يرى أنها لا تلائم دينه . فلا يشرب نخب أحد من الناس وان كان فى مجلس الامبراطور . ولا يأكل لحم

الخنزير وان قدمه له بيده القيصر . ولا يحمل بساط الرحمة فى جنازة ميت من الأموات وان كان بابا رومه . ولا يحمل سلاحه راكضاً الى مقاتلة أخيه المراكشى إن كان جزائريا . أو المصرى ان كان هنديا . ولو كان دون ذلك موته صبراً . وليعلم أن ذلك سبيله الذى لا سبيل غيره الى العظمة التى يجب أن تكون له فى نفوس المخالفين له فى دينه أو عاداته .

وان حاول مخادع أن يخدعه عن نفسه ويلقى فى رُوعه أن اطّراح المسلمين للدين وسيلة تقدمهم كما كان اطّراحه وسيلة تقدم المسيحيين فليذكر دائماً كلمة ذلك الرجل العظيم السيد جمال الدين الافغانى فى قوله « ترك المتدينون دينهم فتقدموا . وترك المسلمون دينهم فتأخروا »

الجامعة الاسلامية بالنسبة للمسلم هى الجامعة الكبرى التى يجب أن يمنحها بنات قلبه . وجوهر لبه . قبل أن يمنح ذلك غيرها من الجوامع الأخرى . وما احتاج المسلمون الى تلك الجامعة فى دور من أدوار حياتهم احتياجهم اليها فى هذا العصر الذى أصبحوا فيه شتى المسالك والمذاهب بين سمع الارض وبصرها . وأصبحوا لا موطن لهم الا تلك البقاع المبعثرة فى مشارق الارض ومغاربها التى يعيشون فيها عيش الاذلاء المستضعفين . بين مُهاجر يأكل خبزهم . ومستعمر يشرب دمهم . ومبشر يفتنهم عن دينهم . أو ينغص عليهم عيشهم بمشاغبتهم ومجادلتهم . والاستهزاء بعقائدهم وشعائرهم . فان لم يتعارفوا ويتعاقدوا على التعاون والتناصر تعاقداً يأنسون به عند اشتداد الكربة . ويفزعون اليه من كلب الزمان وغدره . كان آتيهم شراً من حاضرهم . كما كان حاضرهم شراً من ماضيهم

أنا لا أريد بالجامعة الاسلامية أن يجتمع المسلمون على قتال المخالفين لهم فى دينهم . فقد مضى زمن القتل والقتال . بل أريد أنهم ان كانوا يحتفلون بالجامعة الجنسية أو الوطنية مرة لأنها وسيلة دنياهم . فأحرى بهم أن يحتفلوا بالجامعة الدينية ألف مرة لأنها وسيلة دنياهم وأخراهم . وللآخرة خير وأبقى

الوجهاء

الكاتب — ماهذه الطبقة التي تكسو وجهك فتحجب منه ما يحجب صفحةَ السماء من السحب السوداء

الوجيه — إن بين جنبي همًّا يعتلج . ووجداً يذهب باللب . ويطير بشظايا القلب . وناراً من الحزن متأججة مضطرمة دخانُها هذا الذي تراه

الكاتب — أحقٌّ ما تقول وأنت الرجل السعيد بحظه . المغتبط بعيشه . قصرُ غُمدان . وخَوَرْنَق النعمان . وحورٌ وولدان . وظل ظليل . ونسيم وعليل . وخزائنُ تموج بالذهب . موجَ التنور باللهب . ذلك الى ما أسبغ الله عليك من صحة البدن . وسلامة الحواس وأمدّك به من الجاه العريض . والكلمة النافذة . والشفاعة المقبولة . فليت شعري ما شكاتك بعد ذلك

الوجيه — أشكو الفقر الباطن في الغنى الظاهر . والشقاء المقبل في السعد المدبر . وإني لأرى في السماء غمامةَ دكناء يوشك أن تنفجر بالصاعقة الكبرى . والنازلة العظمى

الكاتب — ما كنت أحسب أن الشقاء يمر لك ببال بعد ما أعطاك الدهر عهداً مكتوباً بتلك الحروف الذهبية ألا يسدد سهمه اليك . ولا يدور دورته عليك

الوجيه — متى كان للدهر عهد يوثق به أو ذمام يعتمد عليه . فالناس في يده كالكرة ذات الألوان في يد الصبي يقلبها . فترى الأسود في مكان الأبيض . والأبيض في موضع الأسود . وهكذا بقية الالوان تعلو أسافلها وتسفل أعاليها . ودورة السعود والنحوس أسرع في عمر الدهر من لمح الطرف ولفتة الجيد

الكاتب — هل لك أن تحدثني من أي منفذ نفذ الدهر اليك وما عهدتك شارباً ولا عاهراً . ولا مقامراً ولا مستهتراً . وما للدهر مدخلٌ يتسرب منه الى خزائن الاغنياء غير هذا المدخل

الوجيه — أين يُذهَب بها أيها الصديق . وهل يؤتى الأغنياء في هذا البلد الا من طريق المجد الباطل والسمعة الكاذبة . وهل يَكُبّ العظماء على وجوههم ويُلصق بالرغام معاطسهم إلا الشغف بنظرة الأمير . أو لفتة الوزير . أو زورة المدير . وأنت تعلم أن رجلا مثلي لا يمكن أن يكون له مطمع في المجد الصحيح . فلستُ بصاحب علم فأفخر به . ولا صاحب قلم فأَمُتّ بما يَمُتّ به أصحاب الاقلام من تهذيب المجتمع الانساني وتقويمه . فلم يبق أمامي غير هذا المجد الكاذب . وهو مجد القُربى من الحكام والعمال . ولا سبيل اليه الا ببذل ثمن غال تقصر عنه خزائن قارون وكنوز ركفيلر . ولقد أنفقت فوق الطاقة . ووراء الفاقة . في بناء القصور نُزُلا للحكام . وغرس البساتين منازه لهم . وإعداد الفرش والآنية الثمينة لمآدبهم وولائمهم . فلما نضب مَعين الذهب وعيّت الارض أن تثمر فوق ما تثمر لجأت الى مصرف فأثقلني بالديون وأرهقني بالطلب . ففزعت منه الى آخر . ثم الى آخر . فكنت كالمتوضئ بالبول . أو غاسل الدم بالدم . ولو كُشف لك من أمري ما كُشف لي منه لعلمت أن جميع ما كنت أملك من أطيان وعقار . ودور وقصور . لم يبق منه إلا تلك الخطوط السوداء المسطرة في جرائد الصيارف . وها أنذا اليوم طريد المصارف والغرماء . وغريم القضاء بين قضاء الارض وقضاء السماء . ذلك كل ما يستفيد الوجيه من وجاهته قبحها الله وقبح كل ما تأتي به . فلا تحسد الوجيه على مظهره الكاذب . وزخرفه الباطل . ولا تنفس عليه بؤسه الكامن . وشقاءه الخفي . فهو أتعس خلق الله وأكثرهم شقاء وأثقلهم مؤونة وأخسرهم حاضراً ومستقبلا . يكون عنده من الضياع أو الدور جملة لا تثمر له من المال أكثر مما يسع ترفيه نفسه وتربية أولاده وصلة رحمه فلا يلبث أن يسمى وجيهاً . والوجيه كلمة صغيرة ولكن معناها في نظر الناس كبير . كأنما هي عندهم من جوامع الكلم . فالوجيه في اصطلاحهم هو الرجل الذي يعد لكل غريب نزل بلدته مائدة . ويرضخ بالعطاء لكل عابر سبيل مرّ بحيّه . ويشترك في جميع الجرائد والمجلات وان كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب . ويبتاع تذاكر الجمعية الخيرية الاسلامية مهما كان عددها وإن كان لا ينتفع بواحدة منها . ويشترك في جمعية

الرفق بالحيوان . وجمعيات الرفق بالانسان . و بتاع المؤلفات الحديثة التي يكلفه المدير أو المامور بابتياعها وان كان عمدة وكان المؤلّف في علم الفلسفة . ولا تتم شروط الوجاهة عنده فيأخذ منها بالحظ الأوفر إلا إذا بذل للحكومة المعونة الكبرى في مشاريعها من بناء المستشفيات والمدارس والكتاتيب وأمثال تلك الضرائب التي تضربها الحكومة علينا ضرب الجزية على أهل الذمة في سالف الازمان . والتي لا فرق بينها و بين خراج الاطيان وعشور النخيل وعوائد الاملاك

الكاتب — انها تبرعات ومبرات لا اجبار فيها ولا الزام . فالحكومة لا تُشهر عليكم سلاحا . ولا تُعدّ لكم سجناً . وكل ما في الامر أن رجالها يخطبون فيكم و يدعونكم إلى هذ الاعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة

الوجيه — لا أزال أكرر القول أن رجال الحكومة يضربون علينا ضرائب ليست في شرع ولا قانون . والوجيه في الحقيقة كالعبد في اصطلاح علماء التوحيد مجبور باطناً مختاره ظاهراً . أما الظاهر فهو ما ترونه من اقامة المحافل وخطابة الخطباء والتلطف في الطلب وشكر المحسن على احسانه . وأما الباطن فهو أن الوجيه منا كما علمت مفلس من جميع أنواع المجد إلا المجد الزلفى عند الحكام . والحكام يعرفون ذلك منه فيدخلون عليه من بابه . ولا يفتحون له باب القربى عندهم الا على مقدار ما يفتح من خزائنه بين أيديهم . فمنا من يزوره المدير أو المفتش لانه وهاب الآلاف . أو المامور لانه من أصحاب المئات . أو لا يزوره أحد منهم ولا ينهض له إذا أقبل ولا يشيعه إذا أدبر لانه لا يلبي دعوة ولا يحضر مجمعاً ولا يكتب رقما في قائمة اكتتاب . فلا يلبث أن يَسلس قيادُه . و يُصحب عنادُه . هذا هو الاستبداد الخفي الذي ترغم الحكومة به أنف الوجهاء من غير أن تشهر عليهم سلاحا أو تعدّ لهم سجناً . ولكنها تبلغ به في شهر ما كانت تعجز عنه حكومة السجن والكرباج و « الو يركو » و « البطانطا » والعوائد الشخصية في عام . ولقد راجعت صحيفة حسابي في هذا العام عام الأزمة والجدب فوجدت أني دفعت خراج الاطيان مرة أخرى

الكاتب — هب أن الامر صحيح كما تقول فالحكومة لا تودع هذا المال خزائنها ولا

تقضي به أغراضها وإنما تنفقه فيما ينفع الامة فى تربيتها وتهذيبها وتقدمها وارتقائها

الوجيه — ذلك ما يجب أن تنفق عليه الحكومة من خزائنها التى تملأها من أموال الأمة لهذه الاغراض التى تذكرها . ولكنها تضن بمال هى فى حاجة اليه لاصلاح السودان وبناء العمائر وتشييد القصور وترقية كبار الموظفين خصوصاً الاجانب منهم وإقرار عيون السياح الاوروبيين بالمناظر البهجة والآثار الجميلة . فلا نرى لها بداً من حمل تلك الحمالات على أعناقنا بلا رحمة ولا شفقة ولا نظر إلى ما نقتحمه فى هذا السبيل مما يذيب الشحم . ويعرق العظم . وليتها كانت تتدرج فى الطلب وترتشف المال ارتشافاً ولا تعبه عباً فتدرك فى ذلك سياسة الحكومة السالفة المعروفة باستبدادها وإرهاقها . فقد حكى عن أحد رؤسائها أنه علم أن أحد المديرين سلب أهالى مديريته المال دفعة واحدة وأنهم ضاقوا به ذرعاً فأحضره فى مجلسه وأمر أن تنزع من لحيته شعرات متفرقة فلم يأبه لذلك ولا حفل به . ثم أمر أن تنزع من رأسه خصلة من الشعر مرة واحدة فصرخ وتألم . فقال له هكذا يجب أن يكون أخذ الاموال من الرعية متفرقاً لا تشعر به . لا مجتمعاً تتألم له

الكاتب — حسبك من ذلك ثواب الله وأجره على إحسانك وبذلك المال فى سبيله وللآخرة خير وأبقى

الوجيه — من أين يأتينى الثواب والاجر وهل يثاب المرء إلا على نيته واخلاصه فى عمله . وانى أعترف لك عنى وعن جميع الوجهاء أمثالى بما عرفتُ من أحوالهم . ومارست من طباعهم . أننا لا نريد من بذل ما نبذل إلا رضى الحكم والتودد اليه وموافقة رغبته لاستكمال الوجاهة مرة وقضاء المآرب والحاجات مرة أخرى . و والله لقد أفسد علينا هؤلاء القومُ بخطتهم هذه غرائزنا وسجايانا وعودونا من الرياء فى الاحسان والنفاق فى المعاملة خطة قست معها قلوبنا . واستحجرت أفئدتنا . حتى أن أحدنا يكاد لا يحسن بالدرهم الواحد الى جاره الفقير البائس إلا أمام قاض فهم وشهود عدول . وحتى زهد فينا الفقراء ولوت وجوهها عن أبوابنا المساكين . وجفانا ذوو الرحم والاقرباء . وأصبحت قصورنا فى نظرهم قبوراً يستدرّون لها الرحمات . لا يرجون منها الصدقات . وأقفرت

« مضايفنا » إلا من عربدة المطر بشين ورطانة المبرنطين . فمن أين لثواب الله أن يعرف طريقنا عافاك الله

الكاتب — أتغضبك كلمة الحق إن قلتها لك أيها الصديق

الوجيه — قل ما تشاء فقد ملأ الهم ما بين جوانحي فاستحجر قلبي حتى ما يغضبني حق ولا باطل

الكاتب — أعجب ما رأيت من أمرك في حديثك معي أنك تعرف الحق وتتنكر له كأنك لا تعرفه . وتهديك إلى الصواب ثم تعجز عنه . فقد زعمت أن مجد القربى من أولياء الامر مجد باطل . ولقد أصبت فيما تقول فما شأنك به وما نهوضك اليه وما لك واللصوق بامر أنت تعلم قلة جدواه وسوء مغبته . ولقد كان لك طريق مختصر الى المجد الصحيح لو كنت أكبر منك همة وأصح رأياً وأقوى عزيمة . فمجد الكرم . ليس بأقل شأناً من مجد السيف والقلم . ولا أرى أنك كنت تنفق في سبيله إلا بعض ما أنفقت في هذا المجد الكاذب . وما كان يصيبك في الاول من الشقاء ما أصابك في الثاني . فالكريم مُعان على أمره مبارك له في عيشه متى صح له معنى الكرم وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تسوقه الى تفقد الضعفاء . ومواساة الفقراء . من حيث لا يبتغي على ذلك أجرا سوى ما وعد الله به المحسنين من حسن المثوبة والاجر ورفع الذكر في الآخرة والاولى . ولكنكم بخلتم بأموال الامة عليها واحتجنتموها دونها وأبت لكم هممكم الضعيفة أن يكون لكم كما لأمثالكم من أغنياء الامم الاخرى آثار في بناء المدارس والملاجيء والمستشفيات تسمى بأسمائكم . وتعد من أعمالكم . فتنالون بها ما تريدون من مجد الدنيا والآخرة . فعاقبكم الله على ذلك بأن سلط عليكم من يعبث بعقولكم . ويلعب بأهوائكم . ويرغمكم على الاحسان إرغاماً من حيث يكون له الغنم . وعليكم الغرم . فلا ذكراً حصلتم . ولا مالاً حفظتم . وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون

الرسائل

كتاب فى التقاضى

أنا إن سألتك حاجتى أعزك الله و بسطت اليك يد رجائى فقد طرقت باب المكارم . واستمطرت غيث المراحم . و رجوت واحد الدهر همة وحزما . ونادرة الوجود كرما وفضلا . فان أنجزتها فليست أولى الهمم . ولا واحدة النعم . فلكم سبقت الىّ منك أيادٍ تخرس دونها ألسنة الشكر . وتضيق بها جرائد الحصر . ولقد مثلت أبدك الله بين أن أستشفع اليك بذوى الجاه عندك . والزلفى لديك . و بين أن أكل ذلك الى كرمك وفضلك . وماطبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير . وسجايا البر . فرأيت أن الثانية بك أحرى . و بفضلك أجدر . والسلام

كتاب مقاطعة

أتانى كتابك وقد أبلَلت من مرض حبك وصحوت من رقدة طال علىّ الغيب فيها حتى خفت أن تتصل برقدة الموت . فلم ترُعنى روائعك . (١) ولا أجدى عندى اعتذارك . ولا أخذ حديثك من قلبي مأخذه من قبل . ولم أر بين سطورك ذلك النور الذى كان يملأ عينى روعة (٢) . وقلبي هيبة . فالحمد لله الذى أدالنى منك . وأعتقنى من رقك . وكشف لى من مكنونك ما كشف غشاء الهوى عن بصرى . فجفت الدموع التى طالما أذلتها (٣) بين يديك . وقرت العين التى كنت أساهر بها الكوكب شوقا اليك . ولم يبق فى خاطرى من ذكرك الا كما بقى فى قلوب الناس من الوفاء . والحب شجرة يغرسها الامل فى القلب . ثم يغذوها بمائه وهوائه . فلا تزال تشتجر أغصانها . وترف (٤) ظلالها . وترن أطيارها . حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت . ولقد عالجت هذا القلب الشموس (٥) فى الرجوع الى سالف عهدك . وسابق ودك . فجمح جموح المهر الارن (٦) . وركب

(١) أى لم تعجبنى محاسنك (٢) الروعة المسحة من الجمال (٣) أذلتها أهنتها
(٤) رف النبات اهتز واضطرب (٥) شمس امتنع وأبى (٦) المهر الارن

رأسه الى حيث لا مطمع فى أوبته . وله العتبى فيما فعل . فقد ملكنى قياده برهة من الزمان فاسات عشرته . وخفرت ذمته . وأرغمت معاطسه . وركبت به فى سبيلك أخشن مركب . وأنهلته من جفائك وكبريائك شر منهل . فما هو الا أن أمكنته الغرة فانطلق انطلاق السجين من سجنه . والطائر من قفصه . فلا أوبة حتى يؤوب القارظان . ويبلى الجديدان

اذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد * اليه بوجه آخر الدهر تقبل

كتاب تهكم

علمت أن ساسانيا (١) طرق بابك بالامس . وما زال يكيدك ويماحلك . ويتغلغل فى مواضع الضعف من قلبك . حتى خدعك عن نفسك . واقتطف زهرة من روضة مالك . وراح يفتر عن ثغر باسم . ورحت تقرع سن نادم . فما هذا الخلق الغريب الذى تخلقته . وما هذا المذهب الجديد الذى اعتنقته . ومتى أقامك آدم وصيا على أولاده من بعده . تكسو عاريهم . وتشبع جائعهم . على أن الفقراء فى الدنيا كثير قد ضاقت بهم خزائن الارض والسماء فكيف تسعهم خزائنك . وهل بين الدرهم الذى أعطيت . والدراهم التى أبقيت . الا حرف واحد (٢) . فليت شعرى من أين دهيت . ومن أى باب نفذ هذا الشيطان الى قلبك . وإن أخوف ما أخاف عليك أن تكون أتيت من باب تلك الخدعة الشيطانية التى يسمونها الرحمة . فان كانت هى فالخطب عظيم . والبلاء جسيم . فانك حيثما ذهبت . وأنى حللت . لا تقع عينك الا على يد شلاء . ورجل بتراء . وعين عمياء . وصورة شوهاء . وثوب مخرق . وشلو ممزق . وطريح على التراب سقيم . وجسم أعرى من أديم . فان لم تفارق الرحمة قلبك . فارق المال جيبك . فطفت مع الطائفين . وتسولت مع المتسولين .

(١) النسبة الى ساسان وهو رجل كان معروفا بالفقر والبصر والاحتيال على الشيط الصدقات (٢) يشير الى أن الفرق بين مفرد الدراهم وجمعه حرف واحد وهو الالف اللينة فى الجمع ويريد بذلك تعظيم شأن الدرهم وأنه لا يستهان به لان الدراهم وان كثرت فهى ليست إلا درهما على درهم

ثم لا تجد لك راحما ولا معينا . فارحم نفسك قبل أن ترحم سواك . ولا تنس أن تردد في صباحك ومسائك . وفي مستأنف خطواتك . وفي أعقاب صلواتك . كلمة ابن الزيات « الرحمة خور في الطبيعة »

وعلمت أنك دعيت الى وليمة فلان فتحلب لها فوك . ورقصت لها أشداقك . فطرت اليها . ثم وقعت على خبزها وشوائها . وفاكهتها وحلوائها . مثلج الصدر . ثابت القدم . ساكن القلب . طيب النفس . كأنك لا تعلم أنها لذة الساعة ومرارة العمر . وشبع اليوم وجوع الأبد . وأنك إنما طعمت ما في الحبالة من الحب . تأكله اليوم ليأكلك غدا . فمن لك بالنجاة من مضيفك إذا جاءك يوما يتقاضاك دينه وقد حفت به كوكبة من خلانه وصحبه . فطار لمرآه لبك . وتمشى له قلبك في صدرك . وخيرك بين لحم شانك ولحمك . فالفقر إن منحت . والعار إن منعت . وأعجب من ذلك أنك ما برحت الوليمة حتى أخذ المغني مجلسه فسمعت وطربت . ومن طرب شرب . ومن شرب وهب . ومن وهب خرب . ولقد كان لك في انزوائك واعتزالك . واكتفائك بقرصك وزيتك . وخلوتك بصندوقك في كسر بيتك . من حيث لا تزور ولا تزار غناء عن هذه اللقمة التي أسهرت ليلك . وأقضت مضجعك . وأقعدتك على مثل روق الظبي خيفة وحذارا . فإياك والعود إلى مثلها يطل غمك . ويسود عيشك . والسلام

كتاب يأس

كتابي الى سيدي ومولاي والنفس بين جنة من الأمل تغن أشجارها . وترن أطيارها . وتشتجر أغصانها . وتعتنق غدرانها . وهاجرة من اليأس تتلظى نارها . ويعتلج أوارها . وتحول بين الجفون واغماضها . والجنوب ومضاجعها . والقلب يهبط به الخوف فيتمشى بين الاضالع مشية الطائر الحذر . ثم يدركه الأمن فيقر في مستقره . قرار الماء في نهاية منحدره . والحال كحال هذه الدنيا تضطرب ما بين فرح وهم . وسرور وحزن . وقبض وبسط . ومد وجزر . أذكر الله ورحمته واحسانه . ورأفته

وحنانه . فيشرق لى من خلال ذكراه وجه الحياة الناضر . وثغرها البارق . وجمالها الساطع . و بشرها الضاحك . ثم اذكر الدهر وصروفه . والعيش وحتوفه . والايام وما أعدت فى طياتها لبنيها من عثرات . فى الخطوات . ونكبات . فى الغدوات والروحات . وما أخذته من العهد على نفسها من الوقوف بين النفوس وآمالها . والقلوب وأمانيها . فألمس صدرى بيدى لأعلم أى مكان قلبى من أضالعى . ثم أثنى على كبدى من خشية أن تصدعا . فليت الله يصنع لى فيمطر علىّ قطرة واحدة من غيوث رحمته واحسانه أبلّ بها غلتى . وأطفئ بها لوعتى . أوليت القدر ينشب أظافره بين سحرى[1] ونحرى نشوباً لا يستبقى بعده عرقاً نابضاً . ولا نفساً مترددا . فيستخلصنى من موقف أنافيه كالمريض المشرف الذى لاهو حىّ فيرجى . ولا ميت فيبكى

يقولون ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل . وأقول ما عذب الله عباده بنازلة القضاء . وصاعقة العذاب . وطاغية الطوفان . والزلزال الاكبر . والموت الاحمر . والخوف من الجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات . بمثل ما عذبهم بالامل الباطل . وما ليلة نابغية ضرير نجمها . حالك ظلامها . يبيت منها صاحبها على مثل رَوْق الظبي خيفة وحذاراً . فوق أرض تعزف جنّانها[2] . وتحوم عقبانها . وتزأر سباعها . وتعوى ذئابها . وتحت سماء تتهاوى نجومها . وتتوالى رجومها . وتتراكم غيومها . بأسوأ فى نفسه أثراً من رجاء كاذب يتردد بين جنبيه . تردد الغصة بين لحييه . لاهى نازلة فيطعمها . ولا صاعدة فيقذفها

قد أصبحت أحسد الوحش الهائمة على وجوهها فى بطون الأودية . وقنن الجبال أن أراها سارية فى مساربها . سارحة فى مسارحها . تتناول رزقها رغداً من بوارق المصادفات . ومفاجآت التقادير . لا يعنيها الاسف على فائت من العيش . ولا يقلقها الطمع فى آت من الرزق . قد قنعت من الماء بالكدر . ومن العيش بالجشب[3] . فتساوى لديها شحمها ولحمها . وشيحها وقيصومها . وسعدها ونحسها . ونعيمها وبؤسها .

---

(١) السحر الرئة (٢) جمع جان (٣) الجشب الخشن من الطعام

فما تحفل بنوازل القضاء . ولا رجوم السماء . ولا تبالى أسقطت على الموت أم سقط الموت عليها

فمن لى بهذا العيش من عيش مثلى فيه كمثل رجل عثرت به قدمه فسقط فى جوف بئر بعيد غورها . نائ مكانها . فما زال يتخبط ويضطرب . ويهب ويثب . حتى عثر بمرقاة علق رجله بها ثم تلمس أخرى غيرها فما وجدها حتى بلغ منه الجهد أو كاد . فلم يصبر على الثانية صبره على الاولى فسقط فخاف الغرق فعاد إلى تلمسه . فعاد إلى سقوطه . فلا هو بالغ رأس البئر فينجو من الموت . ولا هو بالغ قرارة الماء . فينجو من الشقاء

إضرب بطرفك حيث شئت من الناس هل تبصر إلا صريعاً صرعه أمله . أو قتيلا قتله رجاؤه . أو صديقاً يشكو غدر صديق كان يعده لنوائب الدهر فأصبح عون النوائب عليه . أو باكياً يبكى وليداً كان يرجوه لمستقبل دهره ففجعته الايام فيه . أو ساعيا دائباً وراء غاية يطلبها من الدهر فلا يقرب منها حتى تبعد . ولا يمسك بها حتى تفلت من يديه . أو ساهراً متململا لولا أمله أن تنيله الايام ما يشتهيه من هواه ما بات ليله شاكياً باكياً . داعياً مناجياً . لا تراه إلا عين السماء . ولا تسمعه إلا أذن الجوزاء

هذه حالى . وذلك همى . وهذا ما وسوس لى أن اعتزل الناس جميعاً وأفارق عشيرتى وصحبتى . و يراعى ومحبرتى . علنى أجد فى البعد عن مثارات الامانى ومباعث الآمال راحة اليأس . فاليأس خير دواء . لأمراض الرجاء

فها أنذا قابع فى كسر بيتى لا مؤنس لى إلا وحشتى . ولا أنيس إلا وحدتى . أتخيل البيت قبراً . والثوب كفناً . والوحشة وحشة المقبورين فى مقابرهم . لا عالج نفسى على نسيان الحياة . وأمانيها الباطلة . ومطامعها الكاذبة . حتى يبلغ الكتاب أجله . وهذا آخر عهدى بك و بغيرك والسلام

الكلمات

الجرائد

لا أرى الجرائد في مصر الا نادياً من أندية القمار ولا هؤلاء الكتاب الا جماعة من اللاعبين قد وضعوا رءوس المصريين على مائدة الألعاب كما توضع الأكر على طاولة « البلياردو » . ثم داروا حولها يلعبون بها ويتدافعونها فيكسبها في الصباح زيد . ويخسرها في المساء عمرو . وربما لا يأتي آخر الليل حتى يدور النحس دورته عليهم جميعاً . فيخسرها الكل ويكسبها صاحب النادي

عبد الحميد

حضرت منذ أشهر قلائل تمثيل رواية في مرسح عربي اختتمها جوق التمثيل بنشيد للسلطان عبد الحميد يصفه فيه ناظمه بالعدل والرحمة والرفق والاحسان ويدعو له بسلامة عرشه . وطول بقائه . فما سمع الناس اسمه حتى هتفوا له هتافاً يصم المسامع وصفقوا له تصفيقاً كاد يضم أضلاع المرسح بعضها إلى بعض . وحضرت ليلة أمس منظراً من مناظر الصور المتحركة فرأيتهم يمثلون ذلك السلطان بعينه رجلاً ظالماً سفاحاً ضعيف الهمة ساقط النفس زمن المروءة جباناً مستطاراً . ورأيتهم قد عمدوا الى صورته فجعلوها مواطىء أقدامهم . ومضارب سيوفهم . فما رأى الناس هذا المنظر حتى راق في أعينهم وابتهجوا لمرآه ابتهاجاً ملأ فضاء صدورهم . فتمشى في أعصاب أدمغتهم . حتى وصل الى أعصاب أيديهم . فصفقوا له تصفيقاً شديداً بتلك الاكف التي رأيتهم يصفقون بها في مرسح التمثيل

أنا لا أعلم إن كان عبد الحميد ظالماً أو عادلاً . كريماً أو لئيماً . شريفاً أو وضيعاً . وانما أعلم أنني سأموت قبل أن أقف على حقيقة تاريخية في أمره ما دام الناس عامتهم وخاصتهم . كتابهم وشعراؤهم . علماؤهم وجهلاؤهم . هم الناس الذين يقول فيهم القائل

والناس من يلق خيراً قائلون له ❊ ما يشتهي ولأم المخطىء الهبل

الشهرة والفضل

لا يمكن أن تكون الشهرة بحال من الاحوال ميزانا للفضل فى مصر خصوصاً فى عالم الادب . ولن يجرى الفضل والذكر فى ميدان واحد إلا اذا سلم السباق من كيد العابث وخدعة الاريب . وأنى لنا ذلك وفى شعراء مصر من يغتصب الشهرة اغتصابا ويلزقها بنفسه إلزاقاً ويتزع اليها بوسائل لو عرفها الناس لأنزلوه منزلته . وألبسوه حلته . بينا ترى الآخر قد قنع من أدبه بلذة نفسه . وامتاع وجدانه . فلا يترنم بقصائده فى المنتديات والمجامع . ولا يبتاع من الصحف الاسماء والالقاب . ولا يستخدم الكتاب لاطرائه والاشادة بذكره . ولا يتمم ما يجده من النقص فى أدبه بالغض من أدب غيره . فترى للاول فى هذا البلد الساذج دوياً كدوى الرعد . وترى الآخر مطرّحا مجفواً لا يؤبه له . والدر فى الصدف أغلى قيمة وأرفع قدراً من جميع ما على وجه الارض من ألواح البلور . وإن كان ملء العيون حسناً وبهاء . ورونقاً وماء

موت العظماء

لا أحسب أن الله تعالى يريد بمصر خيراً وهو يكور شموسها شمساً شمساً . ويستنزل كواكبها كوكباً إثر كوكب . ولا أحسب أن المنايا كما يقول الاعشى خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر ويهرم . بل هى ناظرة مبصرة عالمة بما تأخذ وما تترك . ولو كانت عشواء كما يقول الاعشى لاعجزها الاختيار . وأخطأها الانتخاب . ولداولت بين الاخيار والاشرار . والابرار والفجار

ليست هذه العشرة الملايين التى نراها الا أطفالا رضع . وسوائم رتع . لولا علماؤها وأذكياؤها الذين يقودونها الى الخير ويأخذون بيدها فى ظلمات الحياة

أستغفر الله فالعلماء كثير والاذكياء أكثر منهم . وإنما عماد الامة وقادتها رجالها

---

(١) كتبت لمناسبة وفاة كثير من العظماء فى أوقات متتالية كالشيخ محمد عبده والشيخ الشنقيطى ومحمود باشا سامى البارودى وقاسم بك أمين وحسن باشا عاصم

العظماء العقلاء الذين وهبوا أنفسهم لها هبة خالصة غير مسترجعة . و باعوا فى سبيلها منفعتهم وسعادتهم . وأرواحهم وأموالهم . وهم هم الذين يعجل اليهم الموت و يعصف بهم ريب المنون

كأن رجال مصر فى هذا العصر العقد المنظوم وهى سلكه فانقطع وتناثرت حباته متتالية متتابعة . أو الدائرة الشمسية سقط منها كوكب فاختل نظام التجاذب بين كواكبها فهوت فى الفضاء . وطارت فى الاجواء . لا يلوى بعضها على بعض

فكاهة

حدثنى بعض الاصدقاء أنه دخل فى أيام الحرب الروسية اليابانية حانوت حلاق معروف بالثرثرة أكثر من أفراد طائفته ليحلق له رأسه . وكان عنده جماعة من زائريه فأجلسه على كرسى أمام مرآة وأمسك بالموسى وأنشأ يحلق له رأسه حلقاً غريباً لا عهد له به من قبل . فكان يحلق بقعة و يترك إلى جانبها أخرى مستطيلة أو مستديرة وأخرى مثلثة أو مربعة حتى ريع الرجل وظن أن الحلاق أصابه مس من الجنون . فارتعش بين يديه وخاف أن يمتد به جنونه الى ما لا تحمد عقباه . واعتقل لسانه فما استطاع أن يسأله عن سر عمله هذا

فما انتهى من أشكاله الهندسية ورسومه الجغرافية حتى التفت الى جلسائه وقال لهم كأنه يتمم حديثاً سابقاً بينه وبينهم « لاجل فض النزاع بيننا ها قد رسمت لكم خريطة الحرب الروسية اليابانية فى رأس الزبون » هنا طوكيو . وهنا بورأرثر . وهنا انكسر كروباتكين . وهنا انتصر أوياما . وفى هذا الخط مرّ الاسطول الروسى . وفى هذه البقعة تلاقى الاسطولان . وهنا أخذ يتكلم بحدة وحماسة عن شجاعة اليابان وبسالتهم ثم أردف كلامه بقوله « وفى هذه البقعة ضرب اليابانيون الروس الضربة القاضية » وضرب بجُمع يده أمّ رأس الزبون . فقام صارخاً يولول ويهرول مكشوف الرأس يلعن السياسة والسياسيين . والروس واليابانيين

لا أعلم ان كان المحدث هازئاً أو مجداً . وانما أعلم أنه أجاد التمثيل

الاقسام

لا أعرف فرقا بين حنث الحانث فى يمينه . وكذب الكاذب فى حديثه . كلاهما ضعيف المُنة . وكلاهما ساقط الهمة . وكما لا يستطيع الكاذب أن يكون صادقا . كذلك لا يستطيع الحانث أن يكون باراً . وناقض العهد أن يكون وفيا . فخداعٌ من المتكلم أن يزعم أن لأحاديثه من الشأن فى مواقف الاقسام ما ليس لها فى غير تلك المواقف . وأنه يتحرج فى الحنث ما لا يتحرج فى الكذب . فان من يستصغر جرم الكذب لا يستكبر بعده جرماً

الدين

أيها الناشئ : إن من الناس قوماً قد ضعفت نفوسهم عن احتمال ثقل الدين وسلطان أمره ونهيه فخرجوا عليه ونبذوا طاعته . ثم علموا أن الناس سيأخذون عليهم ضعفهم وعجزهم فلم يجدوا معذرة يعتذرون بها اليهم غير دعوى انكار الدين وجحوده استقلالاً وتبرماً لا تقليداً وتمذهباً وماهم بمنكريه ولا جاحديه . فاعلم أن الله سيبتليك بهم وأنهم سيزينون لك انكار ما يزعمون أنهم ينكرونه وسيخيلون لك أنك لن تستطيع أن تبلغ ما تريد من هذه المدنية الحاضرة وأن تنال الحظوة الباسقة فى نفوس أصحابها الا اذا انكرت لدينك وتسلبت منه وخفرت ذمته . فاحرص الحرص كله على أن لا يعلق بنفسك عالق من هذه الخيالات الباطلة . واعلم أنك الى نفسك أحوج منك الى الناس وأن الناس لا يغنون عنك من الله شيئاً إن أنت آثرت مرضاتهم على مرضاته وأن هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء وأنواع الآلام والتى لا يفيق المرء فيها من غمرة الا الى غمرة . ولا يثل من عثرة الا الى عثرة . لا يعين عليها الا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته . وتداركت عثراته . ويستروح من أعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب

الحقيقة

قال لى بعض الناس إن قوماً يغرقون فى مدحك فهلا زجرتهم . فقلت له ان آخرين قد أغرقوا فى ذمى فلم أصنع شيئاً . فدع الاكاذيب يقرع بعضها بعضا فربما استطارت من تلك المعركة شرارة تضىء للناس مكان جوهرة الحقيقة المذالة تحت الاقدام فيلتقطونها

أمس واليوم

مثلنا ومثل آبائنا الاولين من قبل طلوع شمس هـذا التمدين الحديث ومن بعـده كمثل رجل ضل به طريقه في ليلة ليلاء غدافية الاهاب . حالكة الجلباب . قد تجسد ظلامها حتى كاد يلمس بالراح . فانقلب جوهراً بعد إذ هو عرض . فأصبح كأنما هو فحم سائل . أو مداد جامد . فأنشأ هذا الضال المسكين يخبط في ذلك الديجو ترفعه النجاد . وتخفضه الوهاد . لا يرى علماً فيهتدي به . ولا يتنور نجماً فيعتمد في سراه عليه

وانه لكذلك قد استوت في نظره الجهات الست فسماؤه أرض وأرضه سماء . و وراءه أمام وأمامه وراء . وإذا بقرن الشمس قد نجم في جبهـة الافق وأفرغ في ناظره المملوء بالظلمة قطرات ملتهبة من ذائب أشعته اللامعة . فعشا بعد أن كان بصيراً . فما أغنى عنه ذلك الضياء شيئاً . وما زال في ضلاله القديم . إلا أن ذاك ضلال الظلام . وهذا ضلال الضياء . وهو أضل الضلالين . وأقتل الداءين . فان ضلال الظلام يتخلله بريق الأمل في الضياء . فأما وقد أصبح الدواء داء . فلا أمل في الشفاء

لو بغـير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

دمعة على الادب

مات بالامس امام الشعر البارودي وامام النثر محمد عبـده فجزعنا ما جزعنا . وسكبنا عليهما من الدموع ما سكبنا . ثم كففنا من تلك الدموع . وخفضنا من زفرات الضلوع . حينما سمعنا قول القائل إن في الباقي عزاء عن الفاني . وإن في الابناء خلفاً من الآباء . ولقد كر على موتهما الشهر بعـد الشهر . والدهر أثر الدهر . والادب جاث في مكمنه جاثم . لم يبعث من مرقده بعد ما قبرناه . ولم ينشر من قبره بعد ما واريناه . فتساءلنا أين الباقي الذي يزعمون . والخلف الذي يذكرون

أين فطاحل اللغة الادبية لا السياسية . وأرباب الاقلام العربية لا الاعجمية

عـذرنا المويلحي الكبير واليازجي لانهما ماتا ولحقا بصاحبيهما . فهل مات شوقي وحافظ والبكري والمويلحي الصغير

مامات منهم أحد وانما كانت حياة الرجلين . حياة الصناعتين . وكان لوجودهما سر من الاسرار ينبعث في الالسنة فيطلقها . والاقلام فيجريها . وكانت منزلتهما من الاحياء . منزلة الام من مصابيح الكهرباء . تشتعل المصابيح بتيارها . وتضيء بأسرارها . فاذا فرغت مادتها وانقضى أجلها عم الظلام واشتد الحلك والمصابيح كما هي جسم بلا روح . ولفظ بلا معنى

أما شوقي فقد طار في جو غير هذا الجو . وهام في واد غير ذلك الوادي . ومازالت تعبث به الانواء . حتى أغرقته في شبر من الماء . وأما حافظ فقد انقضت حياته النثرية قبل انقضاء البؤساء . أما حياته الشعرية فلم يبق منها غير نظم المقالات السياسية من العام إلى العام . وأين هذه القيثارة البسيطة ذات اللحن الواحد من ذلك العود الاجوف الرنان الذي كنا نسمع منه مختلف الالحان . وأفانين الاشجان . وأما البكري والمويلحي فقد قضيا حق التأليف . هذا بصهار مجه . وذاك بفترانه . ثم لحقا بالسابقين . ومضيا على أثر الماضين

أين سكانك لا أين لهم أحجازا أوطنوها أم شآما

أين الروضة الغناء التي كنا نتفيأ ظلالها . ونهصر أغصانها . ونقطف ماشئنا من ورودها ورياحينها . وأين البلابل التي كانت تتنقل بين أشجارها فتطرب بالاغاريد . وتستهوي بالاناشيد

فاسألنها واجعل بكاك جوابا تجد الدمع سائلا ومجيبا

أنا لا أعجب لشيء عجبي لهؤلاء الادباء . يحزنون فلا يبكون . ويطربون فلا يضحكون . ويتألمون بلا أنين . ويعشقون بغير حنين

أيطرب البلبل فيغرد . ويشجى الحمام فينوح . ويطرب الشاعر أو يشجى الكاتب فلا ينطق لسانه ولا يهتز قلمه

لما أسن عمر بن أبي ربيعة ورأى أن الغزل والتصابي غير لائق بشيبه ووقاره عزم على هجره فما استطاع إلى ذلك سبيلا وغلب على أمره كما تغلب المرء غرائزه وسجاياه . فاحتال لذلك بأن حلف أن لا يقول بيتا من الشعر إلا أعتق رقبة . فشكا إليه رجل حبا برح به فحن

واهتاج ونظم أبياتا فى شأن الرجل و وجده ثم أعتق عن كل بيت رقبة

فهل نذر أدباؤنا ما نذر عمر بن أبى ربيعة وهم فى شرخ الشباب و إبان الفتوة . إن كانوا فعلوا ذلك فأسأل الله لهم قصة كقصة عمر تهيج أشجانهم فتحنث أيمانهم . والامة كفيلة لهم بوفاء النذو ر وكفارات الايمان

وذو الشوق القديم وان تعزى مشوق حين يلقى العاشقينا

الانتقاد

بين نقد المؤلفات هنا ونقدها هناك فرقان . أحدهما يتعلق بالناقد والآخر يتعلق بأثر النقد فى الاذهان . أما الاول فهو أن الناقد هناك ينتقد الكتاب من حيث ذاته . فلو لم يكن للكتاب صاحب لانتقده . وهنا ينتقده باعتبار شخص مؤلفه . أى أنه لا ينتقد الكتاب بل صاحب الكتاب فى كتابه . وأما الثانى وهو أثر طبيعى للاول فهو أن للانتقاد هناك أثراً ظاهراً فى الكتاب من حيث رواجه وكساده . وشهرته وخموله . فكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله . وهنا يمر الانتقاد بالاذهان مرًّا فلا يبقى من آثاره فيها إلا أثر واحد . وهو أن الكتاب جليل القدر سنى القيمة ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفل . لذلك رأيت كثيراً من عقلاء الناس لا يرضون عن أنفسهم فى هذا البلد إلا إذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم . بل رأيت من يتوسل إلى أحد الناقدين أن ينتقد مؤلَّفه . بل رأيت من يبلغ به الامر أن ينتقد كتابه بنفسه بتوقيع منحول . أولئك الذين يعرفون قيمة المنتقدين عندنا وأثر انتقاداتهم فى نفوسنا . أما الذين يغضبهم الانتقاد و يحرج صدورهم فهم الذين لا يعرفون من هذا ولا ذلك شيئاً

﴿ تم الجزء الاول من النظرات ويليه الجزء الثانى ﴾

فهرست

الجزء الأول من كتاب النظرات

﴿ تمت الفهرست ﴾